



اشتركوا في الامام علي بن النضر العجزي

حتى نهاية القرن الثاني للهجرة

الحسن البصري وابن المقفع إلهاماً



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية

١٣٥٢ لسنة ٢٠١٦ م

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda.

رقم تصنيف LC: BP38.09.N7 T3 2016.

المؤلف الشخصي: الطالقاني، ضياء طعمة عبد الحسين.

العنوان: أثر كلام الإمام علي (عليه السلام) في النثر العربي حتى نهاية القرن الثاني للهجرة: (الحسن البصري وابن المقفع إنموذجا).

بيان المسؤولية: تأليف ضياء طعمة عبد الحسين الطالقاني؛ تقديم سيد نبيل قدوري الحسني.

بيانات الطبعة: الطبعة الأولى.

بيانات النشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - مؤسسة علوم نهج البلاغة.

١٤٣٧هـ = ٢٠١٦م.

الوصف المادي: ٤٧٢ صفحة.

سلسلة النشر: مؤسسة علوم نهج البلاغة.

تبصرة عامة:

تبصرة ببليوغرافية: يتضمن هوامش - لائحة المصادر (الصفحات ٤٢٥ - ٤٦٦).

تبصرة محتويات:

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، ٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ هجريا - سيرة.

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، ٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ هجريا - النثر العربي.

موضوع شخصي: الحسن البصري، ٢١ - ١١٠ هجريا - تأثر.

مصطلح شخصي: ابن المقفع، عبد الله، ١٠٦ - ١٤٢ هجريا - تأثر.

مصطلح موضوعي: النثر العربي - تاريخ ونقد.

مؤلف إضافي: الحسني، نبيل قدوري حسن، ١٩٦٥م، مقدم.

عنوان إضافي: نهج البلاغة. شرح.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

أَشْرَافُ كَلَامِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي النَّبْتِ الْعَرَبِيِّ
حَتَّى نَهَايَةِ الْقُرْنِ الثَّانِي لِلْهَجْرَةِ

الحسن البصري وابن المقفع إنموذجاً

تَأَلَّفَ

ضِيَاءُ طُعْمَةِ عَبْدِ الْحُسَيْنِ الطَّالِقَانِي

إِذَا زَارَ
مُؤَسَّسَةَ كَلَامِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي النَّبْتِ الْعَرَبِيِّ
فِي الْعَبِيدِ الْحُسَيْنِيِّينَ الْمُقَامِ

جميع الحقوق محفوظة
للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م



العراق: كربلاء المقدسة - شارع السدرة - مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام

مؤسسة علوم نهج البلاغة

هاتف: ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠ ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣

الموقع: www.inahj.org

Email: Inahj.org@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء بما قدّم من عموم نعمٍ ابتدأها
وسبوغ آلاء أسداها والصلاة والسلام على خير النعم وأفضلها محمد وآله الأخيار
الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

أمّا بعد:

لو أنصف أهل العلم والفكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لوجدوا أثره في
جميع الحقول المعرفية إن لم يكن له النصيب الاوفر والسهم الأعظم في البعض منها وما
هذه الرسالة الموسومة بـ (أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التراث الأدبي) إلا واحدة
من الدراسات المنصفة التي تستنهض الأقلام العلمية للكتابة في أمرين مهمين:

أولاً: حجم الظلم الذي جناه كثير من المصنفين في المعارف والعلوم الإسلامية ولا
سيما أهل الأدب واللغة من خلال تغييب كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

٦ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

وتحويله بالنسبة إلى غيره تجريباً على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والأمر الآخر، انتهاك حقوق الملكية الفكرية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فيما لو عملت به المنظمات الحقوقية في عالم اليوم.

ونحن من هذه المؤسسة التي تعنى بعلوم كتاب نهج البلاغة وحياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وفكره ومن هذا البحث الموسوم الذي يعدّ مادة وثائقية تثبت وقوع هذه السرقات في مجالها المعرفي ندعوا الباحثين والعاملين في مجال حقوق الملكية الفكرية الى اعتماد هذه القضية وبيان حجم السرقات التي وقعت في التراث الإسلامي ومعارفه العديدة والتي تعود في اصلها الى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وتمت سرقتها ونسبتها الى غيره، وهو القائل عليه السلام: «نحن الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً».

فجزى الله الباحث عن عمله في هذه الدراسة كل خير، فقد بذل فيها جهده لبيان حق من حقوق الإمام علي عليه السلام في هذا الحقل المعرفي، وآخر دعوانا (أن الحمد لله رب العالمين).

لشيخنا العلامة قاري جنت الحسنى

رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين حمداً لا يحصي عدده العادون، ولا يبلغ كنهه المجتهدون، حمداً دائماً، يصعد أوّله ولا ينتهي آخره، والصلاة والسلام على خير الأنام محمّد وآله الكرام.

وبعدُ ... فإنّه من دواعي البهجة والسرور أن نقدّم دراسة تخصّص كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) دراسة لم يسبق أن دُرِس هذا الكلام بمثلها، فكانت تحت عنوان «أثر كلام الإمام علي (عليه السلام) في النثر العربي حتى نهاية القرن الثاني للهجرة».

وقد علمت يقيناً أنّي بهذه الدراسة كراكب الصعبة لأمرين هما: إنّ دراسة الأثر والتأثير دراسة شاقة، وعمادها الأساس هو الباحث - أي باحث - الذي يتولّى هذه المهمة.

والأمر الثاني إنّ التنقيب عن أثر كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في النثر مشقة وجسامة أخرى، كون هذا الكلام هو ترجمان للقرآن الحكيم، ولكلام النبي الكريم (صلى الله عليه وآله).

٨ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

بمعنى إنّ بين هذا الثلاثي شبه كبير جدًّا، وعليه من الصعوبة بمكان فرز أثر النص القرآني عن أثر النص النبوي عن أثر النص العلوي.

وبعد أن جعلت الله حسبي في أموري كلّها، فهو المدعو للمهمات، وهو المفزع في المهمات، فتحت أمامي طرق لم أكن أتوقعها أفضت إلى اكتشاف أثر مهيب لكلام الإمام عليه السلام على جميع الكتاب الذين قرأت لهم مدّة الدراسة.

وبعد هذه النتائج التي حصلت عليها من عشرات الكتاب، قدمت للدكتورة المشرفة خطة توزّعت على تمهيد وخمسة فصول، وبعد المناقشة والتعديلات أذنت لي وشرعت بالكتابة على هذا الأساس، ولكن عند وصولي إلى الفصل الثالث لاح لي أنّ الرسالة - بالفصول الثلاث - تقلّ أو تنيف على الثلاثمائة صفحة. وهنا كنت أمام خيارين:

الأول:

الانتقاء من النصوص المتأثرة التي جمعتها، بسبب عدم إمكان بث هذه النصوص في رسالة أو أطروحة واحدة، بل الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك، وهذا الخيار لم أفضله لأنّ النصوص التي تبقى بعد الانتقاء - وهي الأكثر بكثير - لا يمكن أن تُدرس من جديد على اعتبار أنّ المدّة الزمنية التي ينتمي إليها النص دُرست بهكذا دراسة.

الثاني:

الاكتفاء بما كتبه عن الحسن البصري وابن المقفع، علماً أنّ أيّاً من الأديبين ينهض بدراسة تامة، لكنّي فضلت الجمع بينهما - بعد أن اختصرت من كلامهما المتأثر أيضا - من أجل تعزيز احدهما بالآخر، لأنّ هذا التعزيز يعزز بدوره أثر كلام الإمام من جهة، ومن جهة أخرى حتى لا يكون هنالك إشكال أو تساؤل

مفاده لماذا تأثر الأديب الفلاني دون غيره بكلام الإمام عليه السلام.

وهذا الخيار الثاني هو الذي فضّلته وحاورت به الدكتورة المشرفة فوجهتني ثم تفضلت عليّ بالموافقة، فأصبح العنوان بحلته النهائية «اثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي حتى نهاية القرن الثاني الحسن البصري وابن المقفع أنموذجاً». وكان قد حصل هذا في الشهر الثامن من عام ٢٠١٢ م.

وبخصوص باقي النصوص المتأثرة التي تمّ جمعها من نشرٍ عائِد لعشرات الكتاب وعددها بالمئات ندّخرها لدراسات لاحقة بعونه تعالى.

أمّا المنهج الذي اتبعته، فكان على النحو الآتي:

التمهيد:

وفيه تمّ التعرض لمفهوم الأثر والتأثير في اللغة والإصطلاح.

أمّا الفصل الأول فكان تحت عنوان «كلام الإمام علي عليه السلام من حيث التوثيق والتأثير».

ونحن هنا ندرس أثر كلام الإمام عليه السلام في القرن الأول والثاني كان لزاماً علينا أن نبيّن هل كان الكلام الذي يُدرس أثره مجموعاً ومحفوظاً ومدوّناً حتى يُقرأ ويؤثّر أم لا؟ فإن كان الجواب بنعم، فهذا يعني إنّنا قطعنا شوطاً مهماً وتوصلنا - مبدئياً - إلى فاعلية هذا الكلام وتأثيره، وإلاّ لماذا أهتمّ بجمعه في ذلك الزمن المبكر جداً. فكانت هذه النقطة الأولى من المبحث الأول.

ولمّا عثر الباحث على بعض الأدلة القطعية التي تُسهّم في دحض الشبهات التي وُجّهت لبعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام، آثر أن يسجلها ويردّفها بأدلةٍ أخرى خاض غمارها الباحثون مسبقاً، فكانت هذه النقطة الثانية من المبحث الأول.

١٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ونحن نخوض غمار اثر كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان من الواجب أن نقف على جمالية هذا الكلام، وأسبابها، وما قيل فيها قديماً وحديثاً. ولهذا خُصّص المبحث الثاني.

وجاءَ الفصل الثاني معنوناً بـ «أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نثر الحسن البصري».

وعلى وفق المادة التي تم جمعها تمّ تقسيم هذا الفصل على أربعة مباحث:

الأول:

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في خطب البصري.

والثاني:

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسائل البصري.

ولما وجدنا البصري قد أتى على أكثر من خطبة علوية كاملة وفرّقها في نصوصٍ عدّة آثرنا أن نورد شاهداً حياً على هذا الفعل، فكان ذلك في المبحث الثالث، وتحت عنوان «أثر خطبة المتقين للإمام علي عليه السلام في نثر الحسن البصري».

الرابع:

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في مواعظ البصري،

وتجدر الإشارة هنا إلى الباحث مع كونه سار على تقسيم الأثر إلى مظاهره المتعددة التي تشخص ضمن النتاج النثري لكلا الأديبين وبنقاط مستقلة، إلاّ أنّه رأى من المستحسن عدم إفراد كلّ مظهر - في المباحث الثلاثة الأولى - بنقطة منفصلة، لأن رسائل البصري وخطبه - وعلى طولها - ما هي إلاّ جمع من كلام الإمام عليه السلام فكان يجعل مقدمة الرسالة - مثلاً - من نصّ علوي كأن يكون بالمعنى، ثم ينتقل إلى نصّ آخر فيورده بنصّه، وإلى ثالث يورده بإيجاز... وهكذا.

فكان الأمر - والحال هذه - إذ قُسمت الرسالة إلى أجزاء، جزء منها في نقطة التضمين، والثاني في نقطة أخرى... تكون النتيجة عدم تبيان الأثر العلوي بطريقة تبين ما فعله البصري كدراستنا لتلك الرسالة دون أن نجزّها، وعلى هذا فضّلنا - طمعاً في بيان الأثر أكثر - أن نشير إلى هذه المظاهر ضمناً، وذلك عندما نتسلسل بالرسالة أو الخطبة.

وتكفل الفصل الثالث والآخر ببيان «أثر كلام الإمام (عليه السلام) في نشر ابن المقفع»، وجاء هذا الفصل مقسماً على أربعة مباحث رئيسة هي:

الأول:

أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير، وكان هذا الأثر قد ظهر بمظاهر هي:

أولاً: التضمين بنوعيه النصي والمحمور.

ثانياً: التلفيق.

ثالثاً: البسط.

رابعاً: الإيجاز.

الثاني:

أثر كلام الإمام (عليه السلام) في رسالة الأدب الصغير. وكان ظهور هذا الأثر بمظاهر لا تختلف عن سابقتها.

الثالث:

أثر كلام الإمام (عليه السلام) في رسائل أخرى لابن المقفع، وكان ذلك في نقاط ثلاث:

أولاً: أثره في رسالة الصحابة.

ثانياً: أثره في رسالة الدرة اليتيمة.

ثالثاً: أثره في رسائل متفرقة أخرى لابن المقفع.

وهذه الرسائل لقصرها لم تقسّم بحسب التقسيم السابق، بل تمت الإشارة لنوع الأثر فيها ضمناً.

الرابع:

تكرار ابن المقفع لكلام الإمام عليه السلام.

وكانت الخاتمة آخر رحلة البحث، حيث ضمت نتائج عدّة توصلت إليها الدراسة.

وبعد هذا فإنّ من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق، لذا لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل للمشرفة الأستاذة المساعدة الدكتورة جنان الجبوري لرعايتها وتوجيهاتها ووقوفها مع الباحث ونصرتها إياه في يوم عزّ فيه الناصر.

كما أتقدم بالشكر الموصول لفضيلة الأستاذ المساعد الدكتور علي كاظم المصلاوي باذر بذرة الرسالة، وها هي إحدى ثمراتها بين يديه السخيتين.

كذلك الشكر للأستاذ الدكتور الأديب عبود جودي، فهو ممّن شجّعني على هذه الدراسة، حيث قال لي عندما شكوت له رفض الموضوع: «يا بنيّ موضوعك جميل فتمسك به».

وأشكر الأستاذ الدكتور أحمد شاكر غصيب أستاذ الأدب الإسلامي في جامعة بغداد، فهو أشعل بداخلي جذوة مميزة لما كتب لي عندما طلبت منه

استشهاداً «الموضوع في غاية الروعة والجمال، وسيكون دراسة تأسيسية لما بعده من دراسات» وأشكره مجددًا أينما حلّ وارتحل.

كذلك أقدم شكري وامتناني لسماحة الخطيب الشيخ عبد الحميد المهاجر، فهو أسهم إسهاماً فعالاً في هذا الموضوع - وإن كان لا يدري - كوني حفظت بعض كلام الإمام علي (عليه السلام) بسببه، فكان حفظي لهذا الكلام هو من أعانني وجعلني أشخصه لما كنت أفتش عنه في خبثات النثر العربي.

وأخيراً فإنني من أناسٍ سجيّتهم النقص، وحليفهم التقصير والقصور، فأدعو الله وأوليائه، وأرجو من القراء المعاملة باللطف لا بالعدل، والحمل على التفضل لا على الاستحقاق، وصلى الله على محمد وآله الأطيبين الأطهريين.

التمهيد

مفهوم الأثر والتأثير والتأثر في اللغة والإصطلاح:

تعود هذه المسميات الثلاث على وفق ما أشارت إليه المعجمات اللغوية إلى الفعل الثلاثي (أثر). قال الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ): «الأثر بقية ما يرى من كل شيء... والأثارة البقية من الشيء والجمعُ أثارَات، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾^(١)»^(٢).

أمّا ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، فقال: «الأثر بقية الشيء... وخرجت في أثره وفي أثره أي بعده... والتأثير إبقاء الأثر في الشيء، وأثر في الشيء: ترك فيه أثراً»^(٣). وأثره عليه فضله. وفي التنزيل:

(١) الأحقاف ٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة ١ / ٥٤ - ٥٥ باب (أثر).

(٣) لسان العرب ٤ / ٥ مادة (أثر).

﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾^(١)»^(٢).

وبعد هذا ومن خلال هذه التعريفات اللغوية نستنتج أنَّ التأثير له علاقة مباشرة بالتفصيل، أي أنَّ درجة التأثير تتوقَّفُ على درجة التفصيل؛ فكلِّما كان هذا التفصيل أكثر كان أثره أبلغ وأبين على المتأثر الذي يسعى جاهداً من أجل تسخيره في عمله، متَّبِعاً من أجل ذلك طرقاً عدَّة هذا - بالطبع - إذا كان المتأثر أدبياً.

والأمر الآخر الذي يمكن إستنتاجه هو أنَّ هذا الأثر الباقي يمكن أن يُرى أو لا يُرى^(٣). وهذا الإستنتاج مناسب تماماً لو طُبِّق في ميدان الأدب، كون الأثر الأدبي يُقسم على قسمين:

القسم الأول:

الأثر الظاهر، أو هو ذلك الأثر الذي يُرى كالإقتباس، والتضمين...

القسم الثاني:

الأثر غير الظاهر وهذا الأثر - بطبيعة الحال - لا يُرى ولكن يحتاج إلى بصيرة نافذة لإثباته.

وللتدرج في معرفة هذه الظاهرة لأبد من معرفة إنَّها ظاهرة طبيعية، لا غنى للإنسان عنها، فهو بطبعه كائن اجتماعي جُبِل على هذا الأمر، فمرةً يؤثر وأخرى يتأثر بالآخرين - وبشتى الوسائل - لأنَّه ومهما أوتي من قوة لا يستطيع تكوين

(١) يوسف ٩١.

(٢) لسان العرب ٤ / ٧ مادة (أثر).

(٣) ينظر التأثير والتأثر في النص النقدي العربي ٤.

نفسه «من لا شيء»^(١)، بل لا بُدَّ له من معينٍ يعينه بُغية ذلك التكوين. والذي يهمننا هنا هو التكوين الأدبي، وهذا ما دعا إليه كبار النقاد العرب، وأسموه بالثقيف مرّة، والتمرس بما جاءت به قرائح الفحول من الأدباء أخرى، إذ أنّ هذا الثقيف أو التمرس بتلك الآثار، وبطرق عدة: حفظاً، ورواية، ودراسة، لا شك بأنها من أهمّ الروافد التي تسهم في تكوين الأديب و «تُظهر التأثير والتأثر على سطح نتاج الشاعر مهما حاول إخفاءه، فهو مدينٌ لغيره فيما سيبلغ أو بلغ من منزلة شعريّة»^(٢).

وكان من أوائل أولئك النقاد الذين دعوا إلى إفادة اللاحق من كلام السابق هو الناقد الدّوّاقه^(٣) - مثلما سمّته هند حسين طه - ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ)، والذي كثيراً ما كان يؤكد على هذه المسألة، فقد كان معتقداً ومقتنعاً بأنّ الأدباء الذين عاصروهم في محنة وهذه المحنة عبّر عنها بقوله: «والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم، أشدُّ منها على مَنْ كان قبلهم، لأنّهم قد سُبِقوا إلى كلّ معنىٍ بديعٍ، ولفظٍ فصيحٍ، وحليةٍ لطيفةٍ، وخلاصةٍ ساحرةٍ....»^(٤).

ويبدو أنّ هذه الأزمة أو المحنة التي مرّ بها أدباء زمانه كانت إحدى الأسباب الرئيسة التي حدت بابن طباطبا أن ينصح الأديب في أن «يديم النّظر في الأشعار التي اخترناها لتلصق معانيها بفهمه، وترسيخ أصولها في قلبه، وتصير مواد لطبعه، ويزدرب لسانه بألفاظها؛ فإذا جاش فكره بالشّعِر أدّى إليه نتائج ما استفادها مما نظر فيه من تلك الأشعار، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف

(١) خصام ونقد ٢٥٧.

(٢) أبو العلاء المعري والشعر العربي في الأندلس دراسة تحليليّة في التأثير والتأثر ١١.

(٣) ينظر: النّظريّة النقديّة عند العرب ٢٣٣.

(٤) عيار الشعر ٨ - ٩.

التي تخرجها المعادن. وكما قد أغترف من وادٍ قد مدته سيولٌ جارية من شعابٍ مختلفة، وكطيفٍ تركّب من أخلاطٍ من الطيب كثيرة، فيستغرب عيائه، ويغمض مستبطئه، ويذهب في ذلك إلى ما يُحكى عن خالد بن عبد الله القسري^(١)، فإنه قال: حفظني أبي ألف خطبة ثم قال لي: تناسها، فتناسيتها؛ فلم أَرِدْ بعد ذلك شيئاً من الكلام إلاّ سهّل عليّ. فكان حفظه لتلك الخطب رياضةً لفهمه، وتهذيباً لطبعه، وتلقيحاً لذهنه، ومادةً لفصاحته، وسبباً لبلاغته ولسنه وخطابته^(٢).

فابن طبا طباً في كتابه المذكور الذي يُعدُّ من أخصب الكتب النقدية التي وصلت إلينا^(٣)، يشيرُ صراحةً إلى التمرُّس بتراث الآخر كون هذا التمرس ينتج التأثير الذي يستبين من خلال ما يبقى من أثر.

ولم تغب هذه الفكرة عن ذهن القاضي الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ)، بل أكدها بقوله: «وما زال الشاعرُ يستعينُ بخاطرِ الآخر، ويستمدُّ من قريحته...»^(٤).

أمّا أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فقد عقد فصلاً تحدّث فيه عن حُسن الأخذ وطرقه مؤكّداً من خلاله على ضرورة التأثير بالآخر، مُشبّهاً الأديب المبتدئ بالطفل الذي لا يتعلّم النطق الصّحيح إلاّ بعد استماعه من البالغين، فقال «ولولا أنّ القائل يؤدّي ما سمع لما كان في طاقته أن يقول، وإنما ينطقُ الطفلُ بعد

(١) خالد بن عبد الله القسري أحد الخطباء المشهورين. ولي مكة سنة ٨٩ هـ، والكوفة والبصرة سنة ١٠٥ هـ. سجنه يوسف بن عمر وعذبه، ثم قتلته في أيام الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ. ينظر:

الأعلام ٢/ ٢٩٧.

(٢) عيار الشعر ١٠.

(٣) ينظر: النظرية النقدية عند العرب ٢٣٣.

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٨٥.

استماعه من البالغين»^(١).

وهذا الدور غير المتناهي الذي أعطاه أبو هلال للمُحيط المحيط بالأديب، تنبّه إليه الدكتور طه حسين، ورأى أنّ الفرد لا يستطيع تكوين نفسه «من لا شيء وإنما جاء من أسرته أولاً، ولم يكذب يرى النور حتّى تلقته الحياة الاجتماعية فصورته في صورتها، وصاغته على مثالها وأخضعته لمؤثراتها التي لا تُحصى. فعنصر الفردية فيه ضئيل لا يكاد يحسّ إلا أنّ يمتاز هذا الفرد، وامتيازه نفسه يرد في كثير من الأحيان إلى الحياة الاجتماعية التي أنشأته»^(٢).

أمّا ابن رشيق القيروانيّ (ت ٤٥٦ هـ) - ومن خلال توصياته للأديب - فإنّه بدا موافقاً تمام الموافقة لتوصيات بعض من سبقه من النقاد أمثال: أبي هلال، وابن طباطبا وغيرهم. ومن ذلك قوله: «ولياخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر، ومعرفة النسب، وأيام العرب؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريد من ذكر الآثار، وضرب الأمثال، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوة طباعهم»^(٣).

ويؤكد القيروانيّ هذه المسألة بنص آخر موصياً الشعراء بأن «لا يستغني المولد عن تصفح أشعار المولدين؛ لما فيها من حلاوة اللفظ، وقرب المأخذ، وإشارات الملح، ووجوه البديع الذي مثله في شعر المتقدمين قليل»^(٤).

ومهما يكن من شيء فإنّ هذه الإحاطة بالتراث الأدبي التي دعا إليها النقاد كان القصد من ورائها تكوين نص إبداعيّ جديد «يتمثل إبداعه في بنائه النصوص

(١) الصناعتين ٢٠٢.

(٢) خصام ونقد ٢٥٧.

(٣) العمدة ١ / ١٩٧.

(٤) العمدة ١ / ١٩٨.

٢٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

السَّابِقَة عليه ويتجاوزها طارحاً قوانينه الخاصّة التي يُعادُ توظيفُ النُّصوصِ القديمة من خلالها»^(١).

وإذا ما انتقلنا إلى حازم القرطاجيّ (ت ٦٨٤ هـ) وجدناه يشايحُ أسلافه من النُّقاد العرب مبرزاً هذا الأمرَ بطريقةٍ فيها مسحة فلسفيّة حين جعل للأديب ثلاث قوى - كما يرى الدكتور منصور عبد الرحمن - تكونُ ثمرتها في القوّة الصّانعة، التي تبرز فيها مقدرة الأديب على التّأليف، ولكن هذه القوّة تكون خاضعة لقوّتين سابقتين:

الأولى:

القوّة الحافظة، أي الذاكرة وهذه القوة لا تتأتى للأديب إلّا عن طريق مُخالطة النُّصوص والتّبصُّر بمنهاج القول.

الثانية:

القوّة المائزة، تلك القوّة التي يستطيع بها الأديب أن يتيّن مواضع الجمال وأسبابه، وينتقي منها ما يُلائم الحاجة^(٢).

ولعملية التأثير والتأثر والتي أسماها الدكتور داوود سلوم بـ(الإنقال) ثلاثة حدود تقوم عليها هي:

الحد الأول:

المرسل من الأدب المؤثّر، وقد يكون كتاباً، أو تيّاراً، أو فكرة.

(١) إشكاليات القراءة والتأويل ٢٥٧.

(٢) ينظر: معايير الحكم الجمالي في النقد الأدبي ٢١٠ - ٢١٢.

الحد الثاني:

الأخذ ويقصد به المتلقي، أو هو ذلك النتاج الذي وقَّع عليه التأثير^(١). ويرى الباحث - هنا - أنَّ درجة التأثير تقف وتُحدَّد على أساس هاتين الجهتين أو الحدين، أي بمدى قوَّة الأولى وإبداعها، ومدى إيمان - الإيمان الباطني^(٢) - وتقبُّل الثانية، فكلما كان الإبداع من الأولى أكثر، كان التقبل من الثانية والتأثير عليها أبلغ، ومن ثمَّ كان الأثر أوضح، ويمكن أن نستدلَّ على ذلك بقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ): «فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة...»^(٣).

الحد الثالث:

الوسيط وهو الذي قام بنقل ذلك العمل^(٤). وهذا الحد - مثلما يراه الباحث - ليس حتمياً كالحدين الأولين، إذ نرى كثيراً من الأدباء تأثروا بعضهم بالآخر دون الحاجة إلى هذا الحد، سواء ذلك داخل أدب الأمة الواحدة، أم بين أدبين لأمتين مختلفتين.

(١) ينظر دراسات في الأدب المقارن التطبيقي ٢١.

(٢) يشير الباحث بذلك إلى الجهات الإسلامية التي ناوأ الإمام ﷺ في الظاهر، بينما هم في قرارة أنفسهم يعتقدون صحة منهجه، وعلى ذلك أكثر من دليل ودليل، فعندما دخل ضارُّ بن ضمرة على معاوية طلب منه الأخير أن يصف أمير المؤمنين ﷺ فأبى ضرار، ولكن ألحَّ عليه معاوية فقال ضرار: «... فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، فلقد كان كذلك...»، زهر الآداب ١/ ٧٨.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٦١.

(٤) دراسات في الأدب المقارن التطبيقي ٢٨.

وبعد حدود التأثير تجدر الإشارة إلى الطرق التي من خلالها نتبين أو نحدد ذلك الأثر، والتي يمكن حصرها في طريقتين:

الأولى:

الاعتراف أو التصريح من قبل الأديب المتأثر، بأنه تأثر بأديب ما، ومثال ذلك ما قاله عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) حين سُئِلَ ما الذي خَرَجَكَ في البلاغة، قال: «حفظُ كلام الأصلع»^(١). وبطبيعة الحال يكون هكذا «اعتراف مفتاح البحث المثمر الأكيد»^(٢).

الثانية:

التشابه، أي التشابه بين الأعمال الأدبية، والذي يُعدّ ضرورة لا بُدَّ منها في دراسة التأثير والتأثر، كونها تمثل «نقطة البدء الضرورية التي تُتيح لنا اكتشاف تأثر أو اقتباس، أو غير ذلك، وتتيح لنا بالتالي أن نفسّر أثرًا بأثر تفسيرًا جزئيًا»^(٣). وهذه الطريقة يلجأ إليها حتى مع وجود الإعراف والتصريح، إذ لا بُدَّ من الرجوع إلى النصّين وعمل مقارنة بينهما لإثبات التأثير، ولكن مع الحيلة والحذر والأخذ بالحسبان من أن «يكون هذا التشابه بين النصّين خادعًا...، بل قد يكون التشابه الأدبي نتيجة صدفة، أو من المواضيع المشتركة بين قرائح الإنسانية»^(٤).

ومن هذا نستنتج أنّ هنالك نوعين من التشابهات:

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٦١، وينظر: رسائل البلغاء ١٧.

(٢) في الأدب المقارن مقدّمات للتطبيق ١٠.

(٣) الأدب المقارن (فان تيغيم) ٢٠.

(٤) في الأدب المقارن مقدّمات للتطبيق ١١.

الأول:

تشابه مُسلّم بأنّه جاء نتيجة للتأثر، وهذا بطبيعته يكون في المعاني الخاصة، وكذلك يكون في الأخذ النصّي كالإقتباس، والتضمين.

الثاني:

تشابه يلفه الشك، ويتنابه عدم اليقين من كونه جاء نتيجة للتأثر أم لا، ودرجة الشك هذه تتوقف على درجة التشابه، إذ كلما كان التشابه أكبر، قابله شك أقل. وإذا كان الأمر هكذا - وهو كذلك - كان لزماً على الباحث أن لا يعدّ كلّ تشابه بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام غيره من الأدباء - مدة الدراسة - أثراً للنصّ العلوي، كون بعض مصادر الكلاميين مشتركة، وأهمّها القرآن الكريم، الذي ظهر أثره بطريقتين: أوّلهما مباشر عن طريق اللفظ، والأسلوب، والغرض، والمعنى. والآخر غير مباشر وذلك حين مكّن العرب من الاختلاط بغيرهم من الأمم ذوات الحضارة الرائعة^(١)، حتى نقلهم هذا الأثر «من حجر ضبّ إلى مثلك واسع الرّفعة مُترامي الأطراف»^(٢).

ثمّ الحديث النبوي، الذي يُعدّ هو الآخر منهلاً لأولئك الأدباء، ولأسباب عدّة منها: إنه نقل لنفسه ما للقرآن من أثر جليل في اللغة العربية وآدابها فصار نبأً لذلك الغرس، أو هو مرآة عاكسة، أي أنّ الحديث النبوي الشريف أثر في اللّغة العربية بالكيفية التي أثر فيها القرآن^(٣). وكان من أوائل الذين تأثروا

(١) ينظر: اثر القرآن الكريم في اللغة العربية ١١ - ١٢.

(٢) م. ن ١١.

(٣) ينظر: أثر الأدب النبوي في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي ٩.

٢٤ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

بالقرآن الكريم أمير المؤمنين عليه السلام، فكان يسير مع القرآن «جنبًا بجنب، يدعو، ويهدي، ويبين»^(١). مثلما تأثر بالرسول عليه السلام وقد أوضح جانبًا من هذا بقوله:

«وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ إِتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا وَيَأْمُرُنِي بِالْإِفْتِدَاءِ بِهِ»^(٢).

ولكن هذا - على صعوبته - لا يمنع من معرفة الابتكارات والإبداعات التي أتخف بها الامام عليه السلام الأدب العربي، وتأثرها الأدباء فيما بعد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بعد أن عرفنا أن النص المتأثر هو ذلك النص الذي لم يكتب ما لم يكن صاحبه قد أطلع قبل كتابته على نص غيره^(٣). فهل هذا الأثر وبأي طريقة ورد لم يكن بمدعاة عيب، ولا يتنافى مع الأصالة مثلما قال: (بول فاليري): «لا شيء أدعى إلى إبراز أصالة الكاتب وشخصيته من أن يتغذى بآراء الآخرين، فما الليث إلا عدة خراف مهضومة»^(٤). أم ينبغي - من أجل الاحتفاظ بمشروعية عملية التأثير والتأثر - السير على وفق شروط وقواعد لتبتعد هذه العملية عن مفهوم السرقة؟

وحقيقة هذا أمر قيل فيه كثير جدًا، وأهم ما يهمننا هنا هو أن الأثر يظهر بمظاهر عدة في نتاج الأديب المتأثر، كالتضمين، والإحتذاء، والبسط، وغير هذا، والتركيز على هذه المظاهر من حيث هي وإثبات أن الأديبين المخصوصين بالدراسة سلوكها أهم بكثير من الخوض في أن التضمين هل هو سرقة محضة، أم إبداع؟.

(١) عليٌّ من المهدي إلى اللحد ٧٣.

(٢) نهج البلاغة ٣٤٨.

(٣) الأدب المقارن (مجدي وهبة) ١٥.

(٤) الأدب المقارن (د. محمد غنيمي هلال) ١٨.

وبعبارة أخرى «إنَّ الأخذ، أو السرقة، أو التقليد، أو الإتياع موجود في فنون الشر جميعاً، ولم تقتصر على فنِّ الشعر»^(١). فكل هذه المصطلحات ومثلها يراها الباحث ولادات - سواءً أكانت شرعية أو غير شرعية - للتأثر، وإلاَّ لماذا يسرق الأديب، أو يضمّن، أو يحتذي، أو يختزل نصًّا ما، أليس لأنّه تأثر بذلك النص ورغب في أن يكون ضمن دائرة عطائه الأدبي.

ثمَّ بعد هذا لو تمَّ تحديد الأثر يبقى هنالك سؤال مفاده هل أن هذا الأثر «متَّسمٌ بعدم القصدية... بشكل عفوي، غير مقصود»^(٢)، أم هو متَّسمٌ بالعفوية وعدم القصد تارةً، والقصد والوعي الكامل تارةً أخرى^(٣).

أمّا الباحث فيرى أن هذه التأثيرات - لو ثبتت - فهي مقصودة في معظمها، على إعتبار أن النصَّ المتأثر مرَّ بمرحلتين:

الأولى:

انتقال التأثير هذا من النصِّ الأدبي إلى فكر المتلقي، وإعتلاجه في صدره. وهذه المرحلة لا يُنكرُ أحد كونها مقصودة، وبإرادة المتلقي، كما ويرى الباحث - أيضاً - أن هذه المرحلة أهمُّ من لاحقها لأنَّ الأثر الذي سيُحدّد في نصٍّ ما متوقّف عليها، ومرتبطة بها.

الثانية:

انتقال التأثير من فكر المتلقي إلى نصِّه الأدبي إذا كان أدبيًّا. وبما أنّه المرحلة

(١) السرقات الأدبية ٦٦.

(٢) المسبار النقدي ١٣٩.

(٣) ينظر: قضايا الحداثة ١٥١.

الأولى مقصودة، فعلى الأرجح تكون الثانية مقصودة أيضاً، وإن تباعدت المدة الزمنية بين المرحلتين، وبعبارة أخرى: لا يهمنا متى حدثت المرحلة الثانية ما دامت تلك الصور، أو التأثيرات التي رغب بها الأدباء «كامنةً في مخيلتهم، حتى يحين الوقتُ فيؤلّفوا منها الصُّورة التي يُريدونها»^(١).

(١) في النقد الأدبي ١٦٧.



الفصل الأول
كلام الإمام علي عليه السلام
من حيث التوثيق والتأثير



المبحث الأول

نظرة توثيقية على كلام الإمام علي عليه السلام من خلال:

أولاً: جمعه المبكر وبعض مصادره.

إن المطلع على تراث أمير المؤمنين عليه السلام يجد حقيقة لا مفرّ منها، وهي أنّ هذا الكلام أو بعضه، حُفِظ ودوّن ساعة إلقائه، وهذا نابع من أسباب عدة: أهمها تأثير هذا الكلام، والتأثر به؛ لأنّ ما يحمله من ميزات فاقت غيره من الكلام حتّمت التوجه نحوه، ودعت إلى الاهتمام به وإعطائه الأولوية منذ وقت مبكر جداً، وهذا يعني إنّ الشريف الرضي لم يكن هو أوّل من جمع كلاماً لأمير المؤمنين عليه السلام، بل سبق إلى ذلك بقرون، وأماننا على ذلك أدلّة ثلاثة:

الأول:

التصريحات الواضحة والصريحة التي جاءت من مصادر سبقت الشريف الرضي والتي أكّدت جمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام. قال الجاحظ

٣٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

(ت ٢٥٥ هـ) «هذه خطب رسول الله ﷺ مدونة محفوظة ومخلدة مشهورة، وهذه خطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي»^(١) وفي البيان والتبيين دوّن الجاحظ حكمة أمير المؤمنين عليه السلام: «قيمة كل إنسان ما يُحسِن»^(٢) ثم علق عليها بقوله: «فلو لم نقف من هذا الكتاب إلّا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مُقَصَّرة عن الغاية»^(٣) فقول الجاحظ: «فلو لم نقف من هذا الكتاب...» يرى فيه الباحث من الممكن أن يكون الكتاب الذي وقف عليه الجاحظ هو أحد الكتب التي جمعت كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فأخذ الجاحظ منه الحكمة المذكورة، علماً أنّ الجاحظ هو الذي قال بأنّ خطب علي مدوّنه ومحفوظة، وهذا يدلّ بوضوح على أنّ خطب أمير المؤمنين عليه السلام كانت بين يدي الجاحظ فأخذ منها. ويمكن أن يكون الكتاب هو كتاب البيان والتبيين لكنّ الأول هو الأصوب ويدعمه أيضاً قوله: «لو لم نقف...» ويُفاد من هذه العبارة أنّه قرأ كتاباً ووقف فيه على هذه الحكمة، وإلّا لو كان كتابه لقال: لو لم ندوّن في هذا الكتاب، أو لو لم نُدوِّع في هذا الكتاب.

بعد الجاحظ أكّد لنا ابن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢) هذه الحقيقة بقوله: «كان علي بن أبي طالب عليه السلام مشغلاً أيّامه كلّها بالحرب، إلّا أنّه لم يلبس ثوباً جديداً، ولم يتخذ ضيعةً، ولم يعقد على مالٍ، إلّا ما كان يبيع والبغيغاء مما يتصدّق به، وحفظ الناس عنه الخطب، فأثّر خطب بأربعمئة خطبة، حفظت عنه، وهي

(١) البيان والتبيين ١/ ١٢٧.

(٢) م. ن ١/ ٦١.

(٣) م. ن ١/ ٦١.

التي تدور بين الناس، ويستعملونها في خطبهم وكلامهم»^(١).

أمّا المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) هو الآخر أحصى خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة ونيف وثمانون يوردها على البديهة وتداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً»^(٢).

ومن الذين أخبروا بأنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان مجموعاً سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) مسنداً حديثه إلى الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) قال: «وقع إليّ من خطب أمير المؤمنين عليه السلام أربعمئة خطبة»^(٣).

من هذا نعرف أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان مدوّناً ومحفوظاً، بل كان فاعلاً ومؤثراً، يدور بين الناس، يستعملونه ويستشهدون به، وبطبيعة الحال سيكون للأدباء الحظ الأوفر من هذا الشأن، كونهم أصحاب مهنة ويعرفون من أين ينهلون لدعم كلامهم.

وبعد هذه الاعترافات الصريحة التي شهدت وأكّدت على تأثير كلام أمير المؤمنين عليه السلام بشكل فعّال يستنتج الباحث استنتاجاً يراه مهماً جداً، وهو كالآتي: إنّ الذين سبقوا الشريف الرضي، أو الذين لحقوه تحدّثوا عن أعدادٍ متقاربة لخطب أمير المؤمنين عليه السلام

• ابن واضح: أربعمئة خطبة.

• المسعودي: أربعمئة ونيف وثمانون.

(١) مشاكلة النّاس لزمانهم ١٥.

(٢) مروج الذهب ٤١٩/٢.

(٣) تذكرة الخواص ١٢٨.

• ابن الجوزي: أربعمئة.

وهذه الأعداد على الأرجح هي أعداد الخطب والرسائل معاً إذ من غير المتوقع، وغير المعقول أن تُجمَعَ الخطب ولم تجمَعَ الرسائل ولم يُتحدَّث عنها ولا عن أرقامها.

أمّا الشريف الرضي فجمع في نهج البلاغة «ثلاثمائة وعشرين» بين خطبة ورسالة. وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أنّه أقرّ بعدم جمعه لكلام أمير المؤمنين عليه السلام كاملاً، بل قال: «كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام»^(٤). ولهذا السبب أي الاختيار القائم على الاصطفاء قلّت الأعداد في نهج البلاغة عن الأعداد إلى تحدّث عن سابقوا الرضي.

وفي العصر الحديث جاء صاحب مستدرك نهج البلاغة وأردف الخطب والرسائل التي جمعت في النهج بـ (مائة وثمان وثلاثين) بين خطبة ورسالة.

أي أنّ «عدد الخطب في نهج البلاغة (٢٤١) + عدد الخطب في مستدرك نهج البلاغة (٩٣) = ٣٣٤».

عدد الرسائل في نهج البلاغة (٧٩) + عدد الرسائل في مستدرك نهج البلاغة (٤٥) = ١٢٤.

المجموع: ٣٣٤ + ١٢٤ = ٤٥٨»^(٥).

إذاً الحصيلة شبه النهائية التي حصلنا عليها هي (٤٥٨) خطبة ورسالة وهذه الحصيلة التي جاءت في القرن العشرين لو قارناها بالأعداد التي صدرت في

(٤) نهج البلاغة ٨.

(٥) مع المشككين في نهج البلاغة ٨٢.

القرون الأولى لوجدنا بينهما قرباً قريباً جداً، كما هو عند:

- بن واضح: أربعمائة
- المسعودي: أربعمائة ونيف وثمانين
- ابن الجوزي: أربعمائة

يقابلها أربعمائة وثمان وخمسون من النهج ومستدركه، وهذا لم يحدث بمحض الصدفة مطلقاً، وإنما هو نتيجة طبيعية شرعية لما صدر من خطب ورسائل عن مولانا أمير المؤمنين «صلوات الله عليه»، وعلى هذا فإن العدد الحديث يدعم بشدة الأعداد القديمة، والأعداد القديمة تؤكد ما صدر حديثاً.

الثاني:

أسماء الكتب التي وصلتنا والتي اختصت بجمع كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١- كتاب «خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) على المنابر في الجمع والأعياد وغيرها» لزيد بن وهب الجهنبي الكوفي ت ٩٦ هـ^(١).

٢- كتاب «خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) لمسعدة بن صدقة العبدي (ت ١٨٣ هـ)، يكتنى أبا محمد، روى عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) (استشهد ١٤٨ هـ)، وعن أبي الحسن الكاظم (عليه السلام) (استشهد ١٨٣ هـ)^(٢).

وهذا الكتاب كان موجوداً في زمن السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٩ هـ)

(١) ينظر: الفهرست للطوسي ١٣١.

(٢) ينظر: رجال النجاشي ٣٢٢.

ونقل عنه كثيراً في تفسير «البرهان» وذكره في مقدمة التفسير^(١).

٣- كتاب «خطب علي عليه السلام» لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني (ت ٢٢٥هـ). وله كتب أخرى منها: كتاب رسائل النبي صلى الله عليه وآله، وكتاب (الغازي)، وكتاب (السرايا)^(٢).

٤- كتاب «مائة كلمة لأmir المؤمنين» أختارها وجمعها الجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

قال عنها الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ) بحديث مسند: «قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر^(٣) صاحب أبي عثمان الجاحظ: كان الجاحظ يقول لنا زماناً: إن لأمر المؤمنين عليه السلام مائة كلمة، كل كلمة منها تفي ألف كلمة من محاسن كلام العرب. قال: وكنت أسأله دهرًا بعيداً أن يجمعها ويمليها عليّ وكان يعدني بها ويتغافل عنها ضناً بها. قال: فلما كان آخر عمره أخرج يوماً جملةً من مسودّات مصنفاته، فجمع فيها تلك الكلمات وأخرجها إليّ بخطّه فكانت الكلمات المائة هذه لو كُشِفَ لي الغطاء ما ازددت يقيناً...»^(٤).

وبعد ذلك كان جمع الجاحظ لهذه الكلمات السبب المباشر في تأليف كتاب «غرر الحكم ودرر الكلم» لعبد الواحد الأمدي (ت ٥٥٠هـ)، فقد احتجّ هذا الأخير بشدّة على الجاحظ، لإختصاره على هذه المائة فقط، لذا قال وهو يقدّم

(١) ينظر: مصادر نهج البلاغة ١ / ١٤٧.

(٢) ينظر: الفهرست لابن النديم (ت ٣٨٠هـ) ١٤٧-١٤٩. وينظر: معجم الأدباء ١٣ / ١٣١.

(٣) هو أحمد بن أبي طاهر كان من الكتّاب البلغاء، وكان شاعراً وروياً له كتاب بغداد المصنّف في أخبار الخلفاء ولد في بغداد سنة (٢٠٤هـ) وتوفي بالشام سنة (٢٨٠هـ) ينظر: تاريخ بغداد ٤ / ٤٣٣.

(٤) مناقب الخوارزمي ٣٣٨ - ٣٤٠.

لكتابه المذكور: «فإنَّ الذي حداني على تخصيص فوائد هذا الكتاب... ما تبجَّح به أبو عثمان الجاحظ عن نفسه... وحدَّده من المائة حكمة... التي جمعها عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. فقلت: يا لله العجب! من هذا الرَّجل وهو علامة زمانه، ووحيد أقرانه... كيف عشيَّ عن البدر المنير؟ ورضي من الكثير باليسير؟... وإني مع كسوف البال... جمعتُ يسيراً من قصير حكمه... يخرس البلغاء عن مساحته... سميته غُرر الحُكم ودُرر الكلم»^(١).

وهذه المائة كلمة ونسبتها للجاحظ أكدها حديثاً بروكلمان واسماها «أمثال سيّدنا علي، يُنسب جمعُها إلى الجاحظ، كما روى ذلك ابن قتيبة في عيون الأخبار»^(٢)»^(٣).

الثالث:

التأثيرات الكبيرة والكثيرة جدّاً التي تركها كلام أمير المؤمنين عليه السلام، بما يدلُّ على أنَّ كلامه كان مجموعاً منذ القرن الأول للهجرة، وهذا ما ستتكلّف الدراسة بيانه في الفصلين القادمين.

أمّا بالنسبة للمصادر التي من المحتمل أن يكون جامع نهج البلاغة نقل عنها كونها روت كلام أمير المؤمنين عليه السلام الموجود في نهج البلاغة فهي كثيرة جدّاً. وقبل الحديث عن بعضها تجدر الإشارة إلى أمرين مهمين هما:

(١) غرر الحكم ودُرر الكلم ١٤.

(٢) بعد الرجوع إلى كتاب (عيون الأخبار) لم أجد هذا فيه فأما بروكلمان أشتبّه في إسم الكتاب الذي نقل عنه وإمّا يدّ عبثت بالكتاب. وعلى كلّ الأحوال فإن كتاب (المائة كلمة) مطبوع ومتوفر بالمكتبات.

(٣) تأريخ الأدب العربي ١/ ١٧٩.

١- إنَّ الشريف الرضي عندما جمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام وأودعه في الكتاب الذي أسماه (نهج البلاغة) لم يُرد له أن يكون كتاباً فقهياً أو تاريخياً مدعوماً بالأسانيد والأحداث وتواريخها، بل أراد له أن يكون كتاباً أدبياً ومثلاً قال هو: «يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية...»^(١) علماً أنَّ الرضي لم يكن عاجزاً عن ذكر تلك الأسانيد. ودليل الباحث على ذلك أنَّ الرضي نفسه وفي كتابه خصائص أمير المؤمنين كان قد ذكر كلاماً عن أمير المؤمنين عليه السلام مع سنده التام، فقال: «ومن كلامه عليه السلام لكميل بن زياد النَّخعي على التَّمام حدثني هارون بن موسى قال: حدثنا أبو علي محمد بن همام الإسكافي قال: حدثنا أبو عبد الله جعفر بن محمد الحسيني قال: حدثنا محمد بن علي بن خلف قال: حدثنا عيسى بن الحسين بن عيسى بن زيد العلوي عن إسحاق بن إبراهيم الكوفي عن الكلبي عن أبي صالح عن كميل بن زياد النَّخعي قال: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبَّانة، فلما أصحرت تنفَّس الصعداء، ثم قال: يا كميل بن زياد، إنَّ هذه القلوب أوعى، فخيرها أوعاها، فأحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة...»^(٢).

بينما في نهج البلاغة ذكر الرضي هذا الكلام مرفوعاً إلى كميل بن زياد دون المرور بهذا السند «قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبَّانة...»^(٣).

(١) نهج البلاغة ٨.

(٢) خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ٨٦.

(٣) نهج البلاغة ٥٧٨.

وحقيقة ومن جانب الذوق الأدبي لو كانت هكذا أسانيد في نهج البلاغة لذهب من متعته ورونقه الكثير، كون القارئ يبقى منشغلاً بهذه العنينة المملّة إلى حدّ ما، والتي تؤثر سلباً على التلقي، لأنّ المتلقي يريد التفاعل مع النصّ وما يثيره فيه من عاطفة وخيال... بعيداً عن هكذا أسانيد هي ليست من وكده، ولعلّ الرضي كان متنبّهاً لذلك، كونه أديباً يعرف أين تتحقّق المتعة الأدبية كاملة، في أيّ طريقة، وأيّ نصّ.

٢- إنّ الكتب التي كانت متوفرة بين يدي الرضي، أو في زمنه لا يمكن التّكهن الدقيق بإعدادها وأسمائها، لأنها كانت كثيرة جداً من جهة. ولم يبق منها إلّا صباغة كصبابة الإناء من جهةٍ أخرى. فقد كانت لأخيه السيد المرتضى (ت ٤٣٦هـ) مكتبة تحتوي على ثمانين ألف كتاب، ولكنها دُمّرت من قبل السلاجقة ^(١)، مثلما أحرقت قبل هذه مكتبة الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ) التي كانت فهارسها فقط عشر مجلّدات ^(٢). أما مكتبة (دار العلم) التي أسّسها سابور ^(٣) بن أردشير (ت ٤٥٠هـ) والتي كانت من أغنى دور الكتب في عاصمة العباسيين، فقد تعرضت هي الأخرى للإحراق ^(٤)، قال عنها الحموي (ت ٦٢٦هـ): «لم يكن في الدنيا أحسنُ كتباً منها كانت كلها بخطوط الأئمة المعتمدة وأصولهم المحرّرة، واحترقت فيما أُحرق من

(١) ينظر: المحرقة الكبرى ١١٠.

(٢) ينظر: م. ن ١٢٩.

(٣) هو سابور بن أردشير وَزَرَ لبهاء الدولة أبي ناصر بن عضد الدولة ثلاث مرّات وكان كاتباً شديداً أسس في بغداد مكتبة أسماها دار العلم فيها أكثر من عشرة آلاف مجلّد أحرقت عند مجيء طغرل بك. توفي ببغداد سنة ٤٥٠ هـ. ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٤٩/١٦.

(٤) ينظر: الشافي في الإمامة ١٠/١.

٣٨ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

محال الكرخ عند ورود طغرل بك أوّل ملوك السلجوقية إلى بغداد سنة ٤٤٧هـ^(١)، وإلى هذا المصير أيضاً ذهبت كتب الفاطميين التي بلغ عددها مليون وستمائة ألف كتاب^(٢).

ومن هذه الأمثلة ما أورده صاحب كتاب شذرات الذهب في معرض ترجمته للإمام الصادق عليه السلام، فقال: «..الإمام سلاله النبوة أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق بن الإمام محمد الباقر... قد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً في ألف ورقة يتضمّن رسائله وهي خمسمائة»^(٣) ولكن لم يصلنا لا الكتاب ولا الخمسمائة رسالة.

والذي يهم الدراسة من هذه المجازر التي تعرّضت لها أُمّات المصادر العربية هو كم هي الكتب التي كانت بين يدي الشريف الرضي، والتي قرأها وأخذ عنها؟ ثمّ كم هو العدد الذي وصلنا منها؟ أليس «الباقى من الكتب التي ألفها المسلمون.. إلّا نقطة من بحر مما أحرّقه الصليبيون، والتتر،...»^(٤).

وإذا كان الأمر هكذا فهل يُلام أحد إذا بقيت خطبة أو خطبتان من نهج البلاغة لم يُعثر عليها في كتاب سبق النهج؟ والأعجب من ذلك أن هناك كتباً جاءت بعد النهج بمئات السنين لم يطالبها أحد بسند، بل ما جاء فيها يؤخذ به وبدون تشكيك خذ مثلاً كتاب صبح الأعشى وصاحبه

(١) معجم البلدان ١/ ٥٣٤.

(٢) ينظر: تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٢٣١. وعن هذا الموضوع أيضاً ينظر: مصادر نهج البلاغة ١/ ٢٦ - ٣٧.

(٣) شذرات الذهب ٢٢٠.

(٤) المحرقة الكبرى ١٤١.

القلقشندي ت (٧٥٦هـ).

وعلى أية حال فلما ظهرت هذه الشبهة حديثاً - شبهة المصادر- إنبرى لها من الباحثين وذكروا للنهج من المصادر الكثيرة ومنهم: عبد الزهراء الكعبي في كتابه «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» إذ ذكر فيه مائة وتسعة مصادر لنهج البلاغة^(١). وكذلك الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه (مع نهج البلاغة دراسة ومعجم) فكان قد جعل لنهج البلاغة ذكراً من سبعة مصادر^(٢)، ولكن مصادر السامرائي ليست فيها زيادة تذكر على مصادر الكعبي.

أما الباحث فيردف تلك المصادر بمصدرٍ واحدٍ وهو كتاب «التعازي والمرائي» للمبرد (ت ٢٨٥). فقد ذكر المبرد في هذا الكتاب مقطوعات كثيرة من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) كان قد دونها الشريف الرضي في نهج البلاغة ومن ذلك: «قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس^(٣) وقد عزّاه عن ابن له يا أشعث، إن تجزع على ابنك فقد أستحقت ذلك منك الرحم، وإن تصبر ففي الله الخلف - يا أشعث -، إنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور»^(٤). فهذا الكلام موجودٌ في نهج البلاغة مع تغيير طفيف^(٥). وغير هذا فقد استشهد المبرد بحكمٍ لأمير المؤمنين (عليه السلام) في

(١) ينظر مصادر نهج البلاغة وأسانيده ٢٧-٣٧.

(٢) ينظر: مع نهج البلاغة دراسة ومعجم ٣٠.

(٣) هو معدٍ يكرب بن قيس وسمي الأشعث لشعث رأسه وهو من كندة أنجب محمداً شرك في مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) وجعدة التي سمت الحسن (عليه السلام) وهو شرك في قتل أمير المؤمنين (عليه السلام).

ينظر: طرائف المقال ٣/ ١٦٥. وينظر: الكنى والألقاب ٢/ ٣٤ - ٣٥.

(٤) التعازي والمرائي: ٢٠٥-٢٠٦.

(٥) ينظر: نهج البلاغة ٦٠٦.

٤٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

مواطن عدّة^(١) دوّنت فيما بعد في (نهج البلاغة)، فمن الممكن رجوع الشريف الرضي إلى هذا الكتاب وأخذ منه تلك الحكم، أو إلى غيره.

ثانياً: التشكيكات فيه:

لعلّ الحديث عن الشكوك التي أثّرت على كلام الإمام علي عليه السلام يُعدُّ من نافلة القول، ولكن بعد أن عنّت للباحث مسائل تتعلّق بهذا الأمر وتسهم في الدفاع عن حيّاض كلام أمير المؤمنين عليه السلام بدحض ما أثّر من شبه حول كلامه عليه السلام وبخاصة المجموع منه في نهج البلاغة، سجّلها معزّزاً إياها بردود سابقة.

قبل الخوض في هذه الشكوك، وإلى كلّ من ألقى السَّمع وأصبح شهيداً ينبغي الالتفات إلى سببين رئيسيين يبدّدان كلّ الإثارات التي أثّرت حول كلام الإمام عليه السلام لخصّهما الدكتور زكي مبارك بقوله: «عندنا في هذا المقام مشكلتان: الأولى عبقرية علي بن أبي طالب عليه السلام، عبقريته الخطابية والإنشائية، والثانية ضمير الشريف الرضي... فقد كان معروفاً إنّ ابن أبي طالب له مجموعة من الخطب تحدّث عنها الجاحظ في مطلع القرن الثالث، وهل يعقل أن تضع آثار ابن أبي طالب ضياعاً مطلقاً وكان في زمانه وبشهادة خصومه من أفصح الخطباء، فأين ذهبت آثاره في الخطابة والإنشاء؟ وهل يعقل أن تضع آثاره وحوله أشياع يحفظون كلّ ما يُنسب إليه؟ هل يعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين والماجنين من أهل العصر الأموي وينسوا آثار خطيب قتل بسيفه ألوفاً من أبطال الحروب؟ ومن الذي يتصور أنّ الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى واليهود وتنسى خطب الرجل الذي غسّل بدمه في يومٍ من أيام الفتن؟... أما ضمير الشريف الرضي فهو عندي فوق الشُّبهات، وهو خدّم الشّيع بالصدق لا بالإقراء، فإن كان جمع

(١) ينظر: التعازي والمراثي ٢، ٩، ٩٧، ١١٨، ٢٠٦، ٣٠٢.

آثار علي بن أبي طالب عليه السلام خدمة سياسية لمذهب التشيع فهو ذلك ولكنها خدمة بأسلوب مقبول، هو إبراز آثار أمير المؤمنين عليه السلام، ولا يُعاب على الرجل أن يخدم مذهبه السياسي بجميع الوسائل والأساليب ما دام في حدود العقل والذوق»^(١).

إذا هنالك دعامتان أساسيتان تمنعان وتبددان الشكوك هما:

١- عبقرية الشخص الذي جُمع كلامه، وقدرته على الإبداع في كل حين، وكلّ موضوع.

٢- وثاقة ونزاهة الشخص الذي جمع هذا الكلام.

٣- ثم نردفها بثالثة وهي حفظ الكتاب - نهج البلاغة - من الدسّ والتحريف؛ لأنّ النسخة التي وصلت إلى عبد الحميد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ) واعتمدها في شرحه هي بخطّ الرضي نفسه^(٢)، فضلاً عن أنّ هناك نسخاً موجودة اليوم لنهج البلاغة منها في مكتبة السيد محمد الطباطبائي في طهران وتاريخها (٥١٢هـ) وغيرها^(٣).

وعليه فالكتاب سالم من التحريف، والجامع موثوق، ومنشئ الكلام عبقرى، إذاً من أيّ باب يدخل الشك؟.

وما دام ورد ذكر وثاقة الرضي يؤدّ الباحث عمل مقارنة سريعة بين جامع النهج (الرضي)، وبين باذر بذرة التشكيك الأولى (ابن خلكان ت ٦٨١)؛ ليتبيّن مَنْ منهم يستحقُّ التصديق والإتباع؟

(١) عبقرية الشريف الرضي ٢٢٢ / ١ - ٢٢٣.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢ / ٢٠، ١٩ / ٣٧٤.

(٣) ينظر: نهج البلاغة لمن ٥٤ (الهامش).

أمّا الشريف الرّضي، فما قاله عنه الدكتور زكي مبارك: من أنّ ضميره فوق الشّبّهات، هو أمر مسلّم به، معروف قديماً، مُجمّع عليه عند أهل العلم. قال الثعالبي (ت ٤٢٧هـ) وهو من معاصري الرّضي: «هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام... وهو اليوم أبداع أبناء الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلّى مع محتده الشريف، ومفخره المنيف، بأدب ظاهر وفضل باهر، وحظّ من جميع النّاس وافر، ثمّ هو أشعر الطالبين، من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعرائهم... ولو قلت إنّّه أشعر قریش لم أبعده عن الصدق»^(١). وكان ابن أبي الحديد يسميه عدلاً وقال عنه: «خبر العدل معمول به»^(٢).

وأما ابن خلكان، فقد قال عنه الصّفدي (ت ٧٦٤هـ)، وابن شاکر الکبّي (ت ٧٦٤هـ)، وهما أقرب أصحاب التراجم له زمناً وفكراً: «وكان له ميل إلى بعض أولاد الملوك وله فيه الأشعار الرائعة، يقال إنّّه (...)»^(٣)

ثم قال الصّفدي: أخبرني.. القاضي جمال التبريزي... قال: كان الذي يهواه القاضي شمس الدين هو الملك المسعود، وكان قد تيممه حبّه فكنت أنام عنده في العادلية فتحدثنا في بعض الليالي إلى أن راح النّاس من عنده فقال لي نم أنت، وألقى عليّ فروة، وقام يدور حول البركة في العادلية ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبح وتوضأ وصلينا. والبيتان المذكوران:

(١) يتيمة الدهر ٣/ ١٥٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨/ ٣٢٨.

(٣) الخبر لا يليق ذكره هنا.

أنا والله هالك آيس من سلامتي

أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي

ويقال إنه سأل بعض عما يقوله أهل دمشق عنه فاستغفاه فألحَّ عليه فقال: يقولون إنك تكذب في نسبك، وتأكل الحشيشة، وتحب الغلمان، فقال: أمّا النسب والكذب فيه فإذا كان ولا بدّ منه فكنت أنتسب إلى العباس، أو إلى علي بن أبي طالب، أو إلى أحد الصحابة، وأمّا النسب إلى قوم لم يبق لهم بقيّة وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة، وأمّا الحشيشة فالكل ارتكاب محرّم، وإذا كان ولا بد فكنت أشرب الخمر لأنّه ألدّ، وأمّا محبة الغلمان فإلى غدٍ أُجيبك عن هذه المسألة»^(١)

نخلص من النص إلى ما يأتي

١- كان لابن خلكان ميلٌ شديد للغلمان !

٢- لم يجد ابن خلكان لنفسه نسباً معيّناً، بل كان يخيّر نفسه حسبما قال مرّة لابن عباس وأخرى لأمير المؤمنين (عليه السلام) أمّا المجوس فلم ينتسب لهم لأنّ ذلك ليس فيه فائدة !

٣- كان يفضل الخمرة على الحشيشة ؛لأن الأولى ألدّ !

وفعلًا لم يتعرض لتراث أمير المؤمنين (عليه السلام) ويقدر فيه إلّا هكذا نماذج. ولم يدافع عنه إلّا الشريف الرضي وأمثاله.

وعلى الرغم من ذلك ينبغي الوقوف على بعض التشكيكات، والتي منها:

(١) الوافي بالوفيات ٧/ ٢٠٣- ٢٠٤، وينظر: فوات الوفيات ١/ ١٥٥ - ١٥٦.

الوقففة الأولى

وقففة مع المشككين الرواد وتشكيكاتهم

مثلاً سبق، وبحسب المصادر التاريخية يُعدُّ ابن خلكان رائداً لبذرة التشكيك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام المجموع في نهج البلاغة، وذلك بقوله: «وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، هل هو جمعه - أي المرتضى - أم جمع أخيه الرضي. وقد قيل أنه ليس كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه، والله العالم»^(١).

وكلام ابن خلكان هذا مردود بنظر الباحث من وجوه عدة منها:

أ - إن هذه التهمة قائمة على عبارتين وهما في الحقيقة مجهولتين بوضوح «وقد اختلفَ الناس - وقد قيل». من هؤلاء الناس الذين اختلفوا أو قالوا؟ لماذا لم يتكلموا هم؟ ولماذا لم يذكر ابن خلكان أسماءهم وتصريحاتهم دعماً لحجته وهو المؤسس ومن ثم يكون بحاجة ماسة لمن يدعمه ويعضد ما ذهب إليه؟

ب - أين الأدباء والنقاد الذين سبقوا ابن خلكان، ثم أين الأدباء والنقاد العباقر الذين عاصروا الرضي أو جاؤوا بعده؟ إذ المدة التي تفصل نهج البلاغة عن أول تشكيك هي ما يقارب ٢٨٠ عاماً؛ لأنَّ النهج أُلِفَّ في تمام المائة الرابعة للهجرة، وابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) علماً أنَّ هذه المدة المديدة عرفت من الأدباء، والنقاد، وأصحاب الذوق ما أعجز الدهر أن يأتي بمثلهم فكيف خفي عليهم ذلك؟

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٣١٣.

ج - ليس في كلام ابن خلكان شيءٌ واضح يستطيع أحدُ الردِّ عليه إلا قوله: «هل هو جمعه أم جمع أخيه» وفي هذه العبارة اعترف ابن خلكان من حيث يدري أو لا يدري بأن الكلام هو ليس من إنشائهما، بل هو من جمع أحدهما هذا أولاً، ثانياً: إنَّ نهج البلاغة مثبت ومؤكّد جمعه من قبل الشريف الرضي، وبشهادة الرضي نفسه إذ قال في كتابه (حقائق التأويل): «... فلينعّم النظر في كتابنا الذي ألفناه ووسمناه بـ «نهج البلاغة»»^(١). وقال في كتابه (المجازات النبوية): «وقد ذكرناه... في كتاب نهج البلاغة»^(٢) هذا فضلاً عن مقدمته التي قدّم بها للنهج. ثم شهادة معاصريه كالنجاشي (ت ٤٥٠هـ) الذي قال في ترجمة الرضي «محمد بن الحسين بن موسى... له كتب، منها: حقائق التنزيل،... كتاب نهج البلاغة»^(٣) وشهادة المعاصرين ومنهم شوقي ضيف - الذي يُعدّ من أشدّ المشكّكين - الذي قال: «فالكتاب من عمل الشريف الرضي»^(٤).

وبعد ابن خلكان سارَ مَنْ سار على نهجه ومنهم الذهبي (ت ٧٤٨هـ) الذي قال في ترجمته للشريف المرتضى: «عليّ بن الحسين العلوي الحسيني الشريف المرتضى المتكلم الرافضي المعتزلي... ولي نقابة العلويّة، ومات سنة ست وثلاثين وأربعمائة.. وهو المتهم بوضع نهج البلاغة.. ومن طالع نهج البلاغة جزم بأنّه مكذوب على أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه).. ففيه السبّ الصّراح على السيدين أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، وفيه التناقض والأشياء الركيكة،

(١) حقائق التأويل ١٦٧.

(٢) المجازات النبوية ٣٩١.

(٣) رجال النجاشي ٣٩٨.

(٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٦٢.

والعبارات التي مَنْ له معرفة بنفس القرشين الصحابة ونفس غيرهم ممن يعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل»^(١).

وهذا مردودٌ أيضاً بالتالي:

أ - أمّا تهمة الخلط بين مَنْ جمع النهج فقد عرفتْها سابقاً.

ب - المرتضى لم يكن معتزلياً، بل هو من عليّة أتباع مدرسة أهل البيت، وإلاّ كيف «ولي نقابة العلوية» مثلما قال الذهبي نفسه، ثم أليس الذهبي هو من قال - في كتاب آخر له - عن المرتضى: «عالم الإمامية أبو طالب علي بن الحسين... الشريف المرتضى»^(٢). إذاً فما هذا التناقض عند الذهبي بين كتاب وآخر؟ مرةً يعد المرتضى علويّاً رافضياً إمامياً، وأخرى يعدّه معتزليّاً؟

ج - ليس في الكتاب أيّة ركافة في العبارة، بل الذين طلب الذهبي الرجوع إليهم أو قال عنهم إنهم لهم «معرفة بنفس القرشين..» ذهبوا، بل أجمعوا على خلاف ما ادّعاه الذهبي تماماً، سواءً في القديم أو الحديث. قال ابن أبي الحديد في وحدة كلام أمير المؤمنين عليه السلام الأسلوبية وتناسقه من أوله إلى آخره: «مَنْ قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوقٌ في هذا الباب لا بُدَّ من أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد،... ألا ترى إنّنا مع معرفتنا بالشعر ونقده، ولو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدنا قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونفسه، وطريقته ومذهبه في القريض، ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٤.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٩.

في الشعر... وأنت إذا تأملت «نهج البلاغة» وجدته كله ماءً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوله كأوسطه، وأوسطه كآخره»^(١).

أمّا في العصر الحديث فقد علت الأصوات التي أكّدت هذه الميزة في نهج البلاغة، فقد قال محمد محيي الدين عبد الحميد: «ليس من شك عند أحد في ذلك، وليس عند أحد في إنّ ما تضمنه الكتاب جارٍ على النهج المعروف عند أمير المؤمنين عليه السلام، موافق للإسلوب الذي يحفظه الأدباء والعلماء من كلامه الموثوق بنسبته إليه»^(٢)، حتى عدّت الوحدة الإسلوبية هذه في كلام أمير المؤمنين عليه السلام سنداً قوياً على صحة كلام الإمام وصدوره القطعي عنه عليه السلام، إذ قال الأستاذ الهنداوي: «لا نكاد نرى كتاباً انفرد بقطعات مختلفة يجمعها سلك واحد من الشخصية الواحدة والإسلوب الواحد، كما نراه في نهج البلاغة، لذلك نقرّر ونكرّر إنّ النهج لا يمكن أن يكون إلاّ لشخص واحد نفخ فيه نفس واحد»^(٣).

هذا هو طَرفٌ من شهادات أولئك الذين قال عنهم الذهبي لهم معرفة بنفس القرشيين من الصحابة وغيرهم، لكنّ رياحهم جاءت تماماً بما لا تشتهيهِ سفينةُ شكّه، وكان الأجدر بالذهبي أن يستشهد ولو بعبارة واحدة من تلك التي وصفها بالركيكة حتى يثبت ما ادّعاه، ويجعل القارئ على بينة من ذلك.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣٠٤.

(٢) مجلة تراثنا ١٠٣ / ١.

(٣) فضائل الإمام علي ٧٢ (الهامش).

إذاً فنهج البلاغة ينتظمه أسلوب واحد رفيع المستوى، ومن طراز خاص، لا يصدر إلا عن واحد، ولا يستطيع أحد أن يتقمّصه.

ثمّ من هذا الذي وصل إلى هذا المستوى وكتب بأسلوب وبلاغة لا يُمَيِّزَان عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام؟ لماذا لا يُظهر نفسه حتى ينال من الخلود ما ناله أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الجانب؟ بل كيف خفي قديماً ولا يزال مخفياً عند قوم لا يخفى عليهم هكذا أمر لشدة تقديسهم له؟

ومن المناسب هنا إيراد رأي الأمير شكيب أرسلان لما سُئِلَ عن صحة ما في نهج البلاغة، فقال: «إذا كان نهج البلاغة موضوعاً فمن هو واضعه؟ هل هو الشريف الرضي؟ فقالوا له: نعم. فقال: إنّ الشريف الرضي لو قُسم أربعين رجلاً ما استطاع أن يأتي بخطبة واحدة قصيرة من خطب نهج البلاغة، أو جملة من جملة»^(١).

د - لم يكن في نهج البلاغة السب الصراح مثلما قال الذهبي، لكنه أشار بكلامه هذا إلى الخطبة الشقشقية، التي قال عنها الدكتور إبراهيم السامرائي - وهو من طائفة المشككين طبعاً-: «وليس لدارس أن يقول أن الشقشقية ليست لعلي، بل هي له، وهي تشير أشارات صريحة إلى ما كان يعتلج في نفسه مما يشعر أن حقّه قد سُلِبَ»^(٢).

والشقشقية من خطبه وقد أكدها المؤرخون وبطرق متعددة. قال ابن الخشاب^(٣) (ت ٥٦٧ هـ): «وإني لأعلم أنّها كلامه - يعني الإمام علي - والله لقد

(١) أعيان الشيعة ١/ ٥٤٠.

(٢) مع نهج البلاغة دراسة ومعجم ١٠.

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن الخشاب، كان أعلم أهل زمانه بالنحو وكانت له =

وقفت على هذه الخطبة في كُتُبِ صُنِّفَتْ قبل أن يُخْلَقَ الرضي بهائتي سنة، ولقد وجدتُها مسطورة بخطوطٍ أعرفها، وأعرف خطوط مَنْ هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضي^(١)، وبعد ذلك قال ابن أبي الحديد: «قد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي^(٢)... ووجدت أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر^(٣) بن قبة أحد متكلمي الإمامية وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب (الإنصاف)^(٤)»

أمّا الباحث فيؤكد هذه الخطبة من خلال طريق آخر لا يقبل الضلال أيضاً، وهو اعتماد بعض أصحاب المعجمات اللغوية على بعض فقراتها، وهذا دليل على صدورهما من المنبع المؤسس الأصيل للكلام العربي، وهذا السبب دعاهم للإستشهاد بكثيرٍ منها. ومن تلك المعجمات التي عثرنا فيها على بعضٍ من

= معرفة بالحديث واللغة والفلسفة والحساب والهندسة. روى كثيراً من الحديث، صَنَّفَ الرد على الحريري في مقاماته. وشرح اللمع لابن جني ولم يتمه وغيرهما كثير توفي سنة (٥٦٧هـ)
ينظر: الوافي بالوفيات ١٧ / ١١ .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥٨ / ١ .
(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمود يكنى أبا القاسم من متكلمي المعتزلة، وأسس طائفة عندهم تسمى بالكعبية. أقام ببغداد ثم عاد إلى بلخ فأقام بها وتوفي هناك (سنة ٣١٩هـ). ينظر: تأريخ بغداد ٣٩٢ / ٩ . وينظر: وفيات الأعيان ٤٦ / ٣ .

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن قبة الرازي متكلم عظيم القدر حسن العقيدة، قوي الكلام كان معتزلياً ثم أصبح إمامياً. له كتب عدّة منها (المستثبت) و (الإنصاف في الإمامة) نقل منه الشيخ المفيد في كتاب العيون والمحاسن. ينظر: معجم رجال الحديث ١٦ / ١٣٦ ، وينظر: معجم المؤلفين ١٠ / ١٨٤ - ١٤٩ .

(٤) شرح نهج البلاغة ١٥٩ / ١ .

فقرات الخطبة الشقشقية:

١- النهاية في غريب الحديث، فقد ذكر منها:

- «حديث علي في خطبة له: تلك شقشقة هدرت ثم قرَّت»^(١).

- «حديث علي رضي الله عنه: أصول بيد جذاء»^(٢).

- «حديث علي: والناس حولي كربيضة الغنم»^(٣).

٢- لسان العرب، فقد ذكر منها:

- «وفي حديث علي (رضوان الله عليه) في خطبة له تلك شقشقة هدرت ثم قرَّت»^(٤).

- «وفي حديث علي كرم الله وجهه: أصول بيد جذاء»^(٥).

- «وفي حديث علي رضي الله عنه: والناس حولي كربيضة الغنم»^(٦).

٣- القاموس المحيط، فقد جاء فيه: «والخطبة الشقشقية العلوية لقوله، لابن

عباس... هيهات، تلك شقشقة هدرت ثم قرَّت»^(٧).

٤ - تاج العروس، استشهد ببعضها فقال:

(١) النهاية في غريب الحديث ٢ / ٤٩٠. (باب الشين مع القاف).

(٢) م. ن ١ / ٢٥٠. (باب الجيم مع الذال).

(٣) م. ن ٢ / ١٨٥. (باب الراء مع الباء).

(٤) لسان العرب ١٠ / ١٨٥ مادة (شق).

(٥) م. ن ٣ / ٤٧٩ مادة (جذذ).

(٦) م. ن ٧ / ١٥٣ مادة (رض).

(٧) القاموس المحيط ٣ / ٢٥١.

- «والخطبة الشقشقية: وهي الخطبة العلوية... سميت بذلك: لقوله لابن عباس رضي الله عنهم... يا ابن عباس هيهات، تلك شقشقة هدرت ثم قرَّت»^(١).

- «وفي الحديث: كرياضة الغنم»^(٢).

وصاحب المعجم المذكور هنا اكتفى بقوله: وفي الحديث دون أن ينسبه لمن. ولكنه عُرِفَ مما مضى.

- «وفي حديث علي رضي الله عنه: أصول بيدِ جذاء»^(٣).

٥- المعجم الوسيط: «ويُقال: شقشقة هدرت ثم قرَّت»^(٤).

وأصحاب هذا المعجم لم يذكروا صاحب هذا القول وأكتفوا به (يُقال)، وبحسب ظني الأمر يعود إلى أن من بين مؤلفي هذا المعجم هو الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، والزيات هو من المشككين بكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ولهذا ذكر هذه الكلمات لأهميتها دون ذكر قائلها حتى لا يكون حجة على المشككين هو وغيره.

هذا هو ذكر لبعض المعجمات وبعض الجمل التي أخذت من الخطبة الشقشقية.

ومن أولئك الذين وثّقوا هذه الخطبة وأكّدوا عليها هو ابن الجوزي

(١) تاج العروس ١٣ / ٢٥٠ باب (شفلق).

(٢) م. ن ١٠ / ٥٧ باب (ربض).

(٣) م. ن ٥ / ٣٥٤ باب (جذذ).

(٤) المعجم الوسيط إبراهيم مصطفى وآخرون ١ / ٤٩١ (باب الشين). وينظر: المعجم الوسيط

إبراهيم أنيس وآخرون ١ / ٤٨٩ (باب الشين).

(ت ٦٥٤)، الذي قال عنها: «ذكر بعضها صاحب نهج البلاغة وأخلّ ببعض، وقد أتيتُ بها مستوفاة: أخبرنا بها شيخنا أبو القاسم النّفيس بإسناده عن ابن عباس قال: لما بُويِعَ أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة ناداه رجل من الصف وهو على المنبر: ما الذي أبطأك إلى الآن؟ فقال بديهاً: أما والله لقد تقمصها فلان وهو يعلم أنّ محليّ منها محلُّ القُطب من الرّحا... الخ الخطبة»^(١).

وواضح هنا من كلام سبط ابن الجوزي أنّه مطلع على الخطبة من غير طريق نهج البلاغة، بل هي برواية شيخه أبي القاسم وبسند إلى عبد الله بن عباس، ثمّ بعد المقارنة التي أجراها سبط ابن الجوزي بين الخطبتين، أي الخطبة التي عنده والخطبة التي دونها الرضي في نهج البلاغة خرج بمحصّلة هي إن الرضي لم ينقلها كاملة بل «ذكر بعضها... وأخلّ ببعض».

ومن المناسب هنا أن نقف مع ما ذكره الأستاذ الكبير أحمد زكي صفوت حول الخطبة، فبعد ما ذكره - أي الأستاذ - من كلام ابن أبي الحديد السابق الذكر حول الخطبة صرح قائلاً: «من ذلك يتبين لك أن الشقشقية كانت معروفة قبل مولد الرضي من أكثر من طريق. فلا تبعة إذن عليه، ولا سبيل إلى إتهامه بانتحالها ولكنّا مع ما نرى فيها من جزالة اللفظ، وروعة الأسلوب التي تغرينا أن ننظمها مع كلام علي في سلك واحد. نراجع حين يبدو شبح الشك ماثلاً فيها...»^(٢).

فما جاء في ذيل كلام الأستاذ فيه من الغرابة شيء؛ فالأستاذ هنا يقرُّ بأنها كانت موجودة قبل الشريف الرضي، ثم جاء الرضي وأكدّها هذا من ناحية

(١) تذكرة الخواص ١١٧.

(٢) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ١٣٤.

السند والرواية التاريخية. أمّا من ناحية الأسلوب فقد رأى الأستاذ أنها داخلية ضمن أسلوب الإمام وطريقته. ولكن مع هذا كله لماذا تراجع الأستاذ الكبير؟ ثمّ أيّ دليل تقتضيه الوثيقة أكثر من الدليلين اللذين ذكرهما هو: الرواية التاريخية، وموافقة الأسلوب؟

الوقف الثانية

وقف مع شبهة الطول في كلام الإمام علي عليه السلام

اتَّخَذَ بعض الباحثين الطول الذي ورد في بعض خطب أمير المؤمنين عليه السلام كالخطبة المسماة بالقاصعة وبعض رسائله كعهده لملك الأشتر (رضوان الله عليه) ذريعة للتشكيك في نهج البلاغة. فقد ذكر الدكتور نايف معروف في كتابه الأدب الإسلامي هذه الشبهة قائلاً: «كثرة الخطب وطولها، لأنّ هذه الكثرة وهذا التطويل مما يتعذر حفظه، وضبطه قبل عصر التدوين»^(١).

وقال الأستاذ المرحوم أحمد زكي صفوت: «فإنّا يخالج نفوسنا الشك في عهد الأشتر لا من حيث ما ورد فيه من النظريات السياسية والعمرائية، لأنّنا لا نستبعد صدور مثل هذا من الإمام... وإنّما يخالجنا الشك فيه من حيث طوله وإسهابه»^(٢).

وبنظر الباحث هذا مردود بالتالي:

أ - أما بالنسبة لكثرة الخطب، وردّاً على ما ذكره الدكتور نايف معروف؛ فإنها كانت معروفة ومؤكدة قبل أن يُجمع نهج البلاغة، بل حتى قبل أن تُعقد للرضي

(١) الأدب الإسلامي ٥٤.

(٢) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٢٨.

نُطفة، بل إنّ الذين تحدّثوا عن عدد خطب أمير المؤمنين عليه السلام ومن سابقي الرضي تحدّثوا عن (٤٨٠) ونيف) خطبة، بينما الرضي دوّن في النهج (٢٤١) خطبة، أي نصف العدد المذكور تقريباً، وهذا ما أفرغ منه الباحث سابقاً^(١).

ب - وبالنسبة للإطالة في الخطب، وبصورة إجمالية، فهذا أمرٌ قد عُرِفَ عند العرب، وذكرَ أربابُ المصنّفات في مصنفاتهم أطرافاً عنه، فقد نقل لنا الجاحظ عن قيس بن خارجة أنه خطب بخطبة: «يوماً إلى الليل فما أعاد فيها كلمةً ولا معنى»^(٢). ولتتصور هنا كم سيملاً هذا الخطاب المذكور لو دوّن. ولنهب أن في هذا الكلام شيئاً من المبالغة، ولنفترض أنّه خطب بنصف يوم، أو ضحى من نهار أيضاً كم سيملاً من الكراريس؟ وهل سيبقى العهد أو الخطبة القاصعة قبالة طويلان؟.

أمّا ما ذكره الدكتور بدوي طبانة من أنّ «الخطيب صار فيه انحناء فساعده العصى على انتصاب قامته»^(٣) أليس هذا الإنحناء راجع إلى طول الموقف وطول الموقف عائداً بدوره إلى طول الخطبة؟

وعليه فالطول في الخطب ورغبة الخطيب في ذلك موجودة قبل أمير المؤمنين عليه السلام.

ج - لوعدنا للتطويل عند الإمام علي بخاصة، لوجدناه من مزايا خطابه التي قد عُرِفَ بها قبل أن يجمع بعض كلامه في نهج البلاغة. وهذا ما أكّده الجاحظ بقوله: «لم يكن عمر من أهل الخطب الطوال، وكان كلامه قصيراً، وإنّما

(١) تنظر: الرسالة ٣. ٤.

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧٩.

(٣) السرقات الأدبية ٢١.

صاحب الخطب الطوال علي بن أبي طالب (عليه السلام)؛ فالجاحظ الذي هو مضطلع في الأدب العربي باتفاق الجميع، كان متنبهاً إلى ميزة طول الخطب عند أمير المؤمنين (عليه السلام) دون غيره من الصحابة.

وقال ابن دأب (٢): «فأدركتُ النَّاسَ وهم يعيِّبون كُلَّ مَنْ استعان بغير الكلام الذي يشبه الكلام الذي هو فيه، ويعيِّبون الرَّجُلَ الذي يتكلَّم ويضرب بيده على بعض جسمه، أو على الأرض، أو يدخل في كلامه ما يستعين به. وهم يقولون: كان (عليه السلام) - أي أمير المؤمنين - يقوم فيتكلم من ضحوة إلى أن تزول الشمس لا يدخل في كلامه غير الذي تكلم به» (٣).

وهذه هي ميزة ممتازة أخرى من مزاياه (عليه السلام) فعندما يعمد إلى التطويل لا يدخل في كلامه ما لا طائل منه، ولا يستشهد بكلام غير مصبوبٍ ومسبوكٍ في المعنى الذي أراد. ومهما طال كلامه (عليه السلام) فإنه يُبقي المتلقي في حالةٍ شدٍّ وشوقٍ دونها ملالةٍ أو سأمٍ حتى غدا ينتج الخطب والعهود الطوال بطريقة خاصة تتميز عن كل من طوّلوا في ذلك، ولهذا قال هبة الدين الشهرستاني: «إنَّ الخُبراء لو تأملوا نسج هذا العهد العلوي ومواده حكموا مبدئياً على أنَّ... المنشيء لهذا العهد أمير عربي أديب. قضائي. فقيه. فلسفي. سياسي. إداري. روحاني. اجتماعي. ولم يسمح الدهر للعرب برجل جامع لهذه المزايا بعد محمد ﷺ وعلي (عليه السلام) حتى ولا يدنو من ذلك نفسية الشريف الرضي أيضاً» (٤). ولربما نسي الشهرستاني أن يقول: عسكري.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢ / ٢٦٥.

(٢) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب يكنى أبا الوليد كان من أكثر زمانه علماً وأدباً ومعرفةً بأخبار الناس. وكان معاصراً لموسى الهادي العباسي. ينظر: الكنى والألقاب ١ / ٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) الاختصاص ١٥٥.

(٤) الراعي والرعية ٦ - ٧.

٥٦ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

هذا بعض مما قيل في قدرة أمير المؤمنين عليه السلام على تطويل الخطب والرسائل. أما هو عليه السلام فقد تحدّث عن هذا الأمر فقال:

«والله لو أمرتكم فجمعتم من خياركم مائة، ولو شئت لحدّثتكم من غدوة إلى أن تغيب الشمس؛ لا أخبرتكم إلا حقاً»^(٥).

فهنا أكّد أمير البيان عليه السلام على أنّه قادرٌ على ذلك التطويل المهيّب وبشرطٍ صعبٍ مستصعب وهو جعله ضمن دائرة الحق والصدق «لا أخبرتكم إلا حقاً». وهذا غير داخل في باب المبالغة البتّة لأنّه عليه السلام معصوم والمعصوم لا يتوكأ على عنصر المبالغة.

د - أما الشكوك الخاصة بالعهد حصراً. لأنّه طويل. فقد دُفِعَت بالأدلة السابقة، مثلما تُدفع بأدلة أخرى قائمة على التأثير والتأثر وهي بالعشرات - ستأتي بعونه تعالى - ومنها: قال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ): «ومن حسن الإتيان.. قول إبراهيم بن العباس^(٦) حيث كتب: إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه وللمسيء من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن في الإحسان رغبةً، وانقاد المسيء للحق رهبة. أخذه من قول عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر الجوهري^(٧) قال: أخبرنا أبو يعلى المنقري^(٨) قال:

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٢٦٢.

(٦) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي البغدادي شاعر، وكاتب مشهور له ديوان شعر. وهو ابن أخت العباس بن الأحنف الشاعر. اتصل بذي الوياستين (الفضل بن سهل ثم تنقل في أعمال السلطان ودواوينه إلى أن توفي بسراً من رأى سنة ٢٤٣ هـ. ينظر: وفیات الأعيان ١/ ٤٤. ينظر: الوافي بالوفيات ٦/ ١٩.

(٧) هو محمد بن شاذان يكنى أبا بكر الجوهري البغدادي، مقارئ معروف، ومحدّث مشهور، ثقة صدوق. توفي سنة ٢٨٦ هـ ينظر: تاريخ بغداد ٢/ ٤٢٨.

(٨) أبو يعلى زكريّا بن يحيى بن خلّاد المنقري من أهل البصرة. كان من جلساء الأصمعي. ينظر: =

أخبرنا العلاء بن الفضل بن جرير^(١) قال: قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يجب على الوالي أن يتعهد أموره، ويتفقد أعوانه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء. ثم لا يترك واحداً منهما بغير جزاء، فإن ترك ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء..^(٢) وهذا المقطع من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) من مقاطع العهد، لكن الرضي أودعه نهج البلاغة مع تغيير طفيف:

«وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيْدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَذْرِيبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ»^(٣).

ثم إننا نجد ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) أخذ هذا الكلام أيضاً، فقال: «ثم على الملوك بعد ذلك، تعاهد عما لهم وتفقد أمورهم حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ولا إساءة مسيء. ثم عليهم، بعد ذلك، أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء، ولا يُقرّوا مسيئاً، ولا عاجزاً على الإساءة والعجز. فإنهم إن تركوا ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء»^(٤).

ومما أخذه بن المقفع مؤكداً عن العهد قوله: «حقُّ الوالي أن يتفقد لطيف أمور رعيته، فضلاً عن جسمها، فإنَّ لللطيف موضعاً يتنفع به، وللجسيم موضعاً لا يُستغنى عنه»^(٥).

=الثقات ٨/ ٢٥٥.

(١) هو العلاء بن الفضل بن عبد الملك يكنى أبا الهذيل. بقي حياً إلى سنة ٢٢٠ هـ. ينظر ميزان الاعتدال ٣/ ١٠٤.

(٢) الصنائع ٢٢٠.

(٣) نهج البلاغة ٥٠٤.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٤٦.

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير ٣١.

فهذا عن قوله عليه السلام:

«وَلَا تَدْعُ تَفْقَدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اِتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِّلَّيْسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ»^(١).

فواضح جداً هنا كيف أخذ ابن المقفع قول الإمام عليه السلام:

«تفقّد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها».

وقال:

«يتفقّد لطيف أمور رعيته فضلاً عن جسيمها».

وقول الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّ لِّلَّيْسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ».

الذي حوّره قليلاً ابن المقفع: «فإنَّ لِلطَّيْفِ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعاً لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ». وغير هذا كثيرة جداً هي التأثيرات التي تركها العهد على نتاجات ابن المقفع، وسيعرف هذا لاحقاً بعونه تعالى.

إذاً فالعهد كان موجوداً ومقروءاً ومؤثراً. والطول في الخطابة كان موجوداً أيضاً وبخاصة عند أمير المؤمنين عليه السلام.

هـ - إنَّ من الأسباب المهمة وراء طول الخطب والرسائل عند أمير المؤمنين عليه السلام مثلما يرى الباحث هو القرآن، نعم القرآن نفسه؛ لأن العلاقة بين القرآن وترجمانه علاقة وطيدة متداخلة لا يمكن أن تحدّد بمدى سواء من ناحية الشكل الكلي أو المضمون. والقرآن - كما هو معلوم - فيه سورة البقرة وفيها

(٢٨٦) آية، وفيه سورة الكوثر وفيها (٣) آيات.

وهكذا كان كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ففيه العهد ما يقارب (٢٨٥) سطراً، وفيه الحكمة «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا»^(١) وعلى هذا فمن الطبيعي جداً أن يكون القرآن ألقى فيما ألقى بظلاله على أمير المؤمنين مسألة التطويل، فورثها (عليه السلام) عن القرآن.

و - «ما وقع بين المسلمين من إختلاف مذهبي وسياسي أوجب على الخطيب الإطالة إيضاحاً لفكرته ودفاعاً عن مذهبه وتفنيداً لأقوال خصومه. ومن الخطب الطوال... طائفة من خطب علي»^(٢).

ي - مراعاة مقتضى الحال، قال الدكتور زكي مبارك: «وكان من الخطباء من يطيل، وكان منهم من يوجز... وسحبان بن وائل الذي عُرفَ بالتطويل وبأنه كان يخطب أحياناً نصف يوم أثرت عنه الخطب القصيرة الموجزة... وذلك يدلُّ على أنَّ الفطرة كانت غالبية على ذلك العصر وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئاً آخر غير مراعاة الظروف. ورسائل علي بن أبي طالب (عليه السلام) وخطبه ووصايا وعهوده إلى ولاته تجري على هذا النمط، فهو يطيل حين يكتب عهداً يبين فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي يرعاه، ويوجز حين يكتب إلى بعض خواصه في شأنٍ معيَّن لا يقتضي التطويل»^(٣).

فأمير المؤمنين (عليه السلام) عندما كان يكتب لمن ولاه يأمره بأن لا يقصر لا في حقوق الخالق ولا المخلوق، موضحاً له صغائر الأمور وكبارها وفي وظائف الدولة كافة

(١) م. ن ٥٨٤.

(٢) الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٤١.

(٣) النشر الفني في القرن الرابع الهجري ١/ ٦٩.

وعلى هذا لا بُدَّ من أن يطول كتابه عليه السلام.

وهنا بودُّ الباحث الإشارة إلى أنَّ الأثر الذي تركه العهد بخاصة كان ظهوره جلياً على طبقة خاصّة وهي طبقة الحكام ومن كان في أروقتهم وتحت ظلهم وأمرتهم من الكتاب أمثال عبد الحميد، وابن المقفع وهذا ما سيُعرف في قابل البحث إن شاء الله. ولعل السبب في ذلك يكمن فيما ذكره ابن أبي الحديد - وهو الراجح عند الباحث - إذ قال في حديث مسند: «أنَّ علياً لما كتب إلى محمّد بن أبي بكر هذا الكتاب، كان ينظر فيه ويتأدّب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجّب منه، فقال الوليد بن عُقبة، وهو عند معاوية، وقد رأى إعجابه به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاوية: مه؛ لا رأي لك! فقال الوليد: أفمّن الرأي أن يعلم الناس أنَّ أحاديث أبي تراب عندك تتعلّم منها! قال معاوية: ويحك! أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعتُ بعمل هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله! فقال: لولا أنَّ أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثم سكت هنيهة، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول: إنَّ هذه من كُتب علي بن أبي طالب؛ ولكن نقول: هذه من كُتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد فنحن ننظر فيها، ونأخذ منها. قال - أي الراوي -: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية؛ حتى ولي عمر بن عبد العزيز فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب عليه السلام»^(١).

وفي هذه الرواية يبدو أنَّ الذي أخذ بعد إستهاده محمد بن أبي بكر (رضوان الله عليه) أكثر من كتاب، بل كتب عدّة «أخذ كتبه أجمع»، «إنَّ هذه من كتب...»

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٢٢٣.

كانت». وعلى كل الأحوال فيمكن أن يكون من بين تلك الكتب عهد الإمام لمالك الأشتر، حيث قال عنه ابن أبي الحديد بعد ذكره لهذه الرواية «الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظر فيه، ويعجب منه، ويفتي به، ويقضي بقضاياه وأحكامه هو عهد علي عليه السلام إلى مالك الأشتر... وهذا العهد صار إلى معاوية لما سُمَّ الأشتر ومات قبل وصوله إلى مصر؛ فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق من مثله أن يقتنى في خزائن الملوك»^(١).

وبعد هذا يمكن القول: أن معاوية ومن جاء بعده قد أطلعوا كُتَّابهم على العهد المذكور ولهذا كثر تأثرهم به.

الوقفه الثالثة

شبهة الصيغ الفلسفية والإصطلاحات الكلامية

أو مباحث علم التوحيد والعدل الإلهي

يُعرَّف علم الكلام أو علم التوحيد بأنه «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، وهذا العلم - فيما أعتقد - هو النتاج الخالص للمسلمين»^(٢) ومن أوائل أولئك المسلمين هو أمير المؤمنين عليه السلام، فقد اشتهر بالبحث الدقيق والمعتمد في هذا العلم، لأنه أراد نشر الصفات الإلهية الحقّة غير المتلبّسة بالترسبات اليهودية والمسيحية مثل التجسيم والتشبيه وهذه العملية «لم تكن عملية سهلة أبداً بل كانت ضرباً من ضروب المجازفة والمخاطرة بأعزّ ما يملكه المبلِّغ التوحيدي»^(٣). وهذا العلم هو وحده من أنصف الذات الإلهية،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ / ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٣٠.

(٣) الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ٣٩٥.

وهو الذي ردَّ ويردُّ على أولئك الذين كأثمهم «خلقوا ألهتهم بأيديهم»^(١).

وأمر المؤمنين عليه السلام بنهضته تلك قد رام التأكيد على أن الدين الإسلامي الحنيف هو مثلاً قال الدكتور نظمي لوقا: «دين يؤكّد وجود الله، وأنّه خالق الخلق، وأنّه الكامل المتفرد بالكمال، بيده الأمر، وهو على كل شيء قدير... ويؤكد وحدانية الله توحيداً يقضي على عقايل التعددية في تصوّر الإله... ويلزم كذلك أن يؤكد هذا الدين التنزيه لله، حتى لا يُنزلق إلى التجسيم الذي طالما وقعوا فيه بعد كلّ دعوة للتوحيد بين غلبة الحسّ عليهم»^(٢).

لكن أهل البيت عليه السلام الذين يمكن تسميتهم بسفراء هذا العلم، دفعوا ضريبة عملهم هذا نتيجة حملهم ونشرهم هذه العلوم التوحيدية في ذلك المجتمع الفلسفي المتناقض^(٣)، وكان من تلك الضريبة أن شكَّك في كلامهم هذا وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام. قال أحمد أمين مشككاً في نهج البلاغة: «واستوجب الشكّ هذا أمور: ما في بعضه من سجع منمّق، وصناعة لفظية...»^(٤). وإلى هذا ذهب أيضاً الأستاذ أحمد زكي صفوت بحجة «أنّ هذا الأسلوب المنطقي لم يعهد في كلام العرب، ولم يستعمله العلماء إلا بعد ترجمة المنطق والعلوم الدخيلة، وذلك العصر لم يدركه الإمام»^(٥).

ردَّ العلماء على هذه الشبهة بردود عدة، ومن ذلك ما قاله محمّد جواد مغنية:

(١) م. ٣٩٥.

(٢) م. ٣٩٣.

(٣) ينظر: م. ٣٩٥.

(٤) فجر الإسلام ١٤٩.

(٥) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٤٤.

«... والغريب أنَّ هؤلاء المنكرين لا يستكثرون على ابن خلدون الكلام في علم الاجتماع قبل أن يعرفه روسو ومنتسيكو، وأن يقولوا عن علومه ومعارفه: تدفق فجائي وحس باطني وأختار لا شعوري، ثم يستكثرون على باب مدينة العلم.. أن يصفَ البارئ بصفات تليق بجلاله... وهو أعرف الناس به بعد الرسول»^(١).

أما الباحث فيدحض هذه التهمة بطريقتين:

الطريق الأول

شهرته عليه السلام العريضة على مر العصور الماضية بهذا العلم

إنَّ هذا العلم هو من المسلّمات التي عُرِفَت عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي أكده مهرة الفنّ، وأصحاب المصنفات في مصنفاتهم على مرّ العصور. فمثلاً الكليني (ت ٣٢٨هـ) وبعد أن نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام إحدى خطبه في التوحيد قال: «وهذه الخطبة من مشهورات خطبه عليه السلام، حتى لقد ابتذلها العامة، وهي كافية لمن طلب علم التوحيد إذا تدبّرها وفهم ما فيها، فلو اجتمع ألسنة الجنّ والإنس ليس فيها لسان نبيّ على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى به - بأبي وأمي - ما قدروا عليه ولولا إبانته عليه السلام ما علم الناس كيف يسلكون سبيل التوحيد»^(٢).

فواضح إذاً من كلام الشيخ الكليني أنَّ هذه الخطبة في التوحيد من مشهورات خطبه، بل أصبحت مبتذلةً من كثرة تداولها بين العامة. والكليني توفي قبل أن يجمع نهج البلاغة بـ (٧٢) عاماً.

(١) فضائل الإمام علي ٧٣.

(٢) الكافي ١ / ١٣٦.

أما المرتضى (ت ٤٣٦) فقد قال في أماليه: «اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - وخطبه، فإنها تتضمن من ذلك ما لا زيادة عليه، ولا غاية وراءه، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه علم أن جميع ما أسهب المتكلمون من بعد في تصنيفه وجمعه، إنما هو تفصيل لتلك الجمل، وشرح لتلك الأصول»^(١).

ثم استشهد الشريف المرتضى بأمثلة عدة على ذلك منها قوله عليه السلام في وصف الله تعالى:

«لا تشبهه صورة، ولا يُحسُّ بالحواسِ الخمسِ، ولا يُقاسُ بقياسِ النَّاسِ»^(٢).

وقد عدَّ ابنُ أبي الحديد هذا العلم أعلى مناقب أمير المؤمنين عليه السلام على كثرتها، وإن جميع من جاء بعده فعنه أخذ في هذا المضمار، فقال: «واعلم أن التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهية، ما عُرِفَتْ إلا من كلام هذا الرجل،... وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه السلام»^(٣).

والقائمة تطول بأسماء هؤلاء ونختهمم بالعلوي (ت ٧٤٥) فقد نقل كثيراً من حكم أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه بهذا الصدد، وقد توسَّع في شرحها والتعليق عليها، فبعد أن أورد كلام الإمام علي عليه السلام «التوحيد ألا تتوهمه، والعدل إلا تتهمه»^(٤) قال: «هاتان الكلمتان قد جمعتا وحازتا علوم التوحيد على كثرتها، وعلوم الحكمة على غزارتها، بالطف عبارة وأجزها. ولو لم يكن في كلام أمير

(١) أمالي المرتضى ١/ ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) م. ١٦٣/ ١٠.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٤١٠.

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٢/ ٢٥١.

المؤمنين ﷺ في علوم التوحيد والعدل إلّا هاتان الكلمتان لكانتا كافيتين في معرفة فضله، وإحرازه لدقيق علم البلاغة وجزله..»^(١).

وهنا بوّد الباحث أن يتساءل:

هل كُل هؤلاء الذين صرّحوا وأكّدوا بأنّ أمير المؤمنين كان مبرّزاً في هذه الحلبة أي حلبة علوم التوحيد كانوا يكذبون؟ - أجلّهم الله - أم كانوا مُغفلين؟ أم كانت في كلامهم محاباة؟ ولأي جهة كانت هذه المحاباة؟ أم كانوا ماذا؟.

إذا لم تكن هذه الخطب العظيمة لأمر المؤمنين ﷺ إذاً لمن هي؟ لماذا لم يصرح بها صاحبها ويحز ذلك الفضل الذي لم تُحزّه الأوائل؟ ولماذا المشككون لم ينسبوها حتى نعرف قائلها؟.

أين علماء القرن الثاني والثالث بل الرابع والخامس وحتى القرن الثالث عشر - وقد رأيت معي لمن كان حُكْمُهُم - من هذا التشكيك؟ هل يعقل خفي الأمر هذا على جهابذة العلم لما يقارب (١٠٠٠) عام؟ حتى يأتي في العصر الحديث الأستاذ الكبير أحمد أمين ويخالف ذلك والأستاذ الكبير أحمد زكي صفوت الذي قال: «وإنّا نسوّغ لأنفسنا أن نقول: من الجائز أن يكون بعض غلاة الشيعة قبل الشريف الرضي قد دسوا على الإمام بعض الخطب..»^(٢). وهل هذا صحيح تأتي هكذا شخصيات لها قدم راسخ في مجال تخصصها وتنفي تراث عظيم قد شهد به الجميع؛ لأنّ الأستاذ قد «سوَّغَ» لنفسه. ألا يعلم وهو الخبير أن الباحث العلمي يميل مع الدليل لا مع ما تسوّغه النفس الأمّارة.

(١) م. ن ٢٠١١ / ٢.

(٢) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٥٨.

الطريق الثاني

طريق تأثير هذا الفن النثري والتأثير به

فبعد أن رسخت قدم أمير المؤمنين عليه السلام في هذا العلم وانتشرت خطبه التوحيدية «التي ستشكل لاحقاً حجر الأساس في عملية انتشار الأيديولوجيا الإسلامية التوحيدية... التي أرادها الرسول عليه السلام أن تنتشر على نطاقٍ أوسع بين الناس»^(١) انتشرت بالفعل، وأخذت صدها الواسع في التأثير، فكان من أوائل الذين تأثروا أبناءه وأحفاده عليه السلام. ونذكر منهم علماً واحداً وهو الإمام السجاد (استشهد ٩٥ هـ) عليه السلام فمما روي عنه من هذا النوع من الكلام قوله في الصحيفة السجادية:

«الحمدُ لله الأوّل بلا أوّلٍ كان قبله، والآخر بلا آخرٍ يكون بعده، الذي قَصُرَتْ عن رُؤيته أبصارُ الناظرين، وعجزت عن نعته أوهامُ الواصفين»^(٢).

وشبيه هذا كثير في خطب الإمام علي عليه السلام منها قوله:

«وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: الأوّل لا شيء قبله والآخر لا غاية له، لا تقع الأوهام له على صفة، ولا تُعقّد القلوب منه على كيفية...»^(٣).

ومنها:

«الحمدُ لله الأوّل قبل كلّ أوّلٍ، والآخر بعد كلّ آخرٍ، وبأوليّته وجب أن لا أوّل له، وبآخريّته وجب أن لا آخر له...»^(٤).

(١) الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ٣٩٣.

(٢) الصحيفة السجادية ٢٧.

(٣) نهج البلاغة ١٢٥.

(٤) م. ن ١٦٦.

وقال الإمام السجاد عليه السلام متأثراً بجده أيضاً:

«الحمد لله الذي... كلّت الألسن عن غاية صفته وأنحسرت العقول عن كنه معرفته...»^(١).

وهنا تضمين لكلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف عن كُنْهِ معرفته...»^(٢).

وبعد ذلك لم يعد الأمر مختصاً بأمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام فحسب، بل نجد أنّ هناك من تخرج بخطب الإمام هذه، وعلى رأس أولئك المعتزلة - الذين هم أهل التوحيد والعدل، وأرباب النظر، ومنهم تعلّم الناس هذا الفن - فهم تلامذته - أي الإمام - وأصحابه عليهم السلام؛ لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم^(٣) عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليه السلام^(٤).

فواصل بن عطاء كان كثير التأثير بخطب أمير المؤمنين عليه السلام التوحيدية ومن خطبه التي بان فيها هذا الأثر قوله:

«الحمد لله... الذي علا في دُنُوّه، ودنا في علوّه...»^(٥).

وهذا كقوله عليه السلام:

(١) الصحيفة السجادية ٢٥١.

(٢) نهج البلاغة ٢٤٩.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام يكنّى أبا هاشم كان كثير العلم والرّواية توفي في

خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨. ينظر: تاريخ دمشق ٣٢/ ٢٧٢.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٢٣. ينظر: الثقات ٧/ ٢.

(٥) جمهرة خطب العرب ٢/ ٥٠١.

«قُرْبَ فَنَائِي، وَعَلَا فَدْنَا، وَظَهَرَ فَبَطْنٌ، وَبَطْنٌ فَعَلَنٌ»^(١).

وكقولهِ عليه السلام أيضاً:

«سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَاشِيءٌ أَعْلَى مِنْهُ، وَقُرْبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَاشِيءٌ أَقْرَبُ مِنْهُ»^(٢).

وهكذا كان يسير قطار العلوم التوحيدية بشحناتٍ ورثها عن أمير المؤمنين عليه السلام ليصل إلى أبي إسحاق الصابي^(٣) (ت ٣٨٤هـ)، الذي قال واصفاً الله تعالى بأوصافٍ إستقفاها من الإمام علي عليه السلام: «لا تحده الصفات، ولا تجوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيره مرور زمان، ولا تتمثله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القلوب بخواطرها...»^(٤). فقوله: «لا تحده الصفات» عن قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«الذي ليس لصفته حدٌ محدود...»^(٥).

(١) نهج البلاغة ٣٥٨.

(٢) م. ن ٨٢.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال، الأديب البليغ صاحب الرسائل المشهورة كان صابئاً مشركاً وكان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة عز الدولة بختيار بن معز الدولة سنة (٣٤٩) كان يصوم رمضان موافقة وحسن عشرة للمسلمين ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسنّ قلمه. وعندما توفي رثاه الرضي بقصيدة مشهورة منها: أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي. وعاتبه الناس على ذلك فقال إننا رثيت فضله ت (٣٨٤هـ) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٢٣. وينظر: وفيات الأعيان ١/ ٢١٢. وينظر: النشر الفني في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٥٣.

(٤) النشر الفني في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٦٠.

(٥) نهج البلاغة ١٥.

وقوله: «لا تتمثل العيون بنواظرها» كقوله عليه السلام:

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان»^(١).

ويبدو أن الدكتور زكي مبارك تنبّه لأثر أمير المؤمنين عليه السلام على أبي إسحاق الصابي، وإلا كيف قال: «ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضي على لسان علي بن أبي طالب لرأينا الصابي يستقي من نفس المنبع الذي استقى منه الشريف»^(٢).

وينبغي هنا لفتُ الانتباه إلى نكتة وهي أن أبا إسحاق توفي (٣٨٤هـ) أي قبل أن يُجمع نهج البلاغة بـ(ستة عشر عاماً)، وهذا دليل آخر على أن تلك الخطب كانت معروفة ومؤثرة قبل جمع النهج.

وصفوة القول هنا إنّ العلوم التوحيدية أو مباحث العدل الإلهي التي برع بها أمير المؤمنين عليه السلام كانت موجودة وفاعلة ومؤثرة، ولإثباتها سلكت الدراسة أكثر من محبّة بيضاء.

الوقفّة الرابعة

شبهة السجع

السجع لغة:

قال الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ): «سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن، كما قيل: لَصُّهَا بَطْلٌ وَتَمَرُهَا دَقْلٌ.. ويسجع سجعاً

(١) م ٢٠ ن ٢٩٨.

(٢) النشر الفني في القرن الرابع الهجري ٢/ ٢٦١.

فهو ساجع، وسجّاع، وسجّاعة»^(١).

أما اصطلاحاً: فهو مجيءُ الكلام المنشور على رويٍّ واحد، فتصبح الكلمتان في آخر كلّ فقرتين أو أكثر على حرف معين، بغية أن يكتسب النثر ضرباً من الموسيقى والتنغيم، ويجازي عاطفة قائله، ويثير نفس سامعه^(٢). وكان له «منزلةٌ سنّيةٌ بين العرب في الجاهلية وكان يغمّر كلامهم»^(٣). والسجع «لم يخلُ منه عصر من عصور الأدب، ولا نستثني من ذلك عصر صدر الإسلام»^(٤). وهكذا جاء السجع العلوي مزداً بالعفوية، كقوله:

«قد استطعموكم القتالَ، فأقروا على مذلةٍ، وتأخير محلةٍ، أو روّوا السيوفَ من الدّماء تروّوا من الماء»^(٥).

ولكنّ هذا السجع الذي جاء في نهج البلاغة أُنخذه بعض الباحثين الكبار ذريعةً للتشكيك في الكتاب. قال الدكتور شوقي ضيف «وكأنّ الشريف الرضي وجد مادةً صاغ منها كتابه، وهي مادة بُنيت على السجع، وفي ذلك نفسه ما يدلُّ على كذب نسبتها إلى علي»^(٦).

أمّا الأستاذ أحمد زكي فقد أدلى بدلوّه وكأنّه يردّ على من شكّك في سجع الإمام علي عليه السلام، فقال: «أمّا ما ورد في كلامه من السجع فليس ببدعٍ أن يسجع

(١) كتاب العين ١/ ٢١٤.

(٢) ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢٧/ ١١٤.

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ١٢٥.

(٤) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي القديم ٢٠٧.

(٥) نهج البلاغة ٨٣.

(٦) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٦٢.

علي، وقد جاء فيه سجع مقبول متسق لا يُستوحش منه. وأنت إذا تأملت خطبَ الجاهلية ألفت كثيراً منها مسجوعاً... والقرآن لا يخلو من هذه الحلية، وقد بُنِيَ آياتٌ وفيرة العدد بل سورة طويلة كاملة على قافية واحدة - انظر سورة مريم والقمر والرحمن والدرهم - وكذلك وردَ السجع في كلام الرسول - ﷺ - . على أني أخالك تسلم معي بأن الخطب المسجوعة - سجعاً غير متنافر - لها رنين في النفس يهزُّ الأفتدة ويأخذ بمجامع الألباب. وعليّ في خطبه يبغي أن يلين القناة الجامدة ويجمع الأهواء الشاردة، ويستهيوي الأفتدة المستعصية..»^(١).

وهذا ردٌّ كافٍ ووافٍ على مَنْ لا يقرُّ بالسجع عند الإمام علي (عليه السلام)، لأنَّ السجع موجودٌ في الجاهلية كخطبة قيس بن ساعدة الأيادي التي ينقل الجاحظ أن الرسول الأكرم ﷺ نقلها:

«أيُّها الناس اجتمعوا، فاسمعوا، وعوا. من عاش مات، ومن مات فات...»^(٢).

وموجودٌ في القرآن مثلما استشهد الأستاذ بأربع سورٍ قرآنية، ثم دعمَ الأستاذ رأيه بالأسجاع التي وردت في الكلام النبوي الشريف ومن ذلك قوله ﷺ:

«يا أيُّها النَّاسُ: أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ...»^(٣).

وميزة السجع عند الإمام علي (عليه السلام) وبحسب رأي الأستاذ أيضاً هو «مقبول متسق لا يستوحش منه «لأنَّه كان» يبغي أن يلين القناة الجامدة... ». ومع هذا كلِّه ختم

(١) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٥١.

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٨٦.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٦٥.

٧٢ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

الأستاذ كلامه بعبارة فيها شيء من الغرابة لما قال: «على إنا مع هذا كله لا نطمئن إلى جميع ما ورد في النهج من كلام مسجع، ولا نرتاح إلى الثقة به ثقة مطلقة»^(١).

فلماذا هكذا يقول الأستاذ وهو الذي قدّم ما قدّم عن انتشار السجع بعامة وعند أمير المؤمنين عليه السلام بخاصة؟ ثم ما هي هذه الأسجاع التي لا يطمئن لها؟ حبذا لو ذكر عنها خطبة أو جملة، ليتبين سبب عدم قبوله لها.

ولم يقل أحد بأن ما ورد من أسجاع في كلامه عليه السلام كان متكلفاً مثلما عرف في العصر العباسي، بل كان عفوي الخاطر، مصنوعاً من التكلف، وكان زينة تزدان بها خطبه ورسائله، والسجع إذا كان هكذا «لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه»^(٢). فمن أسجاعه العجيبة ما جاء في كتابه الذي بعثه إلى عبد الله بن عباس (ت ٦٧هـ):

«أما بعد، فإن مصر قد أفتتحت ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد أستشهد؛ فعند الله نحسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، ورُكناً دافعاً...»^(٣).

فجاءت الفواصل بكلمات كلها منصوبة (جهراً، بدءاً، كارهاً، كاذباً...) وقد أحسن ابن أبي الحديد عليها تعليقاً، إذ قال: «أنظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها؛ وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه؛ سلسلة سهلة، تتدفق من غير تعسف ولا تكلف... وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة، جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة،

(١) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٥٢.

(٢) الصناعتين ٢٦٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٣٠٠.

فإن أرادوا قسرها بإعرابٍ واحد ظهر منها في التكلف أثرٌ بيّنٌ، وعلامةٌ واضحة، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن»^(١).

وبسبب هكذا أسجاع عدّ الكاتب (نرسيان) رئيس الكتاب في القنصلية البريطانية عدّ نهج البلاغة متفوقاً على كلّ كلام عربي لكثرة ما فيه من السهل الممتنع وأنقياد الأسجاع الصعاب دونما تكلف^(٢) مستشهداً بقوله (عليه السلام):

«أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، وشُغِفَ الأستار، نطفةً دهاقاً، وعلقةً محاقاً، فجنيئاً وراضعاً، ووليداً ويافعاً...»^(٣).

ثم قال هذا الكاتب متمنياً: «لو كان يرقى هذا الخطيب العظيم منبر الكوفة في عصرنا هذا لرأيتم مسجدها على سعته يتموّج بقبّعات إلفرنج للإستقاء من بحر علمه الزاخر»^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٣٠١.

(٢) ينظر: ما هو نهج البلاغة ٧.

(٣) نهج البلاغة ١٢٠.

(٤) ما هو نهج البلاغة ٧.

المبحث الثاني

عبقريّة الإمام علي عليه السلام الأدبيّة ومرجعيتها

لم يشتهر في التراث العربي كلام بعد القرآن الكريم، وكلام النبي محمد ﷺ كاشتهار كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أشرق في مملكة الأدب إشراق الشمس في رابعة النهار، ولشدة تأثيره وُصِفَ بأنّه «قريباً من حدِّ الإعجاز»^(١)، وقيل هو «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»^(٢)، وما قرب من حدِّ الإعجاز فإنَّ الأنام حتماً عجزوا عن مضاهاته، أو الإتيان بمثله، ولكن ما لا يُدرك جلّه لا يترك كلّ، فراح الأدباء صوب هذا الكلام للإستعانة به؛ فهو خيرٌ معين لمن أراد أن يجعل لنتاجه الأدبي سوقاً رائجة، وهذا ما شهد به الشريف الرضي، إذ قال وهو يقدّم لكلام جدّه: «كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرّع الفصاحة وموردها،

(١) في رحاب نهج البلاغة ١٨، وينظر: تاريخ الأدب العربي ١٨٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٨/١.

٧٦ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ومنشأ البلاغة ومولدها؛ ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها؛ وعلى أمثلته هذا كلُّ قائلٍ خطيب، وبكلامه استعان كلُّ واعظٍ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وقد تقدّم وتأخروا^(١).

ولكن ما الذي جعل من عليّ بن أبي طالب عليه السلام متربّعاً على عرش البلاغة والفصاحة مالكاً بزمامهما تدوران معه حيثما دار؟.

أرجع أغلب الباحثين عبقرية أمير المؤمنين عليه السلام البلاغية هذه إلى سببين أو ثلاثة، فمثلاً الأستاذ أحمد حسن الزيات أرجع سمو الإمام في هذا الجانب إلى أمرين: خلاطه بالرسول عليه السلام، ومرانه على الخطابة منذ حداثة سنّه فقال: «وهو بالإجماع أخطب المسلمين، وإمام المنشئين... وما نظنُّ ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه للرسول، ومرانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله»^(٢).

في حين رأت الدكتورة إبتسام مرهون الصفّار إنّ من وراء تلك العبقرية العلوية الأدبية القرآن الكريم، فقالت إنّ الإمام يمتلك تراثاً جمّاً يمثّل قدرة هذه الأمة العظيمة على الخلق والإبداع متمثلة بقابلية الإمام البلاغية وقدرته في التعبير عن شتى المعاني بأسلوب رائع مؤثر. وقد استمدّ معانيه وأفكاره من معين القرآن الذي نهل أدبه، وارتوى من آياته^(٣).

وهذه الأسباب - على أهميتها القصوى - لم تكن هي وحدها التي أنتجت ذلك البليغ المؤثر، زعيم دولة البلاغة، وقائد صولة الفصاحة^(٤)، لأنّ الذين

(١) نهج البلاغة ٨ - ٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٨٧، وينظر: تأريخ الأدب العربي (العصر الأموي) ٢٣٣.

(٣) ينظر: أثر القرآن في الأدب العربي ١٨٦.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٥.

حفظوا وكتبوا وتعلّموا القرآن والحديث النبوي هم كثيرون، ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه عليه السلام ولم يبلغوا ما بلغ، بل المتأمل في شخصيته وتأريخه يجد أسباباً عدّة اجتمعت في شخصه عليه السلام دون أن تتوفر لغيره، مكنته من هذا الإبداع الأدبي، والتي أوجبت فيما بعد التأثير العميق على الأدباء. ومن هذه الأسباب:

أولاً

الجانب الوراثي

وُلِدَ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام من أسرة عربية خالصة، فأبوه أبو طالب (رضوان الله عليه) كان شريفاً عظيماً «يمتلك ناصية الخطابة وله شعر جيد»^(١). وأُمُّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهي أوَّلُ هاشمية ولدت هاشمياً^(٢)، وقال المسعودي (ت ٣٤٦هـ): «وكان أوَّل من وَلَدَهُ هاشميَّان من الخلفاء»^(٣).

ولم يقتصر الأمرُ على والدي الإمام عليه السلام، بل أبعد من ذلك فعليُّ عليه السلام سليل الدوحة الهاشمية التي امتازت بمزايا كريمة وخلال حميدة سواءً في الجاهلية، أو الإسلام، فقال هو في ذلك:

«فإسلامنا قد سُمِعَ، وجاهليتنا لا تُدفع»^(٤).

وجاهليتنا لا تدفع أي «إنَّ شرفنا في الجاهلية لا ينكره أحد»^(٥). وهذا ما

(١) روائع البيان في خطب الإمام: ٧٧.

(٢) ينظر: الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ١٣٥.

(٣) مروج الذهب ٢/ ٣٥٠.

(٤) نهج البلاغة ٤٥٢.

(٥) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده: ٣٧٦.

أكدّه الرسول الأكرم ﷺ في أكثر من تصريح فمن ذلك قال مفتخراً بنفسه: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِبْرَاهِيمَ، وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ...، ثُمَّ اصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ اصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي هَاشِمِ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ ثُمَّ اصْطَفَانِي مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ»^(١).

أمّا الفصاحة والبلاغة فكانت إحدى ميزاتهم التي لا تُنكر بشهادة كبار المسلمين. قال ابن عباس (ت ٦٧هـ): «أعطى الله عزَّ وجلَّ بني عبد المطلب سبعاً الصباحة، والفصاحة، والسماحة، والشجاعة، والحلم، والعلم، وحب النساء»^(٢) ثم إننا بعد ذلك نجد الإمام السجاد عليه السلام (استشهد ٩٥هـ) قد أكد مواهب السماء هذه وذلك في خطبته التي خطبها في مجلس يزيد بن معاوية، والتي أفتتحها بقوله:

«أَيُّهَا النَّاسُ أُعْطِينَا سِتًّا، وَفُضِّلْنَا بِسَبْعٍ: أُعْطِينَا الْعِلْمَ، وَالْحِلْمَ، وَالسَّمَاةَ، وَالْفَصَاةَ، وَالشَّجَاعَةَ، وَالْحُبَّةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ...»^(٣).

وعلى أية حال فإنَّ الجانب الوراثي من الجوانب الفاعلة التي تلعب دوراً بارزاً في رسم الشخصية بشتى توجّهاتها. وهذا ما يراه علم الجينات الحديث، فقد أكد على أنَّ وراثة الفرد تتكوّن أساساً من موروثات نوعية يتلقاها من كلّ من والديه عند الحمل، إذ إنّ الخليتين عند الأبوين اللذين نشأ منهما الفرد تحتوي كلّ منهما على مئات الآلاف من جزئيات دقيقة تسمى بالموروثات، وهذه الجزئيات الموروثة هي المسؤولة عن انتقال الصفات الوراثية من الأبوين والأجيال السابقة

(١) ذخائر العقبى ١٠.

(٢) م. ن ١٥.

(٣) بحار الأنوار ٤٥ / ١٣٨.

إلى الفرد^(١). وما يهّم الدراسة من هذا الأمر هو أن أحد الأسباب الكامنة وراء بلاغة الإمام علي عليه السلام ما ورثه عن آبائه من مقدرة عالية في هذا الجانب، ثمّ تعزيزه إياها بروافد أخرى، فكان مثلاً لقول معروف الرصافي:

وخيرُ الناسِ ذو حسبٍ قديمٍ أقامَ لنفسه حسباً جديداً^(٢) (الوافر)

ثانياً

الأثر النبوي في كلام الإمام عليه السلام

للحديث عن العلاقة بين الرسول الأكرم عليه السلام، وبين أمير المؤمنين عليه السلام، وإفرازات هذه العلاقة على مسيرة الإمام عليه السلام الإبداعية وبخاصة الأدبية منها ينبغي تكرار أمرين هامين:

الأول:

إنّ النبي محمد عليه السلام وفي جانب من جوانب شخصيته العظيمة هو ذلك الأديب العربيّ الأسمى الذي بزّ أهل الفصاحة في وقت وصلوا فيه إلى الذروة في هذا الميدان، فقال:

«أنا أفصحُ العربِ بيدَ أيّ من قريشٍ»^(٣).

وقال:

«أنا أفصحُ مَنْ نطقَ بالضّاد»^(٤).

(١) ينظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ٣٥.

(٢) ديوان معروف الرصافي ٩٨ / ١.

(٣) التلخيص الحبير ١٤ / ٤.

(٤) السيرة الحلبية ٣٠ / ١.

ولا جَرَمَ أنَّ هذه القدرة العالية التي كان يمتاز بها مَكَنَّتْهُ مثلما قال الرافعي من: إنْتِزاع المذاهب البيانية، واقتضاب ألفاظٍ كثيرةٍ لم تُسَمَّعْ من العرب قبله، ولم توجد في متقدِّم كلامها، وهي تُعَدُّ من حسنات البيان، لم يتفق لأحدٍ مثلها في حُسْنِ بلاغتها^(١).

الثاني:

إنَّ القرابة أو العلاقة بينهما عليه السلام وعلى الرغم من معرفتهما لدى العامة والخاصة، إلّا أنَّها أصعب بكثير من أن يُحاط بتفاصيلها ودقائقها، فإن شئت قلت أنها علاقة «من نوع علاقة موسى بهارون»^(٢) علاقة قائمة على الاصطفاء من جانب المصطفى عليه السلام «إكراماً لعلِّي، وفي روح عليٍّ كانت الاستجابة حاضرة، مسرعة، متشوّقة»^(٣). أو هي مثلما وصفها الحبيب المصطفى بقوله: «عليٌّ مِنِّي بمنزلة رأسي من جسدي»^(٤). علماً أنَّ هذه القرابة القريبة بين هذين العظميين لم يخلُ منها الذكر الحكيم، والذي يُعدُّ بدوره أدقَّ من وصفها، وأبلغ من عبَّر عنها وذلك في قوله تعالى:

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٥).

فالمراد بـ «أنفسنا» بحسب ما أورد السيوطي (ت ٩١١ هـ) في الدر المنثور:

(١) ينظر: تأريخ آداب العرب ٢/ ٢٦٢.

(٢) عليٌّ سلطة الحق ٧٥.

(٣) م. ن ٧٥.

(٤) ميزان الحكمة ١/ ١٤٤.

(٥) آل عمران ٦١.

«رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام»^(١).

أما أمير المؤمنين عليه السلام فكثيراً ما كان يتغنّى بهذه العلاقة وقد وصفها بـ :

«القرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعتني في حجره وأنا ولدٌ (وليد) يضمُّني إلى صدره، ويكنُّني في فراشه ويمسُّني جسده... ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه»^(٢).

في كل الظروف والأوقات ففي السلم «كان علي بن أبي طالب أول من صلّى مع النبي، فكانت البداية مُتَلَتِّة بالقوة، لأنها دجّت ذات علي بذات النبي القائد دمجاً لا فجوة فيه»^(٣). وفي الحرب «كان علي منجلاً الموت الذي يلاحق رؤوس قريش من أعداء دين الله فيقطعها قطعاً... كان المؤيد دائماً برسول الله المقرب إليه المرموق منه بعين الحب والرعاية. لم تفت به فرصة واحدة مذ دخوله المدينة إلا إجتباه الرسول دون سواه»^(٤).

وعلى أية حال فإن القيمة الأدبية العظمى التي كان يمتاز بها «أفصح من نطق بالضاد عليه السلام» وبفعل تلك القرابة القريبة - بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام - التي تجسّدت في «السيرة، والسلوك، وفي الأفكار والحياة اليومية»^(٥) ألقت بظلالها على مسيرة أمير المؤمنين عليه السلام، لاسيّما الأدبية منها حتى أصبح من الصعب التمييز بين بعض كلامهما لأنّهما بحسب وصف الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ):

(١) الدر المنثور ٢/ ٣٩. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٥. وينظر: تفسير الميزان ٣/ ٢٦٥.

(٢) نهج البلاغة ٣٤٨.

(٣) علي سلطة الحق ٦٤.

(٤) المجموعة الكاملة للإمام علي بن أبي طالب ١/ ٦٣.

(٥) علي سلطة الحق ٦٤.

«مُسْتَقَاهُمَا مِنْ قَلِيلٍ^(١)، وَمَفْرُوعُهُمَا مِنْ ذَنْوبٍ^(٢)»^(٣).

أمّا مواطن كلام الإمام التي برز فيها الأثر النبوي فكثيرة، ومنها خطبته عليه السلام التي قال فيها:

«الْمَغْبُوءُ مِنْ عَيْنِ نَفْسِهِ... وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ»^(٤).

فأخر الخطبة تضمين حربي لقول سيد المرسلين عليه وآله:

«السعيد من وُعِظَ بغيره»^(٥).

ومن تضمينه لكلام الرسول عليه وآله أيضاً قوله عليه السلام:

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٦).

فهذا أيضاً تضمين حربي لقول المصطفى عليه وآله:

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٧).

ثالثاً

الأثر القرآني في كلام الإمام علي عليه السلام

لا يخفى الأثر الواسع الذي أحدثه كتاب الله العزيز حال نزوله على اللغة

(١) القلب: البئر وجمعها قُلب ينظر: لسان العرب مادة (قلب) ٦٨٩ / ١.

(٢) الذَّنوب: الدَّلُو فيها ملؤها أو قريبٌ منه، وقيل هي المَلَأَى ولا يقال لها وهي فارغة ينظر: م. ن. مادة (ذنب) ٣٩٢ / ١.

(٣) نهج البلاغة ٥٩٣.

(٤) م. ن ١٢٧.

(٥) الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى ٨٠ / ١.

(٦) نهج البلاغة ٥٨٣.

(٧) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ٢٧ / ١.

العربية والناطقين بها عموماً، فقد كان هذا الأثر واضحاً في الإسلوب، والمعاني والألفاظ، حتى أصبحت اللغة العربية بفعله لا تزداد في «كُرَّ الغداة ومَرَّ العشيَّ إلا قداسةً وجلالاً، جعلها تشبث بالبقاء وتمشي إلى الخلود»^(١).

لقد أدرك الأدباء في وقت مبكر هذه النقلة الجديدة وهذا التطور الذي أحدثه القرآن الكريم، والذي لم يكن بحسبان أحدٍ منهم، فحاولوا «أن يصوغوا آثارهم الأدبية من شعرٍ ونثرٍ مهتدين بهدي ديباجته الكريمة وحاشيته الدقيقة وعباراته السلسة، وعكف عليه علماء اللغة وفنونها فهيمن على عقولهم وامتلك مقادَهُ أذواقهم حتى أينعت ثماره في جميع فنونهم فظهرت للقرآن نتائجٌ فريدةٌ في اللغة والأدب والبلاغة والنقد»^(٢). غير أنَّ هذا التأثير القرآني ظلَّ متفاوتاً على الشخصيات الإسلامية وغيرها من شخصٍ لآخر، ولكنه بلغ الذروة على أمير المؤمنين عليه السلام حتى عدَّ كلامه المثل الحي، وفعله التطبيق الواعي لكلام الله تعالى وغدت تربطهما علاقة حميمة وصداقة صدوقة خالدة بخلود الحديث الشريف:

«لَنْ يَفْتَرَقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»^(٣).

وهذا مرّده إلى إيمانه عليه السلام المطلق بمبادئ القرآن الكريم: أوامره ونواهيه جميعاً، ومرّده أيضاً إلى الجهد الجهد الذي بذله مع القرآن الكريم على صعيد الحفظ، والجمع، والتفسير أمّا الحفظ فقال ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ): «اتَّفَقَ

(١) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية: ٣١.

(٢) نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم ١٨٤.

(٣) الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله... وعترتي أهل بيتي وإنهما لن

يفترقا حتى يردا عليَّ الحَوْضَ» مسند أحمد بن حنبل ١٧ / ١٧٠. وينظر: المعجم الكبير ٣ / ٦٥.

وينظر: المعجم الأوسط ٣ / ٣٧٤. وينظر: السنن الكبرى للنسائي ٥ / ٤٥.

الكُلُّ على أَنَّهُ كَانَ يحفظ القرآن على عهد الرسول ﷺ ولم يكن غيره يحفظه، ثم هو أولُّ من جمعه»^(١). وبهذا - أي الجمع - صرح ابن النديم قائلاً: «فأقسم أَنَّهُ لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن؛ فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قبله... ورأيتُ أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقط منه أوراق بخطِّ علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن على مرِّ الزَّمان، وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف»^(٢).

وهذه العملية - أي عملية جمع القرآن - أصبح من المتاح والميسور الكشف عن تجلياتها في نتاجه، وبأنواعه وأغراضه المتعددة؛ كونها أثمرت وأصبحت سبباً رئيساً في جعل علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) خطيباً مفوهاً.

ثمَّ بعدَ الحفظ والجمع للقرآن الكريم برع عليه السلام في علمه وتفسيره لكلام الله تعالى، قال القرطبي (ت ٦٧١): «فأمَّا صدر المفسِّرين والمؤيد فيهم فعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس»^(٣) الذي قال: «ما أخذتُ من تفسير القرآن فعن عليِّ بن أبي طالب»^(٤).

ولكن كُلَّ من وصفَ أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المضمار لا يرقى إلى حقيقته، ولا إلى ما وصف به نفسه، لأنَّه أعلم بنفسه من غيره، ولهذا جاء تصويره لمنزلته العلمية أدق بكثير مما قيل فيه على الأقل في هذا الجانب، فقال عليه السلام واصفاً علمه بالكتاب العزيز:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٣٠.

(٢) الفهرست لابن النديم ٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٣٧.

(٤) م ١٠ ن ٣٧.

«.. ما بَيَّنَّ لَوْحِي المصحفِ من آيةٍ إلَّا وقد علمتُ فيمنْ نزلت، وأينْ نزلت، في سهلٍ أو في جبل، وإنَّ بينَ جوانحي لعلمًا جمًّا، فسلوني قبل أنْ تفقدوني فإنكم إنْ فقدتموني لم تجدوا من يحدثكم مثل حديثي»^(١).

وهذا الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم على كلام الإمام القويم هو الذي دفع كرينكو - أستاذ الآداب العربية في كلية عليكرة الهندية - عندما سُئِلَ عن الإعجاز القرآني إلى القول: «إنَّ للقرآن أخاً صغيراً يسمى نهج البلاغة فهل في إمكان أحدٍ منَّا أن يأتي بمثل هذا الأخ الصغير حتَّى يسوِّغ لنا الدراسة عن الأخ الكبير»^(٢). فالمستشرق بكلامه هذا قد عدَّ نهج البلاغة طريقاً مهيعاً وعلماً دالاً على فهم النصِّ القرآني، وهذا الأمر لربَّما يُعدُّ من المسلّمات عند المسلمين لأنَّ كلامه عليه السلام من القرآن منطلقٌ وعليه دالٌّ، وهو أيضاً صوتٌ صادرٌ بآيات الكتاب والفاظه ومعانيه. وهذا ما سلَّط عليه الباحثون جهدهم وأستخرجوا كثيراً من الدُّرر القرآنية الكامنة في النصِّ النهجي^(٣).

ومن الشواهد القرآنية التي أثَّرت في كلامه عليه السلام قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٤).

فالباحث يرى أنَّ الآية لكريمة هي التي دعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

(١) أمالي المفيد ١٥٢.

(٢) المستويات الجمالية في نهج البلاغة ٣٤.

(٣) درس الباحثون هذا الموضوع في أكثر من دراسة منها: الأثر القرآني في نهج البلاغة دراسة في الشكل والمضمون، ومنها: الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة.

(٤) البقرة ١٤٣.

«نحن النمرقة الوسطى بها يلحق التالي، وإليها يرجع الغالي»^(١).

والنمرق والنمرقة مثلثة هي الوسادة الصغيرة^(٢)، وهذا تشبيه جميل ذُكر فيه المشبه «نحن» أي أهل البيت عليه السلام، والمشبه به الوسادة أو «النمرقة الوسطى» أما وجه الشبه، أو الغاية التي جاء من أجلها التشبيه فهي مثلما قال محمد عبده: «الإستناد إليهم في أمور الدين كما يُستند إلى الوسادة لراحة الظهر واطمئنان الأعضاء ووصفها بالوسطى لإتصال سائر النمارق بها، فكأن الكل يعتمد عليها إما مباشرة أو بواسطة ما بجانبه، وآل البيت على الصراط الوسط العدل، يلحق بهم من قصر ويرجع إليهم من غلا وتجاوز»^(٣). ولو قال المرحوم: الإستناد إليهم في أمور الدين والدنيا كان أدق.

والذي يعضد الترابط بين الآية الكريمة وبين قول أمير المؤمنين عليه السلام ما صرح به المفسرون من جمهور المسلمين، فقد قال الألوسي: «عن علي كرم الله وجهه: نحن الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾»^(٤).

وعن الإمام الباقر عليه السلام (إستشهد ١٤ هـ) إنه قال:

«نحن الأمة الوسط، ونحن شهداء الله على خلقه»^(٥).

أما الأمر الذي تعنيه الدراسة هنا ويهملها أكثر من غيره هو أن هذا الأثر

(١) نهج البلاغة ٥٧٠ - ٥٧١.

(٢) ينظر: القاموس المحيط ٢٨٧/٣.

(٣) شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ٤٧٢.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٩/٢. أو ٤/٢.

(٥) مجمع البيان ٤١٧/١.

القرآني العظيم على كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان أحد الإشعاعات المهمة التي من خلالها نفذ كلامه عليه السلام إلى قلوب المتلقين حاملاً معه أبلغ التأثير وأعمده.

رابعاً

الشمولية في كلامه عليه السلام

من اللافت للنظر في النص العلوي أنه يمتاز بشمولية واسعة جداً قل نظيرها، وما هذا إلاّ إنعكاس واضح لثقافته غير المحدودة، والتي ظهرت تجلياتها على التنوع المهيّب في كلامه الذي تضمّن «مُختلف مستويات المعرفة، كالحديث عن الكون وظواهره المختلفة، من سماءٍ وأرضٍ وكواكب وبشر وحيوان وعناصر أخرى وكذلك يتضمن الحديث عن الظواهر النفسيّة والتربوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتأريخية»^(١)، ومن هنا كان كلامه عليه السلام مفتاحاً لكل العلوم، بيده أبجديات المعارف التي تحتاجها البشرية. وقد أوصل بعضهم هذه العلوم إلى مائتي علم مُستخرج من نهج البلاغة^(٢). وهذه الظاهرة في كلامه عليه السلام ممّا عُرِفَتْ عنه سابقاً، وكان متفرّداً بها، قال الرضي: «ومن عجائبه عليه السلام التي انفرد بها وأمن المشاركة فيها، أنّ كلامه الوارد في الزهد والمواعظ، والتذكير والزواج، إذا تأملهُ المتأمل، وفكّر فيه المتفكّر، وخلع من قلبه أنّه كلام... من لاحظ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كسر بيت، أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلّا حسّه ولا يرى إلّا نفسه، ولا يكاد يوقنُ بأنه كلامٌ من ينغمس

(١) مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ٩٣.

(٢) ينظر: علوم نهج البلاغة ١٠. وللمزيد عن هذه العلوم وأمثلتها في كلام أمير المؤمنين ينظر: م. ن

١١-١٦٢. وينظر: الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي: ٢٧٧ - ٣٠٠. وينظر: الإعجاز العلمي

عند الإمام علي عليه السلام ١٥ - ٧١.

٨٨ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

في الحرب مُصلتاً سيفه فيقطُّ^(١) الرِّقاب، ويجدُّ الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً، وهو مع تلك الحال زاهد الزُّهاد وبذل الأبدال. وهذه من فضائله العجيبة وخصائصه اللطيفة، التي جمع بها بين الأضداد^(٢).

ويبدو أنَّ الشاعر صفي الدين الحلِّي (ت ٧٥٠هـ) تأثر بوصف الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) هذا، كما تأثر بتلك الأضداد التي وُجدت سويّة في كلام الإمام علي عليه السلام فقال:

جُمِعت في صفاتك الأضدادُ فلهذا عزّت لك الأنداد (الخفيف)

زاهدٌ حاكمٌ حليمٌ شجاعٌ فاتكُ ناسكٌ فقيرٌ جواد

شيمٌ ما جُمعن في بشرٍ قط ولا حاز مثلهنَّ العبادُ^(٣)

وكان من مظاهر هذا الجمع أنّه عليه السلام مثلما قال الفاخوري: «من أوّل من جمع في الخطبة الواحدة بين الدين والسياسة، وكان هدفه إقناع جنوده بصحّة عقائده، وهكذا كانت خطبه تركز على العقيدة الإسلامية»^(٤).

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلامه في الأمور والمسائل العلمية البحتة وعلى الرغم مما تتطلبه الكتابة فيها من جمود وبعد عن المتعة الأدبية، إلّا أنّه عليه السلام وبعد أن يسكب عليها من مواهبه الكبرى وروحه الشّفاقة يخرجها ممتازة «بلغة فنية تتوكأ على

(١) قَطَّ يَقْطُ قَطاً بالقَط هو قطع الشيء الصلب، وقيل هو القطع عَرَضاً. ينظر: لسان العرب ٧/ ٣٨٠ مادة (قطط).

(٢) نهج البلاغة: ١٠- ١١.

(٣) ديوان صفي الدين الحلّي ٨٩.

(٤) الجامع في تاريخ الأدب العربي ١/ ٣٥١.

الإيقاع والصورة وسائر عناصر الفن»^(١). أي أنّ استراتيجيته التي كان يتوخاها في الخطاب - على الرغم من تعدده -^(٢) واحدة من الناحية الفنية. ولعلّه من وراء ذلك أراد لأفكاره ومن خلال كلامه أن تشقّ طريقها إلى النفوس مصحوبةً بقوة التأثير، والحجّة البالغة في الإقناع، فضلاً عن دفع الملالة والسأم عن المتلقي. وبما إنّ «عليّ بن أبي طالب عليه السلام»، وهو الحاوي على جميع سمات العبقريات المتعدّدة، فهو الخليفة القائد، وهو المحارب العظيم، وهو الفيلسوف، وهو الأستاذ في العدل والمؤسس لعلم النحو، وهو الفقيه، القاضي، العالم بالحساب والفلك، وهو أمير البلاغة والشاعر، والحكيم، والحافظ لتراث محمد رسول الله ﷺ وهو الأخلاقي الرفيع، والأنموذج في كل شيء. يستطيع المرء أن يتعلم عنه أشياء كثيرة، ولكن لا يستطيع أن يكون مثله»^(٣). فإنّ هذه الموسوعية التي انطوت عليها شخصيته ولّدت أثراً على كلّ هذه الأصناف التي ذُكرت، وهذا ما تنشده الدراسة فمثلاً وجدت الدراسة أنّ أشهر الواعظين كانوا يتنفسون كلامه عليه السلام ثم يعظون الناس، به بالنص أو المعنى وعلى رأس هؤلاء الحسن البصري (ت ١١٠هـ)، وعمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)، وهكذا كان الفلاسفة والمتكلمين مثل واصل بن عطاء (ت ١٢٧هـ) الذي نهل علم التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ بصمته الواضحة جدّاً لدى الباحث على كتاب الدولة ومُدبري سياستها الداخلية والخارجية، ومنظمي الجند، وواضعي خطط الحرب وليس

(١) مختصر تأريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ٩٤.

(٢) للتوسع حول شمولية وتعدد الخطاب عند أمير المؤمنين ينظر: الخطاب في نهج البلاغة بنبته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية ١٢١-١٢٢. وينظر: الخطاب في نهج البلاغة دراسة موضوعية

فنية ٦٦-٧٥.

(٣) عليّ سلطة الحق: ٤٣.

٩٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

أدُلَّ على ذلك من التأثيرات الكبيرة التي أوجدتها الدراسة في رسالة الصحابة لابن المقفع (ت ١٤٢) والعهد الذي كتبه عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) على لسان مروان بن محمد (ت ١٣٢) إلى ولده^(١).

ولكن مع هذا وعلى الرغم من إنَّ هؤلاء الكتاب قد تخصَّص كُلُّ منهم بعلم أو فنٍّ من فنون القول، إلَّا أنَّ مرجعيته وإمامه الذي لا يضل هو علي بن أبي طالب عليه السلام فهم بذلك استطاعوا التعلُّم منه دون أن يصلوا إليه، لأنَّ الذي يقرأ كلامه يجده مثلما قال السيد الخوئي: «وهذه خطبه في نهج البلاغة، فإنَّه حينما يوجه كلامه فيها إلى موضوع لا يدع فيه مقالاً لقائل، حتى ليُخال من لا معرفة له بسيرته أنَّه قد قضى عمره في تحقيق ذلك والبحث عنه»^(٢) لذلك غدا: «تعزى إليه كُلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كُلُّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عُذرَّها؛... كُلُّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتضى، وعلى مثاله احتدى»^(٣).

خامساً

الإلهام الغيبي والمدد الإلهي

يعرّف الإلهام: «بأنَّه قوة تلقائية لا شعورية يتميَّز بها بعض الأشخاص فتمنحهم، من حيث لا يدري أحد من أين القدرة على الإبداع والخلق في ومضة خاطفة»^(٤).

(١) لكن بعد أن نهضت الرسالة بابن المقفع والبصري أكتفينا بهما وادخرنا النصوص المتأثرة لدى عبد الحميد وأمثاله إلى دراسة قابلة إن شاء الله.

(٢) البيان في تفسير القرآن ٧٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٢ / ١.

(٤) الإبداع في الفن ٨١.

أما إلهام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان مُعَزَّزاً ومحفوظاً به فقد كان معروف المصدر، إذ تشيرُ مُعْظَمُ الروايات والأحداث الإسلامية إلى رعاية السماء له في كثير من جوانب العظمة والارتقاء^(١)، وهذا الأمر جاء واضحاً إماماً بأمرٍ من الله تعالى، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لأُمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُدْنِكَ وَلَا أُقْصِيكَ، وَأَنْ أُعَلِّمَكَ أَنْ تَعِيَ وَحَقُّ عَلَى اللَّهِ أَنْ تَعِيَ، قَالَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾»^(٢) (٣).

أو بدعوات الرسول صلى الله عليه وآله فكثيراً ما كان يدعو لتسديد خطى أمير المؤمنين عليه السلام حتى أن هذه الدعوات دخلت هذا الحيز من بابه الواسع، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله حين بعثه في إحدى المهمات:

«إِنَّكَ تَبْعُنِي إِلَى قَوْمٍ أَسْنُ مِنِّْي فَكَيْفَ الْقَضَاءُ فِيهِمْ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ سَيَهْدِي قَلْبَكَ، وَيَثْبُتُ لِسَانَكَ. قَالَ فَمَا تَعَايَيْتُ فِي حُكُومَةٍ بَعْدَ»^(٤).

وهذه وثيقة ثمينة، وشهادة رصينة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بحق علي عليه السلام أكد من خلالها على هداية قلبه وثبوت لسانه. وأي شيء تبغيه البلاغة أكثر من هذا فالكلام ينبع من القلب ثم يترجمه اللسان، ومثلما قال علي عليه السلام:

«اللِّسَانُ تُرْجَمَانُ الْجَنَانِ»^(٥).

أو إِنَّ الإلهام إفاضة على أمير المؤمنين عليه السلام من الإلهام النبوي، على اعتبار إنَّ

(١) ينظر: علي كما وصف نفسه ٤٩.

(٢) الحاقة ١٢.

(٣) مجمع البيان ١٠/١٠٧. وينظر: لباب النقول ٢٠١.

(٤) خصائص أمير المؤمنين ٣٧.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٠٥.

الإلهام النبوي انتقل كلّهُ أو بعضه إلى الوصي الذي أُدجّت ذاته «بذات النبي القائد دمجاً لا فجوة فيه فكانت صورة الربيب متجسّدة في السيرة والسلوك، وفي الأفكار والحياة اليومية»^(١). ولربّما هذه العلاقة المعقدة المعرفة هي التي حدث بالدكتور محمود البستاني إلى أن يؤكّد إنتقال الإلهام النبوي إلى العطاء العلوي، فقال: «يمكن القول إنّ أجود ما عرفه تأريخ البشرية هو ما أنتجه الإمام علي عليه السلام فكراً، وعمقاً، وفناً. نسوق هذه الحقيقة وأماننا وثيقتان: إحداهما نتاج الإمام نفسه حيث عكس تأثيراً على الكتاب... وأمّا الوثيقة الأخرى، فهي الحديث المعروف عن النبي عليه السلام القائل:

«أنا مدينة العلم وعليّ بابها»^(٢).

إنّ هذا الحديث ليس مجرد إستعارة فنية تتوكّأ على المدينة وبابها، بل هي حقيقة لها واقعها الحيّ، حيث نعرف أنّ المعصوم عليه السلام لا يتوكّأ على مُبالغة أو وهم؛ أو خيال، لذلك فإنّ الحديث المذكور يعني أنّ الله تعالى ألهم النبي عليه السلام المعرفة التي لم يُلهمها للآخرين... وأنّ عليّاً هو الشخصية الوحيدة التي يمكنها أن تكون بمثابة باب إلى دخول المدينة، وهذا يعني أيضاً أنّ النبي عليه السلام قد أوصل المعرفة التي منحها الله إِيّاه إلى علي عليه السلام وجعله لساناً رسمياً يتكلّم بالمعرفة نيابة عن النبي عليه السلام»^(٣).

وهكذا كان قسمٌ كبير من عطائه مصدره الجانب الغيبي، أو عن طريق الوحي الذي عبّر عنه الفاخوري بقوله: «أوّل ما يتبادر إلينا من فلسفة الإمام

(١) عليّ سلطة الحق ٦٤.

(٢) عليّ إمام البررة ٩٦/٢. وينظر: المستدرک ١٣٧/٣.

(٣) مختصر تأريخ الأدب الإسلامي في ضوء المنهج الإسلامي ٩٣.

إنَّ للمعرفة طريقين: طريقُ الوحي، وطريقُ العقل. أمَّا الوحيُّ فواسعُ النَّطاقِ، وخبرُهُ حقُّ اليقين»^(١).

أمَّا العقاد فقد عدَّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام ينمُّ عن قدرة إلهية من خلال ما أوتي من حكمة، فقال: «فكل نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرة الوعي وقدرة التعبير، فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة، وفصل الخطاب»^(٢).

ولو عدنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام نفسه ودعوانه لبيان هذا الجانب لقال: بلغة الواثق، مفتتحاً قوله بالقسم:

«تَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتِمَامَ الْكَلِمَاتِ، وَعِنْدَنَا - أَهْلُ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحُكْمِ، وَضِيَاءُ الْأَمْرِ»^(٣).

وقال:

«فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ»^(٤).

فأمير المؤمنين عليه السلام هو صاحب الأذن الواعية بحسب الذكر الحكيم، وهو ثابت القلب واللسان، وهو باب مدينة العلم بحسب الوثيقة النبوية، وهو ربانيُّ هذه الأمة ومن علَّم تمام الكلمات بحسب ما وصف به نفسه، وهو صاحب القدرة الإلهية في كُلِّ نموذج من كلامه بحسب وصف العقاد، وهو صاحب

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي: ١/ ٣٤٥.

(٢) العبقریات الإسلامية ٢/ ١٤٥.

(٣) نهج البلاغة ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٤) م. ١٨٠.

فلسفةٍ يشكل الوحي جزءاً لا يتجزأ منها بحسب كلام حنا الفاخوري، وهو من عزز بنفح إلهي وإلهام قدسي مكناه مع غيرهما من وجوه البيان، وملكاه أعنة الكلام، بحسب وصف محمد أبي الفضل إبراهيم^(١).

أما سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) فقد سبق هؤلاء إلى بيان هذه الحقيقة في كلام الإمام عليه السلام ووصفه بوصفٍ دالٍ على تأثر عميق، فقال: «كَانَ عَلِيٌّ يَنْطِقُ بِكَلَامٍ قَدْ حُفَّ بِالْعَصْمَةِ، وَتَكَلَّمَ بِمِيزَانِ الْحِكْمَةِ، كَلَامٌ أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَهَابَةَ؛ فَكُلُّ مَنْ طَرَقَ سَمْعَهُ وَرَاقَهُ فَهَابَهُ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الْحَلَاوَةِ وَالْمَلَاةِ، وَالطَّلَاوَةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَلَمْ يَسْقُطْ مِنْهُ كَلِمَةٌ، وَلَا بَارَتْ لَهُ حُجَّةٌ، أَعْجَزَ النَّاطِقِينَ، وَحَازَ قِصَبَ السَّبْقِ فِي السَّابِقِينَ»^(٢). فابن الجوزي إذاً أرجع غالبية بلاغة الإمام ومهابة كلامه للتصريف الإلهي «قَدْ حُفَّ بِالْعَصْمَةِ» «كَلَامٌ أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَهَابَةَ» «قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ...».

وهذا الدعم الإلهي لم يأت من فراغ، بل هو إستحقاق له عليه السلام؛ لأنه ذاب تماماً في الله سبحانه وتعالى، وطبيعي مَنْ يتميز بهذا يكون مصداقاً فعلياً لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٣).

ونرى أيضاً أنَّ الله - سبحانه وتعالى - حباه بهذه الخصيصة؛ لأنه مجتبي ومعد لمواصلة المسيرة النبوية بشهادة قول المصطفى صلى الله عليه وآله:

«أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(٤).

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد ١/ ٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) تذكرة الخواص ١١٤.

(٣) العنكبوت ٦٩.

(٤) صحيح مسلم ٧/ ١٢٠، وينظر: مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٣١٧.

والعجيب إن هارون لم يكن وصياً لموسى عليه السلام فحسب، بل كان فصيحاً أيضاً، قال تعالى حكاية على لسان نبيه موسى:

«وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ»^(١).

وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً مدعوماً بهذه الصفة، لأنها ضرورة من الضرورات التي ينبغي توافرها في المبلِّغ الرِّسالي الهادف.

وتجدر الإشارة إلى أن الباحث - وبهذا التوجيه الذي يجيء الإلهام من خلاله - لا يتفق مع تعريف عز الدين إسماعيل للعبقرية والإلهام، فهو يراها «قوة خفية تدبُّ في الإنسان مستقلة عن مجهوداته الخاصة»^(٢).

ومهما يكن من أمرٍ بعد هذا، فلا شك ولا ريب من إنَّ هذا الإلهام الإلهي، والنفح القدسي الذي تجلَّى في كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان من افرازاته ذلك النصيب الكبير من التأثير على القارئ.

سادساً

هضمه لتراث العرب الأدبي

ولد علي عليه السلام في بيئة كان الأدب أرقى وأثمن ما يُمْتَلِك، فكان عند قومه، وفي بيئته تلك البضاعة المزجاة التي يحلو التفاخر بها، وتمجيد أصحابها؛ فالأديب يمثل لديهم لسان القبيلة المدافع والذائد عنها، والمحامي عن حقوقها، وهذا يعني إنَّ من لا يملك هذا الصنف أو تلك الشَّخصية فإنَّه خسر محارباً فاق في

(١) القصص ٣٤.

(٢) الأدب وفنونه دراسة ونقد ٣٥.

لسانه وقع السيف. وبسبب أهميته العرب هذه أصبحت لهم ثروة أدبية هائلة ومتميزة على الصعيدين الكمّي والفنيّ.

في هذه الأثناء، وفي تلك البيئة والعمل الأدبي مُفَعَّمٌ بالعطاء وُلِدَ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن غير المعقول أن لا يتأثر ببضاعة قومه، بل المتبع لتناحه يجده قد «صَمَّ روائع البيان الجاهلي الصافي المتّحد بالفطرة السليمة إتحاداً مباشراً إلى البيان الإسلامي الصافي المهذب المتّحد بالفطرة السليمة والمنطق القوي اتحاداً لا يجوز فيه فصل العناصر بعضها عن البعض»^(١) فقد ورد عنده الإستشهاد بالموروث الجاهلي من شعرٍ ومثلٍ وحكمة في مواطن عدة، فمن التضمين الشعري المباشر أو النصي تمثله في خطبته الشقشقية بقول الأعشى إلى ابن الخطاب:

شَتَّانَ ما يومي على كورها ويومُ حيَّانَ أخي جابر^(٢) (السريع)

ومن التضمين بالمعنى قوله عليه السلام:

«وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعَنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مُحَمَّدٌهُ اللَّئَامُ...»^(٣).

فالباحث يرى أن هناك شبهاً كبيراً بين قول الإمام هذا وبين بيت لزهير ابن سلمى في معلقته، قال فيه:

ومن يجعل المعروفَ في غير أهله يكنْ حمدهُ ذمّاً عليه ويندم^(٤) (الطويل)

(١) روائع نهج البلاغة ١٠.

(٢) نهج البلاغة ٢٦. والبيت للأعشى الكبير، ينظر: ديوانه ١٤٧.

(٣) م. ٢٢٨.

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى ١١١.

فالشبه هنا واضحٌ تماماً وبخاصة بين صدر البيت وبين ما أبتدأ به أمير المؤمنين عليه السلام كلامه:

«وليس لواضع المعروف في غير حقّه، وعند غير أهله».

أمّا الأمثال، فقد وظّفها في غير ما موطن من كلامه، حيث جاء في إحدى خطبه:

«وَأَحْشَكُمُ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتَى عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ
أَيَادِي سَبَأٍ»^(١).

فقوله «أيادي سبأ» من الأمثال المشهورة عند العرب^(٢)، ويضرب للمتفرّقين، وأصله^(٣) قوله تعالى:

﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾^(٤).

وبعد أن عرفنا أن المثل يضرب للمتفرّقين؛ فإنّ توظيفه من قبل الإمام كان من البراعة بمكان، إذ عضّد به تشتت أنصاره عنه، وخذلانهم إيّاه، فكان هذا المعنى الركيزة الأساس والصورة الواضحة للخطبة التي ورد فيها المثل ومنها قوله عليه السلام:

«أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرََنَّ هُوَ لَاءِ الْقَوْمِ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لَأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رِعْيَتِي... أَتَلُو عَلَيْكُمْ الْحِكَمَ

(١) نهج البلاغة: ١٦١.

(٢) ينظر: مجمع الأمثال ١/ ٢٧٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ٤/ ٣٦.

(٤) سبأ ١٩.

فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعْظَمَكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ توظيفاً للإرث الأدبي قد حصلَ في مواطن متعدّدة من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام^(٢). والذي يهم الدراسة من هذا الإرث هو أنَّ التضمين الذي أجراه على تلك الأبيات وأنصاف الأبيات والأمثال التي يفهمُ قصتها وأحداثها قومه، عائدٌ إلى رغبته في التوصليل التام لأفكاره المبتغاة، ومن ثمَّ شدة التأثير عليهم وعلى لاحقهم، لأنَّ من نتائج انفتاح النص على نصوص الآخرين، ومحاكاتها، وتوظيفها ببراعة هو «خلق جوٍّ إبداعيٍّ له القدرة على فرض هيمنته، وتأثيره في الآخرين على مرِّ العصور، وهذا لا يتوفّر إلّا في نصوصٍ متعاليةٍ كالنص النهجي، والذي هو كغيره من النصوص التي تفتح على نصوصٍ سابقةٍ لها أثرها في مرجعية الإمام الثقافية»^(٣).

سابعاً

سداد الرأي، وصدق اللهجة، والتودّد إلى السامع

هذه هي الصفات الثلاث التي عدّها الأب لويس شيخو آداب الخطيب الرئيسة^(٤).

أمّا السّداد وبحسب ما وردَ في المعاجم اللغوية فإنَّ معناه: الإصابة في المنطق، وأن يكون الرجل مسدّداً^(٥).

(١) نهج البلاغة ١٦١.

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: نهج البلاغة ٢٥، ٥٢، ٦٧، ٧١، ١٨٠، ٤٧٧، ٤٨٨.

(٣) الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة ١٦.

(٤) ينظر: علم الأدب ٢/ ٤٨.

(٥) ينظر: غريب الحديث ٢/ ٦٢.

وهذا قريبٌ جداً من معناه الإصطلاحي الذي يعني «أصالة العقل وعلمه التام بالقضية وتمييزه لوجوه الأمور ومعضلات المشاكل بحيث يثق السامع بقول الخطيب وينقاد إلى كلامه»^(١). ولا بُدَّ للخطيب صاحب الرأي السديد من «إيراد قضيتّه على صورةٍ جليّةٍ قريبة المنال... وتمكينها في ذهن السّامع بالبيّنات اللامعة والشواهد الساطعة... واستدراك اعتراضات الخصم وتفنيدها»^(٢).

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الشروط إن انطبقت على أحد؛ فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يأتي في الطليعة، إذ كان هو المبرز في إيراد ما يريد بسداد رأيٍّ تام، فضلاً عن أقواله التي كان يؤكد من خلالها على هذا الجانب، كقوله عليه السلام:

«من علامات الإقبال سداد الأقوال، والرّفق في الأفعال»^(٣).

فأمير المؤمنين عليه السلام تحدثّ هنا عن التأثير والذي أسماه بـ «الإقبال» لأنّ الإقبال هو نتيجة متوقعة للتأثير، فكلّما كان التأثير أبلغ كان الإقبال أوسع، ولكن هذا الإقبال أرجعه أمير المؤمنين عليه السلام إلى «سداد الأقوال» علماً أنّ سداد القول راجع إلى حجر أساس وهو سداد العقل.

أمّا الحوادث والمناظرات التي بيّنت سداد الرأي عند أمير المؤمنين عليه السلام، فهي كثيرة جداً، إن لم يكن جميع كلامه استدلالاً على الرأي السديد. ولعل من المناسب هنا ذكر كلامه الذي كلّّم به كليب الجرمي^(٤) مرسول أهل البصرة

(١) علم الأدب ٤٨/٢.

(٢) م. ن ٤٩/٢.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ٢١٠.

(٤) هو كليب الجرمي منسوب إلى بني جرم بن ربّان بن حُلوان من حمير بعثه قومه إلى الإمام علي يستعلم حاله أهو على حجة أم على شبهة. ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩/١٩٧.

١٠٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

للإمام بعدما أصبحت معسكراً لأهل الجمل، وعند وصول الرجل طلب منه الإمام أن يبايع فقال:

«إني رسول قوم، ولا أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم. فقال عليه السلام لو أن الذين بعثوك رائداً تبتغي لهم مساقط الغيث، فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلاء والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجاذب، ما كنت صانعاً؟ قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلاء والماء. قال عليه السلام: فأمدد إذا يدك. فقال الرجل: فوالله ما أستطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي فبايعته عليه السلام»^(١).

وهكذا كان عليه السلام وبفعل سداد رأيه يرشد المسترشد ويفهم الخصم بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة، وهذا المثال أحدها، حتى قال عنه ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ): «ولا شيء أطف ولا أوقع ولا أوضح من المثال الذي ضربه عليه السلام، وهو حجة لازمة لا مدفع لها»^(٢).

جاء تأثير كلام الإمام عليه السلام من مثاله الذي ضربه من الواقع الذي يعيشه الفرد العربي آنذاك؛ فالكلاء والمرعى هو عماد الحياة العربية البدوية، والمثال جاء عليها وبطريقة جلية سهلة الفهم، واضحة المقصد هذا من جهة. ومن جهة أخرى احتفاظه عليه السلام بالبلاغة في أروع صورها عند إيراد الحجة، وبخاصة عندما شبه نفسه أو جهته ومعسكره بـ «مساقط الغيث.. الكلاء والماء»، وهذا ما يتغنى به العربي ويرنو إليه أينما حلّ وارتحل.

أمّا خصومه والمتمثلون بأصحاب الجمل فقد شبههم بـ «المعاطش والمجاذب»، وهذا ما ينفّر منه السمع، ويتخوف من الإصطدام به في أي مكان،

(١) نهج البلاغة ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩/ ١٩٧.

وبالتالي فإنَّ إيراد هذا التشبيه سيكون تأثيره بإتجاهين متعاكسين: الأول هو تثبيط الرجل، وإبعاده عن معسكره، والثاني هو ترغيبه بالدخول في حظيرة الصواب، المتمثلة بمعسكر أمير المؤمنين عليه السلام. وهكذا جاء جواب المبعوث بها خطط له علي بن أبي طالب عليه السلام: «كنتُ تاركهم ومخالفهم إلى الكلا والماء».

ومهما يكن من شيء فإنَّ هذا كله وسيلة وليس غاية؛ لأن الغاية التي ابتغاهـا (صلوات الله عليه) قول الجرمي: «فوالله ما استطعتُ أن أمتنعَ عند قيام الحُجَّةِ عليَّ فبايعته عليه السلام».

وبعد سداد الرأي يأتي صدق اللهجة. واللهجة على وفق ما صرَّحت به المعاجم اللغوية تعني اللسان، ويُقال فلان فصيح اللهجة^(١). وجاء في الحديث النبوي:

«ولا أَظَلَّتْ الحَضْرَاءُ ولا أَقَلَّتِ الغبراءُ ذِي لهجةٍ أَصْدَق من أبي ذر»^(٢).

وصدق اللهجة من أهمِّ ما ينبغي أن يتحلَّى به الخطيب، كونه يسهم في مدِّ جسور الثقة بين الخطيب وجمهوره «لُبِثْتُ لدى السَّامعين خلوص نيَّة واستقامة عمله وحرصه على الحقيقة، فيزيدُ ميلُهم إلى رأيه وركوبُهم إلى تصديقه»^(٣). وفضيلة صدق اللهجة البالغة هذه تنبه لها أمير المؤمنين عليه السلام فأسماها صراحة حيث قال:

«مَنْ صدقت لهجته صحت حُجَّتُه»^(٤).

وجسدها واقعا، فكان مثالا يحتذى فيها وهذا ما نتلمسه في تصريحات عدة

(١) لسان العرب مادة (هَجَ).

(٢) سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١١ / ٢٤١.

(٣) علم الأدب ٢ / ٤٩.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٢١٩.

له، من نحو قوله:

«ما كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ...»^(١).

وقوله أيضاً:

«وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ - يعني الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله -، واصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً... أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي - والله - ما أَحْكُمُ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَأَكُمُ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتْنَاهِي قَبْلَكُمْ عَنْهَا»^(٢).

وهنا يطل علينا عليه السلام في قوله الأخير «أَيُّهَا النَّاسُ... الخ» إطلاقة في غاية الأهمية - من أجل أن يكون الواعظ أو القائد مؤثراً في جمهوره ورعيته -، ألا وهي التطبيق الفعلي لما يقول، لأنّ الكلام - مثلما يرى هو (صلوات الله عليه) - إذا كان قائله مطبّقاً إياه وبلهجة صادقة خرج من القلب وإذا خرج من القلب سقط في القلب أي كان مؤثراً، بينما إذا خرج من اللسان؛ فإنه سيفقد ذلك التأثير المرجو فقال عليه السلام في ذلك:

«الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تَجَاوِزِ الْآذَانَ»^(٣).

وهكذا كان عليه السلام يصوغ قوانين نفسانية خالدة تؤثر في ما لا يحصى من النفوس دون أن يؤثر على صلابتها، وصحتها، وديمومة فاعليتها زمان أو مكان. وتبقى مسألة مهمة هنا تجدر الإشارة إليها، وهي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ملك

(١) نهج البلاغة ٥٨٥.

(٢) م. ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٤٦/٢٠.

ناصية التوفيق التام في كلامه بين صدق اللهجة وبين البلاغة الساحرة، وهذا من اكبر العبقریات عنده عليه السلام على الرغم من صعوبة أو استحالة الجمع بين الأمرين حتى «قال بعض الحكماء لم ير متدين صادق اللهجة مفلحاً في شعره»^(١). وأما ثالث ركائز الخطيب الرئيسة، فهو التودد أو التحبب إلى السامع. وتعدُّ هذه الركيزة من ميزات أمير المؤمنين عليه السلام وكثيراً ما كان يوصي بها أيضاً بنفسه، فمرة قال:

«التودد إلى الناس رأس العقل»^(٢).

وأخرى قال:

«التودد نصف العقل»^(٣).

وثالثة قال:

«أول المروءة طلاقة الوجه وآخرها التودد إلى الناس»^(٤).

وللتودد موجبات منها: الوقار، والتصون، والوفاء، والنزاهة، وأن يؤثر الخطيب أمر الرعية على شؤونه الخاصة^(٥) وهذه الموجبات كانت مجتمعة في شخص أمير المؤمنين عليه السلام، فمن الوقار المزوج بالتودد ما وصفه به صعصعة بن صوحان^(٦)

(١) الإتيقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٤٤٥.

(٣) نهج البلاغة ٥٧٧.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٢١١.

(٥) علم الأدب ٢/ ٤٩- ٥٠.

(٦) هو صعصعة بن صوحان بن الحجر بن الحارث من ربيعة وكان يكنى بأبي طلحة، وكان خطيباً، ومن أصحاب علي بن أبي طالب، شهد معه الجمل، وروى عنه عهده لمالك الأشتر. ينظر:

الطبقات الكبرى ٦/ ٢٢١، ينظر: ورجال النجاشي ٢٠٣.

١٠٤ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

(ت ٦٠ هـ): «كان فينا كأحدنا، لين جانبٍ، وشدة تواضعٍ، وسهولة قيادةٍ، وكُنَّا نهأه مهابة الأسير المربوط للسيافِ الواقف على رأسه»^(١). ومن التصون والنزاهة فَمَنْ غيره قال أو يقول:

«والله لقد رَقَعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا»^(٢).

وفي جانب الإيثار أثر التنازل عن حقوق يراها له، متمهاً مع رغبة بعض المسلمين، فقال:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللهَ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التَّيَّاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيهَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزَبْرِجِهِ»^(٣).

ولُبُّ القول الذي تذهب إليه الدراسة هو أنَّ هذه الصفات الثلاث - سداد الرأي، وصدق اللهجة، والتودد إلى السامع - اجتمعت متآسفة فيما بينها بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان بعضها يدعم بعضاً حتى أنجبت إجابات شرعية بضمنها ذلك التأثير العظيم الذي تركته على نفوس عشاق الأدب الرفيع، وطالبي الحقيقة المقدمة بثوبٍ من البلاغة الساحرة.

ثامناً

الحن التي تعرض لها عليه السلام

عرفنا في السابق موجزاً عن نشأة أمير المؤمنين عليه السلام وعلاقته بالرسول محمد صلى الله عليه وآله

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٩ / ١.

(٢) نهج البلاغة ٢٦٣.

(٣) نهج البلاغة ١٠٣-١٠٤.

والتي كانت على مرحلتين:

الأولى:

تمتد إلى نزول الوحي وتبشير الرسول بالنبوة.

الثانية:

تمتد إلى رحيل النبي صلى الله عليه وآله (سنة ١٠هـ). والذي يلحظ على خطاب أمير المؤمنين عليه السلام بعد هذه المدة - وهذا ما تهتم به الدراسة هنا - هو بروز عنصر الشكاية والتألم وعدم الرضى في كلامه. وقد أصاب بودلير لما قال: «لكي تكتشف عقلية.. ما، أو على الأقل تكتشف ما يشغل فكره أساساً دعنا نفتش عن الكلمة أو الكلمات التي تتردد عنده كثيراً، فسوف تعبّر هذه الكلمة عما يستحوذ تفكيره»^(١). فكان من بواكير هذه الكلمات والخطابات التي بينت سأم الإمام عليه السلام قوله عند دفن زوجته الزهراء عليها السلام سنة (١٠هـ):

«قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلْدِي... أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ... وَسَتْبُكَ ابْنُكَ بِتَضَافِرِ أُمِّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ»^(٢).

وأستمر هذا اللون الخطابي إلا أنه بدأ يظهر جلياً عنده عليه السلام، لأنه كان «يعيش أصعب مراحل التاريخ فالفتن تأخذه من كل جانب»^(٣) تمثّل جانب منها بالمعارك الظالمة التي وقعت في خلافته والتي جعلته مثلما قال الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي: «في كفاح دائم وحروب مستمرة خرجت عليه عائشة بالبصرة ومعها

(١) الاتجاه الأسلوبى في النقد الأدبي ١٧٠.

(٢) نهج البلاغة ٣٧٠-٣٧١.

(٣) مجلة ترائع ١/ ١٧١.

طلحة والزبير، ومعركة الجمل المشهورة ثم استمرت الحروب بينه وبين معاوية بن أبي سفيان... ومنها موقعة صفين ثم كان أمر التحكيم الذي قبله علي على كره منه^(١). ثم الخوارج الذين هم في الأصل أصحابه عليه السلام، كما تمثلت تلك الفتن أيضاً بالإنتهازيين الذين يركبون موج الأحداث ويتصيّدون غنائمها، وفي هذه المرحلة أدرك الإمام علي عليه السلام أن جذور الفتنة تضرب في أعماق النفس فتوجه إليها خطيباً وواعظاً على السواء، ومن يقرأ ما في نهج البلاغة تنكشف له هذه الحقيقة التي هي أم الحقائق فيه^(٢). فكان في هذا - مثلما قال هو عليه السلام - يُقاتل:

«رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ»^(٣)

أما الجانب الآخر الذي زاد في محن الإمام عليه السلام هو قلة المعين، وهذا ما بدا واضحاً في خطبة الشقشقية:

«وَطَفِقْتُ أُرْتِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدِ جَذَاءٍ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءٍ»^(٤).

والجذاء هي المقطوعة^(٥)؛ فالتأريخ لم ينقل لنا بأن أمير المؤمنين عليه السلام كانت يده مقطوعة، بل كلامه هذا كناية عن قلة الأنصار، وهذا ما بدا جلياً في قوله:

«أما والذي نفسي بيده، لَيُظْهَرَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلٍ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رِعْيَتِي ...

(١) الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ١٣٢.

(٢) ينظر: مجلة تراثنا ١/ ١٧١.

(٣) نهج البلاغة ٢٨٦.

(٤) نهج البلاغة ٢٥.

(٥) ينظر: لسان العرب مادة (جَذَذَ) ٣/ ٤٧٩.

أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُوبُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أَمْرَاؤُهُمْ. صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهِ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعِصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ»^(١).

وبما إن الدراسة - في هذا الفصل - تبحث في بعض أسباب محن الإمام علي عليه السلام فينبغي التعرض لجانب ثالث كان قد شكل حسرة وغصة في قلب الإمام عليه السلام وزاد في عيشته الحانقة تمثل في التفريق بينه وبين حواريين، إمّا عن طريق النفي مثلما حدث مع أبي ذر الغفاري (ت ٣١هـ) الذي قال عنه طه حسين: «وإنما سيره عثمان إلى الربرة منفيّاً فأقام فيها حتى مات غريباً»^(٢).

أو الإغتيال السياسي كإغتيال مالك الأشتر سنة (٣٧هـ) الذي وصفه الامام عليه السلام لما جاء خبر نعيه:

«مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ! وَاللَّهِ لَوْ كَانَ جَبَلًا لَكَانَ فِنْدًا، وَلَوْ كَانَ حَجْرًا لَكَانَ صُلْدًا، لَا يَرْتَقِيهِ الْحَافِرُ، وَلَا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ»^(٣).

وقال فيه أيضاً:

«رَحِمَ اللَّهُ مَالِكًا فَلَقَدْ كَانَ لِي كَمَا كُنْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٤).

أو القتل في الحرب كقتل محمد بن أبي بكر سنة (٣٧هـ) الذي أبّنه الإمام عليه السلام بقوله:

(١) نهج البلاغة ١٦٠-١٦١.

(٢) الفتنة الكبرى ١٦٤.

(٣) نهج البلاغة ٦٣٢.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / ١٢٠.

«إِنَّ حُزْنَنا عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً، وَنَقَصْنَا حَبِيباً»^(١).

فكثيراً ما كان عليه السلام يؤبّن أصحابه الذين مضوا بكلمات نابغة من قرارة قلب يعتصره الألم والأسى:

«أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيَّهَانِ^(٢)؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ^(٣)؟ وَأَيْنَ نُظْرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وَأُبرِدَ بَرُؤُوسِهِمْ^(٤) إِلَى الْفَجَرَةِ؟! فَقَالَ الراوي: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام: أَوَّهْ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفُرْضَ فَأَقَامُوهُ...»^(٥).

هذا جانب من المحن والفتن التي تعرّض لها عليه السلام والتي جعلت محياه ومماته تأريخاً دائماً للفضيلة المعذبة، والنفس المطمئنة الشهيدة^(٦). وبما إنّ حياته كلها كفاح، ونضال، وحزن ويأس^(٧) من قومه؛ فقد تولّد عنده الإنفعال الذي منشؤه

(١) م. ن ٦١١.

(٢) ابن التَّيَّهَان: هو أبو الهيثم بن التَّيَّهَان، وأسمه مالك، وأسم أبيه مالك أيضاً ابن عبيد بن عمرو بن عامر الأنصاري قيل: إنه توفي سنة عشرين. وقيل انه أدرك صفين، وشهدها مع علي عليه السلام وقتل فيها وهو الأكثر. ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٢٩٠.

(٣) ذو الشهادتين: هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من الأوس جعل رسول الله ﷺ شهادته كشهادة رجلين قُتل بصفين بعد أن شهدا إلى جانب أمير المؤمنين. ينظر: م. ن ١٠ / ٢٩٠ - ٢٩١.

(٤) أُبرِدَ برؤوسهم: حملت برؤوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها والفجرة هنا أمراء معسكر الشام. ينظر: م. ن ١٠ / ٢٩١.

(٥) نهج البلاغة ٣٠٦.

(٦) تأريخ الأدب العربي ١٣٥.

(٧) ينظر: أدب العرب ١٥٦.

«الإتحاد المباشر بين العبقرى وبين الموضوع الذي يشغله»^(١) والذي يراه - أي الإنفعال - برجسون «جوهر الأبداع»^(٢)، ثم إنَّ هذا الإنفعال الذي تولد من هاتيك الفتن، كان من أهمِّ بواعث الخطابة وما يدعو إليها^(٣)، مثلما تولد عنده عليه السلام ونتيجة متوقعة لتلك الأحداث عنصر الغربة أو الإغتراب^(٤)، عاش غريباً لأنه لاقى من الإعوجاج والعداوة ما تئنُّ له الجبال لا لشيء إلا أنه أراد أن يقيم العدل في كلِّ شيء، وأن تتمثله كلُّ نفسٍ، لأنه يعدل وهم لا يعدلون لأنَّه ينتصف من نفسه ولا ينتصفون لأنَّه يأتمر بالله ولا يأتمرون^(٥) فكانت النتيجة:

«اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِئْتُهِمْ وَمَلُونِي وَسَمَّيْتُهُمْ وَسَمَّيْتَنِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خيراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبِهِمْ كَمَا يُمِثُّ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٦).

عاش غريباً لأنه مثلما قال جبران خليل جبران: «لم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره... مات قبل أن تبلغ العالم رسالته كاملةً وافية. غير أنني أتمثله مبتسماً قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض. مات شأن جميع الأنبياء والباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس ببلدهم وإلى قوم ليس بقومهم وفي زمنٍ ليس بزمانهم ولكن لربِّك شأنٌ في ذلك وهو أعلم»^(٧).

(١) الإبداع في الفن ٨٠.

(٢) م. ن ٨٠.

(٣) ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ١٣٤.

(٤) يرى أغلب الدارسين أن الفيلسوف الألماني هيجل هو من طرح مصطلح الإغتراب وأكدَّ عليه ودرسه بتعمق. ينظر: الإغتراب وأنواعه ٥.

(٥) ينظر: الإغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة ١١٢.

(٦) نهج البلاغة ٥٢.

(٧) الراعي والرعية ٤٧.

١١٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

والذي يهتم الدراسة من هذه المحن وما ولدته في تأريخ الإمام، إنها أسهمت إسهاماً فعالاً في جعل كلامه عليه السلام ذي فاعلية فاعلة على التأثير لأنه أديب من طرازٍ خاص عانى من أزمت خانقة - والأديب الذي يعيش المشكلة يكون أقدر من غيره في الإفصاح عنها - وحمل هموم الرعية صغيرها وكبيرها، مما انعكس إيجاباً على عطائه الأدبي، فصاغ ما عاناه بكلمات وصور أدبية سكَبَ عليها حرارة روحه المعذبة، فجعلها تشق طريقاً مهيعاً إلى قلوب السامعين. وهذا بدوره شكّل نواةً مقتدرة على خلق التأثير.

هذه هي مجموعة أسباب اجتمعت في شخص أمير المؤمنين عليه السلام - دون غيره - استطاع أن يوظفها توظيفاً مهيباً بمساعدة أسباب أخر منها: سلامة ذوقه وروحه الصافية^(١)، وكذلك ما أمتاز به من ذكاء مُفرط، فقد قال عنه ابن عباس (ت ٦٨هـ): «ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب»^(٢)، فضلاً عن خلوص نيّته، وروحه الإنسانية التي جاءت آثارها مثلها، فهي «لم تُوضع لفريق دون فريق، ولم يُراع فيها شعبٌ دون شعبٍ، وإنما خُوطِبَ بها الإنسان أنى وُجد وكان. ولأنّها تلامس كلّ قلبٍ، وتُضمّد كلّ جرحٍ، وتكفكف كلّ دمة، كانت مُلكاً للناس أجمعين، وكانت خالدةً عند الناس أجمعين»^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك صفات عدّة في كلام الإمام عليه السلام كان الدكتور أحمد محمد الحوفي يرى أنها تقف وراء تأثير كلام الإمام عليه السلام هي: تخيّر المفردات وإنسجامها مع الناحية الصوتية وقوّة التعبير وسهولته، وقصر المفردات وتوازنها،

(١) ينظر: الجامع في تأريخ الأدب العربي ١/ ٣٥٢.

(٢) الأغاني ١/ ٨١.

(٣) دراسات في نهج البلاغة ١١.

وكثرة الصيغ الإنشائية^(١).

إذا فأمر المؤمنين عليه السلام كان قد خلق بجناحين هما عماد البلاغة: اللب، والإسلوب ف «الأثر الفني الكامل في نظري - والكلام لتوفيق الحكيم - هو ذلك الذي يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع... وقلما يحدث هذا إلا عن طريق السمو في اللب والأسلوب»^(٢)، وتلك سمتان جليّتان في أدب أمير المؤمنين عليه السلام، فبكلامه «يندمج الشكل بالمعنى إندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء... هذا من حيث المادة. أمّا من حيث الأسلوب، فعليّ بن أبي طالب ساحر الأداء. والأديب لا يكون إلا بإسلوب، فالمبنى ملازمٌ فيه للمعنى، والصورة لا تقلُّ في شيءٍ عن المادّة... وإنّ قسط عليّ بن أبي طالب من الذوق الفنيّ - أو الذوق الجماليّ - لمّا يندر وجوده... وإنّ شروط البلاغة التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال لم تجتمع لأديب عربي كما اجتمعت لعليّ بن أبي طالب»^(٣).

وعلى كلّ الأحوال فإنّ هذه الصفات التي اجتمعت في كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي التي جعلت من «كلّ مثقّف عربي، كلّ كاتب عربي، كلّ شاعر عربي، كلّ خطيب عربي مدين للإمام علي. فإذا كان كلّ مسلم في الدنيا مدينًا للقرآن الكريم في تكوين عقليّته وتفكيره فإنّ كلّ مثقّف عربي مدين لنهج البلاغة في تقويم قلمه»^(٤) إذ «لولا كلام عليّ بن أبي طالب وخطبه وبلاغته في منطقه ما

(١) ينظر: علي سلطة الحق ٥٤٧ - ٥٥٩.

(٢) فن الأدب ٧٦.

(٣) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ١ / ٥٢٩.

(٤) الإمام علي أسد الإسلام وقديسه ٢٢٥.

أحسن أحد أن يكتب إلى أمير جند، ولا إلى رعية»^(١)، وهذه الحقيقة التي هي عين الصواب - لما سيتضح لاحقاً - وتأثر الكتاب بأمرهم إلى هذه الدرجة، لم يكن عبثاً بل لأنهم وجدوا «الفصاحة تُنسب إليه، والبلاغة تُنقل عنه، والبراعة تُستفاد منه، وعلم المعاني والبيان غريزة فيه.. فعصابة الفُصحاء على تفاوت طبقاتهم دونه، وزمرة البلغاء على تباين حالاتها عيالٌ عليه»^(٢)

وهكذا كل من وصف بلاغة أمير المؤمنين عليه السلام فقد وصفها بوصف مؤثر. وهذا راجع لأمرين: الذوق الصافي والفطرة السليمة والمقدرة الأدبية الخلاقة لدى الواصفين وللتأثير العظيم الذي تركه كلامه عليه السلام على متذوقي الأدب الرفيع، فعن عامر الشعبي (ت ١٠٦ هـ) أنه قال: «تكلم أمير المؤمنين عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهنّ ارتجالاً فقأن عيون البلاغة، وأيمن جواهر الحكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدةٍ منهنّ، ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب. فأما اللائي في المناجاة، فقال: إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً أنت كما أُحِبُّ فاجعلني كما تُحِبُّ، وأما اللائي في الحكمة، فقال: قيمةٌ كُلُّ امرئٍ ما يُحِسُّه، وما هلك امرؤُ عرفَ قدره، والمرءُ مخبوءٌ تحت لسانه. وأما اللائي في الأدب، فقال: امننْ على مَنْ شئت تكن أميره، واستغنِ عمن شئت تكن نظيره، واحتجْ إلى مَنْ شئت تكن أسيره»^(٣).

وبعد أن أدرك الأدباء هذه الثروة الأدبية اتكأوا عليها، وتعلمذوا بها، حتى

(١) الاختصاص ١٤٨-١٤٩.

(٢) مطالب السؤول في مناقب آل الرسول ١٧٨.

(٣) ميزان الحكمة ١/ ٥٧، وينظر: من أروع ما قاله الإمام علي عليه السلام ٦٢.

أصبحت لهم بفضلها قدم راسخة في ميادين الأدب قديماً وحديثاً، ففي القديم قال ابن نباتة الخطيب^(١) (ت ٣٧٤هـ): «حفظتُ من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعةً وكثرةً، حفظتُ مائة فصلٍ من مواعظ علي بن أبي طالب»^(٢).

ومن كلام ابن نباتة يَسْتَدِلُّ الباحث - فضلاً عن التأثير المهيّب بكلام الإمام - على أن كلام الإمام كان مجموعاً وهذا ما وضّح في قول الأديب «مائة فصل من مواعظ...» وإلا كلمة فصل لا يمكن أن تُطلق على خطبة، ولا على رسالة، ولا على حكمة، بل هي جزء من كتاب مجموع.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) عمل مقارنة بين بعض خطب ابن نباتة «الفائز بقصبات السّبق من الخطباء؛ وللناس غرامٌ عظيم بخطبه وكلامه»^(٣)، وبين كلام أمير المؤمنين عليه السلام امتازت تلك المقارنة بأحكام تحليلية، ونتائج علمية؛ كونها صادرة من مؤرخ كبير، وناقد بصير، ولغوي، وشاعر. كانت خلاصة تلك المقارنة هي «أن سطرّاً واحداً من كلام نهج البلاغة يساوي ألف سطر منه - أي كلام ابن نباتة - بل يزيد ويُربي على ذلك، فإنّ هذا الكلام

(١) اشتهر بابن نباتة في الأدب العربي رجال ثلاثة: أولهم عبد الرحيم بن محمد. والثاني ابن نباتة السعدي (ت ٤٠٥). والثالث ابن نباتة المصري صاحب (سرح العيون) (ت ٧٦٨هـ). ينظر: النشر الفني في القرن الرابع الهجري ١/ ١٩٢. ومقصودنا الأول عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل صاحب الخطب المشهورة؛ كان إماماً في علوم الأدب، وكان خطيب حلب، وبها اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة. ينظر: وفيّات الأعيان ٣/ ١٥٦. وله ديوان خطب مطبوع يُعرف بـ «ديوان الخطب النبائية» متأثر به كثيراً بكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٢٨.

(٣) م. ن ٧/ ١٤٤.

مُلزَق عليه آثار كُلفة وهُجنة»^(١).

ومما يسجّل بقوة لبلاغة أمير البلاغة عليه السلام أن تأثيرها تجاوزَ حدود المحبين ليسحر أشدَّ المناوئين له عليه السلام، فهذا هو معاوية لما قال له أحد شيعته: «جئتُك من عند أعيان الناس. قال له: ويحك وكيف يكون أعيان الناس! فوالله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيرُه»^(٢).

ثم لم يكن تأثير كلامه عليه السلام على أديب بعينه أو طائفة، أو قومية، أو بحدود عصر معين، بل بلاغته عليه السلام خارجة عن هذه الأطر فمثلاً الأديب الفارسي سعدي الشيرازي بعد أن «عثر على ضالّته المنشودة في بلاغة الإمام علي»^(٣) سبك عهده لمالك الأشتر - على طوله - شعراً، وسكبه نثراً في الرسالة الخامسة من رسائله الست^(٤).

وكان المتنبي (ت ٣٥٤) معتمد في بعض أبياته الرائعة على حكم الإمام عليه السلام، قال العلّامة محمد حسين آل كاشف الغطاء^(٥): «إنّ المتنبي كثيراً ما كان يصول على حكم الأئمة عليهم السلام وخصوصاً حكم أمير المؤمنين عليه السلام فيأخذ معانيها ثم ينظمها في أقواله... خذ مثلاً المتنبي يقول:

(١) م. ن ١٤٦/٧.

(٢) نوادر وقصص من شرح نهج البلاغة ١٢/١.

(٣) الأثر العربي في أدب سعدي ٣٨٠.

(٤) ينظر: ن ٣٧٨.

(٥) هو الشيخ محمد حسين بن الشيخ علي بن الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء، من كبار رجال الإسلام المعاصرين ووُصِفَ بأنّه خطيب بارع، ساحر البيان، فصيح اللسان. توفي سنة (١٣٧٣هـ) في النجف ودُفِن فيها. ينظر: علماء في رضوان الله ٤٤١-٤٤٤.

الظلم من شيم النفوس فإن نجد ذا عفةٍ فلعللة لا يظلم^(١) (الكامل)

أخذها من قول علي عليه السلام:

«الظلمُ كامنٌ في النفوسِ، القوَّةُ تُبديه، والضعفُ يُخفيه»^(٢).

وغير هذا كثيرٌ عند المتنبي، فقوله:

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت في مُرادها الأجسام^(٣) (الخفيف)

نتلمس من ورائه حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَتَعَبُ النَّاسِ قَلْباً مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، وَكَثُرَتْ مُرُوءَتُهُ»^(٤).

ومن طُرُق تأثّر الشعراء بكلام أمير المؤمنين عليه السلام هي أن يعمد الشاعر إلى وصف الإمام ومناجاته مع الله سبحانه وتعالى، ويمدح بها من يشاء؛ فالبحتري (ت ٢٨٤هـ) يصوغ بيتين في المديح - مخاطباً بها ابن المدبر - من أجمل أبياته:

دنوتَ تواضِعاً وعلوتَ قدراً

فشأنك انحداً وارتفاعاً (الوافر)

كذلك الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامِيَ

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٤/ ١٨٦.

(٢) مصادر نهج البلاغة ١/ ٤٣.

(٣) شرح ديوان المتنبي ٤/ ٤٨.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٠٦.

ويدنو الضوء منها والشعاع^(١)

معتمداً على مناجاة ووصف أمير المؤمنين عليه السلام للباري عز وجل:

«قَرَّبَ فَنَائِي، وَعَلَا فِدْنَا»^(٢).

ووصفه أيضاً:

«سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرَّبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبَ مِنْهُ»^(٣).

وفي الأدب الحديث ما زال كلام الإمام علي (صلوات الله عليه) ينبوعاً ثراً، ومنهلاً عذباً، يلجأ إليه أدباء لإتمام وتقويم شخصياتهم ومواهبهم الأدبية، وهذا ما أشار إليه الجواهري بقوله: إنَّ أدبياً لم يدرس نهج البلاغة لا يمكن أن يكون شاعراً ولا كاتباً أبداً، ولو قرأ مليون مليون رواية، أو كتاب أجنبي، ولو استوعب كلَّ النظريات والعقائد والمبادئ^(٤).

أما الشيخ الأديب ناصيف اليازجي، فقد عدَّ نهج البلاغة الرِّكيزة الثانية بعد القرآن الكريم، وهما معاً أسهما في تكوينه الثقافي وإتقانه الكتابة، فقال: «ما أتقنت الكتابة إلا بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم فهما كنز العربية الذي لا ينفذ وذخيرتها للمتأدِّب. وهيئات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة إن لم يحيي ليلاليه سهرًا في مطالعتها والتَّبحُّر في عالي أساليهما»^(٥).

(١) ديوان البحري ٢ / ٦٩.

(٢) نهج البلاغة ٣٥٨.

(٣) م. ن ٨٢.

(٤) ينظر: لغة الشعر بين جيلين ٦٩.

(٥) ما هو نهج البلاغة ٢٠.



الفصل الثاني

أثر كلام الإمام علي عليه السلام

في نشر الحسن البصري



الحسن البصري

ولد الحسن بن أبي الحسن البصري عام (٢١ هـ) من أبٍ نصراني جيء به مسيئاً وكانت ولادته في المدينة لستين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب^(١).

نشأ البصري في مدينة رسول الله ﷺ وفي مجتمعها المسلم^(٢)، وبقي فيها مدة ما تبقى من خلافة عمر بن الخطاب، ثم خلافة عثمان بن عفان كلها، وعندما بايع الناس أمير المؤمنين ﷺ ليكون الخليفة الرابع، نزح الحسن البصري مع أسرته، لينزل البصرة، جانحاً عن الأحداث التي حدثت مدة خلافة أمير المؤمنين ﷺ، ولكن بعدما حكم الأمويون خرج للعمل في ظل سلطتهم^(٣)، إذ «صار كاتباً في أُمرة معاوية للربيع بن زياد^(٤)»^(٥).

(١) ينظر: الروض المعطار ١ / ٥٣١.

(٢) ينظر: الشر عند الحسن البصري ٧.

(٣) ينظر: تأريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ٤٤٥.

(٤) هو الربيع بن زياد بن الربيع الحارثي ولاء معاوية على سجستان ثم على الكوفة بعد وفاة واليها المغيرة بن شعبة. وتولى خراسان أيضاً. توفي ٥٣ هـ. ينظر الوافي بالوفيات ٢ / ١٩٠.

(٥) م. ن.

١٢٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

نظراً لفصاحته وبلاغة قلمه^(١). وبعدها «وُلِّي قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز»^(٢).

وعلى الرغم من أن هناك رأياً يقول إن الحسن البصري «لازم علي بن أبي طالب ناشئاً»^(٣)، إلا أن هذا لم يقيم عليه دليل فمن هذا الطرف من حياة البصري نستدل على صحة الأخبار التي كانت تقول بأنه كان على خلاف مع أمير المؤمنين عليه السلام، وبينهما جفوة بيّنة، وما نزوحه عن المدينة عندما آلت القيادة لأمر المؤمنين عليه السلام، ثم تسنمه مناصب مهمة إبان حكم بني أمية إلا شاهداً لا يضل، فضلاً عن تصرّحاته في هذا الشأن كقوله: «لو كان علي يَأْكُل الحشف بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه»^(٤).

ومن الصفات التي امتاز بها البصري انه «كان بادي الحزن، فإذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أُمِرَ بضرب عنقه»^(٥). ولكن لهذه الخصلة سبباً غير الذي هو رائج من كونه قد طلق الدنيا لأنّها فانية زائلة، بل السبب وراء حزنه هو دعاء أمير المؤمنين عليه السلام عليه. فقد روي أن الإمام عليه السلام رأى البصري يتوضّأ ويسرف في الماء فقال له: «أرقت ماءً كثيراً يا حسن؛ فقال: ما أراق أمير المؤمنين من دمائ المسلمين أكثر! قال: أوساءك ذلك؟ قال: نعم. قال: فلا زلت مسوّءاً»^(٦).

(١) ينظر: الأساليب الشريفة ٤١.

(٢) العقد الفريد ٤ / ٢١٧.

(٣) الأساليب الشريفة ٤١.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ٣٠٥.

(٥) البيان والتبيين ٢ / ٨٣. وينظر: المعارف ٤٤١.

(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ٣٠٥.

قال ابن أبي الحديد: «قالوا: فما زال الحسن البصري عابساً قاطباً مهموماً إلى أن مات»^(١).

أمّا ما أورده الطبرسي «من أعلام القرن السادس الهجري» في كتابه (الإحتجاج) فقد بيّن بوضوح مدى تأثير البصري بأمير المؤمنين عليه السلام من جهة، وعدم رضى الأخير عنه من جهة أخرى فقد جاء في هذا الكتاب «لما أفتتح - أي البصرة - أمير المؤمنين عليه السلام اجتمع الناس عليه وفيهم الحسن البصري ومعه الألواح فكان كلّما لفظ أمير المؤمنين عليه السلام بكلمة كتبها. فقال أمير المؤمنين عليه السلام بأعلى صوته: ما تصنع؟ فقال: نكتب آثاركم لنحدث بها بعدكم. فقال أمير المؤمنين: أما إن لكل قوم سامري وهذا سامري هذه الأمة، أما إنّه لا يقول لا مساس^(٢) ولكن يقول لا قتال»^(٣). إذاً فالحسن البصري وبشهادته يكتب كلّ كلمة يتحدث بها أمير المؤمنين عليه السلام لتكون سلاحه المضاء - فيما سنرى - في خطبه ورسائله وحكمه.

أما عن قول الإمام للبصري: إنك ستقول لا قتال، فهذا فعلاً ما نجده فقد كان أهم متبنياته، فبمرور الزمن وعندما فتك الحجاج (ت ٩٧ هـ) بالمسلمين، واجتمع بعض المسلمين لمحاربته، أخذ البصري يثبطهم عن ذلك، محاولاً ثنيهم وفلّ عرى عزيمتهم، طالباً منهم التوجه إلى الدعاء والتضرع، فقال: «أيها الناس

(١) م. ن ٣٠٥.

(٢) أشار إلى قوله تعالى حكاية عن النبي موسى عليه السلام إذ قال للسامري: ﴿وَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ طه / ٩٧. قال الجبائي: معناه لا مساس لأحد من الناس لأنّ السامري جعل يهيم في البرية مع الوحوش. ينظر: البيان في تفسير القرآن ٧ / ٢٠٠.

(٣) الإحتجاج ١ / ٢٠٩.

١٢٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

إِنَّهُ وَاللّٰهُ مَا سَلَّطَ اللّٰهُ الْحَجَّاجَ عَلَيْكُمْ إِلَّا عَقُوبَةً فَلَا تُعَارِضُوا عَقُوبَةَ اللّٰهِ بِالسَّيْفِ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالتَّضَرُّعُ»^(١). ومثّل هذا قال عندما خرج يزيد ابن المهلب لمحاربة أهل الشام^(٢).

ومقابل هذه الأخبار التي تحدثت عن وجود قطيعة وجفوة بين الحسن البصري وأمير المؤمنين عليه السلام، توجد هنالك أخبار تبررها، مثلاً لما سُئِلَ البصري عن الإمام علي عليه السلام قال: «ما أقول فيه! كانت له السابقة و الفضل و العلم والحكمة والفقه و الرأي والصُّحبة والنّجدة و البلاء والزهد والقضاء والقراءة، إِنَّ عَلِيًّا كَانَ فِي أَمْرِهِ عَلِيًّا... فقلتُ - أي الراوي -: يا أبا سعيد، فما هذا الَّذِي يُقَالُ عَنْكَ إِنَّكَ قُلْتَهُ فِي عَلِيٍّ؟ فقال يا ابن أخي أَحَقُّنْ دمي من هؤلاء الجبابرة، ولو لا ذلك لَشَالَتْ بِي الخُشْبُ»^(٣).

وبنظر الباحث لم يكن الرأي الثاني هو الراجح، إذ لو علم الإمام علي عليه السلام صدق سريرة البصري وإخلاصه القلبي لما دعا عليه مثلاً سلف هذا من جانب، ومن جانب آخر لو كان البصري صادقاً لما ترك أمير المؤمنين، ودخل ضمن الدائرة الأموية. فعليه كان أموي الهوى. ومثلاً قال إحسان النص في كتابه «الخطابة العربية في عصرها الذهبي»: «من المحقق أنّ الحسن لم يكن متحمساً لعلي وشيعته»^(٤).

أما موارد ثقافته، فقليل فيها آراء عدّة، فمثلاً شوقي ضيف يرى إنّ

(١) الطبقات الكبرى ٧ / ١٦٤.

(٢) ينظر: تاريخ الطبري ٤ / ٨٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٤) الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٤٩.

من وراء ثقافة البصري «القرآن الكريم، وهدى الرسول ﷺ، وصحابته الورعين، وخاصة عمر بن الخطاب، فإنه يروي عنه كثيراً من أقواله وعظاته»^(١).

ولا جدال أن البصري وغيره من كبار الكتّاب والوعّاظ تأثروا بالقرآن، والرسول ﷺ، وأصحابه، غير أن الباحث يرى في هذا التقسيم إلتفافاً وتعتيماً على اثر كلام أمير المؤمنين عليه السلام على البصري مصدره الحسن البصري نفسه، ثم من سار على قوله، لأننا إذا اعتمدنا على أسماء الأشخاص الذين ذكرهم البصري في نتاجاته الأدبية، وقلنا إنهم هم حصراً من تأثر بهم؛ فإن أمير المؤمنين عليه السلام سوف لم يكن له أي نصيب يذكر بينهم في هذا الشأن، كون البصري لم يذكر إسم الإمام عليه السلام في نتاجاته ولا مرة واحدة - بحسب قراءة الباحث - وهذا إجحاف كبير بحق الإمام من قبل البصري، الذي اعتمد اعتماداً مهيئاً على كلام الإمام عليه السلام، فكان يغترف منه اغترافاً ويسكبه سكباً في جميع نتاجاته دون استثناء.

وفي بعض الأحيان عندما يُطلب من البصري ذكر صاحب الحديث أو الموعظة عمّن هما؟ فيجيب: «وما تصنع بعمن؟ أمّا أنت فقد نالتك موعظته، وقامت عليك حُجّته»^(٢).

وهنا لابدّ من وقفة مع هذه الرواية، إذ نستنتج منها: إن هذا السائل علم أو شكّ، أو لاح له أن ما تحدث به البصري هو ليس له، وإلاّ لماذا سأله عن مُبدع ذلك الحديث.

ونستنتج من هذا أيضاً إنّ عائدية الحديث هذا هي لجهات ثلاث لا غير. أمّا

(١) تأريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ٤٤٧.

(٢) عيون الأخبار ٢ / ١٣٧. وينظر: أمالي المرتضى ١ / ٢١٧. وينظر: وفيات الأعيان ٢ / ٧٠.

١٢٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

الجهة الأولى فهي البصري نفسه، وهذا مردود، إذ لو كان الحديث الذي تحدث به البصري هو له لأسرع إلى ذكر اسمه، دون تحرج أو تأخير، لما في ذلك من قيمة وفضل كبيرين.

أما الجهة الثانية فتكون متمثلة بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والخلفاء الثلاثة الراشدين الأوائل، ولو كان الحديث لهذه الجهة لذكرها البصري - مثلما فعل في مواطن كثيرة من نثره - على اعتبار أنه لا يتحرج من ذكر الرسول صلى الله عليه وآله عندما يتحدث بحديثه، ولا من الخلفاء الثلاثة الأوائل. ونحن هنا لا نزعم أنه لم يتأثر بهذه الجهة العظيمة، بل نتحرى مَنْ هي الجهة التي يتحرج بل وامتنع البصري من ذكر اسمها، مع أخذه عنها، ولماذا.

إذاً بقيت لنا جهة واحدة وهي عائدية الحديث، أو الموعظة لأمر المؤمنين عليه السلام، وهذا ما يتبناه الباحث، وعليه أدلة عدة منها:

الأول:

قول البصري السالف لما سألته أمير المؤمنين عليه السلام ما تصنع؟ فقال: «نكتب آثاركم لنحدث بها بعدكم».

الثاني:

إذاً باعتراف البصري كان يكتب آثار أمير المؤمنين عليه السلام، وفي الوقت نفسه كان البصري كاتباً - مدة عطائه بتمامها - في ظل الدولة الأموية، وهذه الدولة رافضة لكل ما يتصل بأمير المؤمنين عليه السلام من كلام، ومنهج، وذرية، وعليه فالبصري لا يستطيع ذكر اسم الإمام، وذكره هذا يستوجب مدحه عليه السلام في معقل مناوئيه.

الثالث:

وهذا أهم الأدلة، إذ تبين بعد عرض نتائج البصري على كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) أن هذه المواعظ هي له (عليه السلام) بشكل قطعي لا يقبل الطعن.

وهناك خبر طريفٌ عده كثيرٌ من المهتمين بالبلاغة سبباً رئيساً يقف خلف بلاغة الحسن البصري إذ «قالوا وكانت خيرة»^(١) أمه ربها غابت فيبكي فتعطيه أمٌ سلمةٌ ثديها تعلله به إلى أن تحيى أمه فيدرُّ ثديها فشربه، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك»^(٢).

وفي نظر الباحث - وبدعم كامل من نتائج الدراسة - لم ينصف الشيخ البصري من جانب ثقافته وتأثره من القدماء إلا الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، إذ قال: «وكان الحسن البصري بارع الفصاحة، بليغ المواعظ، كثير العلم. وجميع كلامه في الوعظ وذم الدنيا أو جلُّه مأخوذ لفظاً ومعنى، أو معنى دون لفظ؛ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فهو القدوة والغاية»^(٣) وهذه شهادة نقدية ودليل ثاقب وثابت على تأثره بأمر المؤمنين (عليه السلام).

ومن المحدثين الكاتب محمد أمين النواوي بقوله: «وהל كان الحسن البصري في زواج وعظه، وبالغ منطقهِ إلا أثراً من عليٍّ، وقطرة من محيط أدبه، ففتنَ النَّاسَ بعبادته، وخبَلَ الباهمَ بجمله، فكيف يكون الأستاذ

(١) خيرة اسم ام الحسن البصري كانت خادمة لأم سلمة زوج النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله)، ينظر: طبقات الفقهاء ٩١.

(٢) المعارف ٤٤٠ • وينظر: طبقات الفقهاء ٩١.

(٣) أمالي المرتضى ١ / ١٦٧.

العليم والإمام الحكيم علي بن أبي طالب»^(١).

لم يجانب الصواب هذان الرأيان طرفة عين، غير أنهما تبقى تعوزهما الدراسة المقارنة بين الكلاميين حتى تثبتها.

وإلى جانب هذه الآراء، هنالك من يقول: إن مرجعية البصري الأدبية وتعليلها أمرٌ حيرَ القدماء^(٢).

والباحث يقول: لا حيرة بعد هذه الدراسة، لأنّ الذي وصلنا من عطايا البصري النثرية يكفي للخروج بنتيجة مرضية وصريحة حول المنبع الأكبر الذي استقى منه ثقافته بطريقة لا تقبل الشك، ولكن لو وصلتنا آثاره كاملة لكان ذلك أفضل دون ريب، فقد ذكر أنّ له كتباً عدّة^(٣)، ولكن بعدما ثقل عليه المرض طلب من ولده عبد الله أن يجمعها فجمعها، ثمّ أمر خادمه أن يسجر التنور، فأمره بها وأحرق غير صحيفة واحدة^(٤).

(١) مصادر نهج البلاغة ١ / ٦٩.

(٢) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٦٢.

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى ٧ / ١٧٤.

(٤) ينظر: م. ن ٧ / ١٧٤ - ١٧٥، وينظر: سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٨٤.

المبحث الأول

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في خطب الحسن البصري

عاش الحسن البصري أغلب عطاءه في العصر الأموي وهو عصر ذهبي - مثلما هو معروف - للخطابة العربية، لأسباب عدة، يمكن أن يكون على رأسها الدافع العقائدي، والدافع السياسي.

ماشى البصري عصره بتطوره الخطابي وبلغ فيه شأواً رفيعاً، وأشار إليه بالبنان. قال عنه الجاحظ «أخطب الناس صاحبُ العمامة السوداء بين أخصاص^(١) البصرة، إذا شاء خطب، وإذا شاء سكت»^(٢).

وللخطب أنواع عدة، غير إنَّ البصري برز في الخطب الدينية منها: «إذ كان من أعلامها البارزين في القرن الأول الهجري»^(٣).

(١) أخصاص: جمع خصّ هو بيت من الشجر أو القصب، وسُمِّيَ بذلك لما فيه من الخصاص وهي التفاريج. ينظر: لسان العرب: ٧ / ٢٦ مادة (خصص).

(٢) البيان والتبيين ١ / ٣٢٠.

(٣) النثر عند الحسن البصري ٣٢.

اعتمد الحسن البصري في خطبه الدينية على موضوعات طرقها أمير المؤمنين عليه السلام قبله برمتها كالتخويف من الموت، والزهد في الدنيا واليأس منها، والاستعداد لبيت الغربة والوحشة.. وأغلب خطبه تلك - إن لم تكن جميعها - كان لأثر الكلام العلوي حضورٌ مهيمٌ عليها، حتى إننا نجد خطاباً طوالاً للبصري ما هي إلا تليفاً وجمعاً لخطب ومواعظ الإمام، فمن خطبة له عليه السلام حذر فيها من الدنيا، منها:

«مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ، وَمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْبَقُهُ»^(١).

وقال عليه السلام في أخرى:

«مَنْ سَاعَاَهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ»^(٢).

فأمير المؤمنين عليه السلام يدعو إلى ترك الدنيا، لأن الحصول عليها لا يأتي بأن يقضي المرء عمره يلهث ورائها، لأن من فعل هذا فاتته الدنيا وأجحف بحظه من الآخرة، وكأن الدنيا داء فكلما استكثر الإنسان منها فإنه مستكثر مما يهلكه والمقل منها مستكثر مما يؤمنه.

نظر البصري إلى هذا المعنى واستهل به إحدى خطبه، فقال: «إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ مِنْ صَحْبِهَا بِالنَّقْصِ لَهَا، وَالزَّهَادَةِ فِيهَا سَعَدَ بِهَا وَنَفَعَتْهُ صَحْبُهَا، وَمَنْ صَحَبَهَا عَلَى الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَالْمَحَبَّةِ لَهَا شَقِيَ بِهَا وَأَجْحَفَ بِحَظِّهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ١٨٩.

(٢) م. ن ١٠٩.

(٣) حلية الأولياء ٢ / ١٤٠.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٢٩

فالبصري يرى ما قاله الإمام (عليه السلام)، ويذهب أيضًا إلى الطريقة التي اعتمدها (عليه السلام) من أجل توصيل الفكرة، تلك الطريقة القائمة على الشرط ثم النتيجة:

فالشرط عند الإمام «من أقل منها» تكون النتيجة «استكثر مما يؤمنه».

عند البصري «من صحبها بالنقص منها» تكون النتيجة «سعد بها».

والبصري أيضًا لم يغفل المقارنة التي اعتمدها الإمام (عليه السلام) بين من أقل ومن استكثر من الدنيا والتي اعتمد الطباقي فيها كقوله (عليه السلام): «ساعاها - قعد عنها».

وقوله (عليه السلام): «فاتته - وافته».

وقوله (عليه السلام): «أقل - استكثر».

وقوله (عليه السلام): «يؤمنه - يوبقه».

فقال البصري: «الزهادة فيها - الرغبة فيها».

وقوله: «سعد - شقي».

والملاحظ أن البصري أكد هذا المعنى بقوة، مرة من خلال «إن» التوكيدية، وأخرى من خلال تكرار «الدنيا» - التي هي موطن الشاهد - إمّا بلفظها، وهذا ورد مرة واحدة، أو بالضمير العائد عليها «صحبها، فيها، بها...» وهذا ورد ثمان مرات. وبعد هذا قال البصري في الخطبة نفسها، واصفًا الدنيا: «فأمرها صغير، ومتاعها قليل، والفناء عليها مكتوب...»^(١).

وهذا كقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطابه للدنيا:

«يا دُنْيا يا دُنْيا، إِيْلِكَ عَنِّي... قَدْ طَلَقْتُكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا! فَعِشْكَ قَصِير،

وخطرُك يسيرٌ، وأملكُ حقيرٌ»^(١).

وليس المعنى وحده شقَّ طريقه إلى خطاب البصري، بل حتى صياغة الجملة أو العبارة القائم على القصر تجده بيتاً عنده كذلك:

فالإمام قال: «فعيشك قصير».

وعند البصري: «فأمرها صغير».

وقال الإمام: «وخطرُك يسير».

وعند البصري: «ومتاعها قليل».

ثمَّ اعتماد البصري على أسلوب الإخبار الذي أنتهجه الإمام عليه السلام، ولكن مما زاد في وقع عباراته عليه السلام إنها جاءت جميعها مسجوعة سجعاً محبباً «قصير، يسير، حقير» وبألفاظ ذات دلالة واضحة على تصغير وتحقير الدنيا، في حين خلا كلام البصري من هذا الفن البديعي.

ولا زال البصري واصفاً الدنيا محذراً منها في الخطبة نفسها، حتى قال: «فإنَّها قد آذنتُ بزوالٍ، لا يدومُ نعيمُها، ولا يؤمَّنُ فجائِعُها، يبلى جديدها، ويسقُمُ صحيحُها، ويفتقرُ غنيُّها مِئالةً بأهلِها، لَعَابَةٌ بهم على كُلِّ حالٍ»^(٢).

فبداية كلامه لا يختلف عن اخبار الإمام عليه السلام عن الدنيا:

«وَقَدْ آذَنْتُ بِبَيْئِهَا، وَنَادَتْ بِإِنْقِطَاعِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا بِالزَّوَالِ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ٥٦٣.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٤١.

(٣) تحف العقول ٢١١.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣١

فالجملة التحقيقية «قَدْ أَذَنْتُ بِبَيِّنِهَا» والتي من خلالها أكد الإمام على أنّ الدنيا مصيرها الفراق فلم يغير البصري فيها شيئاً يذكر: «قد آذنت بزوال».

وباقى كلام البصري، فهو من خطبة أخرى للإمام عليه السلام، منها قوله:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلُوءَةٌ خَصِرَةٌ... لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجَعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ... أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ»^(١).

وإذا عرفنا أنّ «الحبرة» في قول الإمام معناها: النعمة، أو النعمة التامة^(٢)، فعليه أنّ كلام البصري: «لا يدوم نعيمها، ولا يؤمن فجائعها»، بنصه عن كلام الإمام عليه السلام:

«لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجَعَتُهَا».

ومثلما يرى الباحث استعمال الفعل المضارع «تؤمن» مع المؤنث «الفجيعة» أكثر دقة من استعمال «يؤمن» معها.

وفي كلام الإمام عليه السلام عن الدنيا وحقارتها نجده يستعمل صيغة المبالغة:

«غَرَّارَةٌ، ضَرَّارَةٌ، أَكَّالَةٌ، قَوَّالَةٌ».

وما هذا إلاّ لإعطاء هذه المعاني بعداً عميقاً، وتأكيداً بالغاً. لم يغفل البصري هذا بل جنح إليه لما قال: «مِيَالَةٌ، وَلَعَابَةٌ».

وأما قول البصري: «يبلى جديدها». فهو ممّا وردَ نظيره في إحدى خطب الإمام عليه السلام:

(١) نهج البلاغة ١٨٨.

(٢) ينظر: لسان العرب ٤/ ١٥٨ مادة (حَبَر).

«وَصَارَ جَدِيدُهَا رَتْناً»^(١).

والرَّثُّ هو البالي^(٢). أي صارَ جديدُها بالياً، وعليه لا فرق تماماً بين معنى كلام الإمام عليه السلام ونصّ البصري.

وهكذا سارَ البصري في خطبته التي نحن بصددِها تماماً على النهج العلوي، حتى قال: «يا ابنَ آدَمَ أنتَ اليومَ في دارٍ هيَ لافطتُكَ وكأنَّ قد بدالكَ أمرُها فإلى الصرامِ ما يكونُ سريعاً، ثمَّ يفضي بأهلها إلى أشدِّ الأمورِ وأعظمها خطراً»^(٣).

وهو هنا يتحدث عن ثلاثة معانٍ حول الدنيا: كونها لافطتك، بمعنى أن الدنيا ستخرجك منها قسراً، وإنَّ صرمها وانقطاعها سيكون سريعاً، ثمَّ حذرَ أبناء الدنيا من عقبةِ كؤودا لا بُدَّ من عدّةٍ صالحةٍ لإجتيازها.

وهذه المعاني، وبعض ألفاظها ما نجدها في جانب من خطبةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام جاء فيها:

«..وَأَنْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمِ مَضَى، أَوْ شَهْرٍ انْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَتْناً، وَسَمِينُهَا غَنّاً، فِي مَوْقِفِ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ»^(٤).

فقول البصري: «أنتَ اليومَ في دارٍ هيَ لافطتُكَ» المحلّى بالكناية عن الموت هو من كناية الإمام عليه السلام في هذا المعنى: «وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا».

(١) نهج البلاغة ٣٢٦.

(٢) ينظر: لسان العرب ٢ / ١٥١ مادة (رَثْتُ).

(٣) حلية الأولياء ٢ / ١٤١.

(٤) نهج البلاغة ٣٢٦.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣٣

وقوله: «وكان قد بدلك أمرها فإلى الصرام ما يكون سريعاً» المحلى بالاستعارة، لا يختلف عن استعارة الإمام في هذا المعنى «وَأَنْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا».

أما تحذيره في آخر المقطع من مخاطر ما بعد الحياة، فنجدها في آخر كلام الإمام (عليه السلام).

وفي الوقت الذي دَمَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) الدنيا، رَغِبَ في أن تكون هي محطة تزوّد لمحطات لاحقة، فقال:

«فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ»^(١).

كنى (عليه السلام) عن الدنيا بـ «أيام الفناء» باعتبار ما ستؤول إليه الدنيا هو الفناء الحتمي، وكنى بـ «أيام البقاء» عن الآخرة كونها لا موت فيها، إمّا نعيمٌ دائم، أو جحيمٌ دائم.

تجنب البصري الكناية هذه وباشر المعنى مباشرة، فقال في الخطبة نفسها: «وَلَيْكُنْ سَعْيُكَ فِي دُنْيَاكَ لِآخِرَتِكَ»^(٢).

وكثيراً ما كان الإمام (عليه السلام) يقارن بين الدين والدنيا، ويوصي الرعية بأن يكون همهم حفظ دينهم وإن أضرَّ ذلك في دنياهم، لأن صون دينهم حسنة لا تضرُّ معها سيئة، وتضييع الدين سيئة لا تنفع معها حسنة، فقال في إحدى خطبه:

«وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافِظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ٢٥٤.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٢٤.

(٣) نهج البلاغة ٢٨٧.

١٣٤ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

اعتمد البصري هذا المعنى في أكثر من نص، فقال في الخطبة التي نحن بصدددها: «ويحك يا ابن آدم ما يضرُّك الذي أصابَكَ من شدائد الدنيا إذا خلصَ لك خيرُ الآخرة»^(١).

وقال في نص آخر: «ابن آدم! إنَّه لا يضرُّك ما زُوِيَ عنكَ من دُنْيَاكَ إذا أدَّخَرَ لَكَ خَيْرُ آخِرَتِكَ، وما ينفعُكُ خيرٌ ما أصبت منها إذا حُرِمْتَ خَيْرِ آخِرَتِكَ»^(٢).

وهنا يبرز الأثر العلوي مهيمناً على كُلِّ شيء من كلام البصري المذكور؛ فمقدمة كلام الإمام لم يغيّر فيها شيئاً سوى أنه استبدل لفظة «تضييع» بـ «زُوي». وحتى التضاد الذي نجده عند الإمام كقوله: «يضرُّكم - ينفعكم» استعمله البصري نفسه، فقال: «يضرُّك - ينفعك».

أما النداء «يا ابن آدم» الذي أفتتح به البصري حديثه فهو جزء من أسلوب اعتاده، إذ عندما يأخذ المقطع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يقدم له - في مواطن عدة - بهذه العبارة.

وعلى هذا النهج هي خطب الحسن البصري، حتى أنك لا تكاد تجد خطبة واحدة من خطبه خالية من أثرٍ لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، فمن خطبة له نجده يأتي على حكمة الإمام علي عليه السلام:

افْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلُهُ كَثِيرٌ»^(٣).

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٤٣.

(٢) آداب الحسن البصري ٧٠.

(٣) نهج البلاغة ٦٢٩.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣٥

فأمير المؤمنين عليه السلام وهو يُرَغَّب بفعل الخير؛ فقد افتتح حكمته بفعل الأمر «افعل»، ثم نهى عن تحقير الخير بلا الناهية، مؤكداً على أنَّ صغير الخير وإن قلَّ فهو كبير؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ينمي الحسنات.

أخذ البصري هذه الحكمة، بعضاً منها بنصّه، والآخر بمعناه، وتوسّع عليها، مؤكداً بما أكّد الإمام، وناهيّاً عما نهى عنه الإمام، فقال: «فلا تحقرَنَّ من الخير شيئاً وإن هو صغر، فإنَّك إذا رأيته سرَّكَ مكانه، ولا تحقرَنَّ من الشرِّ شيئاً فإنَّك إذا رأيته ساءَكَ مكانه»^(١).

فبداية كلامه: «فلا تحقرن من الخير شيئاً» تضمين محور لبداية حكمة الإمام عليه السلام: «افعلوا الخير ولا تحقرُّوا منه شيئاً».

وكلامه «ولا تحقرن من الشر شيئاً... الخ» يمثل بؤرة التوسّع، أو البسط التي أجراها على كلام الإمام عليه السلام.

ثم قال البصري في الخطبة ذاتها: «فرحم الله رجلاً كسب طيباً، وأنفق قصداً، وقدَّم فضلاً ليوم فقره وفاقته»^(٢).

وهذا الكلام يشبه إلى حدٍّ كبير في صياغته، وأسلوبه، ومعناه فاتحةً لإحدى خطب أمير المؤمنين عليه السلام، جاء في بعضها:

«رَحِمَ اللهُ أَمْرَاءاً.. قَدَّمَ خَالِصاً، وَعَمَلَ صَالِحاً..»^(٣).

فمثلاً استعمل الإمام العبارة المسجوعة القصيرة «قَدَّمَ خَالِصاً..».

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٤٣.

(٢) م. ن ٢ / ١٤٣.

(٣) نهج البلاغة ١٠٥.

وهكذا البصري أيضاً «قدّم فضلاً».

ونجد البصري استعمل بعض ألفاظ الإمام بعينها، وبعضها حوّر في ثوبها، كقوله «كسب طيباً» فهو لا يختلف عن كلام الإمام عليه السلام «عمل صالحاً»، إذ جعل «كسب» بدلاً من «عمل»، و«طيباً» بدلاً من «صالحاً».

وفي الخطبة نفسها يطالعنا أثر آخر لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في قول البصري: «أنتم تسوقون الناس، والساعة تسوقكم»^(١).

وما هذا إلا تحويرٌ شكليٌّ لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«فإنَّ النَّاسَ أَمَامُكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ»^(٢).

فبداية قول البصري فيه كناية عن الموت، بمعنى إنَّ الناس ماتوا وهم الآن أمامكم. وهذا ما نجده صراحة في الجملة الأولى عند الإمام عليه السلام «فإنَّ النَّاسَ أَمَامُكُمْ»، وبما أنَّه لا فرق بين «تحدوكم» و«تسوقكم». حيث يُقال: حدا الإبل أي ساقها^(٣)، فلا فرق تماماً بين المقطعين الآخرين من النصين، إذ كل ما عمله البصري أبدل «تحدوكم» بـ «تسوقكم».

ومما تسجله الدراسة على الحسن البصري إنه كان يعمد إلى المقطع العلوي، فيقدم ويؤخر فيه من جهة، ثم يحوّر فيه شكلياً من جهة أخرى، وأمثلة هذا كثيرة جداً، فمن خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام حذّر فيها من الغفلة وبغته الموت، قال في بعضها:

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٤٣.

(٢) نهج البلاغة ٢٨٠.

(٣) ينظر: لسان العرب ١٤ / ١٦٨ مادة (حدا).

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣٧

«حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخَرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ
اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا
قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ. إِنِّي أَحْذَرُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمُنْزِلَةُ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا
الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ»^(١).

أخذ البصري بعض هذا مفتتحاً به إحدى خطبه، فقال: «رحم الله أمراً
عرف ثم صبر، ثم أبصر فبصر، فإن أقواماً عرفوا فانتزع الجزع أبصارهم، فلا هم
أدركوا ما طلبوا، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا، اتقوا هذه الأهواء المضلة البعيدة
من الله»^(٢).

فأول كلام البصري هو مما جاء في نهاية كلام الإمام عليه السلام، إذ كان الأثر العلوي
فيه جلياً سواء من ناحية المعنى الذي أكد وحث فيه الإنسان على التفكير والتدبير
في ما يسمعه، ثم النظر بالعين والتبصر بالقلب. أو من ناحية صياغة الجملة،
فتجد الإمام عليه السلام اعتمد على جمل قصيرة مسجوعة، وهكذا البصري.

حتى أنه لم يغيّر في قول الإمام عليه السلام «ونظر فأبصر» إلا شكلياً فقط حين قال:
«ثم أبصر فبصر» أمّا ألفاظ الإمام «سمع، تفكر، نظر، أبصر، انتفع» فحافظ حولها
البصري بالفاظه «عرف، صبر، أبصر، بصر».

أمّا قوله «فإن أقواماً عرفوا..» بمعنى تبين لهم ما كانوا فيه، وما قدموه من
عمل، فكان ينظر فيه إلى قول الإمام المذكور «حتى إذا كشف لهم عن جزاء
معصيتهم...».

(١) نهج البلاغة ٢٤٦.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٤٦.

١٣٨ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ولكن هؤلاء القوم جاءت معرفتهم متأخرة، فهي لم تغن عنهم شيئاً، وهي في وقتٍ مثلما عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنى بأسلوب العكس الجميل:

«استقبلوا مدبراً، واستدبروا مُقبلاً».

والمعنى: «استقبلوا أمراً كان في ظنهم واعتقادهم مدبراً عنهم، وهو الشقاء والعذاب... وتركوا وراء ظهورهم ما كانوا حَوِّلُوهُ من الأولاد والأموال والنعم»^(١).

وبما إنهم هكذا، فكانت عاقبتهم مثلما قال عليه السلام:

«فَلَمْ يَتَنَفَعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ».

إذ تجد الإمام عليه السلام هنا يصوغ هاتين الجملتين بصورة فيها طولٌ على العكس من لاحتقاتها، وكان البصري متكئاً على لفظ ومعنى وصياغة هذا المقطع بقوله: «فلا هم أدركوا ما طلبوا، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا».

ومما يؤخذ عليه إنه لم ينقل ما يجده عند الإمام من ألفاظ، وفنون، وصور، ومعانٍ إلى علاقة جديدة أو توظيف مغاير، بل يتكىء تماماً سويةً على اللفظ والمعنى والصياغة.

ومثلما افتتح البصري خطبته بأثر علوي عاد وختمها بكلام الإمام عليه السلام:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَعْنِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ»^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ / ١٠٩.

(٢) نهج البلاغة ١٣٥.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣٩

فأمير المؤمنين عليه السلام يأمر ثم يؤكد على أن أي موعظة خارجية بدون استعداد وتقبل داخلي لا تؤدي دورها في إحداث التغيير المرجو.

نظر البصري إلى الشق الأول من هذا الكلام، فقال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعَظُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتْ الْمَحَاسِبَةُ مِنْ هَمِّهِ»^(١).

ولو أمعنا النَّظَرَ أكثر في قول البصري «كَانَ لَهُ وَاعَظُّ مِنْ نَفْسِهِ» فنجده لا يختلف عما وَرَدَ في مقطع الإمام عليه السلام: «يَكُونُ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ»، فاستبدل الفعل المضارع الناقص «يكون» بـ «كان». ولعل «يكون» أثر استعمالاً من «كان» لدلالته على الاستمرارية، والنفوس تحتاج إلى الوعظ بإستمرارية متواصلة. أمّا «منها» فالهاء هنا عائدة على النفس بمعنى من نفسه، وهذا ما ذكره البصري صراحة (من نفسه).

ونجد الإمام عليه السلام لم يكتفِ بالوعظ، بل أردفه بالزجر، لأنَّ من النفوس لا يكفيها الوعظ، بل هي بحاجة إلى كبح جماحها وزجرها، ولكنَّ البصري أهمل هذا مكثفياً بالوعظ.

أغلب خطب البصري من هذا النوع، حيث يجعل منشئها هيكلتها من مقدمة أو استهلال، ووسط، ثم الخاتمة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا إن دلَّ على شيء فأول ما يدلُّ على الرغبة والغرام بهذا الكلام حتى جعلاه به يفتح، وبه يعرض، وبه يختتم.

ومن خطبه الأخرى التي بُنِيَتْ على هذا البناء قوله: «يا ابن آدم: بع دنيَاكَ بآخرتك تريحها جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنيَاكَ فتخسرهما جميعاً»^(٢).

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٤٦.

(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٨٥.

١٤٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

فنهيه عن بيع الآخرة بالدنيا، تضمين حرفي لما ورد في وصية الإمام علي لولده الحسن عليه السلام:

«فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ»^(١).

وقبل أن يضمّن البصري عبارة الإمام عليه السلام التي استعار فيها لفظة البيع للآخرة، كان قد ذكر هذا المعنى، بمعنى أنّه كرر المعنى العلوي مرتين: الأولى عن طريق العكس، والثانية بالنص وهذا التكرار لترسيخ معنى واحد، هو تفضيل الآخرة على الدنيا.

وبعد هذه المقدمة انتقل البصري إلى موعظة أخرى، دعا فيها إلى منافسة أهل الخير في الخير، والابتعاد عن أهل الشر، فقال: «يا بن آدم إذا رأيت النَّاسَ في الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في الشَّرِّ فلا تغبطهم عليه»^(٢).

فكلامه هذا يشبه إلى حدّ كبير بعض ما جاء في إحدى خطب الإمام عليه السلام:

«فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ»^(٣).

فالمعنى هو المعنى بين النصين، والألفاظ نفسها، وحتى التي غيّر فيها البصري فإنّها بقيت تحوم حول دلالة الألفاظ في نص الإمام عليه السلام:

فقول البصري: «فنافسهم فيه» من قول الإمام:

«فأعينوا عليه».

وقوله: «فلا تغبطهم عليه». من قول الإمام:

(١) نهج البلاغة ٤٥٨.

(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٨٥.

(٣) نهج البلاغة ٢٩٤.

«فاذهبوا عنه».

أمّا صياغة الموعظة والتي ابتدأها الإمام بـ «إذا» الشرطية - وهي ظرف لما يستقبل من الزمان - وما تلاها من فعل الشرط ومفعوله «رأيتم خيراً»، ثم جواب الشرط المقترن بالفاء «فأعينوا عليه»، ثم الجملة التي جاءت بعد هذه والتي كانت على غرارها تماماً، ثم ما أختتم به الجملتين من جار ومجرور «عليه، فيه»، فوجد البصري في هذا كله أسوة حسنة، فسار عليه خطوة خطوة.

والذي يُلحظ على خطب البصري تعرّضه في الواحدة منها إلى موضوعات وعظية عدّة، يربط بين كلّ موضوع وآخر بعبارة يا ابن آدم، أو يا فلان، أو غيرهما، وهذا بدوره أدّى إلى غياب الإنسجام والسبك عن خطبه، ومردّد هذا - مثلما يرى الباحث وستكشفه الدراسة - إلى أنّ البصري يجمع في الخطبة الواحدة حكماً ومقاطع من خطب علوية عدّة، فبعد أن انتهى من حث الناس على المنافسة في أعمال الخير انتقل إلى موعظة أخرى، فقال: «أمّتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أمّتكم، وقد أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون»^(١).

فالبصري بهذا يشايح أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذا المعنى الذي أورده بطريقة جميلة، حيث قال:

«أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرَّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ»^(٢).

فقول البصري: «وقد أسرع بخياركم» يرى فيه الباحث اختزالاً لكلام

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٨٥.

(٢) نهج البلاغة ٢١٥ - ٢١٦.

الإمام، إلا أنّ الإمام لم يصرح مباشرة بأنّ الأختيار ظعنوا أو أُسرع بهم، بل اعتمد على الإستفهام المكرر في ثلاث مرات متتالية، وذلك حتى يلفت انتباه السامع إلى ما أجاب به «أليس قد ظعنوا جميعاً»، أو لأنّه أراد أن تكون الإجابة من المخاطب نفسه، فعلى الرغم من إن الإستفهام يستعمل «لطلب الفهم لما ليس مفهوماً، أو لما هو غامض أو لطلب حصول الصورة الذهنية بواسطة أدوات محددة، ولكن الإستعمال الخاص للإستفهام يفرغ هذه الأدوات من دلالة الإستفهام إلى دلالات بديلة يعكسها السياق الذي ترد فيه»^(١). ومثالها كلام الإمام المذكور، فهو يعلم أين ذهب الأختيار والصلحاء، ويعلم أنّ الناس أو من خاطبهم يعلمون بذلك، لكنّه أراد منهم أن لا يتناسوا هذه العاقبة الحتمية، وتكون نصب أعينهم. ولذا فإنّ كلام البصري لم يكن له هذا الجذب والشد الذي وجدناه في هذا المقطع من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن شدة تأثر البصري بهذا المعنى عادّ وكرّر - في الخطبة نفسها - قوله السابق بنصّه مع زيادة فيها أثر علوي أيضاً، فقال: «وَرَبَّ الكعبة قد أُسرع بخياركم وأنتم كلّ يوم ترذلون فماذا تنتظرون؟»^(٢).

فبعد أن تحدّث البصري عن ذهاب الأختيار، مؤكّداً على هذا المعنى بتكراره، واستعمال القسم، وإيراده بتركيب يدلّ على التحقيق «قد أُسرع» عاد وذمّ من خاطبهم «وأنتم كلّ يوم ترذلون»، بمعنى تصيرون أرذال، والرّذيل هو الخسيس، وقيل هو الدّون من الناس^(٣).

(١) جدلية الأفراد والتركيب ١٩٤.

(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٨٦.

(٣) ينظر: لسان العرب ١١ / ٢٨٠ مادة (رذل).

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤٣

وهذا ما نجده تماماً في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام السابقة، فعندما تحدث عليه السلام عن ذهاب الأخيار والصلحاء ذم من خاطبهم بقوله:

«وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلَّا فِي حُثَالَةٍ لَا تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَارًا لِقَدَرِهِمْ، وَذَهَابًا عَنْ ذِكْرِهِمْ!»^(١).

ولكن الإمام ومن شدة توجعه من القوم أكد ذمهم أكثر وبطرق مختلفة، فنجد استعمل اللفظ الدال على الذم كـ «حُثَالَةٍ» وهي الرديء من كل شيء^(٢).

واستعمل التعبير الجميل الدال على اقوى درجات الذم وأبلغها «لَا تَلْتَقِي إِلَّا بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ» بمعنى: «ما بقيتم إلا في أوغاد الناس وأراذلهم.. يأنف الإنسان أن يذمهم، ولا يطبق إحدى الشفتين منه على الأخرى ليتكلم عنهم «استصغاراً لقدرهم» أي ترفعاً «عن ذكرهم» واحتقاراً لهم»^(٣). ومن باب تأكيد الذم أيضاً قدم عليه السلام «بذمهم» وهو يستحق التأخير على «الشفتان» الذي يستحق التقديم، لأنه فاعل «تلتقي»، بينما اختزل البصري هذا المعنى بتعبيره السالف الذي خلا منه جمالية تذكر سوى الإشتراك في معنى الذم.

ومما كان باديًا على كلام أمير المؤمنين عليه السلام التأوه والحسرة الشديدين على قومه، كونهم لم يمتثلوا أوامره وبخاصة مواعظه، وكفى بها شأنًا أن يسميها هو صائبة وشفافية، فقال في خطبته المسماة بالغراء:

«فَيَا هَا أَمْثَالًا صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوبًا زَاكِئَةً، وَأَسْمَاعًا

(١) نهج البلاغة ٢١٦.

(٢) ينظر: لسان العرب ١١/ ١٤٢ مادة (حثل).

(٣) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٣٣.

وَأَعِيَّةً، وَآرَاءَ عَازِمَةٍ، وَالْبَابَ حَازِمَةً»^(١).

ومثل هذا نجده عند البصري، فعندما يسوق النصائح والعظات، تراه معتزاً بها معظماً إياها، وفي الوقت نفسه كان متأوِّهاً، ومتشكِّياً من عدم سير الناس على ما يقول، فقال في الخطبة التي هي محل الشاهد: «فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة»^(٢). فهو لم يغيّر في كلام الإمام عليه السلام إلا في بعض المبنى، فقلوبه: «فيا لها موعظة» من قول الإمام:

«فيا لها أمثالا.. ومواعظ».

وقوله: «ولو وافقت من القلوب» من قول الإمام:

«لو صادفت قلوباً».

ومن أجل أن تكون المواعظ شافية، وصائبة نجد أمير المؤمنين عليه السلام أشرك - وهو العارف بذلك - أكثر من حاسة وعضو، فيريد رأياً عازماً، ولُبّاً حازماً، وسمعاً واعياً، وقلباً زاكياً. في حين أن البصري اكتفى من هذا بالقلب، ولم يشرك سواه في عملية الوعظ، إلا أنه أكد عليه وذلك لما قدمه وهو يستحق التأخير.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي نجده حاضراً في الخطبة البصرية هذه قوله في وصية لولده محمد بن الحنفية عليه السلام لما أعطاه الرؤية يوم الجمل: «...تَدِ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ١١٥.

(٢) جمهرة خطب العرب ٢/ ٤٨٥.

(٣) نهج البلاغة ٣٥.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤٥

ضمّن البصري هذا المقطع، وبطريقته التي باتت ذائعة، إذ قدّم له بعبارة يا ابن آدم، فقال: «يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك»^(١).

فلم يغيّر البصري هنا سوى لفظة واحدة، إذ ابدل فعل الأمر «تد» بفعل الأمر «طأ»، ورفع حرف الجر من الأرض وأدخله على القدم.

ويرى الباحث أنّ استبدال البصري للفعل المذكور كان في محله، لأنّ الإمام عليه السلام عندما أوصى ولده كان في ساحة حرب، وهذا يتطلب منه فعلاً له دلالة على الثبات والعزيمة، والإصرار فأستعمل الأمر «تد» وهو من وتدّ، يقال: «وتدّد فلان رجله في الأرض إذا ثبّتها»^(٢).

بينما البصري حينما غيّر - وهذا قليل جداً - وظيفة هذا المقطع إلى غرض الوعظ والتذكير بالموت، غيّر معه الفعل، وهذا التغيير كانت له المقدرة على تغيير سياق الجملة؛ فتحول المعنى من الثبات والعزيمة في ميدان الحرب إلى التذكير بما سيؤول له مصير الإنسان، وكأنّه أراد أن يقول: طأ أيها الماشي الأرض بقدمك، ولكن تذكر بأنّها ستكون قبرك قريباً.

وللبصري خطبة أخرى، خطب بها أمام عمر بن هبيرة^(٣)، قسّمها على خمسة مقاطع، كلّ مقطع يبدأ بعبارة «يا عمر بن هبيرة»، وكان تعالق واضح بين هذه المقاطع وبين كلام أمير المؤمنين عليه السلام. قال في أولها: «يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظّ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ٤٨٦.

(٢) لسن العرب ٣/ ٤٤٤ مادة (وتد).

(٣) هو عمر بن هبيرة بن معاوية الفزاري، جمعت له ولاية العراق سنة ١٠٣ هـ إبان خلافة يزيد بن عبد الملك، ثم عزّل بخالد القسري. ت ١٠٧ هـ تقريباً. ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٢.

سَعَة قَصْرِكَ إلى ضيقِ قبرك»^(١).

حذر البصري الوالي من سرعة أو بغتة نزول ملك الموت عليه السلام فينقله قسرًا «من سعة قصره» وهو كناية عن النعيم، وغضارة العيش، وكامل الحرية على الحركة إلى «ضيق قبرك» ومعناه عكس الأول تمامًا.

ومن يمعن النظر في مقابلة البصري هذه يجد ربطًا وثيقًا بينها وبين ما جاء في إحدى خطب الإمام عليه السلام:

«اسْتَبَدَّلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً»^(٢).

فكلام الإمام عليه السلام: «استبدلوا.. بالسعة ضيقًا» كان مرجعية خصبة لقول البصري: «فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك».

ولكن «السعة» في كلام الإمام عليه السلام لها من الدلالة أوسع وأبعد من «السعة» عند البصري، كون البصري عرفها بالإضافة وجعلها مختصة بسعة القصر «سعة قصرك».

أما الضيق، فالمقصود به القبر عند الطرفين، غير أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يذكر القبر بإسمه الصريح، بل استعاض عنها بكنايات، لأن الجميع «قد أجمع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح»^(٣) فجاءت كنياته عليه السلام جميلة ومؤثرة: «بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً» وهذه التعابير

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٤٩.

(٢) نهج البلاغة ١٩١.

(٣) دلائل الإعجاز ٥٣.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤٧

تبيّن بوضوح أنّ الإمام كان يقصد الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، وتعطي صورة واضحة ومكبرة عن وحشة تلك الدار التي لا مفرّ منها، بما لها - تلك التعابير - من دلالة واسعة على إحداث هزّة من الحزن، والتوجّس لدى المتلقي.

وبعد ذلك قال البصري: «يا عمر بن هبيرة إن تتقّ الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد عبد الملك من الله عزّ وجلّ»^(١).

والباحث هنا يذهب إلى ما ذهب إليه ابن أبي الحديد، حين رأى إنّ هذا الكلام أخذه البصري مما ورد في عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) لمحمد بن أبي بكر:

«وَلَا تُسَخِّطِ اللَّهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ»^(٢).

فالإمام (عليه السلام) ينهى جازماً عن تفضيل رضى المخلوق على سخط الخلاق، مؤكّداً على أنّ الله هو الكافي من كلّ شيء، ولا يكفي من الله شيء، وفي هذا برهان دقيق على وجوب الإمتثال لأوامر الله تعالى، إذ «كلّما كان في الله خلفٌ عن غيره، وليس في غيره خلفٌ منه، فالواجب اتّباع رضاه وأن لا يُسخط برضا غيره»^(٣).

ومن شدّة تأثر البصري بهذا المعنى عادّ وكرر - في الخطبة نفسها - ما ذكره مع تغيير طفيف، فقال: «يا عمر بن هبيرة! إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلّك الله إليه»^(٤).

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٤٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥ / ١١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٤ / ٢٣٨.

(٤) حلية الأولياء ٢ / ١٥٠.

والتكرار بهذه الطريقة لم يكن في مصلحة النص والأديب، لأنّه خالٍ من الجدّة والطرافة، قال الخطابي (ت ٣٨٨هـ): «وأما ما عابوه من التكرار فإنّ تكرار الكلام على ضربين: أحدهما مذموم وهو ما كان مُستغنى عنه، غير مُستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأوّل؛ لأنّه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغوا، وليس في القرآن شيء من هذا النوع»^(١).

ثمّ لو أمعنا النّظر في قول البصري في المقطع الرابع: «يا عمر بن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظرة مقت، فيغلق بها باب المغفرة دونك»^(٢).

لوجدناه ينهل من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِحْذَرُ أَنْ يَرَاكَ اللَّهُ عِنْدَ مَعْصِيَّتِهِ، وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَإِذَا قَوِيَتْ فَأَقْوِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِذَا ضَعُفَتْ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ»^(٣).

فالمعنى واحد بين النّصين وهو تحذير المرء ونهيهِ من أن يراه الله في العاصين ولا يجده مع المطيعين.

ومثلما ابتدأ الإمام حكمته بإسلوب الإنشاء أمراً «احذر» ابتدأ البصري بهذا الإسلوب ناهياً «لا تأمن» والمعنى واحد. وأمّا ما ورد بعد الأمر عند الإمام: «أن يراك الله» فقد غيّر فيه البصري طفيفاً، بل أقلّ من القليل، لما قال: «أن ينظر الله إليك».

والذي لم يلتزم بهذا الوعظ، فقد حدّره الإمام «فتكون من الخاسرين»،

(١) بيان إعجاز القرآن ٥٢.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٥٠.

(٣) نهج البلاغة ٦٢٣.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤٩

والبصري لم يبرح سائراً على فقرات الحكمة العلوية، لما حذر واليه بمثل هذا: «فيغلق بها باب المغفرة دونك».

لقد رأينا كيف كان يجمع البصري في نصّه الواحد عدّة آثارٍ علويّة، إذ في المقطع الأول نجد أثرًا لخطبة، وفي الثاني نجد أثرًا لرسالة، وفي الثالث لحكمة، وعلى الرغم من كون هذا الأثر العلوي له قوةً ومقدرة على إثراء كلام البصري على صعيدي الشكل والمضمون، إلّا أنّ البصري - ومثلما يرى الباحث - بهذه الطريقة عرّض خطبته ورسائله - معظمها - إلى عدم الانسجام والتلاحم بين عناصرها الرئيسة، لأنّ المقطع الأول - وإن كانت جميعها وعظية وإن كانت المواعظ يصلح بعضها مع بعضها الآخر - لا يرتبط بالثاني، والثاني لا يرتبط بالثالث وهكذا. ولذا حاول التخلّص من هذه الفجوات التي تحدث بين كلّ مقطع وآخر من المقاطع التي ينتقيها من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) بتكرار بعض العبارات - كتكرار (يا عمر بن هبيرة) هنا - لتكون هي الرابط والموصل بين أجزاء الخطبة الرئيسة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الميزة في نثر البصري بعامة قد عُرِفَتْ عنه، قال إحسان النص «ومن مظاهر أسلوبه... عدم الربط بين الفقرات فتبدو كلّ فقرة موعظة مستقلة بذاتها»^(١). والأهم هنا إن عدم الربط هذا عائد إلى السبب المُبيّن قبل قليل.

والغالبية الساحقة من خطب ورسائل البصري التي تطول سجّلت الدّراسة عليها هذه الطريقة في البناء، وذلك الأثر من الإمام (عليه السلام).

فمن خطبة أخرى له ابتدأها قائلاً: «رَحِمَ اللهُ رجلاً خلا بكتابِ اللهِ، فعرض

(١) الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٦٤.

١٥٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

عليه نفسه، فإن وافقه حمّد ربّه، وسأله الزيادة من فضله، وإن خالفه أعتب وأناب، وراجع من قريب»^(١).

وهذا المعنى من المعاني الشائعة، غير أنّ البصري جمع في خطبته هذه طريقة ومعنى وبعض ألفاظٍ وردت في خطبة دعا فيها أمير المؤمنين عليه السلام للاحتكام للقرآن، فقال:

«وأعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن، فما عرّفه القرآن فالزموه، وما أنكره فرددوه»^(٢).

ومعنى قوله عليه السلام - بحسب فهم الباحث - : «فما عرّفه القرآن». أي ما شهد له القرآن أنّه عملٌ معروف، وقوله: «وما أنكره» أي ما شهد عليه القرآن أنّه عملٌ منكر.

والمعنى واحدٌ بين نصّ الإمام ونصّ البصري قائمٌ على الرجوع إلى كتاب الله الكريم وجعله فيصلاً وحكماً، فإن طابق العمل الأمر القرآني، فالإلتزام بذلك العمل والإزدياد منه خيرٌ، وإن خالف العمل القرآن، فإنكار ذلك العمل خير.

ومن الفوارق بين النصين: أنّ حديث الإمام عليه السلام كان موجّهاً للجماعة:

«وأعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن».

وهذا بدوره وسّع دلالة الكلام، ومما زاد في وسعها ورود «ما» بعد فعل الأمر، بمعنى اعرضوا جميع المشاكل على القرآن المجيد سواء التي تخصّ الفرد، أو التي بينه وبين محيطه.

(١) البيان والتبيين ٣ / ٦٩.

(٢) تأريخ الطبري ٣ / ٤٩٤.

وعلى الرغم من إنَّ البصري استعمل هذه الجملة بطريقة واضحة «فعرض عليه نفسه»، إذ أبدل فعل الأمر «اعرضوا» بالماضي «عرض»، وأبدل «على الله» بـ «عليه» ولا فرق مطلقاً - هنا - بين شبه الجملة عند الطرفين، لأنَّ الضمير «الهاء» في كلام البصري عائد على لفظ الجلالة فيكون كلامه «على الله». ومع هذا نجد في هذا التبديل قد ضيق البصري الدلالة وحدَّ من سلطة القرآن اللامتناهية - طبعاً في هذا النص - عندما:

١- حوّل الخطاب من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، من «اعرضوا» إلى «اعرض».

٢- عرّف المعروض على القرآن، وحدّده بقوله: «نفسه». بينما نجد الإمام (عليه السلام) لم يحدد شيئاً معيناً يُعرض على القرآن، بل - مثلما سلف - استعمل لفظة «ما» وهذه اللفظة بنكرتها تبيّن بعض ما للقرآن من سلطة، وأنّه هو القادر على حل جميع المشاكل خارج حدود الزمان، والمكان، والأشخاص.

وبعد هذا سينتقل البصري في خطبته المذكورة إلى موعظةٍ أخرى، وكأنَّ هذه الموعظة بداية خطبة جديدة، وقد أدرك وهو بذلك لا بُدَّ من إيجاد رابط بين المقطعين لذا كرّر الدعاء «رحم الله» الذي ابتدأ به المقطع الأوّل، فقال: «رَحِمَ الله رجلاً وعظّ أخاه وأهله، فقال: يا أهلي صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، إخوانكم إخوانكم، مساكينكم مساكينكم، لعل الله يرحمكم»^(١).

وكانَّ البصري بكلامه هذا قد أقتطع جملاً من وصيّة أمير المؤمنين لولده (عليه السلام) لما ضربه ابن مُلجَم (لعنه الله)، منها:

«ثُمَّ إِنِّي أَوْصِيكَ يَا حَسَنُ وَجَمِيعَ أَهْلِ بَيْتِي وَوُلْدِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللَّهِ رَبِّكُمْ... اللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَلَا يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُكُمْ... اللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّ النَّبِيَّ أَوصى بِهِمْ... حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُورِثُهُمْ... اللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا خَيْرُ الْعَمَلِ، إِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. اللَّهُ اللَّهُ فِي الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا تُطْفِئُ غَضَبَ رَبِّكُمْ... اللَّهُ اللَّهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ فَشَارِكُوهُمْ فِي مَعَايِشِكُمْ... وَعَلَيْكُمْ يَا بَنِيَّ بِالتَّوَاضُّعِ وَالتَّبَازُلِ وَالتَّبَارُّ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّقَاطُعَ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّفَرُّقَ»^(١).

فجميع فقرات البصري نجد لها منبأ في هذا الجزء من الوصية العلوية، وبمقارنة النصين جملةً بجملة يكون الأثر العلوي أكثر جلاءً.

فقول الإمام عليه السلام: «إني أوصيك.. وجميع أهلي» قابله البصري وبتحوير طفيف لما قال: «رحم الله رجلاً وعظ أخاه وأهله».

وقول الإمام: «الله الله في جيرانكم».

قابله البصري: «جيرانكم جيرانكم».

وقول الإمام: «الله الله في الصلاة».

قابله البصري: «صلاتكم صلاتكم».

وقول الإمام: «الله الله في الزكاة».

قابله البصري: «زكاتكم زكاتكم».

وقول الإمام: «الله الله في الفقراء والمساكين».

قابله البصري: «مساكينكم مساكينكم».

وقول الإمام: «عليكم يا بني بالتواصل والتبازل والتبار».

قابله البصري: «إخوانكم إخوانكم».

ولم يعتمد البصري على المعنى والألفاظ التي وجدها في الوصية، بل أكد بما أكد به الإمام عليه السلام، وهو التكرار، كون التكرار من أهم قوانين الإيقاع^(١)، لذا جاء به الإمام عليه السلام ليطمئن التأكيد على المفاهيم التي أوجزها وهو على فراش الموت، لافتاً نظر السامع وانتباهه ومستدعيًا اهتمامه من خلال هذا التركيب^(٢): «الله الله».

وعلى الرغم من التشابه الكبير بين النصين، إلا أن الباحث يرى هنالك فروقاً شكّلت علامة فارقة بينهما، منها:

أولاً: صحيح أن الإمام أوصى ولده وأهله عليه السلام، لكنّه بعمق نظر، وسعة أفق، وإيمان راسخ بأنه ليس حكراً على طائفة معينة، أو زمانٍ معينٍ، جعل وصيته لا تختص بالأهل والولد، بل هي خارجة عن أية حدود زمانية، أو مكانية، أو شخصية، سارية المفعول لتشمل كلّ: «مَنْ بلغه كتابي»، بينما البصري اكتفى بوعظ: «أخاه وأهله».

ثانياً: إنّ التوكيد الذي استعمله الإمام عليه السلام من خلال تكرار لفظ الجلالة، وعلى امتداد الوصية «الله الله في جيرانكم...»، أبلغ وأؤكد من تكرار البصري ما أريد الإلتزام به من واجبات إنسانية وإسلامية: «جيرانكم جيرانكم...». لما يحمله لفظ الجلالة من تعظيم وتقديس، وخشية ورهبة في أعماق كلّ مخلوق.

ثالثاً: ومن أجل أن تكون وصيته عليه السلام ذات تأثير فعّال، وحجّة بالغة نجده

(١) ينظر: الأسس الجمالية في النقد الأدبي ٢٢١.

(٢) ينظر: المستويات الجمالية في نهج البلاغة ٧٠.

يبيّن فضيلة العمل الذي يأمر به، ويكشف أجره، فعندما أوصى بالصلاة بين أنها: «خير العمل»، وعندما أوصى بالزكاة بيّن أنها «تطفيء غضب ربكم». وهذا الإسلوب يخلق دفعة من الإقناع بالقول أكثر من لو كان يوصي بالفعل دون بيان أجره وفضيلته، في حين أنّ البصري أهمل هذا في نصّه المتأثر.

المبحث الثاني

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسائل الحسن البصري

يُعدُّ فن الرسائل فناً مهماً من فنون النثر الفني، حيث بدأت ملامحه تتطوّر بوضوح في أواخر العهد الراشدي، حتى اتخذ هذا المصطلح للدلالة على النصّ المدوّن والمبعوث من قبل شخصٍ إلى آخر^(١). وقد حفّزت عوامل عدّة على كتابة الرسائل والإهتمام بها، كان على رأس هذه العوامل، تعيين الولاية على أطراف مترامية من الدولة الإسلامية العظمى آنذاك، فكانت وسيلة الإتصال الوحيدة بين رأس السلطة (ال خليفة)، وبين ولايته هي الرسائل - التحريرية أو الشفوية - فكان الخليفة ينقل إلى واليه، أو الوالي إلى الخليفة ما يشاء من أمور تخصّ الدين والدنيا عن طريق هذا الفن.

وعلى الرّغم من تعدد موضوعات الرسائل، إلّا أنّ أبين ما طرق منها الحسن البصري موضوع الوعظ، والترغيب في الآخرة، والترغيب عن الدنيا، لأنّها

(١) ينظر: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي ١٦ - ١٧.

دار تصرُّم وانتقال، والتذكير بالموت، بمعنى إنَّ موضوعاتها لا تختلف عن موضوعات الخطب، وقد قيل في هذه الرسائل الكثير، وعُدَّت «نموذجاً راقياً لأدب المواعظ في هذا العصر، لشيوعها وغازاتها، ولما اتَّسمت به أيضاً من مزايا فنيّة عالية... وغدت مثلاً احتذاه منشئوها هذا اللون من الرسائل، ونهلوا من معينها»^(١).

ورأي الباحث غانم جواد لم يكن دقيقاً كون رسائل البصري عن بكرة أبيها جاءت تقليدًا صارخًا لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، حتى أنَّ أهم رسائله وأطولها لا تعدو سوى أنها تلفيق لكلامه عليه السلام، إذًا فكيف من جاء بعد البصري احتذى مثاله ونهل من معينه؟

وعلى أيّة حال فمن رسائله الطوال التي جمعها من كلام الإمام عليه السلام رسالة أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز تجاوزت أسطرها مائة سطرًا، قال في مستهلّها: «.. واحتمال المؤونة المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة...»^(٢).

فالبصري في هذا كان ينظر إلى جملة وردت في خطبة المتقين للإمام علي عليه السلام جاء فيها:

«صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً»^(٣).

وكطريقته في الخطب يجمع البصري مقاطع عدّة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ويضع لها جملة لتكون هي الرابط - وهي هنا أحذرهما - بين هذه المقاطع على امتداد الرّسالة، فبعد أن أخذ مقطعاً من خطبة المتقين، قال محذراً من الدنيا:

(١) م. ن ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٣٤.

(٣) نهج البلاغة ٣٥١.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٥٧

«فاحذر هذه الدَّارَ الصَّارِعَةَ الخادعةَ الخاتلةَ التي قد تزيَّنتَ بخدعِها، وغرَّت بغرورها، وقتلت أهلها بأملها»^(١).

وتحذيره هذا لا يختلف عن تحذير الإمام (عليه السلام) من الدنيا، حينما قال:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا.. حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ... وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ... حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِذَةٌ بَائِدَةٌ... كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرََعَتْهُ»^(٢).

سارَ البصري على أثر هذا الكلام شكلاً ومضموناً، فمثلما ابتداء الإمام خطبته: «إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا».

ابتداءً البصري مقطعه من الرسالة «فاحذر هذه الدار».

وبعد أن حذَرَ الإمام من الدنيا، بيَّن مساوئها التي توجب التحذير، معتمداً في بعضه على قصر الجملة التي تتكون من الفعل الماضي المتصل بتاء التانيث وما بعده من شبه الجملة «وتحلَّتْ بالأمال، وتزيَّنت بالغرور». وهذا ما وجدناه في قول البصري: «قد تزيَّنت بخدعها وغرت بغورها».

ثمَّ بعد ذلك حذَرَ (عليه السلام) من الدنيا بواسطة ألفاظ صاغها على إسم الفاعل «حائلة، زائلة، نافذة، بائدة»، وتوظيف هكذا ألفاظ يكشف استغلال ما لها من قوة تعبيرية تؤدِّي فضلاً عن معناها كلَّ ما تحمله من صور مدخرة، ومشاعر كامنة لَفَّتْ نفسها لفاً حول ذلك المعنى الفعلي^(٣) القائم على تحقير الدنيا. والبصري سارَ

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٣٤.

(٢) نهج البلاغة ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) ينظر: فنون الأدب ٧٦.

على هذا تمامًا بألفاظه «الصارعة، الخادعة، الخاتلة».

وبعد تأثره بالخطبتين المذكورتين إتجه البصري صوب رسالة بعثها أمير المؤمنين عليه السلام إلى سلمان الفارسي (رضي الله عنه) جاء فيها:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ: لَيِّنٌ مَسْهًا، قَاتِلٌ سَمُّهَا؛ فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا، لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا؛ وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَتَقَنَّتْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرَّفِ حَالَاتِهَا؛ وَكُنْ أَنْسَ مَا تَكُونُ بِهَا، أَحْذَرُ مَا تَكُونُ مِنْهَا؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اِطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مُحْذُورٍ، أَوْ إِلَى إِبْنَانٍ أَرَلَّتْهُ عَنْهُ إِلَى إِحْيَاشٍ وَالسَّلَامُ»^(١).

ضمّن البصري هذه الرسالة كاملةً في منتصف رسالته التي نحن بصدددها، قائلاً: «فاحذرها الحذر كله؛ فَإِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَلَمْسُهَا وَسَمُّهَا يَقْتُلُ؛ فَأَعْرِضْ عَمَّا يَعْجِبُكَ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا عَايَنْتَ مِنْ فَجَائِعِهَا، وَأَيَقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَاجْعَلْ شِدَّةَ مَا اشْتَدَّ مِنْهَا رَجَاءَ مَا تَرَجَّوْا بَعْدَهَا وَكُنْ أَسْرَّ مَا تَكُونُ فِيهَا احْذَرُ مَا تَكُونُ لَهَا؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اِطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ لَهُ أَشْخَصَتْهُ عَنْهَا بِمَكْرُوهِهِ، وَكَلِمَا ظَفَرَ بِشَيْءٍ مِنْهَا وَثَنِيَ رَجُلًا عَلَيْهِ انْقَلَبَتْ بِهِ..»^(٢).

والبصري هنا قد أجرى بعض التغيرات البسيطة على كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، غير أنّها وإن كانت بسيطة في الظاهر، لكنها تؤثر في بناء النص بشكل عام، فإذا فتشت عن أثرها تجده سلبياً على نص البصري فخذ مثلاً قوله: «لَيِّنٌ مَلَمْسُهَا وَسَمُّهَا يَقْتُلُ». الذي هو تضمين

(١) نهج البلاغة ٥٣٨.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٣٥.

لقول الإمام عليه السلام: «لين مُسْهًا، قاتل سمها». فهو بهذا التقديم والتأخير الذي أجراه على الجملة الثانية من كلام الإمام عليه السلام خَسِرَ ذلك الوقع المحبب المتأني من السجع الموجود في «مسها، مُسْهًا». وبتغيير «مسها» إلى «ملمسها» ضيَع ذلك الجناس الموجود في لفظتي الإمام عليه السلام المذكورتين. وحتى ذلك التغيير الذي يعملُهُ على الحروف نجده يحرف بعض المعنى الدقيق الموجود في كلام الإمام عليه السلام وهذا مطّرد عند البصري، فمنه: «ولكن أسر ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها». الذي هو من مقطع الإمام عليه السلام: «وكن آنس ما تكون بها، أحذر ما تكون منها». يرى الباحث في استبدال البصري «منها» بـ «لها» فيه بعض الإخفاق، لأنّ ما يقال عن الدنيا: إحذر منها أو احذرها، آنس وألطف على السمع من احذر لها.

وهكذا يتخيّر البصري ما يروقه من خطب ورسائل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ليضعه في رسالته المطوّلة هذه، فما أن انتهى من رسالة الإمام إلى سلمان الفارسي، عادَ واقتطع مقطعاً من خطبة علوية، جاء فيها:

«أَيُّهَا النَّاسُ، انْظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِقِينَ عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا وَاللَّهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّائِي السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ الْمُتَرَفَّ الآمِنَ؛ لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَادْبَرَ، وَلَا يُدْرِي مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيَنْتَظِرُ. سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلْدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ»^(١).

وكعاداته قدّم وأخر البصري في هذا المقطع، ليقول: «سرورها مشوبٌ بالحزن، وآخر الحياة فيها الضَّعْفُ والوهن، فانظر إليها نظر الزَّاهد المفاوق، ولا تنظرُ نظرَ العاشقِ الوامق، واعلم أنّها تُزِيلُ الثَّائِي السَّاكِنَ وتفجعُ المغرورَ الآمِنَ، لا يرجعُ

(١) نهج البلاغة ١٦٩ - ١٧٠.

١٦٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ما تَوَلَّى منها فادبرَ ولا يُدرى ما هو آتٍ فيها فينتظر»^(١).

فواضح أنَّ البصري نسخَ هذا المقطع العلوي بنصّه، إلّا قول الإمام عليه السلام:

«انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين عنها».

فقد غيّر فيه طفيفاً لما قال: «فانظر إليها نظر الزاهد المفارق».

وبعد هذا قال البصري مباشرة: " فاحذرْها فإنَّ أمانِيَّها كاذبة، وإنَّ آمالها باطلةٌ عيشها نكد وصفوها كدر وأنت منها على خطر" ^(٢).

فهذا لا يختلف عن وصف الإمام علي عليه السلام الدنيا، وذلك بقوله:

«...وعيشها رَنَقٌ، وعذبها أَجَجٌ، وحُلُوها صَبِرٌ»^(٣).

فقوله: «عيشها نكد».

كقوله عليه السلام: «عيشها رنق».

وأما قوله: «وصفوها كدر» فنجدّه في خطبة أخرى لأَمير المؤمنين عليه السلام منها قوله: «وكدَرَ منها ما كان صفوًّا»^(٤).

ثمَّ بعد هذا اتَّجهَ البصري إلى خطبةٍ أخرى لأَمير المؤمنين عليه السلام وصفَ فيها عظمة الخالق - سبحانه وتعالى -، وذكر فيها صفات الأنبياء: موسى، وداوود،

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٣٥.

(٢) م. ن ٢ / ١٣٦.

(٣) نهج البلاغة ١٨٩.

(٤) م. ن ٨٤.

وعيسى عليه السلام، وختمهم بالنبي الخاتم صلوات الله عليه وآله.

يُذكر أن البصري ضمّن من هذه الخطبة ما يقارب العشرين سطراً، وعلى عادته القائمة على تحوير بعض الفقرات، وعلى التقديم والتأخير، فأخر ما تكلم - أي في الخطبة المقصودة - عنه الإمام عليه السلام من الأنبياء هو النبي محمد صلوات الله عليه وآله، لأنّه صفوئهم وخاتمهم، ولأنّه خير هادٍ لمن تأسى، وأفضل مُروّجٍ لمن تعزى، فالخلق لم يصابوا بمثله أبداً، فقال:

«فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَظْهَرِ صلوات الله عليه وآله فَإِنَّ فِيهِ أَسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى... عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ»^(٥).

جعل البصري هذا بداية لمقطع جديد في الرسالة التي ما زلنا فيها، فقال: «ولقد عُرِضَتْ عَلَى نَبِيِّنَا (صلى الله عليه و سلم) بمفاتيحها وخزائنها، ولم ينقصه ذلك عنده جناح بعوضة فابى أن يقبلها، وما منعه من القبول لها إلاّ أنّه علم أنّ الله تعالى أبغض شيئاً فأبغضه، وصغّر شيئاً فصغّره، ووضّع شيئاً فوضّعه»^(٦).

وقبل أن ينتقل البصري إلى المقطع الثاني من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، انتقل إلى خطبة علوية أخرى مؤقّتاً وبالتحديد لقوله عليه السلام:

«وَأُحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنَزِلٌ قُلْعَةٍ... لَمْ يُصِفْهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يُضِنَّ بِهَا عَنْ أَعْدَائِهِ»^(٧).

(٥) نهج البلاغة ٢٦١.

(٦) حلية الأولياء ٢ / ١٣٧.

(٧) نهج البلاغة ١٩٢.

وقال عليه السلام مثل ذلك في حكمة له:

«تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَابًا لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَا عِقَابًا لِأَعْدَائِهِ»^(١).

فالمعنى قائم على أن الله تعالى منع الدنيا و«لم يُصِفْها» للذين اختصَّهم وحباهم بولايته، وفي المقابل أباحها، ولم يبخل «لم يضمن» بها على من عادوه سبحانه، فعاداهم، أن بسط لهم الدنيا، ليتيهوا في غرورها وزينتها إلى أن تمرَّ عليهم مسرعة وهم على هذا الحال من البعد عن الحقِّ تعالى.

نظر البصري إلى هذا المعنى بتفاصيله، ليقول: «ولو لم يدلَّه على صغر هذه الدار إلا أنَّ الله تعالى حَقَّرَها أن يجعلَ خيرَها ثوابًا للمُطيعين، وأن يجعلَ عقوبتها عذابًا للعاصين، فأخرجَ ثوابَ الطَّاعةِ منها، وأخرجَ عقوبةَ المعصية عنها، وقد يدلُّك على شرِّ هذه الدَّارِ أنَّ الله زواها عن أنبيائه وأحبابه اختبارًا، وبسطها لغيرهم اعتبارًا واغترارًا»^(٢).

وفضلاً عن المعنى حتى هذه المقابلات التي كررها البصري في هذا المقطع منبتها كلام الإمام عليه السلام المذكور.

وقوله:

«أن الله تعالى حَقَّرَها أن يجعلَ خيرَها ثوابًا للمُطيعين وأن يجعلَ عقوبتها عذابًا للعاصين».

كرَّره بطريقة أخرى لما قال: «أن الله تعالى زواها عن أنبيائه وأحبابه اختبارًا

(١) م. ن ٦٢٧.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٣٧.

وبسطها لغيرهم اعتباراً».

وعلى أية حال فهذا التكرار مما ورد في حكمة الإمام:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَاباً لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَا عِقَاباً لِأَعْدَائِهِ».

وفي خطبته عليه السلام:

«لَمْ يُصِفْهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضَنَّ بِهَا عَنْ عَلَى أَعْدَائِهِ».

ولعل البصري عندما وجدَ هذا المعنى في نصين مختلفين عند الإمام - في الخطبة والحكمة - ومن شدة ولعه بهما أثر جمعهما في نصٍّ واحد، لكن هذه حالة غير مرضية لأن هذا التكرار لا طائل منه، كونه جاء في مقطعٍ واحد، وحتى بدون أيِّ فاصل يُذكر، ثم إنه لا يحمل في طياته جدّة.

وبعد هذا النص الذي كان بمثابة فاصلة، ولربما كانت تمويهية، عاد البصري إلى خطبة أمير المؤمنين عليه السلام السابقة التي تحدّث فيها عن صفات بعض الأنبياء وكيف كانوا مثلاً للزُّهد في الدنيا، ومنهم - فضلاً عما تقدّم - النبي موسى عليه السلام، الذي وصفه الإمام عليه السلام بقوله:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَنَيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ يَقُولُ:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(١).

والله، ما سألَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لَأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تَرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ هُزَالَهُ، وَتَشْدُبُ حُمِهِ»^(٢).

(١) القصص ٢٤.

(٢) نهج البلاغة ٢٦٠.

الصفاق هو «الجلد الباطن الذي فوقه الجلد الظاهر من البطن وشفيفه: رقيقه الذي يستشف ما وراءه»^(١).

ضمّن البصري هذا قائلاً: «وأما موسى عليه السلام فرئي خضرةً البقل من صفاق بطنه من هزاله. ما سأل الله تعالى يوم أوى إلى الظلّ إلا طعاماً يأكله من جوعه»^(٢).

فلم يكتفِ البصري بالتقديم والتأخير بين مقاطع الخطبة العلوية، بل يأتي على المقطع الواحد فيقدّم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فما ذكره الإمام في آخر وصفه للنبي الكريم:

«وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صَفَاقِ بَطْنِهِ هُزَالِهِ، وَتَشْدُبِ لَحْمِهِ».

جعل البصري في أول وصفه للنبي المذكور عليه السلام:

«فرئي خضرة البقل من صفاق بطنه من هزاله».

وما ذكره الإمام عليه السلام في أول وصفه للنبي:

«وَاللَّهُ مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزًا يَأْكُلُهُ»

جعل البصري آخرًا مع تحوير شكلي وجزئي: «سأل الله تعالى... إلا طعاماً يأكله من جوعه».

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ حتى الآية التي استشهد بها أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) استشهد بها البصري، ولكن من طرف خفي، فقله «أوى إلى الظل» إشارة إلى الآية التي ذكرها الإمام عليه السلام، وبذكرها كاملة يتضح ذلك،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ / ١٥٥.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٣٨.

قال تعالى:

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(١).

وهكذا كان البصري يحذو حذو أمير المؤمنين عليه السلام خطوة خطوة، فبعد أن انتهى عليه السلام من وصف النبي موسى عليه السلام ضرب بالنبي داود، والنبي عيسى عليه السلام مثلاً على الزهد في الدنيا قائلاً:

«وإن شئت ثلثت بداود - صلى الله عليه وسلم - صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها! ويأكل قرص الشعير من ثمنها. وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الحشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجُه بالليل القمر، وظلالُه في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما أنبت الأرض للبهايم؛ ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يجزئه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله دابته رجلاه، وخادمه يده!»^(٢).

أخذ البصري هذا كله بين التضمين الحرفي والتحوير، والتقديم والتأخير، مقدماً وصف النبي داود على النبي عيسى عليه السلام، فقال: «وإن شئت ثلثته بصاحب الروح والكلمة ففي أمره عجيبة، كان يقول: أدمي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، ودابتي رجلي، وسراجي بالليل القمر، وصلايتي في الشتاء الشمس، وفاكهتي وريحاني ما أنبت الأرض للسباع والأنعام، أبيت وليس لي شيء وليس أحد أغنى مني. ولو شئت ربعت بسليمان ابن داود عليه السلام، فليس دونهم

(١) القصص ٢٤.

(٢) نهج البلاغة ٢٦٠ - ٢٦١.

١٦٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

في العجب يأكل خبز الشعير في خاصّته... فإذا جنّه الليل لبس المسوح وغلّ اليد إلى العنق، وبات باكيًا حتى يُصبح يأكل الحشِن من الطّعام، ويلبس الشعر من الثّياب»^(١).

فأول كلامه عن النبي عيسى عليه السلام:

«كان يقول أدمى الجوع.. ودابتي رجلي وسراجي بالليل القمر».

تضمنين واضح من قول الإمام عليه السلام:

«وكان إدامته الجوع، وسراجهُ بالليل القمر».

وقوله في الفقرة المذكورة «ودابتي رجلي» أقتنصه من آخر خطبة الإمام عليه السلام:

«دأبتهُ رجلاه».

أمّا قوله: «وفاكهتي وريحاني ما أنبت الأرض للسّباع والأنعام».

ففيه تغيير أكثر على كلام الإمام:

«وفاكهته وريحانه ما تُنبت الأرض للبهائم».

وبالنسبة لقوله: «وصلايتي في الشتاء الشمس» وما فيه من كناية، فقد أخذه من قول الإمام عليه السلام:

«وظلالُهُ في الشّتاء مَشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها».

وهذه كناية لطيفة جدًا - مثلما يرى الباحث - عن عدم وجود مأوى للنبي عيسى عليه السلام لأنّ «مَن كان كُنّه المشرق والمغرب فلا كُنَّ له»^(٢).

(١) حلية الأولياء ١٣٧/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٢/ ٢٥٢.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٦٧

وفي المقطع الثاني ذهب البصري بعيداً، ولم يكن موفقاً حين أبدل النبي داوود - الموصوف من قبل أمير المؤمنين - بولده سليمان عليه السلام، وذلك لأن الحديث هو حديث عن الزهد والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى، وعلى الرغم من إن الأنبياء كلهم معصومون وعُباد، إلا أن الذي اشتهر بالزهد من بين النبيين المذكورين هو النبي داوود عليه السلام، فقد كان صاحب محراب، وكان قارئاً ذا صوت شجي عندما يقرأ كتابه المنزل عليه وهو الزبور، فقد قيل عنه: «أُعْطِيَ من طيب النِّعم ولذة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه و هو في محرابه»^(١).

وعلى أية حال فإن في هذا المقطع نجد البصري يستعير وصف الإمام للنبي عيسى عليه السلام:

«وَيَلْبَسُ الْحَشِينَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ».

ليصف به سليمان عليه السلام:

«يَأْكُلُ الْحَشِينَ مِنَ الطَّعَامِ، وَيَلْبَسُ الشَّعْرَ مِنَ الثِّيَابِ».

والبصري هنا كرر الخشونة مرتين الأولى: باللفظ، والثانية: عندما كنى عنها بلبس الشعر، ولكنه لو استعمل الجشوبة للطعام والخشونة للباس - مثلما وجدتهما عند الإمام - لكان ذلك أبلغ.

وقد بدا هذا التكرار على نفس المعنى وبصورة أكثر جلاءً بين قوله: «فإذا جنّه الليل لبس المسوح».

والمسوح أو المسح هو الكساء من الشعر^(٢)، بمعنى لبس ثوباً من الشعر.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ / ١٥٥.

(٢) ينظر: لسان العرب ٢ / ٥٩٣ مادة (مسح).

وقوله: «ويلبس الشعر من الثياب».

وهكذا تكرار مذموم لا طائل منه، لأن من يعتمد إلى هذا الفن ينبغي أن يأخذ بحسابه إتحاف المتلقي «بشيء من التلوين اللفظي والمعنوي...، فيه جدّة وطرافة لا توجد في الفقرة السابقة»^(١). بينما تكرار البصري خلا من أي جدّة.

أمّا قول البصري وهو يصف سليمان عليه السلام: «وغلّ اليد إلى العنق» فلا أدري ماذا كان يقصد بهذا، فهل غلّ اليد إلى العنق مدح؟ وهل في هذا دلالة على الزهد؟ أم فيه دلالة على الإنقطاع إلى الله وطول العبادة؟

يرى الباحث إن من الصعب أن تورد هذه العبارة في باب المدح، وبخاصة إذا تأسّينا بالقرآن الكريم وعرفنا أنه أوردها في باب الذم. قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾^(٢).

فغلّ اليد مجازٌ عبّر به عن البخل^(٣). أو هو «تمثيل الشح والإمساك بغلّ اليد إلى العنق وهو تمثيل مبني على تخيل اليد مصدرًا للبدل والعطاء.. وغلّها شحًا، وهو تخيل معروف لدى البلغاء والشعراء»^(٤).

لكن البصري أراد أن يزيد على كلام أمير المؤمنين عليه السلام زيادةً عسى أن تكون متميّزة، لكن تميّزها كان سلبياً، وقد ورد عنده مثل هذا كثير، سنشير إلى بعضه.

انتهت خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، لكن رسالة البصري لم تنته بعد، إذ انتقل إلى

(١) البلاغة الفنية ٢٣٨.

(٢) الإسراء ٢٩.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢١٩.

(٤) التحرير والتنوير ١٥ / ٨٤ - ٨٥.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٦٩

وصف عام لأولياء الله الذين ساروا على منهاج الأنبياء الموصوفين، فقال: «ثم اقتص الصالحون بعد منهاجهم... وصبروا في مُدَّةِ الأجلِ القصير... ونظروا إلى آخر الدُّنيا، ولم ينظروا إلى أوَّلها ونظروا إلى عاقبةِ مرارتها، ولم ينظروا إلى عاجلةِ حلاوتها»^(١).

وإنقاله البصري هذه من وصف الأنبياء إلى وصف المقتدين بهم، رافقتها إنقاله من خطبة علوية إلى خطبة علوية أخرى.

فقوله «وصبروا في مُدَّةِ الأجلِ القصير»، من كلام الإمام الذي وصف به المتقين «صبروا أيَّامًا قصيرةً»^(٢).

وباقى كلامه من حكمة الإمام عليه السلام:

«إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَاسْتَغْلَوْا بِأَجْلِهَا إِذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا..»^(٣).

فقد ميز عليه السلام أولياء الله بصفات تسع منها ما ذكر. وأولى هذه الصفات: أنهم نظروا إلى باطن الدنيا: أي إلى حقيقتها، وغرض الحكمة الإلهية من وجودها، لما نظر الناس إلى ظاهرها، من زينتها وقينتها^(٤).

إلى هذا أشار البصري بقوله السابق: «ونظروا إلى آخر الدنيا ولم ينظروا إلى أوَّلها».

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٣٧.

(٢) نهج البلاغة ٣٥١.

(٣) م. ن ٦٣٠ - ٦٣١.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميشم ٥ / ٥٠٣.

١٧٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

فلم يستبدل سوى الطباق في حكمة الإمام «باطن - ظاهر» بـ «آخر - أول».

وثاني الصفات: إنهم اشتغلوا بآجلها وهو ثواب الله ورضوانه، إذا اشتغل الناس بعاجلها وحاضر لذاتها^(١).

وهذا ما نجده في قول البصري: «ونظروا إلى عاقبة مرارتها، ولم ينظروا إلى عاجل حلاوتها».

وبعدما انتهى من وصف الأنبياء والصالحين، عادَ البصري محدراً من الدنيا، مشجّعاً على اغتنام أيامها المعدودة، فقال: «.. وإنَّما الدنيا إذا فُكِّرت فيها، ثلاثة أيام، يومٌ مضى لا ترجوه، ويومٌ أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه، ويومٌ يأتي لا تدري أنت من أهله أم لا؟ ولا تدري لعلَّك تموت قبله، فأما أمسٌ فحكيمٌ مؤدَّبٌ وأما اليومُ فصديقٌ مودَّعٌ، غيرَ أنَّ أمسَ وإن كان قد فجَّعَكَ بنفسه فقد أبقى في يديك حكمته، وإن كنت قد أضعته فقد جاءَكَ خلفٌ منه وقد كانَ عنكَ طويلَ الغيبة وهو الآن عنكَ سريعُ الرحلة»^(٢).

وكأنَّ البصري هو من فكر بالدنيا فوجدها ثلاثة أيام، ولو قال إنَّما الدنيا ثلاثة أيام مثلاً وصفها الإمام علي بن أبي طالب لكان أقرب للأمانة. وبلا أدنى شك فإنَّ البصري لم يكتب هذا ولا بعضه إذا لم تكن بين يديه حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«ألا إنَّ الأيامَ ثلاثةٌ: يومٌ مضى لا تُرجوه، ويومٌ بقي لا بُدَّ منه، ويومٌ يأتي لا تأمنه. فالأمسُ مَوْعِظَةٌ، واليومُ غَنِيمَةٌ، وغَدٌ لا تُدري مَنْ أهله، أمسٌ شاهدٌ

(١) ينظر م. ن ٥ / ٥٠٣.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٣٨.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧١

مَقْبُولٌ، وَالْيَوْمُ أَمِينٌ مُؤَدٍّ، وَعَدُّ يَعْجَلُ بِنَفْسِكَ سَرِيعُ الظَّنِّ، طَوِيلُ الْغَيْبَةِ، أَتَاكَ
وَلَمْ تَأْتِهِ»^(١).

فالإمام علي عليه السلام قَسَمَ عُمَرَ الإنسان على ثلاثة أقسام، من أجل أن يتذكر
الإنسان ما فعل بالأمس ولا يقع في زلاته، ويتحرز في يومه الذي هو فيه لأنه
سينصرم كما أنصرم الأمس، ثم يستعد للغد عسى أن يكون من أهله.

سارَ البصري على هذا خطوة خطوة، وخيّر نفسه - هنا وعلى طول
نتائجاته - فإن شاء ضَمَّنَ حرفياً، وإن شاء حوّر، وإن شاء كرّر المعنى بدون
طائل، وإن شاء أخذ بالمعنى. وبمقابلة الكلامين فقرة فقرة يتبين ما يريده
الباحث، فقلوه: «وإنما الدنيا ثلاثة أيام» بتحويل طفيف عن حكمة الإمام عليه السلام:
«ألا إنَّ الأيام ثلاثة»

وقوله: «يومٌ مضى لا ترجوه».

بنصه من الحكمة: «يومٌ مضى لا ترجوه».

وقول البصري: «فأما أمسٌ فحكيمٌ مؤدَّب». ثم تكرر هذا المعنى بقوله:
«غيرَ أنَّ أمسَ وإن كان قد فجَعَلَ بنفسه فقد أبقي في يديك حكمته». بسط
وتفصيل لقوله عليه السلام: «فالأمس موعظة».

وقوله: «ويوم أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه».

توسع وزيادة على قول الإمام عليه السلام: «اليوم غنيمة».

وقوله: «ويومٌ يأتي لا تدري أنت من أهله أم لا؟ ولا تدري لعلك تموت

(١) تحف العقول ٢٤٧.

١٧٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

قبله». وهنا وقع البصري بالتكرار الذي لا طائل منه مرة أخرى، لأنّ الجملة التي بعد السؤال تكرر واضح لما قبله.

وعلى أية حال فهذا من قوله عليه السلام: «وَعَدُّ لَا تَدْرِي مَنْ أَهْلُهُ».

وقول البصري: «وَأَمَّا الْيَوْمَ فَصَدِيقٌ مُودَعٌ».

بالمعنى من قول الإمام عليه السلام: «وَالْيَوْمَ أَمِينٌ مُؤَدٌّ».

وقوله: «فقد جاءك خلف - يقصد يوم الغد - منه وقد كان عنك طويل الغيبة وهو الآن عنك سريع الرحلة».

ففيه تضمين نصي، وتضمين محوّر، وأخذ بالمعنى، وتقديم وتأخير من قوله عليه السلام: «وَعَدُّ يَعْبَلُ بِنَفْسِكَ سَرِيعُ الظَّنِّ، طَوِيلُ الْغِيْبَةِ».

وما دام الحديث عن استغلال اليوم بالطريقة المثمرة، رأى البصري فرصة سانحة في ذلك، ليوظف حكمة علوي أخرى، جاء فيها:

«يَا ابْنَ آدَمَ، لَا تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمِكَ الَّذِي قَدْ أَتَاكَ...»^(١).

أخذ البصري هذه الحكمة، فقال: «وَيَاكَ أَنْ تُدْخَلَ عَلَى الْيَوْمِ هَمٌّ غَدٍ، أَوْ هَمٌّ مَا بَعْدَهُ»^(٢).

هذه هي أطول رسائل البصري، ذلك الواعظ البليغ! وبسبب هذا الطول زاد الأثر العلوي وضوحاً عليها - إذ كلما زاد أي نصّ للبصري طويلاً ولو لسطين زاد الأثر العلوي في ذلك النص - وفرض هيمنة تامة فاقت التصوّر، فالرسالة باسم البصري ظاهراً، أمّا حقيقتها فهي جمع من خطب ورسائل وحكم أمير

(١) نهج البلاغة ٦٠١.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٣٧.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧٣

المؤمنين ﷺ. ولو لم تكن عند البصري إلا هذه الرسالة لكفى بها بياناً وإفصاحاً
عمّن كان يقف خلف بلاغة البصري ووعظه.

كتب البصري رسالة أخرى لعمر بن عبد العزيز، أغلبها مكرّر في الرسالة
السابقة، وكانت عبارة عن أثر علوي من قول كاتبها: «أما بعد إلى قوله والسلام
عليكم». نذكر منها الجزء القليل الذي لم يُكرّر في الرسالة السالفة، فقد ورد في
أولها: «أما بعد، اعلم يا أمير المؤمنين أن الدنيا دارٌ ظُننٌ، وليست بدار إقامة..»^(١).

وهذا من خطبة الإمام ﷺ التي تقول:

«وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنَزَلٌ قُلْعَةٌ، وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نَجْعَةٍ..»^(٢).

فالدنيا هي دار ارتحال وليست بدار قرار، والبصري لم يقدم شيئاً يذكر لما أبدل
«قُلْعَةٌ» بـ«ظُننٌ»، لأن المعنى واحد، يقال عن «الدنيا دار قُلْعَةٍ أي انقلاع»^(٣)،
وعن القوم هم على قلعة أي على تحوّل وارتحال^(٤)، وكذلك الظنن فهو يعني
الارتحال. وهكذا إبداله «نجعة» بـ«إقامة».

فالنجعة تعني «طلب الكلاً في موضعه، أي ليست محط الرجال ولا مبلغ
الآمال»^(٥)، وهذا ما عبّر عنه البصري بأن الدنيا ليست بدار إقامة.

ومثلما افتتح الإمام خطبته بما يدلّ على تشديد التحذير من الدنيا عن طريق
استعمال الفعل المضارع «أحذّر» ثمّ استعمال «إنّ»، كذلك البصري ذهب إلى ما

(١) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٣٢٦.

(٢) نهج البلاغة ١٩٢.

(٣) لسان العرب: ٨ / ٢٩٠ مادة (قلع).

(٤) ينظر: م. ن ٨ / ٢٩٠ مادة (قلع).

(٥) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ١ / ١٩١.

١٧٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

يشبه هذا لما افتتح رسالته بفعل الأمر «اعلم»، ثم بـ «إن». إلا أن إيصال المعنى عن طريق الإيقاع الموجود في اللفظتين المسجوعتين «قُلْعَةٍ، نُجْعَةٍ»

المتساويتين في كل شيء من المبنى سواء عدد الحروف، أو ما تحمله الحروف من سكنات وحركات، أعطى كلام الإمام عليه السلام وقعاً وأثراً أكبر من الذي نجده في لفظتي البصري «ظعن، إقامة».

وبعد ذلك قال البصري: «...ولها في كل حين صرعة، وليست صرعة كصرعة، هي تهن من أكرمها، وتذل من أعزها، وتصرع من أثرها، ولها في كل حين قتلى، فهي كالسهم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه، فالزاد فيها تركها، والغنى فيها فقرها»^(١).

وهذا كقول الإمام عليه السلام في ذم الدنيا:

«مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ بِمَا يُؤْمِنُهُ! وَمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ بِمَا يُؤْبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ. كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ...»^(٢).

فكل من في الدنيا مصروع لا محالة، أكد أمير المؤمنين عليه السلام على هذه الحقيقة من خلال عبارته التحقيقية «قد صرعه».

ويبدو أن البصري أراد أيضاً تأكيد هذه الحقيقة، عندما كرر لفظة «صرعة» أربع مرات بين الإسم والفعل: «صرعة، صرعة، كصرعة، تصرع».

وقد حذر الإمام عليه السلام من الاستكثار من الدنيا؛ لأن من استكثر منها ثقل حمله ودنا هلاكه، ومن أقل منها خفف حمله وكثر أمانه، مكرراً لفظة

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/ ٣٢٦.

(٢) نهج البلاغة ١٨٩.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧٥

«الإستكثار» ثلاث مرات؛ ولعل سبب ذلك التكرار مثلما يراه الباحث هو أنّ الإنسان - وهو خارجٌ من الدنيا- لا بدّ وأن يكون مستكثراً، إما «مماً يؤمنه» من الأعمال الصالحة، وإما «مماً يوبقه» من الأعمال الطالحة.

أمّا المقابلات التي وجدناها عند الإمام (عليه السلام) فإنّ البصري قد غيّر في ثوبها دون معناها فقوله:

«تركها» يُقابل «من أقلّ منها» عند الإمام (عليه السلام).

«الغنى فيها» يُقابل «من استكثر منها» عند الإمام (عليه السلام).

وبعد هذا انتقل البصري إلى خطبة المتقين ليضمن منها مقطعاً من ستة أسطر سنعرض له - بعونه تعالى - في مبحث الخطبة المذكورة.

وبعد ذلك المقطع انتقل إلى خطبة رابعة من خطب أمير المؤمنين (عليه السلام)، ليأخذ منها مقطعاً كبيراً، وعلى طريقته التي باتت واضحة بين التضمين الحرفي، والمحور، والأخذ بالمعنى، والتقديم والتأخير، فقال: «.. فالعيونُ إليها ناضرةٌ، والقلوبُ عليها والهةٌ، والنّفوسُ لها عاشقةٌ، وهي لأزواجها كلّهم قاتلةٌ، فلا الباقي بالماضي مُعتبرٌ، ولا الآخِرُ لما رأى من أثرها على الأوّل مُزدجرٌ، ولا العارفُ بالله المُصدق له حين أخبره عنها مُدّكرٌ، قد أبت القلوبُ لها إلّا حُبّاً، وأبت النّفوسُ لها إلّا عشقاً، ومن عشقَ شيئاً لم يُلهم غيره، ولم يعقل سِواه، ماتَ في طلبه،... وجاءته منيته على أسرٍّ ما كان منها حالاً وأطول ما كان فيها أملاً، فعظّم ندمه، وكثرت حسرته، مع ما عالج من سكرته، فاجتمعت عليه سكرة الموت بكربته، وحسرة الفوت بغصته، فغيرٌ موصوفٍ ما نزل به»^(١).

وما هذا برمته إلا إعادة على الطريقة البصرية لجزء من خطبة علوية، جاء فيه:

«سُبْحَانَكَ خَالِقًا وَمَعْبُودًا.. خَلَقْتَ دَارًا وَجَعَلْتَ فِيهَا مَادَّةً: مَشْرَبًا وَمَطْعَمًا، وَأَزْوَاجًا وَخَدَمًا، وَقُصُورًا، وَأَنْهَارًا، وَزُرُوعًا، وَثِمَارًا؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلَا فِيهَا رَغَبْتَ رَغِبُوا، وَلَا إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ إِشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى حَيْفَةٍ قَدْ افْتَضَّحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَعَشَى ﴿أَعْمَى﴾ بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتْ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ.. لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَاجِرٍ، وَلَا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْغُرَّةِ - حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمُنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيَّرَ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ؛ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ...»^(١).

وبهذه المقارنة يتضح جليًا ما عمله البصري على كلام أمير المؤمنين عليه السلام. فقولُه عليه السلام: «فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلَا فِيهَا رَغَبْتَ رَغِبُوا» وقوله «لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَاجِرٍ، وَلَا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ».

اختزله البصري قليلا بقوله: «فلا الباقي بالماضي مُعْتَبَرٍ، ولا الآخِرُ فيما رأى من أثرها على الأولِ مُزْدَجِرٍ».

وقوله عليه السلام:

«قَدْ افْتَضَّحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا».

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧٧

أخذه البصري بين اللفظ والمعنى: «قد أبت القلوب لها إلا حُبًّا، وأبت النفوس لها إلا عشقًا».

وقوله (عليه السلام):

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَغْشَى ﴿أَعْمَى﴾ بَصَرُهُ».

نجده بين التضمين الحرفي والتحوير في مقطع البصري: «ومن عشق شيئاً لم يُلهم غيره، ولم يعقل سواه».

وقوله (عليه السلام):

«فَهُوَ يَنْظُرُ بَعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلَّهَتْ عَلَيْهَا نَفْسَهُ».

اختزله البصري، وقدمه إلى أول المقطع: «فالعيونُ إليها ناظرةٌ، والقلوبُ عليها والهةٌ، والنفوسُ لها عاشقةٌ».

وقوله (عليه السلام):

«وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْغُرَّةِ - حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ».

اختزل البصري معناه: «وجاءته منيته على أسرٍّ ما كان منها حالاً وأطول ما كان فيها أملاً».

وقوله (عليه السلام):

«فَعَبِيرٌ مُؤْصَفٍ بِمَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْقَوْتِ».

ضمّنه البصري حرفياً مع التقديم والتأخير: «فاجتمعت عليه سكرة الموت..

وحسرة القوت.. فغيرُ موصوفٍ ما نَزَلَ به».

وعلى الرغم مما قاله الإمام قي المقطع الأخير من إنَّ القومَ غيرُ موصوفٍ ما نزل بهم، إلّا أنّه وصفهم بلوحة تفصيلية - على صعيدي المعنى والفن - غاية في الدقة والتأثير، حتى أنّ القارئ عندما يقرأ الخطبة كاملة يشعر وكأنّه يراهم، وكأنّه هو المقصود بذلك حصراً فيتيه حائرًا لما سيحلّ به، وكيفيّة الخلاص منه. وقد أجاد ابن أبي الحديد في تعليقه على هذه الخطبة، حيث قال: «من أراد أن يتعلم الفصاحة و البلاغة و يعرف فضل الكلام بعضه على بعض، فليتأمل هذه الخطبة.. ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلالة، والرّواء، والديباجة، وما تحدثه من الروعة والرّهبة، والمخافة، والخشية حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث و النشور لهدّت قواه، وأرعبت قلبه..»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أنّ باقي الرسالة البصرية التي نحن بصددّها مكرّر برمته في الرسالة السابقة، ثمّ أنّ جميع هذا التكرار هو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام^(٢).

ولا تختلف المعاني والتوصيات التي أرسلها الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز، والتي بيّن فيها صفات الإمام العادل عمّا كتبه في رسائله الأخرى، فهو بين حاضّ له على السير بعدالة والرفق بالرعية، وبين الزّهد في الدنيا والاستعداد للموت. ومّا جاء فيها: «فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهلٍ، قبل حلول الأجل

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧ / ١٣٨.

(٢) للمزيد ينظر الرسالة كاملة في جمهرة رسائل العرب ٢ / ٣٢٦ - ٣٢٨، وتقرن بما بيّنه الباحث

عن الرسالة الأولى.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧٩

وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين»^(١).

وتشديده هذا على استغلال أيام الحياة قبل حلول الفوت، قد طرقه أمير المؤمنين كثيرًا، وبصورٍ شتى، منها قوله:

«رَحِمَ اللهُ امرءًا...اغْتَنِمَ الْمَهْلَ، وَبَادَرَ الْأَجَلَ، وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ»^(٢).

فالمهل "هنا مدة الحياة مع العافية. فَإِنَّهُ أُمِّهْلَ فِيهَا دُونَ أَنْ يُوْخَذَ بِالموت، أو تحلُّ بِهِ بِأَثَقَةِ عَذَابٍ، فهو يغتنم ذلك ليعمل فيه لآخرته، فيبادر الأجل قبل حلوله بما يتزوَّده من طيب العمل»^(٣).

وقول البصري: «وأنت في مهل».

لا يختلف عن قول الإمام: «اغتنم المهل».

وهكذا قوله: «قبل حلول الأجل».

بالنسبة لقول الإمام: «وبادر الأجل».

وكتب البصري في الرسالة أيضًا: «ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بُؤْسُك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك»^(٤).

وكلامه هذا نجد ما يضارعه في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) التي ضمن منها البصري مقطعًا كبيرًا في الرسالة السابقة، فبعد قوله: «فغير موصوفٍ ما نَزَلَ بِهِمْ...». قال (عليه السلام):

(١) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٣٢٥.

(٢) نهج البلاغة ١٠٥.

(٣) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ١ / ١١٥.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٣٢٥.

١٨٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

«وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا... تَبَقَّى لِمَنْ وَرَاءَهُ يُنْعَمُونَ يُنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمُهْنَاءُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبَاءُ عَلَى ظَهْرِهِ»^(١).

وفي ختام هذه الرسالة بين البصري للخليفة إنّه لم يدّخر ما بوسعه من نصائح وعظات إلاّ قدمها له، على الرغم من أنّه لم يبلغ بعظاته تلك من اسماءهم بأولي النهي، فقال: «إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي فلم ألك شفقةً ونصحاً»^(٢).

ففي كلام البصري هذا نشعر بوجود جملة اعتراضية من قوله: «وإن إلى قوله قبلي». والكلام الأصلي هو «إني يا أمير المؤمنين لم ألك شفقة ونصحاً»، وهنا يتّضح جلياً أثر ما جاء في وصيّة أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام: «فإني لم ألك نصيحة»^(٣).

ولم ألك نصحاً: أي لم أقصّر ولم أبطئ لك في النصيحة، وهو من ألا يألوا أي قصر^(٤).

ومما تميّزت به رسائل البصري، التّفاوت البيّن، من حيث الطول والتّوسط والقصر، فمثلاً وجدنا عنده رسالة طويلة وأخرى متوسطة، نجد عنده الرسالة الموجزة. ومن هذا النوع ما كتبه لأحد تلامذته: «أما بعدُ فإنّي أوصيك بتقوى الله... فإنّ الدّنيا ميدانُ مسابقة، والغايةُ الجنة أو النّار»^(٥).

(١) نهج البلاغة ١٨٤.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٣٢٥.

(٣) نهج البلاغة ٤٦١.

(٤) ينظر: منهاج البراعة ٣ / ٩٧.

(٥) البداية والنهاية ٩ / ٢٨٩.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٨١

وتشبيه البصري هذا للدنيا بأنها ميدان مسابقة ونهاية المسابقة الجنة أو النار
إتكأ فيه تماماً على وصف أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ... أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَغَدًا السَّبَاقُ،
وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ»^(١).

المضمار هو «الموضع الذي تُضَمَّرُ فيه الخيلُ وتضميرها أن تُغْلَفَ قوتاً بعد
سمنها»^(٢). والمعنى: أراد عليه السلام أن الإنسان في مدة عمره يستعد بالتقوى ويروض
نفسه بالأعمال الصالحة للسابقة إلى لقاء الله تعالى كما أن الفرس يستعد بالتضمير
إلى سبق مثله^(٣).

وعلى الرغم من إن التعالق كبيرٌ بين النصّين، فتشبيه البصري للدنيا بأنها
«ميدان مسابقة» من تشبيه الإمام لها بأنها «مضمار».

وقول البصري: «والغاية الجنة أو النار».

من قول الإمام: «والسابقة الجنة، والغاية النار».

ومع هذا فإنّ البصري لم يصب لما جعل الجنة والنار كليهما غاية، مقارنة
بكلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي جعل الجنة سَبَقَةً، والنَّارَ غَايَةً. وبإيراد تعليق
الشريف الرّضي على نصّ الإمام يتضح كم تقدّم عليه السلام حيث تأخر البصري، قال
الرضي (رحمه الله): «وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزّهد في الدنيا،
ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام... ومن أعجبه قوله عليه السلام:

(١) نهج البلاغة ٥٨.

(٢) لسان العرب ٤ / ٤٩١ مادة (ضمـر).

(٣) ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٦ / ٤.

«أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَغَدًا السَّبَّاقُ، وَالسَّبْقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ».

فإن فيه - مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سرًا عجيبيًا، ومعنى لطيفًا، وهو قوله: [والسبقة الجنة والغاية النار] فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ولم يقل [السبقة النار] كما قال: [السبقة الجنة] لأن الاستباق إنما يكون إلى أمرٍ محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة، وليس هذا المعنى موجودًا في النار نعوذ بالله منها فلم يجوز أن يقول: [والسبقة النار] بل قال: [والغاية النار]...»^(١).

ومن رسائله القصيرة الأخرى قوله: «أما بعد، يا أمير فكأن الذي كان لم يكن، وكأن الذي هو كائن قد نزل، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر - وإن أذاقك تعجيل مرارته - فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته، وحسن عاقبته، وأن الهوى - وإن أذاقك طعم حلاوته - فلبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته، واعلم يا أمير أن الفائز من حرص على السلامة في دار الإقامة، وفاز بالرحمة أُدخل الجنة»^(٢).

تتكون الرسالة من ثلاثة مقاطع، كل مقطع منها يبدأ بـ «يا أمير المؤمنين»، وكل هذه المقاطع بُنيت من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام.

أما الأول منها، فقد كرر البصري معناه وأرسله بمفرده إلى عمر بن عبد العزيز: «سلامٌ عليك أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وبالأخرة لم تزل»^(٣). وهذا دون شك عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد ورد في موضعين أيضًا:

(١) نهج البلاغة ٥٩.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٢/ ٣٣١.

(٣) حياة الحسن البصري وسيرته العلمية ١٣٦.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٨٣

الأول قوله (عليه السلام) في خطبة ضمّن البصري بعضها حرفياً، وقد أشرنا لذلك في السابق^(١):

«فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ»^(٢).

الثاني قوله (عليه السلام):

«فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَارًا، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا»^(٣).

فالمعنى واحد بين النصوص الأربعة، وهو مثلما شرح ابن أبي الحديد نصّ الإمام (عليه السلام) الأول بقوله: «ما هو كائنٌ موجود من الدنيا سيصير عن قَلِيلٍ - أي بعدَ زمانٍ قليل - معدومًا، والزَّمان القصير ههنا: انقضاء الأجل وحضور الموت. ثم قال: إنّ الذي هو كائنٌ وموجود من الآخرة سيصير عن قليل - أي بعدَ زمانٍ قصير أيضًا - كأنه لم يزل؛ والزَّمان القصير ههنا هو حضور القيامة..»^(٤) وبودّ الباحث تبيان التعالق الواضح بين النصوص الأربعة بطريقة أوضح:

فقول البصري: «فَكَأَنَّ الَّذِي كَانَ لَمْ يَكُنْ»، وقوله: «فَكَأَنَّكَ بِالدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ».

اعتماد كلي على قول الإمام:

«فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ».

وقوله (عليه السلام):

(١) تنظر: الرسالة ٩٨ - ٩٩.

(٢) نهج البلاغة ١٧٠.

(٣) م. ٣٢٢ ن.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧ / ٧٤.

«فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَرَاءَ».

أما قول البصري: «وَكأنَّ الذي هو كائن قد نزل» وقوله: «وبالآخرة لم تنزل».

اعتماد على قول الإمام: «وَكأنَّ ما هُوَ كائنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ».

وقول عليه السلام:

«وَكأنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا».

وبالنسبة للمقطع الثاني من الرسالة «إِنَّ الصَّبْرَ إِلَى قَوْلِهِ وَسُوءَ عَاقِبَتِهِ» فهو لا يعدو - إذا فتشت عن معناه - بسطاً، أو توسعاً لمقابلة أمير المؤمنين عليه السلام التي أجراها بين الحق والباطل:

«إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ»^(١).

وَكأنَّ البصري بتوسعه السالف شرح الحكمة العلوية كما شرحها ابن أبي الحديد لما قال: «الحق وإن كان ثقيلاً إلاَّ أنَّ عاقبته محمودة، ومغيبته صالحة، والباطل وإن كان خفيفاً إلاَّ أنَّ عاقبته مذمومة ومغيبته غير صالحة، فلا يحملنَّ أحدكم حلاوة عاجل الباطل على فعله، فلا خير في لذة قليلة عاجلة، يتعقبها مضارٌ عظيمة آجلة..»^(٢)

أما المقطع الثالث في الرسالة، والمتمثل بقول البصري: «إِنَّ الْفَائِزَ مَنْ حَرَصَ عَلَى السَّلَامَةِ فِي دَارِ الْإِقَامَةِ». كقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف السالك الطريق إلى الله سبحانه: «... وَتَدَفَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ٦٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / ١٨٤.

(٣) نهج البلاغة ٣٩١.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٨٥

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز أيضاً: «واعلم أن الهول الأعظم، ومُفْطَعات الأمور أمامك لم يقطع منها بعد، وأنه لا بُدَّ والله لك من مشاهدة ذلك ومعانيته، أمّا بالسَّلامة والنَّجاة منه، وأمّا بالعطب»^(١).

ورسالته هذه مقتطعة - بين المعنى والتضمين والتقديم والتأخير - من خطبة لأُمير المؤمنين (عليه السلام) منها:

«فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَوُودًا، وَمَنَازِلَ خُوفَةٍ مَهُولَةٍ، لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةً، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشَبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْطَعاتُ الْأُمُورِ، وَمُعْضَلَاتُ الْمُحْذُورِ»^(٢).

فالتَّصَان يَصُورُ أن أمرًا حتميًا في الدنيا، ألا وهو إقبال المنية، وهذا ما نجده في بداية المقطع من خطبة الإمام (عليه السلام):

«فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَوُودًا... لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا».

بينما البصري جعل هذا ثانيًا: «وإنَّه لا بُدَّ والله لك من مشاهدة ذلك ومعانيته». محذران - أي النصان - من إنَّ المنية لا تطلب الإذن، بل تدهم في كل لحظة، وهذا ما جعله الإمام في المقطع الثاني من الخطبة:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةً... وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْطَعاتُ الْأُمُورِ». بينما البصري جعل هذا أولًا: «واعلم أن الهول الأعظم، ومُفْطَعات الأمور أمامك».

ومثلما أكد الإمام (عليه السلام) هذا المعنى بفعل الأمر «اعلم» ثم بـ «أن» فعل البصري

(١) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٣٣١.

(٢) نهج البلاغة ٣٧٢.

هكذا «اعلم أن».

وأما قول الإمام عليه السلام:

«مُفْطَعَاتُ الْأُمُورِ»

الذي يعنى تجاوز المقدار في الشدة^(١) فنجد به نصّه في رسالة البصري. ومع هذا يبقى بون بين الكلامين في أمور عدة، منها: تصوير الإمام للمنية كأنها كائن حيّ، أقبلت تلحظ البشر على دنوّ منهم، ثمّ إنّها تتخير مَنْ منهم ستُنشِبُ مَخالبها فيه. وهدف الإمام من تصوير المنية بهذه الهيئة المرعبة والمقلقة هو دفع المرء للإستعداد أكثر لذلك اليوم الذي لا مفرّ منه، وهذا ما قاله صراحة في آخر الخطبة:

«وَأَسْتَظْهِرُوا بَزَادِ التَّقْوَى»^(٢).

وللبصري رسائل موجزة جدّاً، ومنها: «أما بعدُ يا أمير المؤمنين، فإنّ طول البقاء إلى فناء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى، والسلام»^(٣). وما هذا المعنى والألفاظ، والمقابلة التي أجراها بين الفناء والبقاء «فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى» إلّا مقطعاً من خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام منها:

«وَأَزَمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى»^(٤).

(١) نهج البلاغة ٣٧٢.

(٢) م. ن ٣٧٢.

(٣) حياة الحسن البصري ١٣٦.

(٤) نهج البلاغة ٣٠٦.

هذه هي أهم رسائل البصري، وبعد أن عرفنا على مَنْ اعتمد في صياغتها - اللفظية والمعنوية - تبقى مسألة لها من الأهمية نصيب أعني ذلك التفاوت الكبير بين طول هذه الرسائل وقصرها، فمثلما وجدنا عنده رسالة تربو على المائة سطر - وهي الرسالة الأولى في المبحث -، وأخر تَمَيَّزَ بالتوسط، وقسم ثالث بالقصر، وجدنا رسائل لا تتجاوز كلمات الواحدة منها سطرًا واحدًا. وهذه الطريقة هي أيضًا أثرٌ علويٌّ خالصٌ؛ لأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يُسَبِّقْ إلى هذا، لا مَنْ الذين سبقوه، ولا مَنْ الذين عاصروه.

وصفوة القول إنَّ رسائل البصري بلفظها ومعناها، وطولها وقصرها، كانت تموج بأثر كلام أمير المؤمنين (صلوات الله عليه).

المبحث الثالث

أثر خطبة المتقين للإمام علي عليه السلام في نشر الحسن البصري

تُعدّ هذه الخطبة من الخطب التي لا يختلف إثنان في مرجعيتها لأمر المؤمنين عليه السلام. وسبب إلقائها عائد إلى طلب من أحد أصحابه عليه السلام المقرّبين يدعى همام^(١)، إذ قال:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لِي الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فَتَشَاقَلَ عَلَيْهِ عَنْ جَوَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ، اتَّقِ اللَّهَ وَأَحْسِنْ...»^(٢).

(١) هو همام بن شريح بن يزيد بن ثمرة بن عمرو بن جابر، يعدّ من خُصّص شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه، وكان ناسكاً عابداً. ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣٠٧. وقال عنه الأميني: هو همام بن عبادة بن خثيم، كان صاحباً لأمر المؤمنين عليه السلام، وكان أحد الزُّهاد الشَّانية. ينظر: أعيان الشيعة ١٠ / ٢٧١. والمترجمون لم يحدّدوا سنة وفاته لكن يمكن أن نجعلها بين سنة (٣٦ - ٤١ هـ)، أي مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّه مات - أي همام - في ساعة إلقاء الخطبة المذكورة، والخطبة ألقاها الإمام في أيام خلافته.

(٢) نهج البلاغة ٣٥.

وتثاقل الإمام المروي هنا اختلف في توجيه المفكرّون، ولكن في توجيه ابن أبي الحديد بعض الإحاطة لما قال: «يجوز أن يكون تثاقل عن جوابه لأنه علم أنّ المصلحة تكمن في تأخير الجواب، أو لعله رأى في التثاقل شوقاً يشدُّ همّام للاستماع للوصف، فيكون أبلغ في التأثير، أو إنّه تأخّر من باب تأخير البيان لوقت حاجته، لا من باب تأخيره عن وقت حاجته»^(١).

ولما أصر همّام بعد تثاقل الإمام عليه السلام عن إجابته خطب الإمام بخطبة قائمة على الوصف، تعدّ من أروع خطبه وأشدّها تأثيراً، إلى درجة جعلت من المخاطب المذكور يصعق ويموت، وهذه مقدرة من البيان لا يمكن التكهّن بحدودها. نعم من الممكن لأمرء البيان أن يستهوي بياهم القلب ويشغفه، ولكن إلى هذه الدرجة من التأثير بحيث تلامس البلاغة الروح وتجعلها - بإذن الله - تفارق الجسد فهذا أمرٌ محيّّر للألباب.

فإن قال قائل هنا إنّ الصفات من حيث المبدأ هي التي أثّرت على همّام وأوصلته إلى حتفه، فالجواب نعم، ولكن ليس هذا الأمر - مطلقاً - هو من يملك زمام الحادثة، لأنّ هذه الموضوعات التي طرقها الإمام هي موضوعات مطروقة بكاملها، وسبق أن سمعها همّام وغيره، لكنّ الإبداع كمن في الوصف التفصيلي للمؤمنين بصفات ربّت على المائة صفة، فضلاً عن التصوير الدقيق لهم، وكأنّ المتلقي يشاهدهم ويشاهد برنامجهم الذي رسمه الإمام عليه السلام على طول اليوم والليلة، وما صاحب هذا من صدق في الوصف، وفنون بلاغية كثيرة جدّاً كالطباق والسجع والتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وغير ذلك.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣٠٧ - ٣٠٨.

ونرى أيضًا إنَّ جانبًا من هذه الدقة - التي ستمر علينا - في وصفه ﷺ جاء تلبيةً لطلب همام، لأنَّه حدَّد الإمام بوصفٍ متميِّز للمتقين «كأنِّي أنظر إليهم».

ومَّا بَانَ في الخطبة إنَّ الإمام ﷺ لم يخاطب بها مَنْ سألَه فحسب، بل استغلَّ الظرفَ ليجعلَها تشمل أكثر من مخاطب، إبتداءً من أوَّلهم المستمع المقصود همام، إلى مخاطبة الإمام ﷺ لله - سبحانه وتعالى - على سبيل الدعاء والثناء، مرورًا بمخاطبة الجمهور المستمع، وإنتهاءً بالمستمعين المعارضين^(١) من نحو قول الإمام ﷺ لأحدهم:

«لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!»^(٢).

وفي هذه التوسعة أي توسعة من يشمله الخطاب، توسعه لأثر الخطبة، وفعلاً كَانَ لها أثرٌ بالغ في النثر العربي وعلى رأس مَنْ تأثَّروا بها هو الحسن البصري، إذ أتى على الخطبة بكاملها وقسَّمها على قسمين: جعل الأوَّل منهما في ثمانية نصوص تقريباً بين خطبة ورسالة وموعظة، أمَّا الثاني فجعله في خطبةٍ طويلة. وسنذكر قسَمي الخطبة على طولهما لإقتضاء الضرورة لذلك، ونلحق بكلِّ قسمٍ كلام البصري المأخوذ عن ذلك القسم.

قال أمير المؤمنين ﷺ:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - خَلَقَ الْخُلُقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ أَمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَاشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ،

(١) ينظر: نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الإجتماعي ٢٥٢ - ٢٥٤.

(٢) نهج البلاغة ٢٥٤.

وَمَشِيهِمُ التَّوَّاضِعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّذِي نَزَلَتْ فِي الرِّخَاءِ. وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ (عَلَيْهِمْ) لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرَفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرَبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَّتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا. أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يَرْتُلُونَهَا تَرْتِيلًا؛ يُحْزِنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ؛ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنُهُمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَائُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِحَبَاهِهِمْ وَأَكْفَهُمْ وَرُكْبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَالِكَ رِقَابِهِمْ. وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءَ، أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بَرِّي الْقَدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرْضُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ؛ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ»^(١).

أخذ البصري هذا وجعله في مواطن عدة، إذ إن جميع ما سذكركه عنه من

نصوص هي من جزء الخطبة المذكور، وسنعزف عن نصوصه القصار المتأثرة بهذا الجزء من الخطبة، لأنَّ في الطوال منها الكفاية:

النص الأول:

خطب البصري، فقال: «والله لو أنَّ رجلاً منكم أدرك مَنْ أدركتُ من القرون الأولى، ورأى من رأيتُ من السَّلف الصالح، لأصبح مهموماً، وأمسى مغموماً... أيُّها النَّاسُ! إنَّ لله عبادةً هم كمن رأى أهل الجنة في الجنَّة مُتَنعِمِينَ، وأهل النَّار في النَّار مُعَذِّبِينَ، فهم يعملون لما رأوا من النعيم، ويتتهون عمَّا خالفوا من العذاب الأليم.

أيُّها النَّاسُ! إنَّ لله عبادةً قلوبهم محزونةٌ، وشرورهم مأمونةٌ، وأنفسهم عفيفة، وجوانحهم خفيفة، صبروا الأيام القلائِلَ؛ لما رَجَوْا في الدُّهور الأطول، أمَّا الليل، فقائمون على أقدامهم يتضرَّعون إلى ربِّهم، ويسعون في فكاك رقابهم تجري من الخشية دموعهم، وتحفُّق من الخوف قلوبهم، وأمَّا النَّهارُ فحكماؤه علماء اتَّقِيا، أخفياء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف، تخالُّهم من الخشية مَرْضَى، وما بهم مرضٌ، ولكنَّهم خولطوا بذكر النَّار وأهوالها لهم - والله - كانوا فيما أحلَّ لهم أزهد منكم فيما حُرِّمَ عليكم، وكانوا أبصرَ بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم، ولهم كانوا بحسناتهم أن تُردَّ عليهم أخوف منكم أن تُعذَّبوا على سيئاتكم»^(١).

النص الثاني:

لَمَّا سُئِلَ البصري أن يصف أصحاب رسول الله ﷺ، خطب خطبةً قال فيها: «ظهرت منهم علامات: الخير في السيِّاء، والسمت، والهدى، والصدق،

(١) آداب الحسن البصري ١٢٣ - ١٢٤.

والخشونة، ملابسهم بالاعتقاد، وممشاهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين رضى الخالق، لم يفرطوا في غضب، ولم يحيفوا في جور، ولم يجاوزوا حكم الله تعالى في القرآن، شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم، ولم يمنعهم خوفهم في المخلوقين، حسنت أخلاقهم، وهانت مؤونتهم، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم»^(١).

النص الثالث:

وخطب أيضاً، فقال: «إِنَّ الْمُؤْمَنَ عَمَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامًا يَسِيرَةً، فَوَاللَّهِ مَا نَدِمَ أَنْ يَكُونَ أَصَابَ مِنْ نَعِيمِهَا وَرَخَائِهَا، وَلَكِنْ رَأَيْتُ الدُّنْيَا لَهُ فَاسْتَهَانَهَا وَهَضَمَهَا لِآخِرَتِهِ، وَتَزَوَّدَ مِنْهَا. فَلَمْ تَكُنِ الدُّنْيَا فِي نَفْسِهِ، بَدَارَ وَلَمْ يَرِغْ فِي نَعِيمِهَا وَلَمْ يَفْرَحْ بِرَخَائِهَا، وَلَمْ يَتَعَظَّمْ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ الْبَلَاءِ إِنْ نَزَلَ بِهِ مَعَ احْتِسَابِهِ لِلْأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَمْ يَحْتَسِبْ نَوَالِ الدُّنْيَا حَتَّى مَضَى رَاغِبًا رَاهِبًا فَهَنِيئًا هَنِيئًا»^(٢).

النص الرابع:

روي عن البصري أنه كان يقول: «أدركتُ من صدر هذه الأمة قوماً كانوا إذا جنَّهم الليلُ فقيماً على إطرافهم يفتشونَ حدودَهم تجري دموعُهم على حدودهم، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة سرَّتهم وسألوا

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٥١.

(٢) م. ن ٢ / ١٤٦ - ١٤٧.

الله أن يتقبلها منهم، وإذا عملوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم»^(١).

النص الخامس:

قال البصري واصفاً المؤمنين: «إنَّ المؤمنين قومٌ ذُلُّ، ذُلَّتْ منهم والله الأسماعُ والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مرضى، وإنَّهم لأصحَّاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، والله ما حزنهم حزن الدنيا، ولا تعاضم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة»^(٢).

النص السادس:

وفي خطبة أخرى له صنَّفَ فيها قراء القرآن إلى ثلاثة أصناف، ذمَّ الأوَّلين، ومدحَ الثالث، فقال فيه: «...ورجلٌ قرأ القرآن، فبدأ بما يعلم من دوائ القرآن، فوضعه على داء قلبه، فسهر ليله، وانهملت عيناه، وتسربل بالخشوع، وارتدى بالحزن...»^(٣).

النص السابع:

كتب الحسن البصري رسالةً أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز، منها: «.. فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه: يصبر على شدَّة الدَّواء، مخافة طولِ البلاء وليحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، فإنَّ أهل الفضائل كانوا منقطعهم فيها بالصواب، ومشئهم بالتواضع، مطعمهم الطيب من الرِّزق، مُغمضي

(١) البيان والتبيين ٣ / ٤٨١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١١ / ٣٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٢٣٢.

أبصارهم عن المحارم، فخوفهم في البرِّ كخوفهم في البحر، ودعائهم في السَّراء كدعائهم في الضَّراء، لولا الآجال التي كُتِبَتْ لهم، ما تفاوت أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العقاب، وشوقاً إلى الثَّواب، عظم الخالق في نفوسهم، فصغر المخلوقون في أعينهم. واعلم يا أمير المؤمنين... ليس ما يغنى وإن كان كثيراً بأهلٍ أن يؤثر على ما يبقى وإن كان طلبه عزيزاً، واحتمال المؤونة المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعةٍ تُعقب مؤونة باقية، وندامة طويلة..»^(١).

النص الثامن:

خطب البصري، فقال: «إن لله - عزَّ وجلَّ - عبداً كَمَنْ رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وكَمَنْ رأى أهل النار في النَّار مخلدين، قلوبهم محزونة، وشروهم مأمونه، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصارا تعقب راحة طويلة، أمّا الليل فمصافاة أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم يجأرون إلى ربهم ربنا ربنا، وأمّا النهار فحلماً علماء بررة أتقياء كأثم القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، أو خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمرٌ عظيم»^(٢).

فجميع هذه النصوص التي ذكرت هي من الخطبة المذكورة، مرّة بالنص، وأخرى بتغيير طفيف، وثالثة بالمعنى، ورابعة بهذه الطرق كلها، أي يقوم البصري بتكرار العبارة الواحدة من الخطبة العلوية مرّات عدّة كيفما شاء، وأنّى شاء.

(١) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٣٢٦.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٤٨.

أمّا مباشرة أمير المؤمنين (عليه السلام) في غرض الخطبة نجده قد استهلّ خطبته مؤكّداً على أنّ المتقين هم أصحاب الفضائل في الدنيا «فالمتقون فيها هم أصحاب الفضائل» وذلك من خلال ذكره للمتقين مرّتين؛ الأولى بالنص، والأخرى لما كرّر الضمير «هم» العائد عليهم. وعلى هذا سار البصري في نصّه السابع: «فإنّ أهل الفضائل» فهو هنا رغب أيضاً في التأكيد على ما ذكر عن طريق «إنّ». ولكنّ وصف الإمام هذا مجمل يحتاج إلى تفصيل^(١)، ولا ننسى شرط همام لما أراد وصفاً مفصّلاً للمؤمنين من أميرهم (صلوات الله عليه)، ولذا بدأ يفصل، والبصري فيما بعد يأخذ ويعظ.

فبدأ (عليه السلام) باللسان، ولعلّ السبب في ذلك إن أول ما يدلّ على لبّ الإنسان وجوهره هو منطقته؛ فإذا كان كلام المتكلم صواباً، فتوسّم يا همام بصاحبه التقوى، واللسان مرتبط بالقلب، فالقلب يفكر ويهيء، واللسان ينطق، فمن صحّ منطقته، كانت تلك علامة على صحّة قلبه وإيمانه. وبعد اللسان انتقل إلى وصف الهيئة كونها تفصح أيضاً عن مكنون الرجل، ثم غيرهما من الصفات، فقال (عليه السلام):

«منطقهم الصّواب، ... وملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التّواضع غصّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم».

ضمّن البصري هذا المقطع مرّتين، مرّة في نصّه السابع حيث قال: «منطقهم فيها بالصواب، ومشيهم بالتواضع، مُغمضي أبصارهم عن المحارم». والأخرى في نصّه الثاني، لما قال: «ملابسهم بالإقتصاد، وممشاهم بالتواضع».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلام الإمام (عليه السلام):

(١) ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة ٩٥.

«غضوا أبصارهم عما حَرَّمَ الله عليهم».

أخذه من قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾^(١).

فالقرآن الكريم دعا المؤمن أن يغض «من» بصره، ومن هنا تبعية، أي بعض بصره، وأمير المؤمنين عليه السلام سار على هذا، فنهى عن بعض البصر، وشخصه بالمحرم «عما حَرَّمَ الله». بينما البصري أثر أن يقتفي المسلك العلوي باللفظ والمعنى، لما قال: «مُغْمِضِي أَبْصَارِهِمْ عن المحارم».

ثم بعد ذلك انتقل عليه السلام إلى وصف أنفس المتقين، فقال:

«نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ».

بمعنى أن نفوسهم صلبة بالإيمان لا تقنط إذا نزل بها البلاء، ولا تبطر إذا حلَّ بها الرخاء، بل شُغِّلَتْ في الحالين الشكر^(٢).

أخذ البصري هذا بمعناه وكرّره مرّات عدّة في نصوصه السابقة، إذ ذكره في نصّه السابع لما قال في: «فخوفهم في البرِّ كخوفهم في البحر، ودعائهم في السَّراء كدعائهم في الضَّراء».

وفي نصّه الثاني، وذلك في قوله: «واستقادتهم للحقِّ فيما أحبّوا وكرهوا». وكذلك في الثالث، حيث قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ.. لم يتعاضم في نفسه شيء من البلاء إن نزل به مع احتسابه للأجر عند الله، ولم يحتسب نوال الدنيا حتى مضى راغباً راهباً».

(١) النور ٣٠.

(٢) ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة ٩٦.

وكرّره في نصّ آخر لم ندرجه مع النصوص السابقة منه مواطن الشاهد:
«المؤمن.. حامدٌ على الرّخاء، صابرٌ على البلاء»^(١).

فمقطع الإمام (عليه السلام) إمامٌ لكلّ نصوص البصري هذه، فالمعنى واحدٌ بين النصوص تماماً - فضلاً عن بعض الألفاظ - قائمٌ على المقارنة بين تصرّف المؤمن في حالة الكرب والشدة، وتصرّفه في حالة اليسر والفرج، ولذا استعمل (عليه السلام) من أجل إظهار هذا المعنى بصورة مشوّقة الطباق، وذلك بين لفظتي «البلاء» و«الرّخاء». والبصري اعتمد هذا تماماً، فذكره مرّة بلفظه «الرّخاء» «البلاء» وأخرى ذكر «البلاء» ولم يذكر ما يقابله بالنصّ، بل قال: «نوال الدنيا» أي عطاياها، وهذا معناه الرّخاء، والباقي بمعناه وذلك في قوله: «السّراء» و«الضرّاء» وقوله: «أحبّوا» و«كرهوا». وكلّ طباقات البصري هذه منبتها طباق الإمام (عليه السلام) المذكور مثلما اتضح.

والملفت إنّ الطباق عدّ ميزة امتازت بها مفردة البصري، فقد قالت الباحثة سلافة صائب: «ومما امتازت به مفردات الحسن البصري ظاهرة المطابقة بينها، بمعنى أنّه أورد في مواضع كثيرة من نثره ما عرف في البلاغة بعد عصره بـ «الطباق»^(٢). وعللت ذلك قائلة: «بأنّه - أي الحسن - كان يضع الخير والشر، والصواب والخطأ، أمام سامعيه، فيخطّيء هذا ويصوّب ذلك فهو يعرض أمامهم

الخطر ليحذّرهم منه، ويرسم لهم سبيل النجاة ليدلّهم عليه»^(٣).

(١) آداب الحسن البصري ١٣٥.

(٢) النثر عند الحسن البصري ٩١.

(٣) النثر عند الحسن البصري ٩١.

٢٠٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

والحقيقة ليست هذه، إذ قبل أن يضع البصري الخير والشر أمام سامعيه، وضع كلام أمير المؤمنين عليه السلام أمام ناظره، وأخذ منه فيما أخذ تلك الطباقات.

وتجدر الإشارة هنا أيضًا إنَّ الباحثة ضربت أمثلةً على ما قالت، ولكن هذه الأمثلة أغلبها - إن لم تكن جميعها - من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد أن انتهى أمير المؤمنين عليه السلام من وصف أنفس المتقين، انتقل إلى وصف شوقهم للجنة، وخوفهم من النار بقوله:

«وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ (عَلَيْهِمْ)، لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرَفَةً عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ».

وكلامه هذا «إشارة إلى غاية نفرتهم من الدنيا، وفرط رغبتهم إلى الآخرة»^(١).

فإن كان البصري أخذ مقطع الخطبة السابق بمعناه وبعض ألفاظه، فهو هنا عادَ إلى التضمين المباشر مع التقديم والتأخير لا غير، وذلك لما قال في نصه السابع: «لولا الآجال التي كُتِبَتْ لهم، ما تفاوت أرواحهم في أجسادهم خوفًا من العقاب، وشوقًا إلى الثواب».

ثم انتقل عليه السلام إلى وصف منزلة الباري - جلَّ وعلا - ومنزلة خلقه في نفوس المؤمنين، وذلك لما قال:

«عَظَّمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فهؤلاء المؤمنون آمنوا بالله حقَّ إيمانه، ولذا عظم في أنفسهم، وصغر خلقه في أعينهم، وهذه معادلة عكسية، إذ كلما عظم الباري في نفس المخلوق، صغر

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١٢ / ١١٨.

في عينه خلق الباري. ومن دقة الوصف هنا عند الإمام استعمال لفظة «أنفسهم» مع الخالق، و«أعينهم» مع المخلوقين الذين كُنِيَ عنهم بـ «ما دون ذلك» أي دون الخالق، وكل ما دون الخالق فهو مخلوق، إذ نرى أنَّ الإمام عليه السلام - وهو مؤسس علم التوحيد - أراد فيما أراد أنَّ المتقين الحقيقيين هم الذين لم يجسّموا الإله - مثلما فعلت اليهود والنصارى - بل هو تعالى عظيمٌ في ظنون أفكارهم، بعيدٌ عن نواظر عيونهم، لذا قال إنَّ المتقين عظموا الله في «أنفسهم». أمّا المخلوقون، فهم مشاهدون، لذا استعمل معهم لفظة «أعين». ويبدو أنَّ ابن أبي الحديد لم يتنبه لهذه الدقة في استعمالات الإمام هذه، وذلك لما قال:

«إنَّ الخالق عظم في أعينهم...»^(١).

ذكر البصري هذا المقطع، وكرّره مرات عدّة، فمرةً بنصه، وذلك قوله في نصه السابع: «عظم الخالق في نفوسهم، فصغر المخلوقون في أعينهم».

وأخرى بتحويل طفيف، من نحو ما ورد في نصه الثاني: «واستخفوا بسخط المخلوقين رضى الخالق».

وثالثة بمعناه، وذلك قوله في نصه الأول: «وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لديناكم بأبصاركم».

وما زال عليه السلام يصف درجة يقين المؤمنين المتميّزة، حيث قال:

«فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ».

وهذا "تصوير ليقينهم وإيمانهم بالله، وأنهم قد بلغوا الذروة منه، عن علم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣١٢.

٢٠٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

وبصيرة لا عن تقليد ومحاكاة»^(١). والواو في قوله «والجنة» وكذلك «النار» واو المعية^(٢) فهو هنا ينقل صورة عن المؤمنين كأنهم في الجنة يتنعمون بنعيمها، وكأنهم في الوقت ذاته في النار يُقاسون عذابها.

فكان هذا ممّا ضمّنه البصري أيضًا، لما قال في نصّه الثامن: «إنّ الله - عزّ وجلّ - عبادًا كَمَنْ رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وكَمَنْ رأى أهل النار في النار مخلدين».

لكن البصري لما حذف الحرف «قد» الذي أدخله الإمام عليه السلام على الفعل الماضي مرّتين «قد رأى أهل الجنة» و«قد رأى أهل النار» ضيّع دلالة التحقيق والتأكيد المتأتية من هذا التركيب. أمّا استبداله للفظي الإمام «منعمون» و«معذبون» بتكرار لفظة «مخلدين»، أذهب الطباق الجميل المتأتي من هاتين اللفظتين، نعم صحيح إنّ من البشر مَنْ يخلد في الجنة أو النار، لكن في لفظي النعيم والعذاب الضديتين دافع تحفيز يدفع المتلقي أكثر نحو الجنة، ودافع تنفير ينفره أكثر عن النار.

وفي نصّه الأول كرّر البصري هذا المقطع، وأعاد له اللفظتين المذكورتين، فقال: «أيّها الناس إنّ الله عبادًا كَمَنْ رأى أهل الجنة في الجنة متنعمين، وأهل النار في النار معذبين».

وبعد ذلك وجدنا الإمام عليه السلام قد قال:

«قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ».

(١) في ظلال نهج البلاغة ٢ / ١٦٥.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣١٣.

ضمّن البصري هذا في نصّه الثامن: «قلوبهم محزونة، وشروهم مأمونه، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة».

وكرر هذا التضمين في نصّه الأول:

«أيها الناس إنَّ لله عبَادًا قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ».

ثم قال عليه السلام في وصفه للمتقين:

«صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً، أَغْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً». فكنى عليه السلام عن الدنيا بالأيام القصيرة، وعن الجنة ونعيمها بالراحة الطويلة.

ولعل قوله هذا من قوله تعالى:

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾^(٣).

لكن البصري اعتمد الوصف العلوي، وكرّره مرّات عدّة من نحو ما ورد في نصّه الثامن: «صبروا أيّامًا قصارًا تُعقِبُ راحة طويلة».

والملاحظ أنّ الإمام عليه السلام استعمل الفعل الماضي - كونه يحمل دلالة قطعية - مرّتين، لما عدّ صبر المؤمنين في الدنيا أعقبهم نعيم الآخرة، إلّا أنّ البصري حين أبدل الفعل الثاني «أعقب» عند الإمام عليه السلام وحوّله إلى المضارع «تعقب» أهدر تلك الدلالة الحتمية، وصار المعنى إنّ هؤلاء سيُعقِب صبرهم بالراحة، ولعلّ أمدّ هذا بعيد، وهذه الدرجة من التسويف، عكس درجة اليقين القطعية التي ألفيناها عند أمير البيان عليه السلام. أمّا إبداله «قصيرة» بـ «قصارًا» فهو تقصير آخر، كونه بهذا التحوير أضاع الاتفاق المحبب في الوزن والسجع بين اللفظتين العلويتين

«قصيرة» و «طويلة».

وثانية كرر البصري هذا المقطع، محوراً فيه ما شاء، وذلك في نصّه الأول:
«صبروا الأيام القلائل، لما رجوا في الدهور الأطاول».

وثالثة رأى من المستحسن أن يزيد أكثر في التحوير، وهذا ما وجدناه في نصّه الثالث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ عَمَلَ لِلَّهِ تَعَالَى أَيَّامًا يَسِيرَةً، فَوَاللَّهِ مَا نَدِمَ أَنْ يَكُونَ أَصَابَ مِنْ نَعِيمِهَا وَرَخَائِهَا». إذ استبدل «أَيَّامًا قصيرة» بـ «أَيَّامًا يسيرة»، والباقي عنده توسع على قول الإمام «راحة طويلة».

وغير هذا من تكراره الكثير لهذا المقطع^(١).

وبعد ذلك بدأ أمير المؤمنين عليه السلام يفصل في صفات المؤمنين أكثر فأكثر، وذلك من خلال ذكر حالهم في الليل، وحالهم في النهار، فقال وهو يصف منهمجهم الليلي:

«أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يَرْتَلُونَهَا تَرْتِيلًا؛ يُحْزَنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ؛ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصَبَ أَعْيُنُهُمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَائُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِحَبَاهِهِمْ وَأَكْفَهُمْ وَرُكْبَهُمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكٍ رِقَابِهِمْ».

ذكر البصري أوّل هذا المقطع وآخره في نصّه الرابع، وذلك قوله: «أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون

(١) ينظر: جهرة رسائل العرب ٢/ ٣٢٦، ٢/ ٣٢٩.

خدودهم... ينجون مولا هم في فكاك رقابهم».

ومّا يؤاخذ عليه البصري - بنظر الباحث - بعض التغيرات التي أجراها على النص العلوي، ومنها إبداله «فصافون أقدامهم» بـ «فقيام على أطرافهم»، فمفردة البصري «أطراف» لم تكن فاعلة كمفردة الإمام عليه السلام «أقدام»، لأنّ من يريد الوقوف طويلاً بين يدي الله سبحانه وتعالى - وهذا ما جاء من أجله المقطعين المؤثر والمتأثر - لا تعينه أطرافه على ذلك كما تعينه قدماه. نعم الإمام عليه السلام استعمل الأطراف، لكن بعبريته، ودقة تصويره للمتقين، استعملها عندما وصل بوصفه لهم وهم ساجدين «يفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم»، فهو هنا ذكر أعضاء السجود السبعة المتمثلة بالجبهة، والكفين، والركبتين، وطرفي القدمين، وبالتالي فإنّ لفظة الأقدام مناسبة للوقوف، ولفظة الأطراف مناسبة للسجود، ولكن البصري حرّف في كلام الإمام عليه السلام، فوقع في التقصير.

ومن تغييراته أيضاً، إبدال قول الإمام: «يفترشون جباههم» والذي هو كناية عن كثرة السجود^(١) بـ «يفترشون خدودهم»، وهنا سقط البصري أيضاً، كونه جعل هؤلاء الساجدين يتخذون من خدودهم فرشاً يجعلونها مواضع سجودٍ لله - تعالى -، وهذا غير مقبول لأنّ مواطن السجود سبعة، هي التي عددها الإمام عليه السلام، ولكن لو قال على الأقل: يفترشون وجوههم لقلنا إنه أطلق - على سبيل المجاز - الكل «الوجه»، وأراد الجزء «الجبهة» أي موضع السجود، غير أنّه لم يعمل حتى هذا.

وعلى أيّة حال فمن غير المقبول أن يسجد الإنسان بخدّه ويترك جبهته، ونحن

(١) ينظر: منهاج البراعة ٢/ ٢٧٨.

في معنى يتحدث عن الصلاة.

أما قوله: «يناجون مولاهم في فكاك رقابهم» فهو إعادة بتغيير جزئي طفيف لقول الإمام عليه السلام:

«يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ».

أما وصفه عليه السلام للمتقين بأنهم يستشيرون بالقرآن دواء داءهم، والاستشارة بمعنى الهيجان فهم يهيجون بالقرآن الفكر الذي يمحو الجهل^(١)، فقد جعله البصري في حديثه الذي قسم فيه قراء القرآن على ثلاثة أقسام، وذلك في نصه السادس إذ قال: «ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن فوضعه على داء قلبه».

وبعد أن انتهى أمير المؤمنين عليه السلام من وصف حال المؤمنين في الليل، انتقل إلى وصفهم بالنهار، وذلك قوله:

«وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ».

ضمّن البصري هذا بتمامه في نصّه الثامن: «وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ بَرَّةٍ أَتَقِيَاءُ».

ثمّ بعد ذلك وصفهم عليه السلام بأنهم على خوفٍ دائم، لما قال: «قد براهم الخوف بري القдах».

القдах: هو العود إذا بلغ، فشُدَّتْ عنه أغصانه، وقُطِعَ على مقدار النبل الذي يُراد من الطول والقصر^(٢)، وبرّي العود والسهم نحتّه^(٣). فهو هنا يشبه

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٢ / ٣٣٠.

(٢) ينظر: لسان العرب ٢ / ٥٥٦ مادة (قدح).

(٣) ينظر: م. ن ٢ / ٩٨ مادة (برى).

تأثير الخوف عليهم بברי القداح، ووجه الشبه شدة النحافة^(١).

فمرة أخذ البصري هذا التشبيه بألفاظه، لما قال في نصّه الثامن: «كأنهم القداح».

وأخرى بمعناه، لما قال في نصّه الخامس: «دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام وصف المتقين بالليل، بصفاتٍ تختلف عن النهار، فمثلاً اختار الليل للصلاة، لأنّ فضيلتها في جوف الليل تفوق فضيلتها في وضح النهار. أمّا ألفاظ الليل فكانت مخيفة مقلقة من نحو «تخويف، زفير، جهنم، جباه، يحزنون، دواء، داء». وكأنه يصوّر المتقين في ليلهم وهم في ضجّة ودوي، وانقطاع تام لله تعالى.

بينما ألفاظه للمتقين في النهار كانت توحى بالهدوء والسكينة والتواضع، والذبول، من نحو «علماء، أبرار، أتقياء، حلماء، مرضى». وكأنه عليه السلام جعل ليل المتقين للمتقين، ينقطعون به إلى ربّهم، وجعل نهارهم للناس، إذ من كان بهذه الصفات من حلم وتواضع وعلم... كان سهلاً ومحبباً لدى الناس مخالطته، والإفادة من علمه وخُلُقِه.

وهكذا باقي كلام البصري المذكور سالفاً، فهو إمّا بالنص، أو بالتحوير أو بالمعنى من ذلك الجزء المذكور من الخطبة العلوية.

أمّا جزء الخطبة الثاني، والمتمثل بقوله عليه السلام:

«فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لَيْنٍ، وَإِيمَاناً فِي

(١) ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة ٩٩.

يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنَى، وَخُشوعاً فِي عِبَادَةٍ،
وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً
عَنْ طَمَعٍ، يَعْمَلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمِيسِي وَهْمُهُ الشُّكْرَ،
وَيُضْبِحُ وَهْمُهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لَمَّا حُذِرَ مِنْ
الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنْ اسْتَضَعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا
تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى،
يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَّهُ، خَاشِعاً
قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنُزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينَهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ،
مَكْظُوماً غَيْظُهُ، أَخْيَرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ
كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ
ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيْناً قَوْلُهُ، غَائِباً
مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ، فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي
الْمُكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرِّخَاءِ شُكُورٌ. لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتُمُ فِيمَنْ
يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِيعُ مَا أُسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى
مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْتُمُ بِالْمُصَائِبِ، وَلَا
دَخُلَ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغْمُهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ صَحِكَ
لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَّقِمُ لَهُ، نَفْسُهُ
مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتَعَبَ نَفْسُهُ لِأَخْرَجَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ
نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ
تَبَاعُدُهُ بِكِبَرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ»^(١).

فقد أخذه البصري برمته، ووعظ به مجموعة من الناس بعد فراغهم من أداء صلاة الجمعة، فقال: «إِنَّ أَخْلَاقَ الْمُؤْمِنِ قُوَّةٌ فِي دِينٍ، وَحِزْمًا فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَحِلْمًا فِي عِلْمٍ... وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَقَصْدًا فِي غِنَى،... وَعِطَاءً لِلْحَقِّوْقِ وَإِنصَافًا فِي اسْتِقَامَةٍ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتُمُّ فِي مَسَاعِدَةٍ مَنْ يُحِبُّ، وَلَا يَهْمُزُ، وَلَا يَغْمُزُ، وَلَا يَلْمُزُ، وَلَا يَلْغُو... وَلَا يَحْدُ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ.. وَلَا يَشْمَتُ بِالْقَبِيحَةِ إِنْ حَلَّتْ بِغَيْرِهِ، وَلَا يُسَرُّ بِالْمُصِيبَةِ إِذَا نَزَلَتْ بِسِوَاهِ... إِنْ أَحْسَنَ اسْتَبْشَرَ، وَإِنْ أَسَاءَ اسْتَغْفَرَ... وَإِنْ سَفِهَ عَلَيْهِ حِلْمٌ، وَإِنْ ظَلَمَ صَبْرٌ، وَإِنْ جِيرَ عَلَيْهِ عَدْلٌ، لَا يَتَعَوَّذُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِاللَّهِ، وَقَوْرٌ فِي الْمَلَأِ، شَكُورٌ فِي الْخَلَاءِ، قَانِعٌ بِالرِّزْقِ، حَامِدٌ عَلَى الرِّخَاءِ، صَابِرٌ عَلَى الْبَلَاءِ، لَا يَجْمَحُ بِهِ الْقَنُوطُ، وَلَا يَغْلِبُهُ الشُّحُّ، إِنْ جَلَسَ مَعَ اللَّاغِطِينَ كُتِبَ مِنَ الْذَاكِرِينَ، وَإِنْ جَلَسَ مَعَ الْذَاكِرِينَ، كُتِبَ مِنَ الْمُسْتَهْتَرِينَ. الْمُؤْمِنُ طَلَقَ الْبَشَرَ... رَاحِمٌ وَصَوْلٌ، يُقَطِّعُ فِصْلًا، وَيُؤْذِي فَيَحْتَمِلُ، وَيِهَانُ فَيُكْرِمُ، صَبُورٌ عَلَى الْأَذَى، مُحْتَمِلٌ لَأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ... الْمُؤْمِنُ هَيِّنٌ لِيْنٍ كَيْسٌ فِي دِينِهِ، غَبِيٌّ فِي دُنْيَاهُ... وَهُوَ فِي مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي تَعَبٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. الْمُؤْمِنُ... قَرِيبُ الرِّضَا، بَعِيدُ الْغَضَبِ، يَعْلَمُ إِذَا عُلِّمَ، وَيَفْهَمُ إِذَا فُهِمَ، مَنْ صَاحِبُهُ سَلَمٌ، وَمَنْ خَالَطَهُ غِنَمٌ، كَامِلُ الْعَقْلِ، كَثِيرُ الْعَمَلِ، قَلِيلُ الْأَمَلِ، حَسَنُ الْخُلُقِ، كَتُومُ الْغِيظِ»^(١).

والبصري كعادته مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام إن شاء ضَمَّنَ حَرْفِيًّا، وَإِنْ شَاءَ حَوَّرَ قَلِيلًا، وَإِنْ شَاءَ أَخَذَ بِالْمَعْنَى، وَإِنْ شَاءَ قَدَّمَ، وَإِنْ شَاءَ آخَّرَ. فَكُلُّ هَذَا طَبَقُهُ فِي قَوْلِهِ الْمَذْكُورِ.

فأول كلام الإمام عليه السلام والذي ابتدأه بلفظة «(علامة)»، وهي لفظة سيميائية

٢١٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

تعمل بواسطة التشابه الواقعي بين الدال والمدلول على تبني ملاحظة السلوك الدال على صفة المتقين»^(١)، والمتمثل بقوله عليه السلام:

«فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْمًا فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَصْدًا فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ».

نجده حرفياً في نص البصري، وذلك قوله: «إنَّ أخلاق المؤمن قوةً في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وعِلْماً في حلم، وحِلْماً في علم.. وتَجَمُّلاً في فاقة، وقصداً في غنى».

وبعد ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام واصفاً حالتي الحذر والفرح عند المتقي:

«يُمْسِي وَهْمُهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهْمُهُ الذِّكْرُ يَبِيتُ حَذَرًا، وَيُصْبِحُ فَرِحًا حَذَرًا لَمَّا حَذَرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ».

ولعله هنا لم يقصد تخصيص الحذر بالبيات، والفرح بالصباح، وإنما المراد أنه يبيت ويصبح جامعاً بين وظيفتي الخوف والرجاء^(٢).

وهنا انتقل البصري من التضمن الحرفي إلى الأخذ بالمعنى، وذلك قوله بعد كلامه السابق: «المؤمن إن أحسن استبشر، وإن أساء استغفر».

وأما قوله عليه السلام:

«تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلُهُ... مَكْظُومًا غَيْظُهُ... بَعِيدًا فُحْشُهُ، لَيْثًا قَوْلُهُ، غَائِبًا مُنْكَرُهُ، حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ مُقْبِلًا خَيْرُهُ مُدْبِرًا شَرُّهُ». فقد أخره البصري وختم به نصه وذلك

(١) نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١٢ / ١٤٢.

لَمَّا قَالَ: «الْمُؤْمَنُ... قَرِيبُ الرِّضَا، بَعِيدُ الْغَضَبِ،... مِنْ صَاحِبِهِ سَلَمٍ، وَمَنْ خَالَطَهُ غَنَمٌ، كَامِلُ الْعَقْلِ، كَثِيرُ الْعَمَلِ، قَلِيلُ الْأَمَلِ، حَسَنُ الْخُلُقِ، كَتُومُ الْغَيْظِ».

فقد أبدل البصري هنا «قريباً أمله» بـ «قليل أمله». وإبداله «قريباً» بـ «قليل» لم يكن موفقاً بنظر الباحث، لأن لفظة قريب بدلالاتها المعنوية توائم الأمل بدلالاته المعنوية أيضاً أكثر من موائمة قليل بدلالاتها المادية له.

وأبدل «مكظوماً غيظه» بـ «كتوم الغيظ».

وأبدل «بعيداً فحشه» بـ «بعيد الغضب».

ولا فرق بين لفظتي الفحش والغضب، لأن الثانية تسبب الأولى، فالفحش الذي هو القبيح من القول والفعل^(١) سببه الغضب.

ومعنى قوله ﷺ: «بعيداً فحشه»: «لا يعني به أنه - أي المؤمن - قد يُفحش تارةً ويترك الفحش تارات بل لا فحش له أصلاً، فكُنِيَ عن العدم بالبعد، لأنه قريب منه»^(٢).

وبالنسبة لآخر كلامه ﷺ في المقطع المذكور: «بعيداً فحشه إلى قوله مدبراً» فإن هذه صفات نبيلة، مَنْ يوفق لمصاحبة حاملها، يكون قد غنم منها، وسلم من أذى حاملها، وهذا ما قاله البصري في مقطعه السالف: «من صاحبه سلم ومن خالطه غنم».

وقال أمير المؤمنين ﷺ واصفاً ذكر المتقين الدائم لله - سبحانه وتعالى -:

«إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ

(١) ينظر: لسان العرب ٦ / ٣٢٥ مادة (فحش).

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣٢٤.

مِنْ الْغَافِلِينَ».

ومعناه «أنه لا يزال ذاكرًا الله تعالى، سواء كان جالسًا مع الغافلين أو مع الذاكرين، أمّا إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلبه، وأمّا إذا كان مع الذاكرين فإنه يذكر بقلبه ولسانه»^(١).

حوّز البصري طفيفًا في هذا لما قال: «إن جلس مع اللاغطين كُتِبَ من الذاكرين، وإن جلس مع الذاكرين، كُتِبَ من المستهترين».

وإبدال البصري «الغافلين» بـ «المستهترين» لم يكن في محله - بنظر الباحث - لأنّ هذه اللفظة تعني «كثير الأباطيل»^(٢). وتعني أيضًا المولع بالذكر والتسبيح^(٣). وإن يُفهم من سياق الكلام أن البصري قصد المعنى الثاني، إلّا أنّه وفي وصف آخر للمؤمن نعته بأنّه غبي، وذلك لما قال: «المؤمن كَيِّس في دينه غبيّ في دنياه»، وهذا وصف غير صحيح، فالمؤمن الحق لم يكن غبيًّا لا في دينه، ولا في دنياه، بل حاذق بهما معًا، لأنّ الدنيا هي مزرعة الآخرة، ولا تصلح هذه المزرعة إذا كان مدبّر شؤونها غبيًّا، أي غافلاً ولم يفطن^(٤).

فإن كان البصري آخر هذه الفقرة والتي قبلها، إلّا أنّ قول الإمام عليه السلام:

«لا يحيف على مَنْ يُبغض، ولا يَأْثُم فيمن يحب».

قدمه، بعد أن ضمنه بنصّه، وذلك قوله: «لا يحيف على من يبغض، ولا يَأْثُم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) ينظر: لسان العرب ٥ / ٢٤٩ مادة (هتر).

(٣) ينظر: م. ن ٥ / ٢٤٩ مادة (هتر).

(٤) ينظر: م. ن ١٥ / ١٤ مادة (غبا).

في مساعدة من يجب».

ومن طرقه بالتقديم والتأخير على الكلام العلوي، هي أن يأتي على الجملة الواحدة، فيقدم ويؤخر فيها، فمثلاً جملة الإمام (عليه السلام): «يصل من قطعه»، قدّم وأخر البصري فيها لما قال: «يقطع فيصل».

ومن فقرات هذه الخطبة فقرات بسطها البصري، فقول الإمام (عليه السلام): «لا يشمت بالمصائب». بسطه البصري لما قال: «ولا يشمت بالقيحة إن حلت بغيره ولا يُسرّ بالمصائب إن نزلت بسواه».

وإن فُتشنا عن بسط البصري هذا وجدناه تكراراً لا طائل منه، فقوله: «إن حلت بغيره» لا يختلف البتة عن قوله: «إن نزلت بسواه». أمّا لفظة الإمام «المصائب» أخذها البصري بمعناها مرّة وهي قوله: «القيحة»، ثم عاد وذكرها في آخر كلامه المذكور بنصبها «بالمصائب».

فإن كان كرر البصري المقطع السالف مرتين، إلّا أنّه لما أخذ المقطع العلوي: «وإن بُغي عليه صبر»، كرّره ما يقارب الست مرات:

فقال: «وإن ظلم صبر». وقال: «وإن جبر عليه عدل». وقال: «صبور على الأذى». وقال: «يؤذى فيحتمل». وقال: «محتمل لأنواع البلاء» وغيرها.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أنّ التكرار ممّا عُرف عن البصري بوضوح، حتى أنّ أغلب دارسيه سجّلوا عليه هذه السمة، فكان يكرر كثيراً من المعاني الدقيقة والألفاظ والجمل في أكثر من نصّ من نصوصه النثرية^(١)، ولكنّ الجديد هنا إنّ

(١) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٦٤، وينظر: الرسائل الفنيّة في العصر الإسلامي حتى

نهاية العصر الأموي ٢٨٢، وينظر: النثر عند الحسن البصري ٩٢ - ٩٣.

٢١٤.....أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

مكررات البصري هذه ما هي إلا نصوص علوية بامتياز. فكان يقطع العبارة أو المقطع العلوي - المكون لربما من عدة أسطر - ويكرره فيما شاء من نصوص نثرية، وهذا الأمر بات جلياً لا غبار عليه.

وبقي لنا أن نشير هنا إلى أن من طباقات البصري الجميلة^(١)، قوله في نصّه المذكور: «وهو في محاسبة نفسه في تعب، والناس منه في راحة».

والحقيقة إن البصري صفر اليدين من هذا الطباق، لأنّه من الخطبة العلوية المذكورة، والمتمثل بقول أمير البيان عليه السلام: «نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة». وكلّ ما سُجِّلَ للبصري هنا هو إبداله «عناء» بـ «تعب»! وهكذا باقى التشابهات بين نص البصري وجزء الخطبة العلوية.

(١) ينظر: النثر عند الحسن البصري ٩١.

المبحث الرابع

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في مواعظ وحكم الحسن البصري

تُعد الموعظة «نثر فنيّ يُطلق دون تكلفٍ أو تهيئة، يتألف من جمل قصار، أو جملةٍ أو جملتين، ويحتوي على حكمة، يلقيه مَنْ حنَّكَته التجارب، ومُحَصَّته الممارسات، ودرَّسته الحوادث، فيستفيد الآخرون من ثمار تجاربه دونما تكلف خوض حوادث، وتحمل مشاق، ومواجهة صعوبات، يتوخى فيه الإيجاز والوضوح والدقة في التعبير»^(١).

زخرت كتب التراث الإسلامي والأدب العربي بحكم ومواعظ البصري، لما في هذه الحكم من صفات مؤثرة، فقد وصفها الشيخ أبو الحسن الندوي بقوله: «ومواعظ الحسن البصري تجمع بين القوة والسهولة التي عُرف بها كلام عهد الصحابة وهي تدور غالباً حول قِصَر الحياة، وغدر الدنيا، وخلود الآخرة، والحث على الإيمان والعمل الصالح...»^(٢). وقيل عنه أيضاً:

(١) تأريخ الأدب الإسلامي ٢٥٠.

(٢) حياة الحسن البصري ومسيرته العلمية ١٢٧.

«ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها»^(١).

وما يهمننا هنا إنَّ من أهم الأسباب الكامنة وراء إبداع البصري في حكمه هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ إنَّ من الندرة النادرة تمرُّ حكمة من حكم البصري دون أن تحمل معها أثراً لكلام أمير المؤمنين عليه السلام. وقد برز هذا الأثر بمظاهر عدّة منها:

أولاً: التضمين:

التضمين في اللغة هو «جعل الشيء في ضمن الشيء مشتملاً عليه»^(٢). وفي الاصطلاح هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمةً من بيت، أو من آية،... أو مثلاً سائراً، أو جملة مفيدة، أو فقرة من حكمة»^(٣).

والتضمين «فنٌّ: من فنون الإيجاز في البيان»^(٤)، يلجأ له الأديب من أجل إتمام المعنى، أو زيادة الكلام جمالاً^(٥)، وهو بهذا يكون قد «شُرّع... لغرض تعبيرى وفائدة معنوية»^(٦).

وبما أنَّ البصري كان رجلاً واعظاً، فقد أدرك أنَّ من أسباب رواج وعظه، وتجميله في آذان سامعيه هو الإعتماد على كلام الإمام علي عليه السلام والتضمين منه، إمّا بالنص، وإمّا بتحوير طفيف.

(١) م. ن ١٢٦.

(٢) التعاريف ١٨١.

(٣) تحرير التحبير ١ / ١٤٠.

(٤) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ٢ / ٤٩.

(٥) ينظر: مصطلحات السرقية الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن السابع الهجري ٨٨.

(٦) دراسات في النحو ٦٩٠.

١- التضمين النصي:

بمعنى أن يضمّن فقرة من الكلام العلوي دونها إبدال كلمة منه. وقد ورد هذا كثيرًا عند البصري، فمن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام منها:

«...وَانْقَلَبُوا بِصَالِحٍ مَا بِحَضَرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ»^(١).

ضمّن البصري هذا المقطع من الخطبة في آخر موعظته: «تصبروا وتشددوا فإنّها هي ليالٍ تعدّ، وإنّا أنتم ركبٌ وقوفٌ، يوشكُ أن يُدعى أحدكم فيُجيب ولا يلتفت، فانقلبوا ب صالح ما بحضرتكم»^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام في إحدى حكمه:

«خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً، إِنْ مِثُّهُمْ مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ»^(٣).

فهو هنا عليه السلام حثّ على التعامل بمكارم الأخلاق مع المجتمع، لأنّ الذي يُحنّ إليه في حياته ويُبكي عليه عند مماته، حصل على ثمرة لم يحصدها إلّا بعد أن زرع طيبًا في نفوس قومه. ومن أجل التأكيد على هذا المعنى استعمل الإمام عليه السلام الفعل «خالط» مع مصدره «مخالطة».

ضمّن البصري عبارة الإمام الأولى في أوّل موعظته التي قال فيها "خالطوا النَّاسَ في الأخلاق الكريمة، وزايلوهم في الأفعال القبيحة"^(٤).

(١) نهج البلاغة ٣٧٢.

(٢) حياة الحسن البصري ١٥٩.

(٣) نهج البلاغة ٥٥٢.

(٤) آداب الحسن البصري ٤٦.

وفي حكمة أخرى قال الإمام عليه السلام «مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَهُ»^(١).

استعار عليه السلام لفظ المصارعة للمقاومة، فمن صارع الحق قاومه الحق وصرعه، لأن الله - سبحانه وتعالى - وملائكته، ورسله، والصالحين من عباده أعوان الحق، وهؤلاء لا مقاوم لهم^(٢).

ضمّن البصري هذه الحكمة في المقطع الثاني من قوله: «مَنْ لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ خُدْعَ، وَمَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صُرِعَ»^(٣).

إلا أن البصري هنا أبدل الفعل «صارع» في حكمة الإمام بالفعل نفسه، ولكنه بناه للمجهول فقال: «صُرِعَ»، وذلك حتى يوائم فعله الأول «خُدِعَ».

وبيّن الإمام عليه السلام في إحدى خطبه جانباً من منزلة القرآن السامية قائلاً:

«..وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بَزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. وَاعْلَمُوا... أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدِّقٌ»^(٤).

فعبارة الإمام عليه السلام «شافع مشفع» نجدناها في أول دعاء البصري: «اللهم اجعله لنا شافعاً مُشَفَّعاً، ونوراً وشفاءً وهدياً وموعظةً»^(٥).

٢- التضمين المحوّر:

وهذا النوع من التضمين كالاقتباس الإشاري الذي يعني عدم التزام الأديب

(١) نهج البلاغة ٦٢٦.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغ لابن ميثم ٥ / ٤٩٨.

(٣) آداب الحسن البصري ٥٧.

(٤) نهج البلاغة ٢٩١.

(٥) آداب الحسن البصري ٨٧.

بالآية القرآنية وتركيبها، بل هو إشارة إلى ذلك^(١).

ويمكن أن نعرف التضمين المحوّر فنقول: هو تضمين بتصرفٍ لنصٍّ ما، وهذا التصرف قد يكون على اللفظة الواحدة وقد يكون على التركيب.

أورد البصري كثيرًا من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذه الطريقة، فمن حكمة له بين فيها إن الله تعالى أنعم بنعم شتى على عباده، وأقلّ درجات شكر هذه النعم عدم الاستعانة بها على معصية مسديها، فقال (عليه السلام):

«أَقْلُ مَا يَلْزُمُكُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ»^(٢).

فآخر حكمة الإمام ضمّنه البصري في آخر موعظته التي قال فيها: «أشدُّ النَّاسِ صرَاخًا يوم القيامة رجلٌ سنَّ ضلالةً فأتبع عليها.. ورجلٌ فارغٌ استعان بنعم الله على معاصيه»^(٣).

ومّا ورد في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن (عليه السلام):

«...وَإِيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى»^(٤).

والنوكى: جمع أنوك وهي كالأحق^(٥).

فتحذير أمير المؤمنين لولده الحسن (عليه السلام) من الاتكال على المنى ضمّنه البصري مع تحوير طفيف في آخر موعظته التي قال فيها: «القلب الذي يُحِبُّ الله يحبُّ

(١) ينظر: معجم آيات الاقتباس ١٩.

(٢) نهج البلاغة ٦١١.

(٣) الفتوحات المكية ٥٣٩/٤.

(٤) نهج البلاغة ٤٦٨.

(٥) ينظر لسان العرب ١٠ / ٥٠١ مادة (نوك).

٢٢٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

التعب، ويؤثر النصب، هيهات، لا ينال الجنة من يؤثر الراحة. من أحب سخا. ومن أحب سخا بنفسه إن صدق، وترك الأمانى؛ فإنها سلاح النوكى»^(١).

ومما جاء في إحدى حكمه عليه السلام:

«مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اسْتَعْلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ... وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْوُهُ...»^(٢).

حوّر البصري عبارة الإمام الأخيرة، وذلك في آخر قوله: «من ساء خلقه، عذب نفسه، ومن كثر ماله، كثرت ذنوبه، ومن كثر كلامه، كثر سقطه»^(٣).

ومن خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام حمد الله فيها، ووعظ بالتقوى، منها قوله:

«فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ... فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمُخَوْفُ فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ (تُنَالُونَ) وَلَا عَشْرَةَ تَقَالُونَ»^(٤).

ضمّن البصري بعض هذا المقطع، فقال في إحدى مواعظه: «ابن آدم! إنك مُرْتَهِنٌ بِعَمَلِكَ، وَارِدٌ عَلَيْكَ أَجْلُكَ»^(٥).

فكلامه: «إنك مُرْتَهِنٌ بِعَمَلِكَ، وَارِدٌ عَلَيْكَ أَجْلُكَ»، تضمين محور لقول

(١) آداب الحسن البصري ٣٣ - ٣٤.

(٢) نهج البلاغة ٦١٤.

(٣) آداب الحسن البصري ٤٢.

(٤) نهج البلاغة ٣٢٧.

(٥) آداب الحسن البصري ٣٢.

الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ».

فحتى وإن غيّر البصري هنا في بعض الألفاظ إلا أنّه بقي يدور في ذلك النص العلوي من حيث المعنى الواضح بين النصين، فضلاً عن الصياغة، وذلك لما جعل موعظته مكوّنة من عبارات قصيرة مسجوعة، وهذا بعينه وجدناه في النص العلوي. ومثلما استعمل الإمام عليه السلام التقديم والتأخير هنا ومن نحو قوله: «فلا رجعة تنالون» إذ قدّم «رجعة» على «تنالون» لأهمية الأولى، فهو يريد أن يؤكد أن لا رجعة للحياة بعد الموت، استعمله البصري أيضاً، ففي قوله: «وارد عليك أجلك» قدّم الجار والمجرور «عليك» على «أجلك» في حين أن هذا الأخير يستحق التقديم كونه فاعل لإسم الفاعل «وارد».

وروي أن إعرابياً لقِيَ الحسنَ البصري فقال له: «علّمني ديناً مبسوطاً... فقال الحسن: ... إن خير الأمور لأوساطها»^(١).

فحكمة البصري هذه تشبه بشدة فقررة وردت في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشر، جاء فيها:

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ»^(٢).

ثانياً: البسط أو الزيادة:

البسط في اللغة نقيض القبض^(٣)، و «وبسط الشيء نشره وتوسّعه»^(٤).

(١) م ٥٧ ن ٥٧.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٢.

(٣) ينظر: لسان العرب ١٠ / ٥٠٥ مادة (بسط).

(٤) المفردات في غريب القرآن ٤٦.

أمّا في الإصطلاح فقد عرّفه ابن أبي الأصبع (ت ٦٥٤ هـ) فقال: «أن يأتي المتكلّم إلى المعنى الواحد الذي يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل فيدلّ عليه باللفظ الكثير ليضمّن اللفظ معاني أخر يزيد بها الكلام حسناً، لولا بسط ذلك الكلام بكثرة الألفاظ لم تحصل تلك الزيادة»^(١).

ولا تخرج الزيادة عن هذا المعنى، فهي تعني زيادة الأديب في معنى ما، إمّا بشرحه، أو كشفه^(٢)، ويعدّ الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) أوّل من أشار إلى هذا المظهر النقدي، وضرب مثلاً على ذلك^(٣).

لا يقلّ هذا المظهر أهمية عن مظاهر التأثير والتأثر الأخرى ولذا ظلّ ساري المفعول حتى في الأدب الحديث، إذ إنّ الباحث يرى البسط هو الذي سُمّي في الدراسات الأدبية الحديثة بـ (التمطيط). وعُدّت هذه الآلية من أهمّ آليات التناص، حتى أنّ بعض الباحثين اقتصر عليها مع آلية الإيجاز^(٤). وهي - آلية التمطيط ومثلها مظهر البسط - "في الخطاب الثري أوسع انتشاراً لما لهذه الآلية من علاقة مع الصيغ السردية"^(٥).

اعتمد البصري هذا المظهر، إذ أورد كثيراً من النصوص العلوية بهذه الطريقة، فمن حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام جاء فيها:
«تَرَكُ الذَّنْبَ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ»^(٦).

(١) تحرير التحبير ٣ / ٥٤٨.

(٢) بنظر: مصطلحات السرقة الأدبية ١٠٩.

(٣) ينظر: فحولة الشعراء ٩ - ١٠.

(٤) ينظر: التناص في شعر أحمد مطر ١٨١.

(٥) التناص في العصر الأموي ١٤ نقلاً عن التناص في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر ١٨.

(٦) نهج البلاغة ٥٨٤.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواعض الحسن البصري ٢٢٣

أخذ البصري هذه الحكمة وبسطها، فقال: «ابن آدم ترك الخطيئة أهون عليك من طلب التوبة؛ ما يؤمنك أن تكون أصبت كبيرة أغلق دونها باب التوبة، فأنت في غير معمل»^(١).

فواضح إن البصري لم يكتف بإيراد الحكمة، فأول زيادته إنه قدم على الحكمة العلوية نداء «ابن آدم» وهذه افتتاحية محبة عنده يقدم بها لكلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وبعد ذلك لم يكتف بإيراد الحكمة كاملة بل زاد عليها، وذلك لما نهى عن مقارفة الكبائر من الذنوب بحجة إن من هذه الذنوب ما يغلق باب التوبة، وعليه فإن الخيار السليم من هذا التهيب ترك الذنب بالأساس حتى لا نرجع إلى خيار طلب التوبة، لأن «طلب التوبة من الله يحتاج إلى استعداد شديد يصلح معه العبد لقبولها منه وإفاضة العفو عليه»^(٢). وفي الحقيقة هذه درجة رفيعة قل من يتمكنها، أي ترك الذنب أساساً وعدم اللجوء إلى التوبة.

ولما بلغ أمير المؤمنين (عليه السلام) اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان، سارع (عليه السلام) إلى نفي هذه التهمة عنه مبيناً منزلته السامية، وداعياً إلى الرجوع إلى القرآن ليكون حكماً فيصلاً، فقال:

«أَنَا حَاجِبُ الْمَارِقِينَ، وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ، وَعَلَى كِتَابِ اللَّهِ تُعْرَضُ الْأُمُثَالُ»^(٣).

فدعوة أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى القرآن، وردت عند البصري بشكل أكثر تفصيلاً وذلك في قوله: «إن المؤمنين شهود الله في الأرض يعرضون أعمال ابن آدم على

(١) حياة الحسن البصري ١٤٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٤٥.

(٣) نهج البلاغة ١٠٤.

٢٢٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

كتاب الله، فمن وافق كتاب الله حمد الله عليه، وما خالف كتاب الله عرفوا أنه مخالف لكتاب الله، وعرفوا بالقرآن ضلالة من ضلّ من الخلق»^(١).

فقول الإمام عليه السلام:

«وَعَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَرَّضُ الْأَمْثَالُ».

يشبهه بشدة قول البصري: «يعرضون أعمال ابن آدم على كتاب الله». وكل ما قبل كلام البصري هذا وما بعده بسط له.

وفي حكمة له قال الإمام عليه السلام:

«ما من يومٍ إلّا يتصفّحُ ملكُ الموتِ وجُوهَ الخلائقِ، فَمَنْ رآه على مَعْصِيَةٍ أو هُويٍّ، أو رآه ضاحِكًا فَرِحًا، قالَ لَهُ يا مِسْكِينُ ما أَغْفَلَكَ عَمَّا يُرادُ بك! اعمل ما شئتَ، فإنَّ لي فيكَ غَمْرَةً أَقْطَعُ بها وتينك»^(٢).

ذكر البصري هذه الحكمة، فقال: «ما من يومٍ إلّا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات، فمن رآه على هويٍّ ولعبٍ أو معصيةٍ أو ضاحكا حرّك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عما يراد به ثم يقول له: اعمل ما شئت فإن لي فيك غمزة أقطع بها وتينك»^(٣).

ففي كلام البصري زيادات على كلام أمير المؤمنين عليه السلام لعلها طريفة من نحو قوله عن ملك الموت عزرائيل عليه السلام: «حرّك رأسه» فمن الإستحالة أن يرى أحد ملك الموت فكيف إذا نراه يحرك رأسه متوعداً أهل اللعب واللهو؟ نعم إلّا إذا

(١) حياة الحسن البصري ١٥٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠ / ٤٩٠ - ٤٩١.

(٣) المستطرف في كلّ فنٍّ مستطرف ٢ / ٥٠١.

قصد البصري هذا الأمر على سبيل التصوير.

وفي حكمة لأمر المؤمنين عليه السلام بين من خلالها عمق إيمانه الذي لا يُداني فقال:
«لَوْ كُشِفَ لِي الْغِطَاءُ لَمَا ازْدَدْتُ يَقِينًا»^(١).

قال ابن ميثم: الغطاء ما يُستر به الشيء ويغطي، واليقين مقام في عُرف العلماء
أَخَصُّ من العلم، فكان أمير المؤمنين عليه السلام متسنِّمًا لذروة ذلك المقام، رائيًا ببصيرته
الأسرار الإلهية، مطلعًا بقوَّته القدسية على الأطوار الورائية^(٢).

ولما وصفَ البصري درجةَ إيمانه، أورد هذا المعنى مفصَّلًا، فقال: «باليقين
طلبتُ الجنةَ، وباليقين هربت من النار، وباليقين أدَّيتُ الفرائضَ على أكمل
وجهها، وباليقين أصبر على الحق»^(٣).

وفي إحدى حكمه بين الإمام عليه السلام إنَّ على الإنسان أن يصبر على المكروه،
وعن المحبوب، فمثلما ينبغي الصبر على المصيبة ينبغي أيضًا الصبر عن ارتكاب
المحبوب المحذور، فقال:

«الصَّبْرُ صَبْرَانِ صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ»^(٤).

أخذ البصري هذه الحكمة بين التنصيص، والتحوير، والزيادة، فقال:
«الصبر صبران: صبرٌ عندَ المصيبة، وصبرٌ عن المعصية، فمن قَدَرَ على ذلك فقد
نالَ أفضلَ الصبرين»^(٥).

(١) شرح المائة كلمة ٥٢.

(٢) ينظر: م ٠ ن ٥٢ - ٥٤.

(٣) حياة الحسن البصري ١٥٩.

(٤) نهج البلاغة ٥٦١.

(٥) آداب الحسن البصري ٣٩.

٢٢٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

فأول كلام البصري من أول حكمة الإمام عليه السلام، ثم بعد ذلك أبدل قول الإمام عليه السلام:

«صبرٌ على ما تكره» بـ «صبرٌ عند المصيبة».

والمعنى واحد تمامًا، كون الصبر على المصيبة هو صبر على مكروهه، وأبدل «صبرٌ عما تحب» بـ «صبر عن المعصية».

وهنا استعمل الإمام عليه السلام مع الصبر على المكروه حرف الجر «على»، لأن وقوع المكروه - لا سامح الله - لا يستطيع أحد رده، بل خياره الوحيد - كي ينال ثواب هذا الابتلاء - الصبر عليه، والبصري قال في ذلك «عند»، أي عند نزول المكروه. أمّا الأمر المحبب للنفس، وأن كان محذورًا في الوقت نفسه فبمباشرته وعدمها إراديتان، ولذلك نهى الإسلام عنه بالحرف «عن»، وهكذا عند البصري.

أمّا الزيادة، فتكمن في آخر كلام البصري لما عدّ من يقدر على الصبر عن المعصية «نال أفضل الصبرين».

وإن كان البصري في حكمته المذكورة بسط الكلام في الصبر الثاني، وعدّه أفضل الصبرين؛ فهو في موعظة أخرى توسّع على الصبر الأوّل - أي الصبر على المكروه - وعدّه فاضلاً أيضاً، فقال: «ما من جرعة أحبّ إلى الله - عزّ وجلّ - من جرعة مُصيبةٍ موجعةٍ يتجرّعها صاحبها بحسن عزاءٍ وصبرٍ، أو جرعةٍ غيظٍ يحملها بفضلٍ عفوٍ وحلمٍ»^(١).

وخلاصة كلامه: إنّ تجرّع المصيبة الموجعة، وتحمل الغيظ «أحبّ» جرعة

(١) آداب الحسن البصري ٣٩.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواعض الحسن البصري ٢٢٧

يقدمها العبد قرباناً بين يدي الله تعالى. ولُبُّ كلامه هذا أول حكمة الإمام عليه السلام «صبرٌ على ما تكره». وبشرح ابن أبي الحديد على هذا المقطع من الحكمة: «النوع الأول أشق من النوع الثاني لأنَّ الأول صبرٌ على مضرة نازلة، والثاني صبرٌ على محبوب متوقع لم يحصل»^(١). يتبين القرب القريب بين نص الإمام عليه السلام وبسطه من قبل البصري.

وبعد هذا لا ندري أي الصبرين كان هو الأهم عند البصري، ففي بسطه لهما نجده قد استعمل افعّل التفضيل، فالصبر على المكروه عنده «أحب»، والصبر عن المعصية عنده «أفضل».

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه التقسيمات العددية التي ألفيناها عند الحسن البصري عدت من ميزات البصري الثرية^(٢) وذلك من نحو قوله المذكور «الصبر صبران» وغيره. ولكن الغريب إنَّ هذه التقسيمات عندما يجدها بعض الباحثين في كلام أمير المؤمنين عليه السلام يعدونها أمراً مكذوباً عليه^(٣)، بحجة إنَّ هذه التقسيمات عرفت فيما بعد، أي عندما ترجمت كتب اليونان إلى العربية. وهنا وقع أصحاب هذه النظرية بتناقض مقيت، لأنَّ الكل وبدون أي استثناء مجمعون على أنَّ ثقافة أمير المؤمنين والحسن البصري هي ثقافة عربية إسلامية محضة، لا تشوبها شائبة أعجمية، وإذا كان الأمر هكذا - وهو كذلك - إذاً لماذا هذه التقسيمات عند الحسن البصري هي ميزة ممتازة، وعند أمير المؤمنين عليه السلام أكذوبة منسوبة!

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٣١١.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ٤٥٠.

(٣) ينظر المشككون بنهج البلاغة والرد عليهم ١١٠.

وفي إحدى حكمه فرّق أمير المؤمنين عليه السلام بين كلام العاقل، وكلام الأحمق بمقارنة فريدة، فقال:

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ»^(١).

أخذ البصري هذه الحكمة، وتوسع فيها شرحاً، فقال: «لسان العارف من وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإن كان الكلام له، تكلم به، وإن كان عليه، سكت، وقلب الجاهل وراء لسانه، كُلِّمًا هَمَّ بكلام، تكلم به»^(٢).

فواضح إنّ البصري قسم الحكمة العلوية على قسمين، ثمّ توسّع على كلّ منها، وكأنّه شرح لها، فقوله لما وصف لسان «العارف»: «فإذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإن كان الكلام له، تكلم به، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل وراء لسانه، كُلِّمًا هَمَّ بكلام، تكلم به» تماماً كشرح الرضي على كلام الإمام «لسان العاقل» وذلك لما قال: «العاقل لا يطلق لسانه، إلّا بعد مشاورة الرّويّة ومؤامرة الفكرة»^(٣). أما قوله في وصف قلب الجاهل: «كُلِّمًا هَمَّ بكلام، تكلم به»، فهو ايضاً كشرح الرضي على لسان الأحمق، حيث قال: «والأحمق تسبق حذقات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره»^(٤).

ومثلما هو معروف لدى الجميع من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو من سادات العبّاد على مدى الدهر، إذ كان عليه السلام خبيراً بالعبادة، وأوقاتها، وطرقها، ومركز ثقلها وإنطلاقها وهو القلب، ولذا أعطانا منهاجاً متميّزاً في هذا المجال، فقال:

(١) نهج البلاغة ٥٥٩.

(٢) آداب الحسن البصري ٤٣.

(٣) نهج البلاغة ٥٥٩.

(٤) م. ن ٥٥٩.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٢٩

«إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالًَ وَإِدْبَاراً فَاتُّوْهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِي»^(١).

قصد عليه السلام بإقبال القلب ميله، وإيدباره نفوره^(٢).

وردَ هذا المعنى في موعظةٍ للبصري قال فيها: «إِنَّ الدِّينَ قَوِيٌّ، وَإِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ، فَلْيَأْخُذْ أَحَدُكُمْ مَا يُطِيقُ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَلَّفَ نَفْسَهُ مِنَ الْعَمَلِ فَوْقَ طَاقَتِهَا، خَافَ عَلَيْهَا السَّامَةَ وَالتَّرْكَ»^(٣).

فقول الإمام عليه السلام لما أمر بممارسة الفعل بشهوة وإقبال من القلب:
«فَاتُّوْهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا».

نجد معناه في قول البصري «فليأخذ أحدكم ما يُطِيق» بمعنى لا يجبر نفسه ولا يكرهها، لأنَّ هذا الإكراه، ومثلهما قال البصري أيضًا: «فإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَلَّفَ نَفْسَهُ مِنَ الْعَمَلِ فَوْقَ طَاقَتِهَا، خَافَ عَلَيْهَا السَّامَةَ وَالتَّرْكَ» وهذا بسط لكلام الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِي».

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الإمام عليه السلام أفتتح حكمته بـ «إِنَّ» التوكيدية محذرا من أنَّ إكراه القلب في حالة إيداره يولد العمى للقلب. والبصري أيضًا رغب في توكيد هذا المعنى، ولكنه اعتمد كثيرًا على التوكيد بـ «إِنَّ» وذلك لما جعل موعظته مقسمة على خمسة فقرات، أربعة منها وكَّدها بـ «إِنَّ»، وواحدة بـ «لام الأمر».

(١) م. ن ٥٨٦.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٤٩.

(٣) آداب الحسن البصري ٥٣.

٢٣٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

وفي الحالتين - إقبال القلب وإدباره - نجد أمير المؤمنين عليه السلام قد قدم القلب على الرغم من أنه في الموضع الأول يستحق التأخير، وذلك لأن القلب هو مركز الثقل، وهو محرّك الجوارح، فإذا اشتهى القلب وأقبل، أقبل وهو يقود الجوارح، ويادبره تدبر الجوارح.

وقال الإمام عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ... إِنَّهُ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرِ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفًا وَمَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرِ ذَلِكَ اخْتِبَارًا فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولًا»^(١).

الاستدراج هو الأخذ على فُجأة^(٢). وفي الحكمة بين عليه السلام إنَّ مَنْ أُنعم الله عليه ولم يكن من ذلك على وجل فقد «أمن مخوفًا»، لأنَّ هذه النعم قد تكون من باب الإبتلاء الذي يجرّ مَنْ يَفشل فيه إلى البلاء. وإنَّ مَنْ ضَيَّقَ عليه الله - سبحانه - في «ذات يده» أي أصبح فقيرًا، ولم يواجه هذا الأمر بالصبر والشكر فقد ضَيَّع «اختبارًا» كان «مأْمُولًا» لفتح أبواب النعم. وهدف الإمام (صلوات الله عليه) من هذا هو جعل العبد في حالة شكر دائم لربِّ العزّة، سواء في أيّام الرخاء، أو الأيّام التي تكون فيها حَلَقُ البلاء دائرة؛ فإذا كان المرء هكذا أَمِنَ سَلْبَ النعم «الاستدراج»، وضمن الزيادة، لأنَّ لكل شيء في الحياة قانون، وقانون الزيادة الشكر.

أخذ البصري هذه الحكمة بشقيّها، فقال: «والله ما أحدٌ من النَّاسِ بُسِطَ له في أمرٍ من أمور دنياه، فلم يَحْفَ أن يكونَ ذلك مكرًا به، واستدراجًا له، إلّا نقص ذلك من عمله، ودينه، وعقله، ولا أحدٌ أمسك الله الدنيا عنه، ولم يرَ أن ذك خيرٌ

(١) نهج البلاغة ٦١٥ - ٦١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٥٨.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٣١

له، إلا نقص ذلك من عمله، وبان العجز في رأيه»^(١).

فواضح إن البصري حوّر شكلياً في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) عن الاستدراج، فمثلاً أبدل قول الإمام (عليه السلام):

«إنّه من وسّع عليه في ذات يده» بـ «بسط له في أمر من أمور دنياه».

وكذلك قوله: «فلم يخف أن يكون ذلك مكرّاً به، واستدراجاً له» فهو كقول الإمام (عليه السلام):

«فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً».

أمّا موطن التوسّع فيمكن فيما عدد البصري من نقصٍ حاصل نتيجة عدم الوجل من النعم إذا تتابعت، وذلك لما قال: «إلا نقص ذلك من عمله، ودينه، وعقله». والشق الثاني في موعظة البصري هو كالأول بالنسبة للحكمة العلوية، فقد أخذ باقيها بمعناه وزاد عليها بسطاً في القول أيضاً.

وكتب الإمام علي (عليه السلام) رسالة إلى محمد بن أبي بكر، منها:

«... فإنه لا بُدّ لك من نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج..»^(٢).

ضمن البصري هذا المقطع من الرسالة، وزاد عليه، فقال: «ابن آدم! لا غناء عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فعليك به، فإنه سيأتي بك إلى نصيبك من الدنيا، فينظمه لك نظماً يزول معك حيث تزول»^(٣).

(١) آداب الحسن البصري ٦٥.

(٢) الغارات ٢٢٩، وينظر: المصنّف ٨ / ١٨٥.

(٣) آداب الحسن البصري ٧٢.

٢٣٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

وفي حكمة له عليه السلام أعطى من خلاها منهاجاً مستقيماً لكل قائد ينشد القيادة الصحيحة والمؤثرة، فقال:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا، فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ»^(١).

أخذ البصري هذه الحكمة، فقدّم وأخر بين فقراتها، وبسط القول على بعضها، فقال: «الواعظُ مَنْ وعظ الناسَ بعمله، لا بقوله. وكان ذلك شأنه إذا أراد أن يأمر بشيء، بدأ بنفسه ففعله، وإذا أراد ينهى عن شيء، انتهى عنه»^(٢).

فآخِر حكمة الإمام عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ».

جعله البصري أولاً لما قال: «الواعظُ مَنْ وعظ الناسَ بعمله، لا بقوله».

وأوّل حكمة الإمام لما أمر مَنْ ساه بالإمام:

«بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ».

جعله البصري ثانياً - وفيه تكمن الزيادة - لما قال: «وكان ذلك إلى آخر قوله».

وقد بين الإمام علي عليه السلام في إحدى حكمه إن الإنسان مخلوق ضعيف، يتهاوى أمام أضعف المخلوقات الأخر، ويموت بأبسط العوارض والأحداث، وهو في هذا لا يدري من أين تأتيه العلل والأمراض، ومتى يأتيه أجله، فقال: «مُسْكِينُ ابْنِ آدَمَ مَكْتُومُ الْأَجَلِ مَكْنُونُ الْعِلَلِ مُحْفُوظُ الْعَمَلِ تَوَلِيهِ الْبَقَّةُ وَتَقْتُلُهُ

(١) نهج البلاغة ٥٦٢.

(٢) آداب الحسن البصري ١١٩.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواعظ الحسن البصري ٢٣٣

الشَّرْقَةُ وَتُتْنُهُ الْعَرَقَةُ»^(١).

ضمن البصريّ هذه الحكمة مع زيادة عليها، فقال: «مُسْكِينُ ابْنِ آدَمَ! مَا أضعفه! مَكْتُومُ الْعِلَلِ، مَكْتُومُ الْأَجَلِ، تُؤْذِيهِ الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، يَرْحُلُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْآخِرَةِ مَرَحَلَةً، وَيَقْطَعُ مِنَ الدُّنْيَا مَنْزِلَةً، وَرَبِّيًا طَغَى وَتَكَبَّرَ، وَظَلَمَ وَتَجَبَّرَ»^(٢).

وَحَثَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي إِحْدَى خُطْبِهِ، فَقَالَ:

«رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا... اغْتَنَمَ الْمَهْلَ وَبَادَرَ الْأَجَلَ...»^(٣).

وردت موعظة للبصري قوامها كلام الإمام عليه السلام، جاء فيها: «أَيُّهَا النَّاسُ! اغْتَنِمُوا الصَّحَّةَ وَالْفَرَاغَ، وَبَادَرُوا بِالْأَعْمَالِ مِنْ قَبْلِ يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ»^(٤).

فقوله: «اغْتَنِمُوا الصَّحَّةَ وَالْفَرَاغَ» يمكن أن يكون بسطاً لجملة الإمام عليه السلام «اغْتَنَمَ الْمَهْلَ» ولكن مع زيادة البصري هذه فإن دلالة «المهل» تبقى أوسع مما عدّد البصري. أمّا باقي قوله فبسط لجملة الإمام «بَادَرَ الْأَجَلَ».

وقال عليه السلام:

«مَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ»^(٥)، أي ما أفقر من لزم الاقتصاد.

(١) نهج البلاغة ٦٢٨.

(٢) آداب الحسن البصري ١٢٧.

(٣) نهج البلاغة ١٠٥.

(٤) آداب الحسن البصري ١٢٧.

(٥) نهج البلاغة ٥٧٧.

توسع البصري على هذه الحكمة قليلاً بقوله: «ما عال أحد قط عن قصده»^(١).

ثالثاً: الإيجاز:

الإيجاز لغةً من أوجز الشيء إذا اختصره وقلله^(٢).

والإيجاز في الإصطلاح: هو وضع المعاني المقصودة الكثيرة بأقل عبارة^(٣).

استعمل البصري هذا المظهر مع كلام الإمام علي عليه السلام، حيث أورد عدداً واسعاً من حكم الإمام، وبعض فقرات من خطبه ورسائله بشكل موجز، ففي خطبة أمير المؤمنين عليه السلام المسماة بالغراء، وبعد أن ضرب الأمثال، وأوصى بالتقوى، ونفّر من الدنيا، وأكد على حتمية الموت، فقال:

«... فَيَا هَا أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً، وَآرَاءَ عَازِمَةً، وَالْبَابَا حَازِمَةً، فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَةً مَنْ سَمِعَ فَخْشَعٌ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ»^(٤).

فأمير البيان عليه السلام يشيد بأمثاله التي يضر بها، ومواعظه التي يسوقها للناس، لكنه يتأوه ويتحسر لقلة من يتقبلها ويتخذها صراطاً يسير عليه. وقد ورد مثل هذا - ولكن بشكل موجز - في موعظة للبصري، قال فيها: «لو أن بالقلوب حياة، ولو أن بها صلاحاً، لبكت من ليلة صبيحتها القيامة»^(٥).

(١) البخلاء ١٩٢.

(٢) ينظر: لسان العرب ٥/ ٤٢٧ مادة (وجز).

(٣) ينظر: التعريفات ٧٤.

(٤) نهج البلاغة ١١٥.

(٥) آداب الحسن البصري ١٢٧.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٣٥

ومن كتاب بعثه أمير المؤمنين عليه السلام إلى عبد الله بن عباس، جاء فيه:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ، يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُولٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ»^(١).

اعتمد البصري هذا الكتاب بشكل مباشر، ووعظ به قائلاً: «ابن آدم! إِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَلَا بِمَغْلُوبٍ عَلَى رِزْقِكَ، وَلَا بِمَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ، فَلِمَ تَكْدَحُ؟ وَعَلَامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ؟»^(٢).

فواضح إنَّ البصري قسم كتاب الإمام عليه السلام على ثلاثة أقسام:

الأول ضمَّنه بنصه، وذلك لما قال: «لست بسابقٍ أجلك... ولا بمرزوقٍ ما ليس لك».

والثاني والذي قال فيه الإمام عليه السلام:

«وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ، يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ».

فقد حذفه البصري بتمامه.

أما الثالث والمتمثل بقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُولٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ».

فقد أوجزه البصري بقوله: «فَلِمَ تَكْدَحُ؟ وَعَلَامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ».

(١) نهج البلاغة ٥٤٢.

(٢) آداب الحسن البصري ٥٧.

وفي خطبة له عليه السلام وصف فيها الملاحم، وذم فيها أقوامًا، منها قوله:

«وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذُنَابًا، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعًا، وَأَوْسَاطُهُ أَكَالًا، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتًا، وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ، وَأُسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَبًا، وَالْعَفَافُ عَجَبًا، وَلُبِسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفُرُوقِ مَقْلُوبًا»^(١).

فكان البصري وظف بعض فقرات المقطع العلوي المذكور لما ذم بعض الفئات من الناس، وذلك في قوله: «إذا أظهر الناس العلم، وضيّعوا العمل، وتحابّوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام، لعنهم الله - جل ثناؤه -، فأصمّهم وأعمى أبصارهم»^(٢).

فعبارة البصري: «وتحابّوا بالألسن» إيجاز بعض الشيء لعبارة الإمام عليه السلام: «وَأُسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ».

وعبارته: «وتباغضوا بالقلوب» إيجاز لعبارة الإمام عليه السلام: «وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ».

وكتب الإمام علي عليه السلام كتابًا إلى عامل له بعثه على الصدقة، جاء في بعضه: «أَمَرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ... أَمَرُهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ، وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ، وَمَقَالَتُهُ فَقَدْ آدَى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ١٨١.

(٢) آداب الحسن البصري ٥٩.

(٣) نهج البلاغة ٤٤٦.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواعض الحسن البصري ٢٣٧

فهو يأمر عامله بإصلاح قوله وفعله، وظاهره وباطنه معاً، ففي ذلك خالص العبادة، وصون الأمانة.

ورد هذا المعنى، وبعض ألفاظه بشكل موجز في حكمة للحسن البصري، قال فيها: «المؤمن صدق قوله وفعله، وسره علانيته»^(١).

ومثلما هو واضح فقد قدم وأخر البصري في طباقات الإمام «سره - علانيته»، «فعله - مقالته»، وأوردها بتمامها

وقد روي لما صدر أمر نفي الصحابي أبي ذر الغفاري إلى قرية الربذة، شيعة أمير المؤمنين وولده الحسنان عليه السلام، وعقيل، وعمار بن ياسر، وعندها تكلم كل منهما بكلام^(٢) غايته التهوين على أبي ذر من ظلامة النفي، وحمله على التصبر، فكان أولهم خطاباً أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال كلاماً من أروع كلامه منه:

«يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخَفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَأَهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خَفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ»^(٣).

قال البصري موعظة موجزة لبها بعض كلام الإمام عليه السلام، جاء فيها: «مَنْ نَافَسَكَ فِي دِينِكَ فَنَافَسَهُ، وَمَنْ نَافَسَكَ فِي دُنْيَاكَ، فَأَلْقَهَا فِي نَحْرِهِ»^(٤).

فقول أمير المؤمنين عليه السلام:

(١) آداب الحسن البصري ٦١.

(٢) ينظر عما قالوه: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨ / ٣٧٣.

(٣) نهج البلاغة ٢١٦.

(٤) آداب الحسن البصري ٦٨.

«إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، فَأَتْرُكُ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ».

نرى البصري أوجزه بقوله: «ومن نafسك في دنياك، فألقها في نحره».

أما الجناس الناقص في خطبة الإمام عليه السلام المتمثل بين لفظتي «دنياهم» و «دينك»، أبقاه البصري على حاله لما قال: «دينك» و «دنياك».

وبالنسبة لورود التكرار الواضح في النص العلوي من نحو تكرار لفظ الخوف ومشتقاته أربع مرات، اعتمده البصري أيضاً، فقد كرر لفظ المنافسة ومشتقاته ثلاث مرات، فضلاً عن تكرارات أخرى بين النصين.

وكثيراً ما كان أمير المؤمنين عليه السلام يصف نفسه، وزهده في الدنيا، فقال في إحدى خطبه:

«وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَعْتُ مِذْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ أَلَا تَبْنِئُهَا عَنكَ، فَقُلْتُ: أُعْزُبُ (أُعْرِبُ) عَنِّي فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى»^(١).

فوصف الإمام عليه السلام حاله من الزهد نتلمس بعضه في حكمة للبصري وصف فيها أشخاصاً لم يسمهم، منها قوله: «أدركت أقواماً... كان أحدهم يعيش دهره لم يجدد له ثوب... ولا يجعل بينه وبين الأرض ستر»^(٢).

فنرى أن وصف البصري هذا ينطبق فيما ينطبق على أمير المؤمنين عليه السلام فقوله: «يعيش دهره لم يجدد له ثوب» كأنه إيجاز لكلام الإمام لما قال إنه لم يبدل ثوبه، بل كان يرقعه كثيراً، ومن كثر ترقيعه بدأ يستحي من راقعه.

(١) نهج البلاغة ٢٦٣.

(٢) آداب الحسن البصري ٦٨.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٣٩

وليس هذا فقط، بل إنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) يعد مصداقاً بيّناً من مصاديق قول البصري: «لا يُجعل بينه وبين الأرض ستر»، إذ كان الأول يُحِبُّ مباشرة التراب، حتى سُمِّيَ بأبي تراب.

ومما وردَ في عهد الإمام علي (عليه السلام) لملك الأشتر قوله:

«فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضَيْقِ أَمْرٍ تَرْجُو إِنْفِرَاجَهُ، وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرِ تَخَافُ تَبِعْتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ طَلِبَةٌ لَا تَسْتَقِيلُ (تَسْتَقْبِلُ) فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ»^(١).

فتفضيل أمير المؤمنين (عليه السلام) ضيق أمرٍ مع رجاء انفراجه، على آخر مجهولة تبعته، وربما قد تكون خيفة، تخسر الدنيا والآخرة، فضلاً عن تركيب النص المتكوّن من مقطعين، يفصل بينهما فعل التفضيل «خير»، نجده في موعظة موجزة للبصري، قال فيها: «إِنَّ خَوْفَكَ حَتَّى تَلْقَى الْأَمْنَ؛ خَيْرٌ مِنْ أَمْنِكَ حَتَّى تَلْقَى الْخَوْفَ»^(٢).

وفي إحدى حكمه قال الإمام (عليه السلام):

«إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ (الْحُكْمِ)»^(٣).

ولما كان انصراف القلب عن العلم وملاؤه منه فعلاً غير محمود أمر (صلوات الله عليه) بطلب طرائف الحكم المعجبة للنفس، اللذيذة لها، لتكون هذه النفوس أبداً في اكتساب العلم والحكمة^(٤).

(١) نهج البلاغة ٥١٩.

(٢) آداب الحسن البصري ٣٥.

(٣) نهج البلاغة ٥٦٦.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤١٨.

٢٤٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

أخذ البصري معنى الحكمة وأوجزه، فقال: «حادثوا هذه القلوب؛ فإنّها سريعةُ الدثور»^(١).

وفي حكمة أخرى قال عليه السلام:

«أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»^(٢).

وخلاصة معنى الحكمة: «كلُّ حبيب جاز أن يكون عدوًّا في وقت ما فينبغي أن لا يفرط في محبته. وكلُّ عدوٌّ جاز أن يكون صديقًا يومًا ما فينبغي أن لا يفرط في بغضه»^(٣).

أخذ البصري هذه وأوجز بعضها، فقال: «أحبوا هونًا، وأبغضوا هونا، فقد أفرط أقوامٌ في حبِّ أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا، لا تفرط في حبِّك، ولا تفرط في بغضك»^(٤).

فقوله: «أحبوا هونا» إيجاز لقول الإمام:

«أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا».

وقوله: «وأبغضوا هونا» إيجاز لقول الإمام:

«وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا».

وهنا أيضًا جنح البصري إلى التكرار الذي لا طائل منه، فقد كرر قوله:

(١) آداب الحسن البصري ١٣٠.

(٢) نهج البلاغة ٦٠٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٤٦٥ / ٥.

(٤) المصنف ١١ / ١٨١.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواعض الحسن البصري ٢٤١

«أحبوا هونا» لما قال: «لا تفرط في حبك». وكذلك كرّر قوله: «وأبغضوا هونا» لما قال: «لا تفرط في بغضك».

رابعاً: العكس:

العكس لغة: من «عكس الشيء يعكسه عكساً، فانعكس ردّ آخره على أوّله»^(١).

وفي الاصطلاح: أن يجعل الأديب مكان اللفظة لفظةً ضدّها^(٢). وهذا يعني إنّ العكس لا يقتصر على المعنى فحسب، بل يشمل اللفظة^(٣). وسواء عكس اللفظ، أم المعنى لم يرد عند البصري إلا ضيلاً، ولعل السبب في ذلك عائد إلى أنّ هذا المظهر يتطلب من الأديب المتأثر أن يكدّ ذهنه، ويحيل نظره، حتى يغيّر جذرياً في المعنى المأخوذ من خلال عكسه، بينما البصري - ومثلهما بان سلفاً - لم يتبع هذا الأسلوب، أسلوب التغيير العميق مع كلام الإمام عليه السلام، بل ما أجراه تغيرات في غالبيتها شكلية.

وعلى آية حال فإنّ من حكم الإمام عليه السلام التي تعامل معها البصري بهذه الطريقة قوله عليه السلام:

«قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينِ»^(٤).

واليساران هنا هما: الحصول على المال أولاً، وعدم إنفاقه على العيال لقلّتهم

(١) لسان العرب ٦/ ١٤٤ مادة (عكس).

(٢) ينظر: العمدة ٢/ ٢٨٢.

(٣) ينظر: مصطلحات السرقّة الأدبية ١٢٧.

(٤) نهج البلاغة ٥٧٧.

٢٤٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ثانيًا، وإطلاق اليسار على قلة العيال مجاز، حيث أطلق المسبب وأراد السبب^(١).

عكس الحسن البصري ألفاظًا من الحكمة، فقال "جهدُ البلاء... كثرةُ العيال"^(٢).

فأول ما فعله البصري مع الحكمة العلوية هو التقديم والتأخير، حيث قدّم النتيجة، وأخر سببها، فالنتيجة هي الجهد والمشقة، وسببها عند البصري كثرة العيال، ثم عكس «قلة العيال» لما قال «كثرة العيال». وبما أنه عكس السبب - المؤخر - لذا عكس النتيجة - المقدّمة - لما عدّ كثرة العيال «جهد»، وهذا هو عكس لليसार في حكمة الإمام عليه السلام.

أمّا حكمة الإمام عليه السلام التي تقول:

«أَرْكَانَ الْكُفْرِ أَرْبَعَةٌ: الرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالسُّخْطُ، وَالْغَضَبُ»^(٣).

فقد ضمنها البصري، مع شيءٍ من العكس لما قال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْبَعٌ خِلَالٍ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، وَأَعَاذَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ: مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَعِنْدَ الشَّهْوَةِ، وَعِنْدَ الْغَضَبِ»^(٤).

فال «أركان» بحسب تعبير الإمام، وال «خلال» بحسب تعبير البصري هي واحدة بين النصّين، إلّا الثالثة، حيث أبدل «السخط» بـ «الشهوة». لكن الأركان تؤدي عند الإمام إلى «الكفر»، والكفر يؤدي إلى النار، بينما البصري عكس هذا لما

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٣٦.

(٢) آداب الحسن البصري ٥١.

(٣) تحف العقول ٢٠٧.

(٤) حلية الأولياء ٢ / ١٤٥.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواعض الحسن البصري ٢٤٣

عَدَّ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَيَزَلْفُهَا عَنْ هَذِهِ الْخِلَالِ مُحَرَّمٌ عَلَى النَّارِ. وبعبارة أخرى فالذي يباشر هذه الأركان وتدخله مباشرتها النار، عكس من يمتنع عنها فيورث الجنة.

ولعلَّ من المناسب هنا أن نشير إلى أنَّ هنالك حكمًا علوية كثيرة ذكرها البصري، ووعظ بها الناس دون أن يشير إلى مبدعها الأول ودون أن يضمناها في كلامٍ له حتى نقول عنها إنها تضمين. وأمثلة هذا كثيرة جدًا، فمن حكمةٍ لأمير المؤمنين (عليه السلام) قال فيها:

«إِنَّ لِأَهْلِ الدِّينِ عِلَامَاتٍ يَعْرِفُونَ بِهَا: صَدَقَ الْحَدِيثُ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَصَلَةُ لِلْأَرْحَامِ، وَرَحْمَةٌ لِلضُّفَاءِ، وَقِلَّةُ مَوَاتَاةٍ لِلنِّسَاءِ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ وَحَسَنُ الْخُلُقِ وَسَعَةُ الْحِلْمِ وَأَتْبَاعُ الْعِلْمِ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ اللَّهِ زَلْفَى، فَطُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَآبٍ»^(١).

وعظ البصري بهذه الحكمة، فقال: «إِنَّ لِأَهْلِ الْخَيْرِ عِلَامَةً يَعْرِفُونَ بِهَا: صَدُقُ الْحَدِيثُ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ...»^(٢).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في حكمة أخرى:

«مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ»^(٣).

روي أنَّ البصري كان يعظ بهذه الحكمة، فيقول: «مَا أَطَالَ عَبْدٌ الْأَمَلَ إِلَّا أَسَاءَ الْعَمَلَ»^(٤).

(١) تحف العقول ٢٣٧. وهناك من يروي هذه الحكمة عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، ينظر: الكافي ٢/ ٢٨٩.

(٢) آداب الحسن البصري ٣٧ - ٣٨.

(٣) نهج البلاغة ٥٥٨. وينظر: مناقب الخوارزمي ٣٧٧.

(٤) آداب الحسن البصري ٤٥.

٢٤٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

ولما قيل للبصري ما تقول يا أبا سعيد في الدنيا؟ فأجاب: «وما عسى أن أقول في دارٍ حلالها حسابٌ، وحرامها عقابٌ؟ فقال له الرجل: تالله ما رأيتُ كلاماً أوجزَ من كلامك، فقال الحسن: بل كلامُ عمرَ بن عبد العزيز أوجز وأبلغ من كلامي...»^(١).

وفي الحقيقة ليس وصف الدنيا هذا للبصري، بل ما هو إلا جزءاً من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوْهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ، فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، مَنْ اسْتَعْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزَنَ، وَمَنْ سَاعَاها فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ»^(٢).

روي عن البصري أنه كان يقول: «من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة»^(٣).

وهذه هي حكمة علوية بتمامها: «من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة»^(٤).

ووعظ البصري، فقال: «إِنَّ فَضْلَ الْفِعَالِ عَلَى الْكَلَامِ مَكْرَمَةٌ، وَإِنَّ فَضْلَ الْكَلَامِ عَلَى الْفِعْلِ عَارٌ»^(٥).

وهنا غير البصري طفيفاً في حكمة الإمام عليه السلام:

«إِنَّ فَضْلَ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ لِهُجْنَةٌ وَإِنَّ فَضْلَ الْفِعْلِ عَلَى الْقَوْلِ لَجَمَالٌ

(١) آداب الحسن البصري ٧٦.

(٢) نهج البلاغة ١٠٩. وينظر: كنز الفوائد ١٦٠.

(٣) حياة الحسن البصري ١٢٥.

(٤) نهج البلاغة ١٣٨.

(٥) حياة الحسن البصري ١٤٤.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواعض الحسن البصري ٢٤٥
وزينة^(١).

والقائمة تطول وتطول جداً بهذه الأمثال، ولكن لا ينبغي أن يحدث هذا، فهو أمرٌ مجانبٌ للإنصاف، وبخاصّةٍ إذا عرفنا أنّ البصري عندما كان يورد حكم الرسول الكريم محمد ﷺ كان يذكر اسم الرسول، وهكذا كان يذكر أسماء الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل عندما يعظ بمواعظهم الناس، إلاّ الإمام علي عليه السلام فلم يذكره البصري - على الرغم من أخذه لعددٍ لا يُحصى من حكمه ومواعظه عليه السلام - ولا مرةً واحدة، إلاّ بتلميح واحد فقط - هذه النتائج بحسب قراءة الباحث في نتاجات البصري الأدبية - حيث قال البصري: «روي عن بعض الصالحين أنّه كان يقول: أفضلُّ الزُّهدِ إخفاءُ الزُّهدِ»^(٢).

وهذه هي حكمة علوية بنصّها^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الأمر - أي عدم ذكره اسم من تأثر به، ووعظ بكلامه - له منبت في اعترافات البصري الشخصية، فعندما كان يُسأل عن صاحب الحكم التي يستشهد بها يغضب ويرفض الإجابة عن هذا السؤال، وهذا ما عرفنا طرفاً منه في توطئة هذا الفصل.

ولكنّ الآن عرفنا إنها تعود لحكيم الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ذلك الشخص الذي وقع المتذبذبون في حيرةٍ من أمرهم تجاهه، فهم من جهةٍ لا يستطيعون ذكر اسمه، لأنّهم في ركب أعدائه، ومن جهةٍ أخرى معاكسة لا يستطيعون الاستغناء عن كلامه الرفيع.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٣٣.

(٢) م. ن ١٧٠.

(٣) ينظر نهج البلاغة ٥٥٤. وينظر: دستور معالم الحكم ٢٠.

وبعد أن عرفنا تفصيلاً عمق أثر كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أدب الحسن البصري كان من الجدير أن نشير هنا أيضاً إلى أن الآراء التي عللت ثقافة البصري الأدبية لم يصمد منها إلا رأي واحد، وهو رأي الشريف المرتضى، حين عدّ جميع أو جُلّ كلام البصري مأخوذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام. أمّا الآراء التي عاكست هذا الرأي، فهي عاكست الصواب أيضاً، من نحو قول الجاحظ: «فأما الخطب فإننا لا نعلم أحداً يتقدم الحسن البصري فيها»^(١). وهذا الكلام تعوزه الدقة، كون جميع خطب ورسائل ومواعظ البصري جاءت تقليداً صارخاً - بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى - لكلام أمير المؤمنين عليه السلام. إذاً فكيف الجاحظ - وهو الخبير في التراث العرب الأدبي - لا يعلم أحداً يفوق البصري في هذا المجال؟

ورأي الجاحظ هذا هو الغالب، بل الساحق في أدبنا الحديث، فمثلاً الدكتور شوقي ضيف عدّ البصري "بلا ريب أكبر من ثبتوا في هذا العصر - أي الأموي - ذلك الأسلوب المونق الذي تأثر به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتاب"^(٢). وكان للبصري أسلوباً خاصاً وطابعاً متميزاً في نظر كل من طه حسين، وإحسان النص^(٣).

أمّا من حيث الأسلوب، فبعد مقارنة كلام البصري بكلام أمير المؤمنين عليه السلام لم يثبت للبصري أسلوب مميز قط، بل أسلوبه الموصوف بالمونق والقائم على "الطباقة والتصوير"^(٤)، ثبت أنه ورثه عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقلّده فيه تقليداً

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٠٧.

(٢) تأريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ٤٥٠.

(٣) ينظر: من حديث الشعر والنثر ٢٦ - ٢٧، وينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٥٤.

(٤) تأريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ٤٥٠.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواعض الحسن البصري ٢٤٧

صارخًا. ويستشفُّ أيضًا من كلام الدكتور شوقي ضيف أنَّه أراد أن يقول: إنَّ عبد الحميد تأثر بالحسن البصري، وهذا لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال، لأنَّ الحسن البصري هو متأثرٌ أكثر بكثير من كونه مؤثرًا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا النقاد قالوا بتأثر عبد الحميد بالبصري، ولا عبد الحميد قال بذلك، بل إنَّ اعتراف الأخير كان صريحًا عندما سُئِلَ ما الذي خرَّجك في البلاغة قال: «بعد أن حفظت سبعين خطبة من خطب الأُصْلَع قال الثعالبي: يعني أمير المؤمنين»^(١). وليت الوقت أمهلنا لندوّن ما استخرجناه من تأثيرات عبد الحميد الهائلة بكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١ / ١٨٩.



الفصل الثالث

أثر كلام الإمام علي عليه السلام

في نشر ابن المقفع

توطئة

قلّما تجدُ كتاباً عني بالنثر العربي الفني ومدارسه وأصوله ومن أبدع فيه دونما تجدُ شهيته مفتوحة أمام هذا المنشئ الذي احتدم الصراع حول ديانته، وموارد ثقافته، ومنزلته الأدبية، ولذا لا أراني بحاجة إلى التوسع في تلك الآراء، إلا بما يخدم البحث، ويوضح ما يذهب إليه الباحث.

وإجمالاً هو أبو عمرو وروزبه بن داؤويه قبل الإسلام، فلما أسلم سُمّي عبد الله وكنّي بأبي محمّد وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة^(١). ويُعدُّ من العشرة المبشرين بالبلاغة بحسب تصنيف ابن النديم^(٢). حصل على نصيب وافٍ من العلم في البصرة عن طريق الأعراب الذين يفدونها؛ لأنها كانت تمثل كعبة العلم والأدب

(١) خزانة الأدب ٨ / ١٨٠.

(٢) ينظر: الفهرست ١٨٢.

يومئذ، ومحط أنظار طلاب العلم، لاسيما وأنها ضمت سوق المبرد الذي عرف باحتضانه للعلم والعلماء، وقد ضاهى سوق عكاظ الذي عُرف قبل الإسلام، وبها اتصل بآل الأهتم المشهورين بالفصاحة^(١).

ومن بعض الروايات يُفهم أنّ ابن المقفع قضى ربحاً من الزمن بالكوفة فقد ذكر سعيد بن سِلم^(٢): «قصدتُ الكوفة فرأيتُ ابن المقفع فرحبَ بي وقال: ما تصنع هاهنا، فقلت: ركبني دين... فقال: أين منزلك؟ فعرفته. فأتاني في اليوم الثاني... ومعه منديل فوضعه بين يدي، فإذا فيه أسورة... ودراهم متفرقة، مقدار أربعة آلاف درهم، وحينئذٍ زمان المنصور، وفي الدراهم ضيق...»^(٣) ومن هذا يعرف إنّ ابن المقفع كان قبل سعيد بالكوفة، ولهذا رحّب به وسأله عن حاله، ثم أعطاه مكرمةً سخيةً. ولو كان ابن المقفع غريباً على الكوفة، أو ضيفاً مازاً بها لما استطاع أن يفعل ذلك مع الرجل. ولعلّ أديبنا في رحلته إلى الكوفة اطلع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام فتأثر به، وحفظ بعضه. وسواء البصرة أم الكوفة فإنهما مصران عربيّان تخرّجَ فيهما ابن المقفع وغدا عربيّ الثقافة والمنشأ.

أما بالنسبة لديانته فقد عُرف بالتدين من خلال كلامه، وقد رُبّي تربيةً إسلامية، وأولع بالعلوم والآداب فما بلغ العشرين حتى كان آية من الآيات في الفطنة والذكاء لا يشقُّ له غبار في حسن البيان ومتانة التبيان^(٤). وإلى هذا ذهب

(١) ينظر: دفاتر عباسية ٢٨٦.

(٢) وهو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي، سكن خراسان، وولي بعض أعمالها، وقدم بغداد وحَدَّثَ بها. كان عالماً بالحديث والعربية. ينظر: تأريخ بغداد ٩ / ٧٤.

(٣) محاضرات الأدباء ١ / ٢٩.

(٤) ينظر: ابن المقفع، حياته، آثاره، ٤١.

الأستاذ محمد كرد علي فقد أنصف ابن المقفع في هذا المجال لما قال: «لم يخالف الشرع بل خدمه وأحنى عليه»^(١). ولا توجد عنده فيما أثر عنه من نصوص ثرية كلمة واحدة تشعر بزندقته^(٢). وكيف يكون زنديقاً ويخالف الشرع وهو الذي كانت وصاياه ومواعظه تزخر بالأخلاق والآداب الإسلامية في صغائر الأمور وكبارها من نحو قوله: «لا يعجبَنَّ إكرامٌ من يُكرمك لمنزلةٍ أو سلطانٍ، فإنَّ السلطان أو شكُّ أمور الدنيا زوالاً. ولا يعجبَنَّ إكرامٌ من يُكرمك للمال، فإنَّه هو الذي يتلو السلطان في سرعة الزوال.. ولكن إذا أُكِرمت على دينٍ أو مروءةٍ فذلك فليعجبك! فإنَّ المروءة لا تُزِيلُكَ في الدُّنيا. وإنَّ الدين لا يُزِيلُكَ في الآخرة»^(٣). وخلاصة قوله إنَّ المكرمة إذا جاءت من أجل الدين والمروءة فهي الغالبة على كُلِّ المكرمات. ووضح من كلامه إنَّه يؤمن بالآخرة وأنَّ طريقها السليم هو الدين.

ولكن مع هذا ما زال ابن المقفع عند جمهور من الباحثين معلقاً على شماعة الزندقة. والزندقة في زمن ابن المقفع - مثلما معروف - أُريد بها أهدافاً سياسية أكثر منها دينية، فكانت من التهم الجاهزة التي تُساق لمن لا يسوق للسلطان كامل الطاعة. فكان من الذين اتهموه بهذه التهمة الدكتور شوقي ضيف، حيث قال: «ويظهر أنَّه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن»^(٤).

ولو كان زنديقاً حقاً لنفَّذَ به المنصور الحكم بطريقة علنية لا بطريقة

(١) أمراء البيان ١ / ١٢٣.

(٢) ينظر: م. ن ١٢٢.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٤.

(٤) تأريخ الأدب العربي (العصر العباسي) ٥٢٣.

الإغتيال^(١).

وإلى جانب الزندقة اتّهمه حنا الفاخوري بالشعبوية، ولكن شعوبيته هذه المرة «اتخذت طريق التشيع، فأظهر مع الموالي ميله إلى بني العباس وإن لم يكن قلبه معهم، وكان علوي السياسة، فارسي النزعة، يدين بالإسلام ظاهراً لا باطناً، ويأخذ بالتقية...»^(٢).

وبحسب ما يرى الباحث إنَّ في كلام الفاخوري غموضاً، أو تناقضاً بعض الشيء، إذ كيف كان ابن المقفع غير إسلامي فارسي النزعة ثمَّ يعمل بالتقية، والتقية هي مبدأ إسلامي؟ وعندما أخذ بها ابن المقفع هل أراد تمرير شعوبيته أم تمرير سياسته العلوية؟ وهناك بون شاسع بين الشعبوية وبين السياسة العلوية التي كانت جامعة مانعة ليس فيها تقصير لا في الدين ولا في الدنيا، ثم لا أدري كيف اتفقت هذه الصفات الثلاث (الشعبوية، السياسة العلوية، التقية) في نصِّ واحد عند الفاخوري؟

أمَّا روافد ثقافته فعلى الرغم من اختلاف الباحثين حول مصدرها الأهم، إلّا أنَّ غالبيتهم قد أرجعوا السواد الأعظم منها إلى الإرث الأدبي الفارسي، فبعد حديثه عن ثقافة ابن المقفع وبخاصة في الأديين الكبير والصغير قال أحمد أمين: «في الكتابين اثر كبير من الثقافة الفارسية. ففيها حكم كثيرة من حكم الفرس... وكثيراً ما كان يقول (احفظ قول الحكيم) و (قال الحكيم) و (قالت الحكماء) وهو يقصد حكماء الفرس...»^(٣).

(١) ينظر رسائل البلغاء ١٢.

(٢) الجامع في تاريخ الأدب العربي ١ / ٥٣٤.

(٣) ضحى الإسلام ١ / ٢٠٣.

وبدورنا أن نردَّ على مقولة أحمد أمين في حكمه على ابن المقفع بأنَّه أراد حكماء الفرس، فلماذا «يقصد حكماء الفرس» حصرًا؟ وهل الأمة الفارسية تمتلك من الحكماء ما فاق حكماءنا علماء وأدباء وبلاغة...؟

وكان الأجدر بالأستاذ وهو يتهم ابن المقفع بهذا أن يذكر الحكمة التي ضمَّنها ابن المقفع، ثم يذكر الحكيم الفارسي الذي أخذت عنه، حتى يضمن صمود رأيه عن طريق هكذا دليل.

وعلى كل الأحوال فذيل كلام المرحوم لم يكن دقيقاً، لأنَّ هؤلاء الحكماء الذين تحدَّث عنهم ابن المقفع، واحتجَّ بهم أحمد أمين لم يكونوا - بحسب نتائج الدراسة - فرسًا قط، بل هم إسلاميون ويتصدرهم أمير المؤمنين (عليه السلام).

وإلى جانب هذه الآراء التي عدَّت ابن المقفع فارسي الثقافة، توجد هنالك آراء في القديم والحديث أرجعت ثقافة أدينا المذكور إلى الإرث الأدبي العربي الإسلامي، وبالتحديد إلى كلام الإمام علي (عليه السلام)، فمثلاً القلقشندي كان يرى إنَّ ابن المقفع من فرسان الكلام الذين اقتفوا طريقة الإمام علي (عليه السلام) في الكتابة^(١).

أمَّا المحدثون الذين تحدَّثوا عن وجود رابط بين ثقافة ابن المقفع وبين كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) فمنهم يوسف أبو حلقة، فبعد دراسته وتحليله لكلام ابن المقفع قال: إنَّه يرى - أي ابن المقفع - في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) البناء النثري الأوَّل عند العرب، ولهذا عمد إلى تفصيله^(٢).

وقال الدكتور محمد نبيه حجاب «إنَّ ابن المقفع كان مشغوفاً بإسلوب

(١) ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٢ / ٣٥٣.

(٢) ينظر: عبد الله بن المقفع دراسة وتحليل ٧.

الإمام»^(١).

ومنهم من كان يرى إن ابن المقفع تبني جانباً من آراء الإمام عليه السلام فقد قال جورج غريب «يتبنى ابن المقفع رأي علي بن أبي طالب، القائل بكون السلطان عماد الناس»^(٢).

وباقى رجالاً أدبنا المعاصر الذين تحدّثوا عن هذا الشأن، جاءت آراؤهم على استحياء وتشكيك، فمثلاً قال محمد كرد علي: «وقيل أنّه تخرّج في البلاغة بخطب علي بن أبي طالب»^(٣). وما نقله محمد كرد علي لم يرق لمحمد كرد علي نفسه بدعوى «قلّة المأثور من تلك الخطب يومئذ»^(٤).

ولا أدري كيف علم الأستاذ المرحوم بقلّة خطب الإمام يومذاك، والمصادر التاريخية تحدّثنا عن المئات منها، والتي كانت محفوظة مدوّنة ومشهورة، وعليها تخرج الأدباء، وأقلّها على الإطلاق ما دوّنه الشريف الرضي في نهج البلاغة، لأنّه كان يصطفي من كلام جدّه اصطفاً بما يتلاءم وذوقه الأدبي، وهذا ما تطرقنا له في الفصل الأول.

وشبيه ما قاله كرد علي ذهب إليه الدكتور محمد مهدي البصير بقوله: «يرى بعض مؤرّخي الأدب العربي أنّه حفظ القرآن، وقرأ الشعر الجاهلي، وعرف الشيء الكثير من خطب علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٥).

(١) بلاغة الكتاب في العصر العباسي ١٣٣ (الهامش).

(٢) عبد الله بن المقفع ٨١.

(٣) أمراء البيان ١ / ١٠٥.

(٤) م. ن ١ / ١٠٥.

(٥) في الأدب العباسي ٩.

ولكن الدكتور في نفسه شيء من هذا الرأي، لأنه رأى من الصعوبة إثباته لعدم وجود دليل من آثار ابن المقفع يدل على تأثره بالأدب العربي دلالة واضحة^(١).

ورأي الدكتور المرحوم هذا يفتقر إلى الدقة، كون الدراسة تكفلت بكشف عشرات الأدلة التي بينت تأثر ابن المقفع العميق بأحد أهم زعماء الأدب العربي، ألا وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ولوعدنا إلى ابن المقفع نفسه، وتوخينا رأيه عن أي رافد استقى ثقافته الأدبية، لوجدناه يقر صراحة بتأثره وتأثراً كبيراً بأناس لكنه لم يسمهم، فمثلاً عندما سُئل عن هذا الأمر قال: «شربت من الخطب ريثاً. ولم أضبط لها رويًا. ففاضت ثم فاضت. فلا هي نظاماً، ولا نسيْتُ غيرها كلاماً»^(٢).

وكلمة خطب هنا فيها دلالة على العروبة، لأنّ الفرس لم تُنقل لنا عنهم خُطبٌ، بل حكمٌ ومواعظ هذا من جانب، ومن جانب آخر لو أمعنّ النظر القارئ معي لوجدنا في كلام صاحبنا ابن المقفع تضميناً نصياً من قول صاحبه المقرّب عبد الحميد بن يحيى الكاتب لما سُئل ما الذي خرّجك في البلاغة فقال: «حفظت سبعين خطبةً من خطب الأصلح ففاضت ثم فاضت»^(٣). إذاً (ففاضت ثم فاضت) علمنا من أين أخذها ابن المقفع. وهذا الفيضان في بلاغة الرجلين كان وراءه واحد، لكنّ عبد الحميد صرّح بذلك وابن المقفع لمّح له. وهذا بدوره عائدٌ إلى الإستراتيجية التي يتبعها كلّ من البليغين، فعبد الحميد كان أموي التوجه

(١) ينظر: م. ن ٩ (الهامش).

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ١٠٢. وينظر: وفيات الأعيان ٢ / ١٥١. وينظر: سير أعلام النبلاء

٦ / ٢٠٩. وينظر: تأريخ الإسلام ٩ / ١٩٨.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٨.

في السرّ والعلن، ورأينا كيف استعمل النبز مع أمير المؤمنين عليه السلام، ولذا فهو لا يتهيب من ذكره الإمام عليه السلام بهذه الغلظة. أمّا ابن المقفع فهو على العكس من ذلك كان علوي التوجّه «يأخذ بالتقية فيما يعمل وفيما يقول، ويسعى لقلب وجه الحكم عن طريق العقل والفلسفة... وهذا كلّ من طلائع الحركة الشيعيّة... وهكذا نفهم السبب الذي لأجله انتشرت آراء ابن المقفع في كتب رجال التشيع والإسماعيلة من مثل المتنبي، وأبي العلاء المعري وإخوان الصفاء وغيرهم، وهكذا نفهم أيضاً السبب الخفي الذي لأجله اضطهد ابن المقفع، وقُتل شرّ قتلة»^(١).

توجّه ابن المقفع هذا التوجّه لأنّه «كان ينظر إلى مثل أعلى لم يجده عند الأمويين، كما أنّه لم يقع عليه عند العباسيين. ولكنّه رآه أغلب الظن، عند بعض جماعات لم يتسلّموا مقاليد الحكم»^(٢) ولعلّ حديث ابن المقفع «عن السلطة والإمام»^(٣) يبيّن هؤلاء الناس الذين اقترنت بهم المثل العليا، ولكن يوسف أبو حلقة يرى في حديث ابن المقفع هذا «حديثاً غامضاً...، حتى أنّه ليوقع ابن المقفع في تناقض مقيت. وما ذاك إلا لأنّ ابن المقفع كان يعمدُ إلى اللفّ والدوران خوفاً من الخليفة المسلّح بالحكم المطلق»^(٤).

والباحث يرى إنّ دراسة نتاج ابن المقفع وعرضه على كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو وحده الذي يتكفّل بكشف هذا الغموض.

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي ١ / ٥٣٤.

(٢) عبد الله بن المقفع دراسة وتحليل ٧.

(٣) م. ن ٢٠.

(٤) م. ن ٢٠.

أمّا في كتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير فقد تحدّث ابن المقفّع مراراً وتكراراً على أنّه ضمنها حكماً وأمثالاً ومواعظاً من أناس وصفهم، ووصف كلامهم، وأخلاقهم، ومذهبهم، وديانتهم، وعلاقتهم بالله تعالى، وبلاغتهم... ولكنه مع ذلك - كعادته - لم يسمّهم، فهو بوصفه «أكثر أصحاب المثل العليا يترك لأبناء الإنسانية أن يقرؤوا ما بين السطور، خوفاً من ظلم بطّاش يمنع تأدية الواجب الفكري البناء العامل للخير العام»^(١). ففي الأدب الصغير مثلاً قال: «وقد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عونٌ على عمارة القلوب وصقالها وتجليّة أبصارها، وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله»^(٢).

ثمّ يستمر ابن المقفّع واصفاً أولئك الناس الذين أخذ عنهم. وهذه المرّة في الأدب الكبير، فقال: «إنا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً، وأوفر مع أجسامهم أحلاماً... فكان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل... وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم يفتح له الباب من العلم»^(٣). وعلى هذا وبعد أن عدد صفات كثيرة كانت إسلامية، بل لم تجتمع كلّها إلاّ عند الصفوة من الإسلاميين، خلص ابن المقفّع إلى نتيجة هي أنّ «مُنتهى علم عالمنا في هذا الزّمان، أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسان مُحسِننا أن يقتدي بسيرتهم. وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كُتبهم فيكون كأنه إيّاهم يحاور، ومنهم

(١) عبد الله بن المقفّع دراسة وتحليل ٧.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٣٢.

(٣) م. ن ٦٣ - ٦٤.

٢٦٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

يستمتع، وآثارهم يتبع... ولم نجدهم غادروا شيئاً يجْدُ واصفٌ بليغٌ في صفةٍ له مقالاً لم يسبقوه إليه: لا في تعظيم الله، عزَّ وجلَّ، ولا في تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامها وتجزئة أجزائها وتوضيح سُبُلها، وتبيين مآخذها، ولا في وجهٍ من وجوه الأدبِ وَضُروبِ الأخلاق»^(١).

ومما تقدم هل يبقى بعد ذلك لقائل مقال أن هؤلاء الذين تأثر بهم ابن المقفع غير إسلاميين. ولكن مع هذا ومما يؤسف له إن هذه التصريحات ومثلها يرى الباحث أنها فهمت عكس ما أراد لها ابن المقفع، فمثلاً الأستاذ محمد كرد علي يرى في قول ابن المقفع الأخير مسألة فيها نظر، فقال: «وقوله: إن القدماء لم يغادروا شيئاً لا في تعظيم الله... قولٌ فيه نظر، ولعله مما قاله قبل إسلامه، ولا يعقل أن تحتوي كتب زرادشت وغيرها من الكتب أموراً في تعظيم الخالق وتصغير الدنيا أكثر من القرآن»^(٢)

ورداً على كرد علي فهنا إذا قسنا على أن إسلام ابن المقفع كان إيذاناً بمرحلة جديدة أو نوع جديد من الخطاب، فإن قوله المذكور يدلُّ على إسلاميته الواضحة، لما طفح به من ألفاظ ومعان تدلُّ على ذلك لا العكس هذا من جهة. ومن جهة أخرى من قال إن ابن المقفع كان يقصد كتب زرادشت حتى تُطلق هكذا أحكام؟

وهناك من ذهب أبعد من هذا بكثير، وأطلق أحكاماً قاسية على تصريحات ابن المقفع تلك. فقد قال أنعام الجندي: «كان فارسيُّ النزعة يطمح إلى عودة استقلال بلاده، وحكمها الذاتي، وكان يرى أن العقبة الوحيدة، هي العرب

(١) م. ن ٦٤.

(٢) أمراء البيان ١ / ١١٣.

والحكم العربي، ولهذا عمل جاهداً على الطعن بهم، والتقليل من شأن حضارتهم وفنونهم جميعاً، وما قدمنا كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير، إلا دليل على ذلك. ولقد كان شديد التوكيد على تحسين كلام الأقدمين... حتى لإدعى أن كل نتاج جديد إنَّها هو ترديد وتقليد لما أثر عن السابقين. هذه الفكرة وحدها، لا إخلالية أولاً، لإِنَّها تجرد الإنسان من قيم الإبداع... وهي لا إنسانية ثانياً لأنَّها لا تؤمن بالعقل...»^(١).

فما ذهب إليه الجندي في طعن ابن المقفع بالعرب وهم عقبته الوحيدة، فهذا ليس له أي دليل يذكر في ما قال أدينا المخصوص بالدراسة، بل كان على العكس من ذلك، يمدح العرب، ويعلي من شأنهم، ويمني نفسه بأنَّه لو كان منهم. ففي قُصَّة طويلة سأل شبيب بن شيبة^(٢) ابن المقفع أيُّ الأمم أعقل: الفرس أم الروم أم الصين...؟ فقال: العرب «قال: أي شبيب -: فضحكنا. فقال: أما أنِّي ما أردتُ موافقتكم ولكن إذ فاتني حظِّي من النسبة فلا يفوتني حظِّي من المعرفة، إنَّ العرب حكمت على غير مثالٍ مثل لها، وآثارُ أثرت... يجود أحدهم بقوَّته، ويتفضَّل بمجهوده، ويشارك في مسوره ومعسوره، ويصفُ الشيء بعقله فيكون قدوةً ويفعله فيصيرُ حجةً... أدبتهم أنفُسهم، ورفعَتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألستهم، فلم يزل حباء الله فيهم، وحبأؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر... وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم.

(١) دراسات في الأدب العربي ٥٦.

(٢) هو شبيب بن شيبة المنقري يكنى أبا معمر. كان ممتازاً بالفصاحة. قدم بغداد في أيام المنصور العبَّاسي واتصل به، ومن بعده بالمهدي، وكان كريماً عليهما أثيراً عندهما. ينظر: وفيات الأعيان ٢ / ٤٥٨.

وقال:

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان»^(٢).

والغريب إن من يُقدّس العرب بهذا التقديس هل من المنطقي أن يُقال عنه إنَّ عقبتة الوحيدة العرب، وإنَّه عمل جاهداً على الطعن بهم؟ وعلى كل حال فابن المقفع أجاد في دحض هذه الشبهة عن نفسه هذا أولاً. ثانياً: إنَّ اعتراض الجندي على امتيازات أولئك الناس الذين وصفهم ابن المقفع بأنهم لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة.. ثمَّ عدَّ دعوة ابن المقفع تلك - بموجب هذا الوصف - لا أخلاقية ولا ثقافية. فيما لا يشكُّ فيه الباحث إنَّه لبس؛ فابن المقفع لم يكن يقصد أو يدعو بما ذكر إلى الجمود أو الإلتكاء على الأقدمين وتقليدهم الأعمى - مثلما فهم الجندي وغيره - وإلاَّ لو كان يقصد هذا الجمود لبقى هو في تلك الخانة، ولما وصل إلى ما وصل إليه من ذلك الإبداع الثري الذي ما زال متميّزاً على الرغم من زحمة النشر والناثرين، ولكن غاية ما هنالك أنَّه وجد كلاماً لأناس امتازوا بـ «تعظيم الله عزَّ وجل، ومعرفتهم بالأولى وتحقيرها، وترغيبهم بالآخرة، ومعرفتهم في صنوف العلم المتعددة وتقسيم أقسامها، وتجزئة أجزاءها، وسمو أخلاقهم، وعُظم حلمهم على الرغم من قوَّة أجسامهم، فضلاً عمَّا امتازوا به من البلاغة...» فوصفهم بما يستحقون وأثنى عليهم، وحبَّب الأخذ عنهم، والسير على هديهم. أما ثالثاً فلم يكن ابن المقفع متأثراً بالفرس بقدر تأثره بالعرب لأنَّه حين سئل عن الفرس

(١) الأعراف ١٢٨.

(٢) أمراء البيان ١ / ١١٤ - ١١٥.

قال: «ليسوا بذلك، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيمًا من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبت فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئًا بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم...»^(١). وهكذا أجوبته عن باقي القوميات، حتى إذا وصل إلى العرب أجاب ما عرفته، وكانت إجابته تلك تنم عن معرفة ودراسة لا تعصب، فيما فاتة الحظ أن يلتحق بهم من ناحية النسب، لم يفته الحظ من معرفتهم والتأثر بهم. ومن هنا نستنتج أهم الإستنتاجات، وينكشف لنا جزء كبير من الغموض الذي لفّ مقدمتي الأدب الكبير والأدب الصغير وما علينا في ذلك إلا إرجاع آراء وانطباعات ابن المقفع في الأمم والقوميات وعرضها على مقدمتي الأديين سنعرف أنّ ما كان مقصوداً هناك هم العرب.

وخلاصة القول بعد هذا إنّ الذين اتهموا ابن المقفع بأنّه نقل الكتاين عن الفارسية كانوا قد اعتمدوا على ما قدّمه لهذين الكتاين. وبرأي الباحث إنّ القوم فهموا عكس ما أراد ابن المقفع، لأنّه كان قاصداً العرب فيما قدّم، أو على الأقل كان لهم النصيب الأكبر في ذلك. وعلى رأسهم أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقد كان أديبنا يحمل في بنيات أفكاره جانباً من السياسة والأهداف والتطلعات العلوية. هذا فضلاً عن تأثره بأبناء وذرية أمير المؤمنين كالإمام الحسن، وزين العابدين والصادق (عليهم السلام) - مثلما سيمر علينا - ولكنه لا يستطيع أن يجهر بذلك، لما كانت تكنه لهم السلطان الأموية ومن ثم العباسية - واللذان كان ابن المقفع يعيش في ظلّهما - من عدااء مبرم.

وعلى هذا فابن المقفع كان واقعاً بين قوتين متعاكستين: الأولى شدة تأثره بهؤلاء النفر الذين رأى في كلامهم حلاً جذرياً لكلّ معضلة. الثانية بغض

٢٦٤.....أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

السلطين لهما. ولكن ابن المقفع بفطنته وذكائه الحاد، ورغبته الرسالية الهادفة، استطاع أن يوفق بين هاتين الطائفتين، وأن يسير برهة من الزمن وهو يكتب ما يريد في هذا الطريق طريق ذات الشوكة مثلما سيتضح ذلك.

المبحث الأول

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسالة الأدب الكبير

الأدب الكبير رسالة، أو كُتِبَ ضمَّنه ابن المقفع طائفة من الحكم والمواعظ في أسلوب خطابي موجه إلى العقلاء الذين هدفهم الحصول على سعادة الدارين^(١). يحتوي هذا الكتاب على مقدمة - عُرِفَ محتواها في الصفحات السابقة - وقسمين: الأول قسَّمهُ على بابين أيضاً. خصَّ بأولهما الحديث عن السلطان، وما يحتاجه من أمور في تدبير ملكه، وما ينبغي عليه أن يتجنبه من آفات كالبلخل، والكذب، والاحتجاب عن الناس...، وخصَّ بالثاني صاحب السلطان وكيف يتعامل مع السلطان.

أما القسم الثاني: فبسط القول فيه عن الصداقة والصديق، ومكارم من الأخلاق عدَّة. وكانت تنضوي تحت هذه العنوانات الثلاثة ما شئت من الحكم والمواعظ كما ونوعاً. وهي في حقيقتها وبغالبيتها لا تخلو من اثر لكلام أمير

(١) ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي ١ / ٥٤٦.

المؤمنين عليه السلام فقد كان له هيمنة عجيبة عليها واثراً بالغ فيها تجلّى بمظاهر عدّة، منها:

أولاً: التضمين:

عرفنا مما سبق إن التضمين له محرّك أساس، وهو أنّ تضمين نصٍّ ما معتمد على الإعجاب بذلك النص، والرغبة من قبل الأديب المتأثر في أن يكون ذلك النص ضمن نتاجاته من جهة، ورغبة ذلك الأديب في أن يؤثر نصّه الكلي بشفاعة النص المضمّن على المتلقين من جهة أخرى.

وقد برز التضمين بروزاً واضحاً في رسالة الأدب الكبير حتى أصبح يشكل ظاهرة من أكبر مظاهر تأثر ابن المقفع بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ظهر فنّ التضمين عند ابن المقفع بنوعين:

١- التضمين النصّي:

ومن هذا التضمين قوله الذي افتتح به الباب الثاني من رسالة الأدب الكبير وقد خص به الأصدقاء: «أبذل لصديقك دَمَكَ ومالك، ولمعرفتك رِفْدَكَ ومحضرك، وللعمامة بشرَكَ وتحنّك، ولعدوك عدلك وإنصافك، واضننّ بدينك وعرضك على كلّ أحد»^(١).

وما هذا إلا فقرة من وصية أمير المؤمنين لولده محمد ابن الحنفية عليه السلام التي قال فيها:

«ألزم نفسك التودّد.... وأبذل لصديقك نفسك ومالك، ولمعرفتك رِفْدَكَ ومحضرك وللعمامة بشرَكَ ومحبتك، ولعدوك عدلك وإنصافك، واضننّ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٩٨.

بدينك وعرضك عن كلِّ أحدٍ فإنه أسلمٌ لدينك ودنياك»^(١).

فواضح إذاً إنّ أغلب كلام ابن المقفع المذكور أخذه بالنصّ من هذه الوصية.

والملفت للانتباه إنّ ابن المقفع وبعد صفحات ذكر هذا المعنى وهذه التفاصيل، مكرّراً بعض الألفاظ ولكن باختزال شديد، ثمّ نسبها للحكيم فقال: «أحفظ قول الحكيم الذي قال: لَتَكُنْ غَايَتُكَ فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ الْعَدْلَ، وفيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَدِيقِكَ الرِّضَاءَ»^(٢).

ومن هذا نستنتج أمرين:

الأول:

إذا كانت حكمة ابن المقفع السابقة هي له، فهو لم يعد مطلقاً بحاجة إلى الاستشهاد بقول الحكيم هذا، لأنّ تلك الحكمة هي ابلغ، وأكثر بياناً، وتفصيلاً، وإيصالاً للمعنى من قول الحكيم، وما الداعي إذا كان ابن المقفع يمتلك أكثر من قول الحكيم بكثير أن يستشهد بكلامه، وعلى هذا فإنّ هذا دليل آخر على إنّ الحكمة الأولى هي ليست لأبن المقفع أيضاً.

الثاني:

حكمة الحكيم هذه مكوّنة من فقرتين لا غير، الأولى أخذت بتحوير طفيف عن قول أمير المؤمنين عليه السلام السالف وهي كالتالي:

أمير المؤمنين عليه السلام: «ولعدوك عدلك».

(١) نهج السعادة ٧ / ٢٣٢، وينظر بحار الأنوار: ٧٤ / ٣٩٦.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٣.

الحكيم: «بينك وبين عدوك العدل».

ابن المقفع: «ولعدوك عدلك».

بينما الفقرة الثانية أخذت بالمعنى عن كلامه عليه السلام.

أمير المؤمنين عليه السلام: «أبذل لصديقك نفسك ومالك».

الحكيم: «وفيما بينك وبين صديقك الرضاء».

ابن المقفع: «أبذل لصديقك دَمَكَ ومالك».

وبالتالي فإنّ هذا الحكيم إما هو أمير المؤمنين عليه السلام، بعد أن غيّر في كلامه المذكور، وإمّا شخص كانت مرجعيته كلام الإمام عليه السلام، وفي كلّ الأحوال أصل هذا كلّهُ هي وصية أمير المؤمنين عليه السلام المذكورة.

وأما من يطالع مجموعة المغريات التي أمر ابن المقفع باجتنابها «تحرّز من سُكر السُّلطان وسُكر المال وسُكر المنزلة وسُكر الشباب، فإنّه ليس هذا شيءٌ إلّا وهو ريحٌ جَنَّةٍ تسلُبُ العقل، وتذهب بالوقار، وتصرفُ القلب والسمع والبصرَ واللسانَ إلى غير المنافع»^(١) فسيجد عباراتٍ عدّة منها مضمّنة نصيًّا من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْتَرِسَ مِنْ سُكْرِ الْمَالِ وَسُكْرِ الْقُدْرَةِ وَسُكْرِ الْعِلْمِ وَسُكْرِ الشَّبَابِ، فَإِنَّ لِكُلِّ ذَلِكَ رِيحاً خَبِيثَةً تَسْلُبُ الْعَقْلَ وَتَسْتَخِفُّ الْوَقَارَ»^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٩٦ - ٩٧.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٤٢.

«كان أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) يقول: ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، يكون افتقارك إليهم في لين كلامك، وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك، وبقاء عزك»^(١).

فقد أكد عليه على معاني سامية، وأعطى منهاج عمل وطريقة تصرف رائعة بين الفرد ومجتمعه موظفاً فن المقابلة من أجل إيصال المعنى بطريقة مؤثرة، فهو من جهة يأمر بالافتقار إلى الناس والتودد لهم من خلال أعمال تسمح بذلك كلين الكلام، وبشاشة الوجه، ومن جهة أخرى أمر بالاستغناء عن الناس من خلال صون العرض وعيش العز، لأن مثل العرض والعز لا يمكن التقرب على حسابهما إلى أي جهة كانت.

وجد ابن المقفع ضالته في هذه الحكمة؛ فنظمها في عقد حكم الأدب الكبير بنصها، فقال: «وليجمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، وليكن افتقارك إليهم في لين كلمتك لهم، وحسن بشرك بهم. وليكن استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك، وبقاء عزك»^(٢).

وقال عليه في بيان فضل العقل على القول:

«إنَّ فضلَ القولِ على الفعلِ لهُجْنَةٌ، وإنَّ فضلَ الفعلِ على القولِ لجمالٌ وزينةٌ»^(٣).

ضمن ابن المقفع هذه الحكمة في الأدب الكبير فقال: «فإنَّ فضلَ القولِ على

(١) الكافي ٢ / ١٤٩، وينظر: معاني الأخبار ٢٦٧.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٦.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٣٣.

الفعل عازٌّ وهجنة، وفضل الفعل على القول زينة»^(١).

ومن أكثر حكم الإمام أثراً في الأدب الكبير قوله عليه السلام في وصف أخٍ له:

«كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللَّهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ. وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ، فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ، وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ. وَكَانَ أَكْثَرَ ذَهَرِهِ صَامِتاً، فَإِنْ قَالَ بَدَّ الْقَائِلِينَ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعِفاً! فَإِنْ جَاءَ الْجُدُّ فَهُوَ لَيْثٌ غَابَ، وَصَلُّ وَادٍ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً، وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا عَلَى مَا يَجِدُ الْعُدْرَ فِي مِثْلِهِ، حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ؛ وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعاً إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ؛ وَكَانَ يَقُولُ مَا يَفْعَلُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ؛ وَكَانَ إِذَا غُلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ؛ وَكَانَ إِذَا بَدَّهَ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيْمَهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهُوَى فَيَخَالِفُهُ، فَعَلَيْكُمْ بِهِذِهِ الْخُلَاقِ فَالزَّمُوهَا، وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخَذَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ»^(٢).

وهذه الحكمة امتازت بالطول نوعاً ما، لأنها قائمة على وصف شخص معين عُرِفَ بأخلاقه النبيلة لا يرغب أمير المؤمنين عليه السلام بذكر إحداها وترك الأخرى لذا طال الكلام فيها، إلا أن وحدة الموضوع سمة بارزة فيها تجلت في التركيز على بيان صفات ذلك الأخ الذي اختلف فيه من هو، فقال قوم: هو رسول الله ﷺ واستبعده آخرون لقوله: «كَانَ مُسْتَضْعِفاً» فإن الرسول الأكرم ﷺ لا يُقال في صفاته مثل هذه الكلمة، وقال قوم: هو أبو ذر الغفاري، وقال غيرهم هو المقداد، وذهب غيرهم إلى إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يُشر إلى أخ معين،

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٣.

(٢) نهج البلاغة ٦٠٥ - ٦٠٦.

ولكنّه كلامٌ خارجٌ مخرج المثل^(١).

كان ابن المقفع شديد التأثير بهذه الحكمة وعلى طول الأدب الكبير لما اجتمع فيها من عبقرية فذة تجلت في الوصف الدقيق الرائع المعبر عن أغزر المعاني^(٢) بفنون بلاغية عدّة منها: أسلوب الأخبار الذي ابتدأ به الحكمة، وهذا الأسلوب موائم مع الحكمة تماماً، لأنّ غرضها الرئيس هو الإخبار وبيان صفات ذلك الممدوح الذي وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام) بالأخ.

ثمّ ما فيها من فنون أخرى كالكناية في قوله: «خارجاً من سلطان بطنه» وهو كناية عن الخروج من أسر الشهوة والرذيلة إلى فضيلة العفة^(٣).

والتشبيه «فإن جاء الجدُّ فهو ليث الغاب وصل واد»... فضلاً عن الفنون البديعية المتعددة من تكرار متعدد الطرق. مرة باللفظ نفسه «وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعل» إذ ذكر الفعل المضارع «يقول» مرتين وكذلك «يفعل»، لبيان رجاحة القول على الفعل، ورذالة القول إذا اقتصر عن الفعل. وأخرى كرّر الفعل نفسه ولكن مرة بالمضارع وأخرى بالماضي «.. ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد». وثالثة كرّر الأسماء «وكان يعظّمه في عيني صغر الدنيا في عيني» وفي الجملة هذه فضلاً عن تكرار «عيني - عيني» أسلوب التقديم والتأخير إذ قدّم (عليه السلام) جملة «يعظّمه في عيني» في حين أنّ حقّها التأخير بعد جملة «صغر الدنيا في عيني» فعل الإمام هذا للتأكيد على عظمة ذلك الممدوح، ولأنّ الغرض الرئيس الذي جاءت من اجله الحكمة هو التعظيم والتبجيل،

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / ١٠٩.

(٢) ينظر: شرح ابن ميثم ٥ / ٤٧١.

(٣) م ٥ ن ٤٧١.

٢٧٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

فضلاً عن استعماله - لأجل هذا البيان - الجملة الفعلية وبالتحديد الفعل المضارع «يعظم» لما فيه من دلالة على الحركة والاستمرارية. أمّا طباق الإيجاب الذي ورد في هذا المقطع والمتمثل العظم والصغر، فكان عماد معناه، إذ أنّ هناك علاقة عكسية مفادها إن صغر الدنيا وتحقيرها في عين الممدوح، ولّد له عظم المنزلة عند أمير المؤمنين عليه السلام.

وسجع بأنواع متعددة، فمرّة السجع المتفق بالفاصلة والوزن «فإن قال بذرّ القائلين، ونقع غليل السائلين».

وأخرى متفق بالفاصلة دون الوزن «فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد». ف «يجد - وجد» بينهما اتفاق في الفاصلة دون الوزن.

وثالثة متفق بالوزن دون الفاصلة «أنّ اخذ القليل خيرٌ من ترك الكثير»، «فهو ليث غاب، وصلّ وادّ».

فقد اتفق «قليل - كثير» بالوزن دون الفاصلة، ومثلها «غاب - واد». كانت هذه وقفة قصيرة مع صياغة النص الفنية.

وفي هذا التناغم العميق بين المضمون والفن وجد ابن المقفع ضالّته وجعل من تلك الحكمة مسك الختام للأدب الكبير فقال: «وإني مخبرك عن صاحب لي كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه: كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً، وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يقول ما لا يعلم، ولا يُنازع في ما يعلم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة».

كان أكثر دهره صامتاً. فإذا نطق بذكر الناطقين.

كان يرى متضاعفاً مستضعفاً، فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً.

كان لا يدخل في دعوى، ولا يشترك في مرء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً.

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره.

وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء.

وكان لا يستشير صاحباً إلى من يرجو عنده النصيحة.

وكان لا يتبرم، ولا يتسخط، ولا يشتهى، ولا يتشكى.

وكان لا ينقم على الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه حيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع»^(١).

وما دمننا بين النصيين المذكورين بودّ الباحث أن يفرغ من أمرين هامين هما:

الأمر الأول:

إن متأمل النصين بدقة يجد غالبية كلام ابن المقفع تضميناً نصياً من الحكمة، ويجد أيضاً إن ابن المقفع قد مسّ حكمة أمير المؤمنين عليه السلام مرةً بزيادةٍ عليها، وأخرى بحذف منها.

أما الزيادة فهو أسلوب واضح يلجأ إليه ابن المقفع في أحيان كثيرة مع كلام

أمير المؤمنين عليه السلام الذي يضمنه في رسائله، وهي هنا كثيرة ومنها قوله: «كَانَ لَا يَدْخُلُ فِي دَعْوَى، وَلَا يَشْتَرِكُ فِي مَرَاءٍ، وَلَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَرَى قَاضِيًا عَدْلًا وَشَهِودًا عَدُولًا».

وما هذا إلا توسعاً لإحدى فقر حكمة الإمام عليه السلام: «لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِيًا» فأخذ ابن المقفع هذا وبدأ يفصل: أن لا يدخل ذلك الصاحب في دعوى إلا إذا وجد قاضياً، والقاضي ينبغي كونه عادلاً، ومعه شهود، والشهود يجب توافر العدالة فيهم.

وأما الحذف، فإن فقرات حكمة أمير المؤمنين عليه السلام والتي لم يذكرها ابن المقفع في حكمته المذكورة لم يُقَرِّط بها لكنه ذكرها سابقاً، وجعلها متناثرة على طول الأدب الكبير. وهي كالآتي: فقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وكان على ما يسمع احرص منه على أن يتكلم» نجده في وسط الأدب الكبير «وليعرف العلماء حينئذٍ مجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول»^(١).

وقوله عليه السلام:

«وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت».

لم يغفله ابن المقفع، بل ضمنه إحدى مقاطعه متوسعاً فيه من خلال تبيان محاسن السكوت «وإن غلبت على الكلام وقتاً فلا تغلبن على السكوت، فإنه لعله يكون أشدهما لك زينة، وأجلبها إليك للمودة، وأبقأهما للمهابة، وأنفاهما للحسد»^(٢).

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٩٩.

(٢) م ١٢٦ ن ١٠.

وهكذا فعل ابن المقفع مع قوله عليه السلام:

«وكان إذا بدَّهَهُ أَمْرانِ يَنْظُرُ أَيُّهُما أَقْرَبُ إِلَى الْهُوى فَيُخَالِفُهُ».

وبدههه: إذا خطرَ بباله أَمْرانِ دفعةً من غير سابقة^(١). رأى أيهما تستهويه نفسه أكثر فعمل بالآخر الذي يشقُّ عليها، ولعله كان منطلقاً من قوله تعالى:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(٢).

ضمّن ابن المقفع هذا المقطع من حكمة الإمام عليه السلام في نهاية الأدب الكبير بتحوير بسيط مع زيادة عليها، فقال: «إِذَا بَدَّهَكَ أَمْرانِ لَا تَدْرِي أَيُّهُما أَصَوَّبُ فَانْظُرْ أَيُّهُما أَقْرَبُ إِلَى هَوَاكَ فَخَالِفْهُ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الصَّوَابِ فِي خِلافِ الْهُوى»^(٣).

وإما قوله عليه السلام: «وكان يقول ما يفعل ولا يقول ما لا يفعل». فقد ضمّنه ابن المقفع في وصاياه التي دعا فيها إلى تقديم الفعل على القول فقال: «وليعرف إخوانك والعامّة أنك، إن استطعت، أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل»^(٤).

الأمر الثاني:

إنَّ الأستاذ المرحوم محمد كرد علي وبعد أن قرأ نص الحكمة العلوية في نهج البلاغة، وقرأها عند ابن المقفع، شكَّ بمرجعيتها لأمر المؤمنين عليه السلام مدّعياً بأنها لابن المقفع، فقال في استدراكه الذي جعله في آخر كتاب (أمراء البيان):

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٧١.

(٢) سورة يوسف ٥٣.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٦.

(٤) م ١٠٣ ن ١٠٣.

«أنَّ صفة الرَّجل الكامل الذي عرفه ابن المقفع قد استحسناها بعض المتأخرين فأدمجوها في الكتاب الذي كسروه على كلام الخليفة الرابع»^(١). وقال: «فإنَّ نصَّ عبارة ابن المقفع مُعلنةٌ عن نفسها بأنَّه عرف رجلاً هذه صفاته الحسنة فوصفه ولا يعقل أن يأخذ كلاماً لغيره ويستحلَّ نسبه إليه خصوصاً إذا كان من الكلام المأثور المعروف صاحبه ثمَّ إنَّ يتيمةً اشتهرت قبل أن يُؤلَّف نهج البلاغة بنحو قرنين ونصف»^(٢).

والباحث يدحض هذا بما يأتي:

١- الأستاذ قال عن الحكمة: «استحسنها بعض المتأخرين فأدمجوها في الكتاب..» وهذا الكلام فيه انتقاص واضح من المقابل، إذ إنَّه يرمي الآخرين بالانتحال لمجرد استحسانهم لكلام ما وسرقة ذلك الكلام ونسبه لأمير المؤمنين عليه السلام.

فهل أمير المؤمنين عليه السلام بحاجة إلى هكذا عمل شنيع تُسرق الحكمة من غيره وتُنسب له؟ ثمَّ مَنْ هذا الذي استحسناها ونسبها زوراً للإمام عليه السلام؟ فضلاً عن إنَّ الكلام المُستحسن كثير جداً فلماذا هذه الحكمة بالذات أخذت من ابن المقفع ونُسبت لأمير المؤمنين عليه السلام؟

وأما قوله بأنَّ المتأخرين وضعوها في كتاب نهج البلاغة. فهذا غير مقبول أيضاً، لأنَّ الحكمة معروفة منذ وقت مبكر على أنَّها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ومعروف أيضاً إنَّ ابن المقفع أخذها عنه عليه السلام. فمثلاً قال صاحب التذكرة الحمدونية بعد أن دوّن الحكمة المقصودة: «وقد ادعى ابن المقفع أكثر

(١) أمراء البيان ٥٧٥.

(٢) م ٥٧٤ ن ٥٧٤.

هذا الكلام في رسالة له»^(١).

٢- إن ابن المقفع لم يتأثر بهذه الحكمة العلوية فحسب، بل جميع رسائله المشهورة كانت تموج بالآثر العلوي. وعليه فماذا عن عشرات الحكم التي ضمنها ابن المقفع في نتاجاته هل كلُّها من الحكم التي «استحسنها بعض المتأخرين فأدجموها في الكتاب الذي كسروه على كلام الخليفة الرابع..»؟

٣- وبالنسبة لقوله: «فإن نصَّ عبارة ابن المقفع معلنة عن نفسها بأنَّه عرف رجلاً هذه صفاته...». فهذا ليس دليلاً، فإن كان هذا دليلاً؛ فإنَّ حكمة الإمام أيضاً معلنة عن نفسها بأنَّه عرف رجلاً هذه صفاته. وممَّا يؤكد إنَّها لأمر المؤمنين، وإنَّ الصاحب هو صاحب أمير المؤمنين ﷺ ذلك الاهتمام المكثف بمعرفة شخص ذلك الصاحب. ولذا قيلت فيه أقوال عدة:

فقال قوم: هو رسول الله ﷺ، واستبعده قوم لقول الإمام ﷺ: «وكان ضعيفاً مستضعفاً»، وقال قوم: هو أبو ذر الغفاري، واستبعده قوم لقول الإمام ﷺ: «فإن جاء الجد فهو ليث عادٍ..»، وأبو ذر لم يكن من الموصوفين بالشجاعة، وقال قوم: هو المقداد بن الأسود وكان شجاعاً حسن الطريقة^(٢).

أما صاحب ابن المقفع المزعوم - وهو يحمل تلك الصفات الفاضلة - كان من المفترض أن يُعرف مَنْ هو، ولكن لم يبيحه احد ولم تصلنا أخبار عنه.

٤- ثم قال الأستاذ عن ابن المقفع: «ولا يعقل أن يأخذ كلاماً لغيره

(١) التذكرة الحمدونية ١ / ٣٩٧.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لأبي الحديد ١٩ / ١٠٩.

٢٧٨..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ويستحلّ نسبته إليه «وهل يعقل أم لا يعقل بأنّ ابن المقفع اخذَ كلاماً لغيره، فهذه مسألة تحدثنا فيها سابقاً، وتكفل بالإجابة عنها ابن المقفع نفسه. فقد ذكر في الأدب الكبير وهو الذي وردت فيه تلك الحكمة بأنّ كلامه مأخوذ من حكم الأولين، فقال: «فلم يبقَ في جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم مقال، وقد بقيت أشياء... مشتقّة من جسام حكم الأولين وقولهم... ضمن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس»^(١).

وقال في هذا الغرض أيضاً: «وأحسن ما يصيبُ محدّثنا أن ينظرَ في كتّيبهم فيكون كأنه إياهم يحاور،.. وأثارهم يتّبع»^(٢).

فالمحسن عند ابن المقفع من يتأثر بـ «حكم الأولين» - وسنعرّف الأولين من هم أكثر فأكثر - إذاً لماذا لا يعقل أن يأخذ ابن المقفع كلاماً لغيره؟ ثم أليس الأستاذ المرحوم هو الذي أعترف وأكّد في ترجمته لأبن المقفع بأنّ حكمه منقولة، ولم يكن أباً عذرتها^(٣).

فهل نقل الحكم هذا - بنظر المرحوم - جائز عن غير الإمام فقط؟ أم يجوز عنه عليه السلام، وإذا جاز ذلك لماذا رفع لواء التشكيك لما وجد أول تماثل بين الكلامين؟

٥- تحدث الأستاذ عن «الكلام المأثور المعروف صاحبه». وهو بهذا عدّ الحكمة المذكورة مأثورة عن ابن المقفع أكثر منه عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا بجانب للصواب جملةً وتفصيلاً، لأنّ - وبحسب إطلاّع الباحث - جميع من

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٥.

(٢) م ٦٤٠.

(٣) ينظر: أمراء البيان ١١٢.

رواها إمّا عن أمير المؤمنين، وإمّا عن الإمام الحسن عليه السلام، وهناك من رواها في كتاب واحد مرّة عن الوالد وأخرى عن الولد عليه السلام.

فمن المصنفات التي روتها عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يأتي: - نهج البلاغة^(١) -
التذكرة الحمدونية^(٢) - ربيع الأبرار^(٣) - غرر الحكم ودرر الكلم^(٤) - أعيان
الشيعة^(٥)

ومن المصنفات التي روت الحكمة عن الإمام الحسن عليه السلام ما يأتي: - عيون
الأخبار^(٦) - الكافي^(٧) - تأريخ بغداد^(٨) - تحف العقول عن آل الرسول^(٩) -
البداية والنهاية^(١٠)

أما المصنّفات التي روتها عن الإمامين معاً فمنها:

- ميزان الحكمة، فقد وردت فيه مرّة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام^(١١)، وأخرى

(١) ينظر: نهج البلاغة ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٢) ينظر: التذكرة الحمدونية ١ / ٣٩٧.

(٣) ينظر: ربيع الأبرار ١ / ٣٠٨.

(٤) ينظر: غرر الحكم ودرر الكلم ٥٤٠.

(٥) ينظر: أعيان الشيعة ١ / ٥٧٧.

(٦) ينظر: عيون الأخبار ٢ / ٣٨٣.

(٧) ينظر: الكافي ٢ / ٢٣٧.

(٨) ينظر: تأريخ بغداد ١٢ / ٣١١.

(٩) ينظر: تحف العقول ٢٦٢.

(١٠) ينظر: البداية والنهاية ٨ / ٤٣.

(١١) ينظر: ميزان الحكمة ٢ / ٢٦٤.

عن الإمام الحسن عليه السلام^(١).

- بحار الأنوار، وردت فيه مرة عن أمير المؤمنين عليه السلام^(٢)، وأخرى عن الإمام الحسن عليه السلام^(٣).

والذي يراه الباحث إنَّ الحكمة لأمر المؤمنين استشهد بها من بعده ولده الحسن عليه السلام وهذا أمر طبيعي جداً. ولهذا منهم من سمعها عن الوالد فرواها عنه، ومنهم من سمعها عن الولد ورواها عنه. وما جاء في كتاب مشكاة الأنوار يؤيد هذا ويحلّ النزاع إذ ورد فيه: «من كلام أمير المؤمنين علي، خطب به الحسن بن علي عليه السلام فقال:

«أيها الناس إنما أخبركم عن أخ لي، كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظم به في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه...»^(٤).

وعليه فهل يعقل ترك هذه الروايات والتي جاءت من مصادر مهمة في التراث الإسلامي، ومنها ما هو سبق نهج البلاغة زمناً، ومنها معاصر له، ومنها متأخر عنه والأخذ بمجرد شك للمرحوم محمد كرد علي.

٦- أما قوله: بأنَّ اليتيمة اشتهرت قبل أن يؤلّف النهج، فلم يعد حجة، لأنّها وإن جاءت قبل النهج، إلّا أنّها تبقى متأخرة عن كلام الإمام عليه السلام بما يقارب المائة عام، وبعبارة أخرى إن كلام أمير المؤمنين عليه السلام سابق لكل كلام ابن المقفع

(١) ينظر: م ٠ ن ١ / ٤٧.

(٢) ينظر بحار الأنوار ٧٥ / ١٠٨.

(٣) ينظر: م ٠ ن ١١٠ / ٣٥.

(٤) مشكاة الأنوار ٤٢١.

زمنًا، وبلاغةً، وتأثيراً.

٧- حاول المرحوم محمد كرد علي أن يدعم شكّه في الحكمة العلوية وعدم عائديتها لأمير المؤمنين (عليه السلام) بتصريح ظاهره صحيح وباطنه عليل، فقال: «وقد اعترف ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بأنّ ما عزي إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) هو من كلام غيره من الحكماء...»^(١) وهنا أودُّ الحذر والنظر بدقة. فالحكمة التي هي مدار الحديث الآن مدوّنة في نهج البلاغة، وابن أبي الحديد أكد مراراً وتكراراً وبطرق عدة بأنّ ما جاء بين دفتيّ النهج قطعي الصدور عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولا غبار على ذلك وحمل حملاتٍ على من شكّوا فيه ووصفهم بأنّهم «أقوام أعمت العصبية أعينهم، فضلوا عن النهج الواضح وركبوا بنيات الطريق، ضلّالاً وقلة معرفة بأساليب الكلام...»^(٢). إذاً كيف يستدل محمد كرد علي على شكّه في هذه الحكمة بكلام ابن أبي الحديد وهو يخالفه جملةً وتفصيلاً. وهذا الرأي الذي تحدث فيه المرحوم هو موجود فعلاً في شرح نهج البلاغة، ولكن أتى هي طريقة وجوده وأين؟

بعد أن فرغ ابن أبي الحديد من شرح النهج تبرّع بجمع بعض كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال: «ونحن الآن ذاكرون ما لم يذكره الرّضي ممّا نسبته قوم إليه - يعني إلى الإمام - فبعض مشهور عنه، وبعضه ليس بذلك المشهور، لكنّه روي عنه، وعزي إليه..»^(٣).

فكلام المعتزلي هذا لا يقصد به ما جاء في نهج البلاغة مطلقاً، بل صرح بملء

(١) أمراء البيان ٢ / ٥٧٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣٠٣.

(٣) م. ن ٢٠ / ٤٢٠ - ٤٢١.

فيه وأكد على أنه قصد بهذا الحديث الحكم الألف التي جمعها هو «فوجدناه ألف كلمة»^(١). ومن هذا يتضح أن محمد كرد علي إنما وقع في لبس واشتباه، أو أراد أن يخلط الأوراق ليثبت ما يراه ولعل الأولى أقرب. وعلى كل الأحوال لا يحق مطلقاً للأديب أن يستدل بقول ابن أبي الحديد هذا على أي نص من نصوص نهج البلاغة لما عرفت.

٨- هناك دليل قاطع ولا يحيد على أن الحكمة كانت موجودة قبل ابن المقفع، وهذا الدليل قائم على التأثير والتأثر، فقول أمير المؤمنين عليه السلام في الحكمة المذكورة: «وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ» أخذه الحسن البصري، فقال: «فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول»^(٢). والبصري متوفى سنة (١١٠هـ)، وابن المقفع مولود سنة (١٠٦هـ) بمعنى إن البصري توفي وللأخير أربع سنوات مع العمر، وهو بالتأكيد في هذه المدة لم يسمع بالبصري، ولم يره، وعليه فلا شك بوجود الحكمة قبل ابن المقفع، بل وإنها كانت معروفة ومؤثرة، ولذا تأثر بها البصري. مع جدير التنبيه إلى أن هذا المقطع مما ضمنه ابن المقفع أيضاً، وأشرنا إليه سابقاً.

وبعد هذا تجدر الإشارة إلى أن محمد كرد علي يقال عنه قد غيّر رأيه وتلاشت شكوكه في نهج البلاغة^(٣). وهذا ما يراه الباحث مستدلاً بقول الأستاذ في مقاله الذي يحمل عنوان «الإنشاء والمنشئون»: «إذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم، ورسائلهم، ومحاوراتهم، ومصنفاتهم، وبدأنا بأهل

(١) م. ن ٢٠ / ٤٢١.

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣٧٣.

(٣) ينظر: مع المشككين في نهج البلاغة ٩٧.

القرن الأول للهجرة، نرى على رأسهم أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب (كرم الله وجهه)، فإنه سيّد البلغاء على الإطلاق وواضع البيان العربي... ونهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي من كلامه وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الخالد...»^(١).

وقال: «وإذا طلبت البلاغة في أتمّ مظاهرها، والفصاحة التي لم تشبها عجمة، فعليك بنهج البلاغة الذي فيه خطب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ورسائله إلى عمّاله...»^(٢).

٢- التضمين المحوّر:

لقد ورد هذا النوع من التضمين في أماكن عدّة من رسالة الأدب الكبير، وكان لعهد الإمام علي (عليه السلام) لمالك لأشتر (رضوان الله عليه) نصيب وافر من هذا النوع من التضمين، فكان ممّا نهى عنه (عليه السلام) هو الاحتجاج عن الناس ويبيّن نتائج الاحتجاج^(٣) المهلكة، ثمّ بيّن إنّ لا مبرّر للاحتجاج، فقال:

«وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا أَمْرٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقِّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلُ كَرِيمٍ تُسْهِدُهُ، أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيْسُوا مِنْ بَذْلِكَ»^(٤).

أخذ ابن المقفع هذا بتقسيماته، ولكن وظّفه في وصيته للوزير لما أوصاه بالرفق بنظرائه قائلاً: «فإنما أنت في ذلك أحد رجلين: إمّا أن يكون عندك فضلٌ

(١) مجلة تراثنا ع ١ / ٣٤.

(٢) م. ع ١ / ٣٤.

(٣) وهذا أيضاً ما أخذه ابن المقفع ولكنه جعله في مكان آخر سنوضحه في نقطة التلفيق.

(٤) نهج البلاغة ٥١٧.

٢٨٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

على ما عند غيرك، فسوف يبدو ذلك ويحتاج إليه ويلتمس منك وأنت مجمل.
وإمّا ألا يكون ذلك عندك»^(١).

فالنصّان يتكوّنان من ثلاث فقرات هي:

الأولى: وفيها تضمين لم يزد فيه ابن المقفع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلا اسم الإشارة «ذلك»:

«إنما أنت احد رجلين «أمير المؤمنين عليه السلام»

«إنما أنت في ذلك احد رجلين» ابن المقفع

الثانية: الجود والعطاء وهنا ازداد التحوير:

«إما امرؤ سخت نفسك بالبذل» عند أمير المؤمنين عليه السلام

«إمّا أن يكونَ عندك فضلٌ.. على غيرك» عند ابن المقفع

الثالثة: المنع:

«أو مبتلى بالمنع» عند أمير المؤمنين عليه السلام

«وأمّا أن لا يكون ذلك عندك» عند ابن المقفع

و«ذلك» اسم إشارة أشار به ابن المقفع إلى الفضل أو الجود الذي يجود به الرجل على غيره - وهذه من طرق الترميم عند ابن المقفع على كلام الإمام عليه السلام - وعليه يكون الكلام: وإمّا أن لا يكون لك فضلٌ على غيرك، وعندها يكون كلامه أكثر شبهًا بكلام أمير المؤمنين عليه السلام «مبتلى بالمنع».

وبعمق نظرٍ من أمير المؤمنين عليه السلام ونتيجة لإهتمامه بالوالي والرعية على حدّ

سواء وشدّ أو اصر المودة بينهم، وجّه واليه إلى ما من شأنه أن يؤدي إلى ذلك ومنه حسن الظنّ «وذلك إنّ الوالي إذا أحسنَ إلى رعيته قويت رغبتهم فيه وأقبلوا بطباعهم على محبته وطاعته، وذلك يستلزمُ حسنَ ظنه بهم»^(١) فقال عليه السلام:

«فليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسنُ الظنِّ برعيّتك، فإنَّ حسنَ الظنِّ يقطعُ عنك نصباً طويلاً»^(٢).

أتى ابن المقفع على هذا المعنى وبعض ألفاظه مع تحوير عليها، فقال: «لا يُولَعَنَّ الوالي بسوءِ الظنِّ لقولِ الناس، وليجعلْ لحسنِ الظنِّ من نفسه نصيباً موفوراً يروّحُ عن قلبه، ويصْدِرُ عنه في أعماله»^(٣).

أكد أمير المؤمنين عليه السلام على حسن الظن من خلال لام الأمر المسبوقه بالفاء. لأن الفاء أو الواو إذا اقترنت أحداها بلام الأمر ينتجان أمراً ابلاغاً مما لو كانت اللام وحدها. وبتغير طفيف افتتح ابن المقفع فقرته بلا الناهية ناهياً عن سوء الظن. والنقطة الدالة التي يلتقي عندها الطرفان هي «حسن الظن». وهذا بمفرده لا يمكن لعاقل أن يدعي بأنه أثر علوي خالص إلاّ إذا عُرِزَ بأدلة أخرى. فبعد أن أمر أمير المؤمنين عليه السلام بحسن الظن علل أن حسن الظن يجعلك في رَوْح ويبعدُ

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ٥ / ٣٣٩.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٤.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧١. والذي يجعلنا نؤكد بلا شك إنّ هذا مما أخذه ابن المقفع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام المذكور هو تضمينه للفقرة العلوية التي وردت قبل هذه المذكورة تضميناً أشبه ما يكون نصيباً إلاّ أنه أبعدّها بعيداً جداً حيث وضعها في الأدب الصغير وليس هنا في الأدب الكبير وستعرف في مكانها.

عنك التعب الشديد «نصباً طويلاً». ولم يحذ ابن المقفع عن هذا بل سار عليه وبرّر دعوته عاداً حسن الظنّ يروّح عن القلب.

والباحث يرى في كلام ابن المقفع السالف شيئاً من البركة. فما إن نهى عن سوء الظنّ «لا يولعنّ الوالي بسوء الظن» سرعان ما عاد وأمر بحسن الظن «وليجعل لحسن الظنّ من نفسه نصيباً موفوراً» وهذا تكرار لا طائل منه لأنّ المعنى واحد بين الجملتين تماماً.

وبهذه الطريقة نستجلي التحوير الذي أجراه ابن المقفع على فقرة العهد العلوي أكثر فقلوه: «لا يولعنّ الوالي» من قوله عليه السلام: «فليكن منك» والكاف في قول أمير المؤمنين عليه السلام «منك» تدلّ على «الوالي» الذي ذكره ابن المقفع صراحةً. وقوله «وليجعل لحسن الظن نصيباً موفوراً» من قوله عليه السلام: «يجمع لك به حسن الظن»، وقوله: «يروّح به عن قلبه» من قوله عليه السلام: «يقطع عنك نصيباً طويلاً»؛ فالمعنى واحد بين كلّ هذه الفقرات، فضلاً عن ألفاظ بنصّها.

ومن حكم أمير المؤمنين عليه السلام التي ضمنها ابن المقفع بهذه الطريقة قوله عليه السلام: «صاحبُ السُّلطانِ كراكِبِ الأسدِ يُغَبِّطُ بموقعِهِ وهو اعْلَمُ بموقعِهِ»^(١).

فقد شبه صاحب السلطان براكب الأسد، النَّاسُ تتمنى منزلته التي هو عليها من القرب والتنعّم بأنعام السلطان، لكنّه بقرارة نفسه متهيب من تلك المنزلة، لما يعلم من أنّ ليسَ للسلطان مودة دائمة.

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة، ولكنّه خاطب بها السلطان وليس صاحبه فقال: «تضبط أمورك وتصول على عدوك بقومٍ لست منهم على ثقةٍ

من دين ولا رأي ولا حفاظ من نيّة... فإنما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه، وهو لمركبه أهيب»^(١).

ثانياً: التلفيق:

التلفيق لغة من اللَّفَّق بمعنى «خياطة شُقتين تلفقُ إحداهما بالأخرى لفقاً والتلفيق أعم فإن انفصلت الشقتين يقال: انفصل لفقهما فلا يلزمه اسم اللفق قبل الخياطة»^(٢).

وهذا المعنى ما أقربه من المعنى الاصطلاحي، فبدل جمع شقتي قماش جمع نصين أدبيين أو أكثر عندها يكون النص مُلفقاً.

وعرفه أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ)، فقال: «هو أن يكون البيت مُلفقاً من أبياتٍ قبله»^(٣).

وعلى الأديب في هذا الفن أن يراعي مسألة تناسب النصوص فيما بينها تناسباً لا فجوة فيه، وذلك بعد أن يضمّ إلى ذكر الشيء ما يليق به ويجري مجراه، لأنّ التلفيق يُقال عنه مراعاة النظر أيضاً^(٤). وللتلفيق أهمية واسعة، وبخاصة في ميدان الشر، فقد قال الحريري (ت ٥١٠ هـ) في المقامة الفراتية: إنّ صناعة الإنشاء مبنيةٌ على التلفيق^(٥). وهو بهذه الحالة يعتمد بالدرجة الأساس على ثقافة الأديب، فكلما كانت تلك الثقافة متنوعة ومتعددة المشارب كان النصُّ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٥. وينظر: أدب ابن المقفع دراسة اسلوبية ٥١.

(٢) العين ٥ / ١٦٥.

(٣) البديع في نقد الشعر ٢٠١.

(٤) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب ٧ / ١٠٦.

(٥) ينظر: مقامات الحريري ٢١٧، وينظر: صبح الأعشى ٣١٦ / ٢.

٢٨٨..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

مُتَّسِمًا بالتلفيق أكثر، وهو مباح أيضاً من أي نص ولأي أديب، غير أن وجوده في الأدب الكبير يختلف نوعاً ما لأنَّ - وبدون مبالغة - جميع التلفيقات التي عثر عليها الباحث في هذا الأدب هي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام. ويرى الباحث إنَّ هذا الأمر يحمل في طياته دلالات عدّة منها:

١- الغرام الشديد بكلام أمير المؤمنين عليه السلام حتى أنه فرض هيمنة ولم يترك مجالاً لأبن المقفع أن يستعين بحكمة أخرى يردف بها الحكمة العلوية.

٢- فعل ابن المقفع هذا لربما لإيمانه بأنَّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام يباين باقي الكلام، وبالتالي فإنَّ تلفيق كلام غريب مع كلامه عليه السلام سيُكتشف، أو يكون شاذاً.

٣- إيمانه بأن الموضوع الذي يريد معالجته في أدبه لا يمكن استيفاء معناه، ورواجه، إلا بتلفيق كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

٤- قد تكون ثقافة الأديب المُلَفَّق بهذه الطريقة مُقتصرة ومأخوذة من الكلام المُلَفَّق.

ولا يهمننا أيّ الطرق سلك ابن المقفع وأي المقاصد قصد، لأنَّ النتيجة واحدة، وهي تأثره البالغ بكلام أمير المؤمنين عليه السلام وبهذه الطريقة التي جعلته يردف الحكمة العلوية بأختها والرسالة بالرسالة والمعنى بالمعنى.. حتى يمكن عد هذا المظهر أكبر مظاهر تأثر ابن المقفع بكلام أمير البيان عليه السلام، سواء هنا في الأدب الكبير، أو ما سيأتي في الأدب الصغير.

وبدقّة أكثر فإن تلفيق ابن المقفع لكلام الإمام عليه السلام قد وردَ مكوّن من:

١- حكمتين علويتين:

كتب ابن المقفع في الأدب الكبير موصياً الوالي: «لا يُضيعن الوالي الثبت

عندما يقول، وعندما يُعطي.. فإنَّ الرجوعَ عن الصمتِ أحسنُّ من الرجوعِ عن الكلام، وإن العطيّة بعد المنع أجملُ من المنع بعد الإعطاء»^(١).

فابن المقفع أوصى الوالي وصدره مطمئن لأنَّ ما أوصى به برّره بكلام أمير المؤمنين (عليه السلام). فحكّمته التي هي في القول ما هي إلّا معنى، وصياغة، وأسلوباً من وصية أمير المؤمنين لولده الحسن (عليه السلام) منها:

«وتلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك»^(٢).

فالمعنى واحد بين النصيّن ومفاده إن المتكلم قادر على أن يتكلم بعد صمته، ولكن لا يستطيع أن يعيد ما تكلم به.. «لأنَّ الكلام يُسمع وينقل؛ فلا يُستطاع إعادته صمّتا... وليس الصمت بمنقول ولا مسموع فيُتعدَّر استدراكه»^(٣).

وهكذا الصياغة فهي صياغة علوية بامتياز، فقد جعل ابن المقفع حكّمته تتكون من مقطعين يفصل بينهما اسم التفضيل: «فإن الرجوع عن الصمت أسهل من الرجوع عن الكلام».

وهكذا أمير المؤمنين (عليه السلام):

«تلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فاتك من منطقك».

وحتى بعد أن غيّر ابن المقفع بعض الألفاظ إلّا أن دلالتها هي لم تتغير.

فقد أبدل (صمتك) بـ (الصمت).

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٨-٧٩.

(٢) نهج البلاغة ٤٦٨.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٢٦٨.

و (أيسر) بـ (أسهل).

و (منطقك) بـ (الكلام).

و (تلافيك) بـ (الرجوع).

وأما قوله الأخير والذي تحدّث فيه عن العطاء، فهو تضمين نصي لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية»^(١).

وقد قال ابن المقفع وهو يلفق أيضاً من حكمتين علويتين: «واعلم أن الصبر صبران: صبر المرء على ما يكره، وصبره عما يحب. والصبر على المكروه أكبرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطراً. واعلم أن اللئام أصبر أجساداً، وأن الكرام هم أصبر نفوساً»^(٢).

فأول كلامه من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«الصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبر عما تحب»^(٣).

وبعد أن عشق ابن المقفع كلام أمير المؤمنين عليه السلام عشق تأكيداً أيضاً وما ابتدأ به من فعل الأمر «اعلم» - الذي غالباً ما يقدم به لقول الإمام - وما عزّزه به «إن» التوكيدية، إلا دلالة على ذلك.

ومن عشقه البالغ لهذا الكلام رغبته في التوسع به، أو شرحه حتى إنّ قوله: «والصبر على المكروه أكبرهما». لا يكاد يختلف عن شرح ابن

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ٧٩.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٠.

(٣) نهج البلاغة ٥٦١، وينظر: أدب ابن المقفع دراسة أسلوبية ٥٢.

أبي الحديد: «النوع الأول أشقُّ من الثاني»^(١)، ولربما لهذا السبب قدّم أمير المؤمنين عليه السلام الصبرَ على الضرّاء على الصبر عن السّراء، أي لجسامة الأوّل.

أما قول ابن المقفع الأخير فهو تضمين لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام: «اللّئامُ أصبرُّ أجساداً»^(٢).

غير أنّ ابن المقفع - كعادته - قدّم لها بفعل الأمر ثم توسع عليها كأختها.

٢. ثلاث حكم علوية:

تحدث أمير المؤمنين عليه السلام عن الصداقة والصديق في أقوال كثيرة؛ فمرّة يعدّ الصديق أفضل عدّة لنوب الزمان، وأخرى يعده زينة في أيام الأمان، مؤكداً على أنّ من يعجز عن اكتساب الصديق فهو أعجز الناس، فقال في هذه المعاني:

- «إخوان الصديق أفضل عدّة»^(٣).
- «الأخوان زينة في الرّخاء، وعدّة في البلاء»^(٤).
- «أعجز النّاس من عجز عن اكتساب الإخوان وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم»^(٥).

جمع ابن المقفع هذه الحكم الثلاث، فقال: «اعلم أنّ إخوان الصديق هم خير مكاسب الدنيا، هم زينة في الرّخاء، وعدّة في الشدّة، ومعونة على

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٣١١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٦٠.

(٣) عيون الحكم والمواعظ ١٢٦، ميزان الحكمة ١ / ٤١.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٨٢.

(٥) نهج البلاغة ٥٢٢.

٢٩٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

خير المعاش والمعاد. فلا تفرطن في اكتسابهم وابتغاء الوُصَلاتِ والأسبابِ إليهم»^(١).

إذا فهذه الحكم التي فرقها الإمام جمعها ابن المقفع في نص واحد، وكان قد ابتدأها بفعل الأمر «اعلم» وهذه الطريقة غالباً ما يستعملها مع كلام الإمام عليه السلام الذي يضمنه. ضمّن من الحكمة الأولى حرفياً «إخوان الصدق». ومن الثانية حرفياً أيضاً «هم زينة في الرخاء». والضمير «هم» هنا عائد على «الإخوان» واستعمال الضمير بدلاً من الاسم الصريح طريقة شائعة جداً في تعامله مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

أمّا تضمينه المحور فمن الحكمة الثانية والثالثة.

ففي الحكمة الثانية قال الإمام عليه السلام:

«وعدة في البلاء».

غير فيها ابن المقفع تغيراً طفيفاً فقال: «وعدة في الشدة». والمعنى واحد إذ لا فرق بين الشدة والبلاء.

وأما قول الإمام عليه السلام في حكمته الثالثة:

«أعجز الناس من عجز عن اكتساب الأخوان».

جعلها ابن المقفع آخر «فلا تفرطن في اكتسابهم».

والضمير «هم» هنا أيضاً عائد على الأخوان أي لا تفرط في اكتساب الأخوان، وهنا يبرز الأثر العلوي أكثر جلاءً.

(١) الأدب الصغير والدب الكبير ١٠٨.

٣- حكمتين ووصية:

فمن هذا النوع من التلفيق قول ابن المقفع في باب الاعتذار: «لا تعتذر إلا إلى من يُحبُّ أن يجدَ لك عذراً، ولا تستعين إلا بمن يُحب أن يظفرك بحاجتك، ولا تُحدثن إلا من يرى حديثك مغنياً، ما لم يغبلك اضطراباً. وإذا اعتذر إليك مُعتذراً، فتلقه بوجه مشرق وبشرٍ ولسانٍ طليحٍ إلا أن يكونَ ممن قطيعته غنيمَةٌ»^(١).

فكلامه هذا مكون من أربعة نصوص علوية: حكمتين، ثم مقطعين من وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام.

أما بداية كلامه فهو تضمين لحكمة علوية نهى فيها عليه السلام عن الاعتذار إلا إلى مقابل يتقبله وفي نفس غرس لتلقيه، وإلا فالرغبة عنه أولى، فقال:

«لا تعتذر إلى من لا يُحبُّ أن يجدَ لك عذراً»^(٢).

وأما قوله: «ولا تُحدثن إلا من يرى حديثك مغنياً». فهو يشبه ما جاء في وصية الإمام لولده الحسن عليه السلام:

«ولا ترغبَنَّ فيمن زهدَ فيكَ»^(٣).

ثم عاد مجدداً إلى الحديث عن الاعتذار: «وإذا اعتذرَ اليك مُعتذر فتلقه بوجه مترف...».

وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الباب:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٧.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٧٤٩.

(٣) نهج البلاغة ٤٧٠.

«واقبلْ عُذْرَ مَنْ اعتذرَ إليك»^(١).

وبالنسبة لما وردَ في ذيل كلامه: «إلاَّ أن يكون ممَّن قطيعته غنيمة». فكان فيه صدى لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل»^(٢). و«هذا حقٌّ، لأنَّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك»^(٣).

وبعبارة أخرى مثلما أنَّ صلة العاقل غنيمة كذلك قطيعة الجاهل غنيمة أيضاً، لأنَّ في الجاهل شراً، وبجفائه يحفو ذلك الشر، وبالتالي فإنَّ بعده غنيمة. وهنا يتضح بجلاء التطابق بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام ابن المقفع.

ومثلما اتَّضح فإنَّ ابن المقفع تحدَّث في مستهلِّ كلامه عن الاعتذار، ثمَّ انتقل إلى معنَى آخر عندما بيَّن مَنْ تُفْضَلُ الاستعانة بهم، ثم إلى معنَى ثالث تحدَّث فيه عمَّن تفضَّل محادثته، ثمَّ عادَ رابعة إلى الاعتذار، وهو بهذا كلِّه يلفِّق كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلاَّ أنَّ هذا التلفيق - مثلما يراه الباحث - لم يكن ممدوحاً، لأنَّه جمع بين معانٍ ليست هي بالمتقاربة، بينما التلفيق المحبَّب هو مثلما قال الدكتور إحسان عباس: «أنَّ يأخذ الشاعر المعاني المتقاربة ويستخرج منها معنًى مؤكِّداً يكون له كالاختراع»^(٤).

٤. حكمة ومقطع من العهد:

فمن ذلك قول ابن المقفع: «حقُّ الوالي أن يتفقدَ لطيفَ أمورِ رعيته، فضلاً

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ٤٣٦.

(٢) نهج البلاغة ٤٧١.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٢٨٤.

(٤) تأريخ النقد الأدبي عند العرب ٤٥٩.

عن جسيمها، فإنَّ اللَّطِيفَ موضعاً ينتفعُ به، وللجسيم موضعاً لا يُستغنى عنه. ليتفقد الوالي، في ما يتفقدُ من أمورِ رعيته، فاقَّةَ الأخيارِ الأحرارِ منهم، فليعمل في سدِّها، وطغيانِ السَّفلةِ منهم فليقمعه، وليستوحش من الكريمِ الجائعِ واللَّئيمِ الشَّبعانِ، فإنَّها يصولُ الكريمُ إذا جاعَ، واللَّئيمُ إذا شبع»^(١).

يرى ابن المقفع في أول كلامه إنَّ من واجبات الوالي معرفة وتفقد ما تحتاجه الرعية في صغائر الأمور وكبارها. وهو بذلك اعتمد كلياً على ما جاء في عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) لملك الأشتر (رضوان الله عليه) في هذا الشأن:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدَيْهِمَا، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوِيَّتُهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِّلَّيْسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَتَنَفَّعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ»^(٢).

فأغلب النصُّ العلوي ضمَّنه ابن المقفع بنصّه، ولكن كعادته؛ فهو يرغب في أن يغيّر شكلياً في فقرات كلام الإمام (عليه السلام) - هذا أو غيره - إذ نجد هذه الطريقة في مقاطع عدّة من أول نصّه المذكور، فقد أبدل: «ولا تدع تفقد لطيف أمورهم» بـ «أن يتفقد الوالي لطيف أمور رعيته».

و«اتكالا على جسيمها» بـ «فضلاً عن جسيمها».

و«فإنَّ لِّلَّيْسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً» بـ «فإنَّ لِلَّطِيفِ مَوْضِعاً».

و«يتنفعون به» بـ «ينتفع به».

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٧-٧٨.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٦ - ٥٠٧.

و«للجسيم موقعا» بـ «وللجسيم موضعاً».

و«لا يستغنون عنه» بـ «لا يستغنى عنه»^(١).

ومثلما بينا سابقاً إنّ من مناورات ابن المقفع مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي أن يعمد إلى الاسم الظاهر فيحوّله إلى ضمير، أو بالعكس، ونجد هذا هنا في قوله: «أن يتفقد الوالي لطيف أمور رعيته» ولفظة «رعيته» عائدة على الضمير الموجود في قول الإمام عليه السلام:

«ولا تدع تفقد لطيف أمورهم».

فالضمير «هم» هنا عائد على الرعيّة، لأنّه عليه السلام ذكرها سابقاً.

وأما الاسم «تفقد» في قول الإمام عليه السلام، فقد حوّل ابن المقفع إلى مصدر مؤول من أن والفعل فقال: «أن يتفقد» ولو أرجعنا المصدر لأصله لقلنا كما قال الإمام عليه السلام «تفقد».

وعلى هذا فإنّ حتى هذه التغيرات التي أجراها ابن المقفع على كلام إمام الكلام عليه السلام فهي شكلية تمويهية لا أكثر، وإلاّ فإنّ كلامه أشبه ما يكون تضميناً نصياً لكلام الإمام عليه السلام.

ومن مناورات العدة هي التقديم والتأخير في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فما افتتح به الإمام المقطع المذكور: «ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من

(١) وهنا ومن النصوص التي تأتي نوّكد ثانية إن عهد أمير المؤمنين عليه السلام لملك الأشتر كان موجوداً وكان مؤثراً وبالتالي بطلان الشكوك والاتهامات التي تقول بأن العهد لم يكن موجوداً في زمن الشريف الرضي ولو كان موجوداً لأثبتته الطبري في تأريخه بينما هنا تبين أنه موجود قبل الطبري والرضي بمئات السنين.

ولدهما» أخره ابن المقفع إلى المقطع الثاني: «ليتفقد الوالي، ما يتفقد من أمور رعيته». غير إن ابن المقفع قصر كثيراً لما أبدل «الوالدان» بـ «الوالي»، لأن في تعبير الإمام عليه السلام «كناية عن نهاية الشفقة»^(١). ومما زاد في نهاية الشفقة - مثلما يرى الباحث - هو إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل: ما تفقد الوالد، بل قال: «الوالدان»، لأن طبعي لو اشترك الوالدان معاً في رعاية أبنائهم وتفتيش أمورهم لكان ذلك أكثر إمعاناً والتفاتاً لصغار الأمور وكبارها، وأقدر على توفية احتياجاتهم، لما لكل منهما - أي الوالدان - من نظرة خاصة ومجال عمل خاص مكلف به تجاه أولاده، وبالتالي تكون النتيجة هي تلبية جميع احتياجات الأبناء، وهكذا أراد أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) للوالي أن يكون.

يذكر إن الإمام عليه السلام استعمل اسمي المكان: «موضع» مع اللطيف اليسير، و«موقع» للجسيم العظيم، وهذا لم يكن بمحض الصدفة، ولعل السبب الذي نراه في ذلك هو إن اللطيف اليسير بمعناها الإيجابي، وبدلالاتها الهادئة يناسبها كلمة «موضع»، في حين إن الجسيم وما فيه من دلالة الشدة والمشقة تختير لها عليه السلام ما يناسبها، لأن الموقع أو الواقعة أو الموقعة توحى إلى ذلك. ولهذا جعل (صلوات الله عليه) لكل أمرٍ ما يناسبه. ولكن أتى لابن المقفع هذا، إذ جعل «الموضع» مع اللطيف والجسيم.

وفي نهاية كلامه المذكور استدل ابن المقفع على نصيحته التي وجهها بحكمة علوية ضمّنها حرفياً جاء فيها: «احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع»^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٣٤٦/٥.

(٢) نهج البلاغة ٥٦١. ولتنويع الحكمة ينظر: حكم الإمام علي عليه السلام ومواعظه دراسة وتحقيق =

علق الشيخ عباس القمي على هذه الحكمة قائلاً: «يراد بالكريم شريف النفس، ذو الهمة العالية، وبجوعه ضيمه وامتهانه، وشدة حاجته. ذلك مستلزم لثوران غضبه وحميته عند التفات الناس إليه، وشبع اللئيم كناية عن غناه وعدم حاجته، وذلك يستلزم تمرده وأذيته لمن كان تحت يده.. فربما كان جوعه سبباً لتغير أخلاقه وتجويدها»^(١).

٥- وصية وحديث:

لم تسلم حتى مقدمة الأدب الكبير من الأثر العلوي، وبالتحديد كان التأثير بوصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام، وابن المقفع وفي هذا المكان بالذات كان مصيباً بهذا التأثير، لأنه في تلك المقدمة أوصى بالتوجه نحو ثلة متميزة والسير على هديها في كل شيء، والوصية في جزء منها توصي بالإقتداء بالصالحين، وأخذ ما توصّلوا إليه من آراء نخيلة. فمنها قوله عليه السلام:

«فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغَلَ لُبُّكَ، لِيَسْتَقْبَلَ بِحَدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجَرِبَتُهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِّتَ مَوْوَنَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيَتْ مِنْ عِلَاجِ التَّجَرِبَةِ... أَيُّ بُنْيٍّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرٍ مَنْ كَانَ قِلي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَرْتُ مَعَ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ

=من شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري ٤١. وأشار إلى تضمين ابن المقفع

لهذه الحكمة الباحث عبد الحسين العمري في رسالته للماجستير (أدب ابن المقفع دراسة

أسلوبية) ٥١.

(١) شرح حكم أمير المؤمنين عليه السلام ١٢ - ١٣.

ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ... وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ»^(١).

إن من أهم ما يتركز عليه النص وأكد عليه أمير المؤمنين هو أنه عليه السلام من أهم أهل التجارب، وأدقهم نظراً للأحداث، وأبعدهم سبراً للواقع حتى كأنه عمّر مع أولهم كما عمّر مع آخرهم، وبالتالي استخلص «من كل أمر نخيله» أي المختار منه^(٢)، ثم وظّف عليه السلام تلك المقدرة على استخلاص الصفو من الكدر، وهما كنياتان: الأولى عن الخير، والثانية عن الشر^(٣)، وبث ما استخلصه من تلك التجارب ليتفجع بها الإمام الحسن عليه السلام وكل من قرأها.

وقال عليه السلام في بيان ما يمتلكه من علم:

«عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ يُفْتَحُ لِي مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ»^(٤).

نظر ابن المقفع إلى المعاني المذكورة وتفصيلها، وبعض العبارات بنصها، حتى قال في الأدب الكبير: «ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل الذي قَسِمَ لأنفسهم حتى أشركونا معهم في ما أدركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية، وضربوا الأمثال الشافية، وكفونا به مؤونة التجارب والفطن. وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم. كان يفتح له الباب من العلم، أو الكلمة من الصواب... فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده،

(١) نهج البلاغة ٤٥٩.

(٢) ينظر: لسان العرب مادة (نخل).

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢٦٣/٥.

(٤) نشأة التشيع والشيعة ١١٢. وينظر: رسائل المرتضى ٢١٥/١.

٣٠٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

الرحيم البر بهم»^(١).

وبمقارنة بعض الفقرات ببعضها بين النصين يتضح كيف اعتمد ابن المقفع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام المذكور.

فقد أبدل جملة الإمام «كفاك» بـ «كفونا».

و«أهل التجارب بغيته وتجربته» بـ «مؤونة التجارب».

و«وقد كفيت مؤونة الطلب» بـ «إرادة ألا تكون عليهم مؤونة في الطلب».

و«وعناني ما يعني» بـ «صنيعهم في ذلك صنيع».

و«الوالد الشفيق» بـ «الوالد الشفيق».

فهنا ضمّن ابن المقفع عبارة الإمام الأخيرة بنصبها، أمّا التي قبلها، وإن كان غير في الفاظها، إلاّ أنّه استعمل التكرار «صنيعهم.. صنيع» مثلما وجده عند الإمام: «عناني.. يعني».

والملفت إن ابن المقفع لم يمدح هؤلاء الناس الذين تأثر بهم ودوّن كلامهم فحسب، بل اعتمد على كلامهم ووصفهم لمنزلتهم ليمدحهم به. فقلوله: «يُفتح له الباب من العلم» مشكّل كلمة كلمة من حديث المرتضى عليه السلام:

«علمني... ألف بابٍ من العلم يُفتح لي من كلّ باب..».

٦- نصين من العهد:

ومن هذا النوع من التلفيق قول ابن المقفع: «إن استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفك بصالح مروءتك وصحة دينك وسلامة أمورك قبل

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٣ - ٦٤.

ولايته فافعل فإن الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته. أما إذا ولي فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع وكلهم يحتال لأن يشني عليه عنده بما لا ليس فيه. غير أن الأندال والأردال هم أشد ذلك تصنعاً وأشد عليه مثابة وفيه تحلاً. فلا يمتنع الوالي، وإن كان بليغ الرأي والنظر، من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثير من الخانة بمنزلة الأماناء، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء، ويغطي عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التمحل والتصنع»^(١).

فكل هذه المعاني، وبعض الألفاظ قد وردت في مقطعين متباعدين من مقاطع عهد أمير المؤمنين عليه السلام لملك الأشتر «رضوان الله عليه»، إلا أن ما قام به ابن المقفع هو دمجها معاً، وتداخلها أيضاً من خلال التقديم والتأخير.

المقطع الأول:

كان أمير المؤمنين عليه السلام مهتماً اهتماماً بالغاً في تخير الكتاب، لما لهم من سلطة فاعلة وقوة مقتدرة على التأثير في المجتمع، لا تقل عن سلطة الإعلام ودوره في وقتنا الراهن، لذا أعطى عليه السلام طريقة مثلى تُتبع من أجل تخير هذه الثلة المهمة، لا تقوم هذه الطريقة على أساس التفرس والتصنع الذي يجيده عامة الناس، بل على وفق ضوابط وأسس فصلها عليه السلام منها:

«لا يَكُنْ اختيارَكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ، وَاسْتِنَامَتِكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ»^(٢).

الفراصة هي حسن النظر في الأمور وقوة الظن، والاستقامة هي السكون

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٨١.

(٢) نهج البلاغة ٥١٢.

٣٠٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

والثقة، والمعنى لا يكون انتخابك لكتابك نابعاً من ميلك الخاص^(١)، لأنّ ومثلما قال عليه السلام: «الرّجالُ يتعرّفونَ لفراساتِ الولاةِ بتصنّعهم وحسن خدمتهم»^(٢). وهذا ما وجدناه في قول ابن المقفع: «فكُلَّ الناس يلقاه بالتزين والتصنع».

وكان عليه السلام قد حذر من أن كلّ هؤلاء المتصنعين يكذبون، وتصنعهم هذا ما هو إلّا حُبالَة لاصطياد ودّ الوالي فقال (صلوات الله عليه): «وليس وراء ذلك - أي التصنع - من النصيحة والأمانة شيء»^(٣).

وعن هذا قال ابن المقفع ممّا وصف المتصنعين: «وكُلّهم يحتال لأن يُثني عليه عنده بما ليس فيه...».

وبعد هذه التحذيرات جاء المقياس الحقيقي عند أمير المؤمنين عليه السلام الذي يحدّد تسنّم هذا المنصب فقال: «ولكن أختبرهم بما وُلّوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان في العامّة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً»^(٤).

وهذا المقياس قدّمه ابن المقفع إلى أول كلامه المذكور. ولكن هذه الإرشادات التي حدّدها أمير المؤمنين عليه السلام لتخير الكتاب وضمّها ابن المقفع مع مَنْ يُصحب من الولاة.

المقطع الثاني:

وفيه نهى أمير المؤمنين عليه السلام واليه عن الاحتجاب من الرعيّة فقال: «وأما بعدُ، فلا تطوّلنَ احتجابك عن رعيتك»^(٥).

(١) ينظر شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٣ / ٤٦٨.

(٢) نهج البلاغة ٥١٢.

(٣) م. ن ٥١٢.

(٤) م. ن ٥١٢.

(٥) م. ن ٥١٦.

وهذا ما وجدناه في قول ابن المقفع: «فلا يمتنع الوالي». وبإيضاح أكثر فإن لفظة «احتجابك» مكونة من الاحتجاب، والضمير «الكاف» الدال على الولي، وابن المقفع أبدل الاحتجاب بـ «يمنتع» والمعنى واحد، وأبدل الضمير بالاسم الظاهر «الوالي».

والذي نلاحظه في دقة كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) هنا أنه لم ينع عن الاحتجاب مطلقاً، لأنه مدرك بأن للوالي مشاغل تحتم عليه الاحتجاب عن الرعية، ولكنه نهى عن طول الاحتجاب «لا تطوّلن»، ثم بعد ذلك برّر (عليه السلام) نهيه الوالي عن الاحتجاب بقوله:

«فَإِنْ اِحْتَجَابَ الْوَلَاةَ عَنِ الرَّعِيَّةِ... يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا اِحْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عَنْدهُمْ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ»^(١).

إذاً باحتجاب الوالي تفلت الموازين ويصبح عزيز القوم ذليلهم «ولا خير في قوم يذلّ كرامهم»^(٢)... موصلاً هذا المعنى عن طريق تلك المقابلات المؤثرة ذات الفقرة المتوازية، وهذا النوع من التخاطب له القابلية على أن «يكشّف دلالة المعنى، ويضاعف من الطاقة الشعورية بشعرية النسق الإيقاعي القائم على الضد... ليخلق جواً إيقاعياً... يوصلُ الفكرة»^(٣).

وعلى أية حال فابن المقفع وهو يحذو حذو أمير المؤمنين (عليه السلام) برّر رفضه

(١) نهج البلاغة ٥١٦.

(٢) البيت لأبي هلال العسكري وتماحه: لا خير في قوم يذلّ كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود ينظر:

معجم الأدباء ٨ / ٢٦١ - ٢٦٢.

(٣) المستويات الجمالية في نهج البلاغة ٧٤.

٣٠٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

لاحتجاب الوالي بما برّره الأمام عليه السلام. وذلك في قوله: «من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثير من الخانة منزلة الأمناء، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء... إلى آخر قوله.»

ومثلما اتضح فإنّ هذا الاتّباع لم يكن بالمعنى فحسب، بل نجد إنّ ابن المقفع يعتمد إلى فن المقابلة عند أمير المؤمنين عليه السلام:

فيصغر عندهم الكبير - ويعظم الصغير.

يقبح الحسن - يحسن القبيح.

ليحوّله إلى ما يشبهه وهو الطباقي:

الأشرار - بمنزلة الأخيار.

الخانة - بمنزلة الأمناء.

الغدرة - بمنزلة الأوفياء.

ثالثاً: البسط:

البسط مثلما سلف آلية أو مظهر من مظاهر تأثر الأديب تقوم على التوسع والزيادة. ونرى أنّ هذا المظهر يقوم على أساسين:

الأول:

أنّ يتميّز الكلام الذي يُراد بسطه بمضمون عالٍ، وصياغة فنية متميّزة - لأنّ بعض الصياغات لها تأثير مباشر على المعنى سلباً أو إيجاباً - فإذا فقد النص هذه الخاصية تعرّس بسطه، وحتى إن أمكن يكون دون جدوى.

الثاني:

يخص الأديب المتأثر، إذ عليه أن يجعل البسط أمراً إيجابياً من خلال الإتيان بمعنى جديد، أو إظهار معنى موجود لكنه مبهم، أو يعرض الكلام الأصل بطريقة تفوق الأولى. إمّا إذا فقدنا هذه الأسس فإن البسط لا يكون، وإن كان فلربما يعد نفلاً من القول غير محموداً، ولربما يُعد محاولة من الأديب المتأثر للتمويه على الكلام الذي تأثره وقام ببسطه.

أمّا ورود البسط عند ابن المقفع فهذا مما عرفه عنه بعضهم فقليل عنه: «لا يتناول معنى من المعاني، إلّا ويتبعه حتى نهايته، وحتى يفهم حقه من الوضوح. وكثيراً ما يفصل، ويشرح حتى لا يدع للقارئ مجالاً لأعمال الذهن. ولقد انتقد بعض النقاد هذه الناحية، فقالوا إنّ ابن المقفع، إمّا أن لا يكون يثق بالقارئ، وإمّا أنه يخشى أن لا يكون مفهوماً، وكلا الحالتين سيء، لأنّه يوقع الكاتب في خطأ الاسهاب في بعض الأحيان»^(١). وقيل أيضاً: «إنّه أفاد ممّا سمع، وزاد عليه من عنده، وتوسّع في الكلمة الصغيرة، واللفتة القصيرة»^(٢).

ولكن أصحاب هذا الرأي لم يخبرونا قط عن هذه الكلمة الصغيرة التي توسع عليها ابن المقفع لمن هي.

وفي مقدمة أدبه المذكور أشار ابن المقفع صراحة إلى أنّه اعتمد هذه الآلية مع من أسماهم بـ «الأولين»، فقال: «وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم، فمن

(١) دراسات في الأدب العربي ٥٤.

(٢) آثار ابن المقفع ٣٠.

٣٠٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ذلك بعض ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا»^(١). إذاً فهو كان يعتمد على حكم الأولين ويشق منها صغار الفطن وطبعاً هذا الاشتقاق لا يحدث إلا بعد أن يزيد ما يراه مناسباً على الحكمة التي يتأثر بها وهذا هو معنى البسط بعينه. أمّا من هم الذين اشتق ابن المقفع من حكمهم؟ فبعد مقارنة الأدب الكبير ببعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام تمّ تحديد كثيراً من الحكم العلوية قام ابن المقفع ببسطها ومنها قوله عليه السلام:

«لَا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضْرَّتْ بِالفَرَائِضِ»^(٢).

النفل هو الزيادة على الأصل^(٣). والنوافل جمع نافلة، وهي ما يُتَطَوَّعُ به من الأعمال الصالحات زيادةً على الفرائض المكتوبة^(٤).

وكلامه هذا يمكن أن يحمل على الحقيقة، وعلى المجاز أيضاً، فإن حُمِلَ على الحقيقة فيعني أنّ التنفل لا يصح ممّن عليه قضاء فريضة فاتته لا في الصلاة ولا في غيرها، أمّا لو حُمِلَ على المجاز فيعني وجوب الابتداء بالأهم^(٥).

وسواء حُمِلَ على الحقيقة أم المجاز فإنّ صداه واضحٌ في قول ابن المقفع، لكن بتوسع وتفصيل كبير: «يا طالبَ الأدبِ [العلم] إن كنتَ نوعَ العلمِ تريدُ فاعرفِ الأصولَ والفصولَ. فإن كثيراً من الناسِ يطلبونَ الفصولَ مع إضاعةِ الأصولِ فلا يكونُ دركهم دركاً. ومن أحرزَ الأصولَ اكتفى بها عن الفصولِ. وإن أصاب

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٥.

(٢) نهج البلاغة ٥٥٩.

(٣) ينظر: لسان العرب ١١ / ٦٧١ مادة (نفل).

(٤) نهج البلاغة ٥٥٩. (الهامش).

(٥) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٢٩٤.

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٣٠٧

الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل. فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجنب الكبائر، وتؤدي الفريضة... وأصل الأمر في صلاح الجسد إلا تحمل عليه من المأكّل والمشارب... إلا خُفَاقاً، ثم إن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك كله فهو أفضل...»^(١).

فابن المقفع هنا منطلقاً من المعنى العلوي في إحراز الأصل أولاً، ثمّ التنفّل عند الاستطاعة ثانياً، إلّا أنه أبدل «النوافل» بـ«الفصول» وكلاهما فروع، أو مستحبات، أو ليس عملهن بالأولى. وأبدل «الفرائض» بـ«الأصول». ثمّ قال: إنّ من عمل عملاً ما وهو متمسّك بالفروع دون الأصول فإن إدراك ذلك لا يكون دركاً، وهذا ما وجدناه في قول أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا قربة بالنوافل».

ثم بعد ذلك أخذ ابن المقفع يفصل، ويضرب الأمثلة: ما هو الأصل في الدين، وما هو الأصل في إصلاح الجسد، وما هو الأصل في الشجاعة.... وهذه الطريقة من التوسع القائمة على ضرب الأمثلة استعملها ابن المقفع كثيراً مع كلام الإمام (عليه السلام)، وسيوضح ذلك.

وبمثل هذه الطريقة تعامل ابن المقفع مع حكمة أمير المؤمنين (عليه السلام) التي تقول:

«إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالًَ وَإِدْبَاراً، فَأَتَوْهَا مِنْ قَبْلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ»^(٢).

بيّن (عليه السلام) طريقة رائدة نتعاطى من خلالها مع القلب ومسايرته بأسلوب

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٥ - ٦٦.

(٢) نهج البلاغة ٥٨٦.

رياضي خوفاً من نفوره. وبما إن القلب هو المرتكز هنا فقد أكد عليه مرتين الأولى من خلال تقديمه على إسم إن «إن للقلوب شهوة»، والثانية بأن المسبوقه بالفاء التعليلية «فإن للقلب»، ثم استعار له لفظة العمى المعروفة العواقب والمؤثرة في استعمالها، وما صاحب ذلك من فنون بديعية كالسجع والطباق والتكرار. محذراً عليه: «إذا تواصل إكراه القلب على أمر لا يحبه ولا يؤثره تعب لأن فعل غير المحبوب متعب. وإذا أُتعب القلب وأعيأ عجز عن إدراك ما نكلفه إدراكه، لأن فعله هو الإدراك... فإذا عجز القلب عن فعله الخاص به وهو العلم والإدراك فذاك هو عماه»^(١). وطبيعي عنى الإمام عليه السلام بالشهوة والإقبال، الرغبة في الأمور التي يرتضيها الدين الحنيف لا كل شهوة يقبل القلب عليها.

نظر ابن المقفع إلى هذه الحكمة وبخاصة إلى ما ورد في آخرها فقال مؤكداً: «اعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة صرت إلى التقصير، وإن جاوزتها في حمل العلم لحقت بالجهال، وإن جاوزتها في تكلف رضى الناس والخفة معهم في حاجاتهم كنت المحشود المصنع»^(٢).

والمعنى مشترك غير إن ابن المقفع لم يذكر القلب الذي ورد ذكره بالحكمة العلوية، لكنه ذكر ما هو نابغ من القلب والقلب وعاء له كذكره للعلم والعبادة. كما إنه لم يذكر الإكراه، بل ذكر ما يعطي دلالة «جاوزت الغاية». وهذا الإكراه أو مجاوزة الغاية يولدان «عمي» القلب عند أمير المؤمنين عليه السلام، والتقصير عند ابن المقفع.

وبهذا الأسلوب أيضاً نظر ابن المقفع إلى حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / ٧-٨.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢١.

«لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»^(١).

وقد علق الرضيّ على الحكمة بقوله: «وهذا من المعاني العجيبة الشريفة، والمرادُ به إنّ العاقل لا يطلق لسانه، إلّا بعد مشاورة الرّويّة ومؤامرة الفكرة. والأحمق سبق حذقات لسانه وفلتات كلامه مُراجعة فكره، ومما خصّه رأيه فكأنّ لسان العاقل تابع لقلبه، وكأنّ قلب الأحمق تابعٌ للسانه»^(٢).

أخذ ابن المقفع هذه الحكمة وتوسع فيها فقال: «اعلم أن لسانك أداة مُصلّتة، يتغالبُ عليه عقلك، وغضبك وهواك وجهلك. فكلّ غالبٍ مستمتعٌ به وصارفه في محبته، فإذا غلبَ عليه عقلك فهو لك، وإن غلبَ عليه شيءٌ من أشباه ما سميتُ لك فهو لعدوّك»^(٣).

وبنظرة على مقدمة كلامه يتبين أنّه متحفّزٌ لترسيخ هذا المعنى من خلال المقدمة التي غالباً ما يقدم بها لكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) والمتمثلة بفعل الأمر وإنّ التوكيدية، أو ما يدل دلالتهم، ثم بعد ذلك ذكر لفظة اللسان، ومثلها وجدها عند أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهذه اللفظة هنا مجازية ذات علاقة آلية^(٤)، لأنّه ذكر اللسان وأراد ما يجري عليه من كلمات بالخير أو الشرّ. أمّا لفظة «وراء» في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) والتي هي استعارة لما يعقل، من تأخّر لفظ العاقل عن رويته ومن تأخّر روية الأحمق وفكره عند قوله من غير مراجعته لعقله^(٥)، فقد

(١) نهج البلاغة ٥٥٩.

(٢) م. ن ٥٥٩.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٦.

(٤) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة ١٣٧.

(٥) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٠٥.

٣١٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

عبر عنها ابن المقفع بقوله: «يتغالبُ عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك» . فإذا جعل المرء لسانه وراء قلبه، أي مكنَّ القلب من أن يغلب اللسان فهذا هو «لسان العاقل» بحسب الحكمة العلوية، وبحسب قول ابن المقفع: «غلبَ عليه عقلك».

وإذا جعل المرء «قلبه وراء لسانه» أي جعل اللسان ينطق دون الرجوع إلى الروية والتفكير القلبي، فهذا هو «لسان الأحمق» بحسب الحكمة العلوية، وبحسب قول ابن المقفع: غلبة «غضبك وهواك وجهلك»

وعلى الرغم من إنَّ روح كلام ابن المقفع ومحركُ نصِّه هذا هو الحكمة العلوية المذكورة، إلاَّ أنها عند مبتدعها لها رونق خاص ووقع متميِّز تمثل بمعناها العظيم، وإيجازها الوسيم، وسبكها الملتحم، وفنونها البلاغية التي جاءت على غير تكلف كال تكرار فقد كرَّر عليه لفظه «اللسان» مرَّتين: الأولى افتتح بها الحكمة، وبالثانية ختمها فهو بهذا جعل اللسان أولاً وآخرًا، لأنَّ الحكمة جاءت من أجله، ومن أجل القلب، لذا كرَّره مرتين أيضاً. والسجع «قلبه - لسانه» والطباق «العاقل - الأحمق». فضلاً عن إنَّها جاءت مكوَّنة جميعها من أسماء بدون أي فعلٍ أو حرف.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان له بالغ الأثر في أدب ابن المقفع لاسيما في الأدب الكبير عهده لمالك الأشتر (رضوان الله عليه)، ومما جاء فيه:

«وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ»^(١).

وهذا جدول عمل منظَّم، ودستور متقدِّم، حريٌّ به أن يطبَّق في كُلِّ مرافئ

الحياة؛ فهو ينهانا عن الذهاب إلى اليوم القابل ونحن محمّلين بأعمال اليوم الماضي، لأنّ اليوم الجديد له عمل جديد أيضاً، والتقصير في عمل اليوم الماضي سيؤثر على اللاحق، وهكذا حتى تتراكم الأعمال وبالتالي تُصاب نتيجة العمل بخلل جرّاء ذلك التقصير.

ورد هذا المعنى في الأدب الكبير وبطريقة البسط: «إذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلمس الروح في مدافعتها بالروغان منها. فإنّه لا راحة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنك، والضجر هو الذي يراكمها عليك»^(١). فهو ينهى عن مدافعة الأعمال أي تأخيرها إلى الغد، وهذا من أول كلام الإمام عليه السلام. ثم توسع ابن المقفع لما رغب بأن «لا راحة» إلا في إصدار الأعمال بيومها والطريقة المثلّية لإصدارها في يومها هو «الصبر عليها» لأنّه «يخففها» والضجر «يراكمها». وكلّ هذا روحه الكلام العلوي السالف. وفي بعض مقاطعه كان عليه السلام يعطي منهاجاً دقيقاً لتوخي الأصدقاء، ومن ذلك قوله عليه السلام:

«والصق بأهل الورع والصّدق»^(٢).

وعلى هذا سار ابن المقفع متوسّعاً فقال: «اعرف الفضل في أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة. فيكونوا هم إخوانك وأعوانك وأخذانك وأصفياءك وبطانتك وثقاتك وخلطاءك»^(٣).

فلفظة «الصق» التي وصفها ابن أبي الحديد بأنها لفظة فصيحة والتي تعني

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٠.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٤.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٠.

٣١٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

اجعل أهل الورع خاصّتك، وخلصاءك^(١). توسع عليها ابن المقفع كثيراً في قوله: «فليكونوا هم إخوانك وأعوانك وأخذانك وأصفياءك...» والأهم إن ما جاء في الأدب الكبير هنا أكثر تفصيلاً حتى من شرح ابن أبي الحديد السالف لكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد ما أمر أمير المؤمنين عليه السلام بملاصقة أهل الورع والصدق قال بعد ذلك مباشرة:

ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجُحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ
الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الرَّهْوَ، وَتُذْنِي مِنَ الْعِزَّةِ^(٢).

أي «عودهم ألا يمدحوك في وجهك ولا يجعلوك ممن يبيح أي يفخر بباطل لم يفعله كما يُبيح أصحاب الأمراء بأن يقولوا لهم: ما رأينا أعدل منكم ولا أسمح»^(٣).

وهذا أيضاً نجده بتوسع عند ابن المقفع، لكنّه قدّمه على فقرته السابقة بمعنى انه عمل عكس ما عمل أمير المؤمنين عليه السلام لما أمر بملاصقة أهل الورع، ثم أمر بتعويدهم على الابتعاد عن المدح الزائد، فقال في الأدب الكبير: «وإياك إذا كُنْتَ والياً، أن يكونَ من شأنك حبّ المدح والتزكية وأن يعرفَ الناسُ ذلك منك، فتكونَ ثلّة من الثلث يتقحمون عليك منها، وباباً يفتتحونك منه، وغيبةً يغتابونك بها ويضحكون منك لها. واعلم أن قابل المدح كما دح نفسه. والمرءُ جديرٌ أن يكونَ حبه المدح هو الذي يحمّله على رده. فإن الرادّ له محمودٌ، والقابل

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ١٧ / ٣٢.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ١٧ / ٣٢.

له معيب»^(١).

وبعد هذا التقديم والتأخير الذي عمله ابن المقفع على كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) جعل في أثر كل مقطع من المقطعين السابقين حكمة علوية، وبطريقة التوسع، فقال بعد أن نهى الوالي عن حب المدح: «لتكن حاجتُك في الولاية إلى ثلاثة خصال: رضى ربك ورضى سلطانٍ، إن كانَ فوقك، ورضى صالح من تلي عليه»^(٢).

ففي هذا بسط لبعض ما جاء في الحكمة العلوية:

«من الحكمة طاعتُك لمن فوقك، وإجلالك من هو في طبقتك، وإنصافك لمن هو دونك»^(٣).

فهنا جعل أمير المؤمنين (عليه السلام) جانباً من الحكمة يتحقق في ثلاث أمور هي طاعة من هو أعلى منزلة، واحترام وإجلال من هو مساوٍ في المنزلة، وإنصاف من هو دون فيها. مستعملاً أسلوب التقديم والتأخير إذ قدم الجار والمجرور «من الحكمة» وجعل لها الصدارة في الكلام، لأنه أراد لها صدارة المعنى. وبطريقة مشابهة عمل ابن المقفع لما افتتح كلامه مؤكداً بلام الأمر.

وأما بؤرة البسط هنا فتكمن في قول ابن المقفع: «ورضى ربك ورضى سلطانٍ إن كان فوقك» فقد يراه الباحث بسطاً لما ورد في الحكمة العلوية: «طاعتك لمن فوقك»، لأن لفظة «فوق» في حكمة الإمام (عليه السلام) مفتوحة الدلالة، فيمكن

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٩.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١١٢.

أن تنطبق على الله تعالى، ويمكن أن تنطبق على السلطان الشرعي، بل على كل من هو أعلى منزلة، ومن ثم فإن توسعها اختزال ما قاله ابن المقفع في هذا الصدد، ولكن توسعه هذا كان على حساب القسم الثاني الذي أمر فيه أمير المؤمنين عليه السلام بـ «إجلال من في طبقتك». وهذا ما يؤخذ عليه ابن المقفع، لأنه أوصى بمن هو فوق «ربك، سلطان»، ومن هو دون «من تلي عليه»، وأهمل من هو مساوٍ في المنزلة.

أما قوله الذي وجه فيه إلى مصاحبة أهل الدين والمروءة والالتصاق بهم فقد قال بعده: «إنك إن تلتمس رضى جميع الناس تلتمس ما لا يدرك. وكيف يتفق لك رأي المختلفين، وما حاجتك إلى رضى من رضا الجور، وإلى موافقة من موافقة الضلالة والجهالة؟ فعليك بالتماس رضى الأخيار منهم وذوي العقل. فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه»^(١).

وما هذا إلا بسطاً لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي عدّ فيها رضى الناس غاية بعيدة المنال، لأن كثيراً من الناس يقيسون بمقياس منحرف، وعليه سيفترقون في حكمهم على شخص ما. ولكن هذا لا ينبغي أن يكون حاجزاً ومثبطاً عن فعل الخير، فقال عليه السلام:

«رضى الناس غاية لا تدرك فتحرّ الخير بجهدك و لا تُبالِ بسخط من يُرضيه الباطل»^(٢).

ف نجد ابن المقفع قد قام بتغيرات شكلية على الحكمة وذلك لما أبدل قول الإمام عليه السلام «رضى الناس» بـ «رضى جميع الناس»

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ٤٥٩ / ٢٠.

و«غاية لا تدرك» بـ «تلتمس ما لا يدرك».

ونجده أيضاً لم يكتف بالبسط الذي أجراه على باقي الحكمة، بل أخرّ وقدّم فيه، فقوله ﷺ الذي أمر فيه بتحّرّ الخير وجعله هدفاً منشوداً «فتحّرّ الخير بجهدك» أخره ابن المقفع، ثمّ بسطه لما قال: «فعليك بالتماس رضى الأختيار منهم وذوي العقل». وبعد ذلك نهى عن الأكثرات لأهل الباطل إن غضبوا «ولا تبال بسخط من يرضيه الباطل» قدّمه ابن المقفع، ثم بسطه أيضاً بقوله: «وما حاجتك إلى رضى من رضاه الجور وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة».

وبالطريقة نفسها تأثر ابن المقفع بحكمة علوية أمر فيها أمير المؤمنين ﷺ بالإتكال على الباري - سبحانه وتعالى - واليأس عمّا في أيدي الخلق، وهذا اليأس عن الخلق والتوجيه للخالق يمثل قمة الإيمان، فقال ﷺ:

«الغنى الأكبر اليأس عمّا في أيدي الناس»^(١).

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة متوسّعاً فيها، فقال: «عوّد نفسك السخاء واعلم أنه سخاءان: سخاوة نفس الرجل بما في يديه، وسخاوة عما في أيدي الناس. وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة. وتركه ما في أيدي الناس أمحّض في التكرم وأبرأ من الدنس وأنزه. فإن هو جمعها فبذل وعف فقد استكمل الجود والكرم»^(٢).

فافتتاحت ابن المقفع هذه عبارة عن تركيب أشبه ما يكون جاهزاً يقدّم به لكلام أمير المؤمنين ﷺ الذي يتأثر به، ويكون أيضاً بمثابة مدخلية. وابن المقفع

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / ١٤٤.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١١-١١٢.

هنا يقدم قبل أن يضمن الحكمة تقديماً من صلب الموضوع لما يريد أن يقوله، فقبل تضمين الحكمة أمر بتعويد النفس على السخاء، ثم فرّع السخاء إلى فرعين: الأول أن يجود الرجل بما يملكه، والثاني أن يرغب عما في أيدي الناس، وهنا في الثاني تجلت الحكمة العلوية، إذ أبدل ابن المقفع «اليأس» بـ «سخاوته»، بينما باقى الحكمة «عما في أيدي الناس» ضمنه ابن المقفع بنصّه «عما في أيدي الناس».

ثم اخذ بعد التفرع يقارن بين السخاءين، إذ بالأول تدخل المفاخرة «أكثرهما من أن تدخل فيه المفاخرة»، وبالثاني يسان ماء الوجه «أمحض في التكرم، وأبرأ من الدنس»، والأفضل عنده الجمع بينهما.

ولا يختلف تعامل ابن المقفع عن تعامله السابق مع حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«الحسد خلقٌ دنيءٌ ومن دناءته أنه موكلٌ بالأقربِ فالأقربِ»^(١).

يخبرنا عليه السلام بأن الحسد من الأخلاق الذميمة الدنيئة، ومما زاد في دناءته هذه وقوعه بين الأقرب فالأقرب.

اعتمد ابن المقفع هذه الحكمة اعتماداً كلياً، مع تقديم لها وشرح وتفصيل طويل عليها فقال: «ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً. فإن الحسد خلقٌ لئيمٌ. ومن لؤمه أنه موكلٌ بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأقارب والأقارب والمعارف والخلطاء والإخوان فليكن ما تعامل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك، وأن غناً حسناً لك أن يكون عشيرتك، وخليطك أفضل منك في العلم، فتقتبس من علمه، وأفضل

(١) شرح نهج البلاغة لأبْن أبي الحديد ٢٠ / ٤٥٥.

منك في القوة، فيدفع عنك بقوته، وأفضل منك في المال، فتفيد من ماله، وأفضل منك في الجاه، فتصيب حاجتك بجاهه، وأفضل منك في الدين، فتزداد صلاحاً بصلاحه»^(١).

فكُلُّ هذا الكلام منبته ونواته الحكمة السالفة، وقبل أن يضمناها ابن المقفع قدّم لها بجملة عدّ فيها الحسد يجلب النصب والعذاب للنفس، مفتتحاً هذا التقديم بطريقته التي باتت معروفة إمّا بفعل الأمر أو بلام الأمر، ثم حوّر طفيفاً في الحكمة حيث أبدل قول الإمام عليه السلام:

«الحسد خلق دنيء» بـ «الحسد خلق لئيم». و«أنه موكل»

أوردها بنصّها «أنّه موكل».

و«الأقرب فالأقرب» بـ «الأدنى فالأدنى».

و«الأقرب» هذا في كلام الإمام قابل للبسط والشرح، فهو يمكن أن يكون الأقرب من ناحية النسب، أو الأقرب من ناحية العمل، أو الأقرب من ناحية الأفكار... وفي هذه العبارة المكتنزة بمدلولاتها وجد ابن المقفع ضالته فبسطها بقوله: «بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأكفاء، والمعارف والخلطاء والإخوان».

ثم بعد ذلك اتخذ هذه الحكمة... منطلقاً ليبيّن إرشادته حول خصلة الحسد، مبيناً إنّ أفضل من ينبغي أن تكون على مقربة منه مَنْ هو أفضل منك، وإنّ عشيرتك إذا كانوا أعلى منك منزلة فذلك الغنم بعينه،.. وبكلّ هذا ينبغي تجنّب حسد هؤلاء بل الاستفادة منهم مادياً «تفيد من ماله»، ومعنوياً فتفيد من جاهه

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٢.

«فتصيب حاجتك» به، ومن دينه «فتزداد صلاحاً بصلاحه».

وبعد هذا انتقل ابن المقفع إلى كيفية معاملة العدو قائلاً: «ليكن مما تنظرُ فيه من أمرِ عدوكَ وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوكَ وحاسدك أنك له عدو، فتندره بنفسك وتؤذنه بحربك قبل الإعداد والفرصة»^(١).

وصفوة كلامه هذا لا تواجه أعداءك قبل إعدادك، وبالتالي فهذا أشبه ما يكون بسطاً للحكمة العلوية التي تقول:

«لا توقع بالعدو قبل القدرة»^(٢).

أمّا حكمته عليه السلام التي قال فيها:

«أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرَوَّاتِ عَثْرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْتُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ اللَّهِ يَدُ اللَّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ»^(٣).

والتي من خلالها «رغب في إقالة ذوي المروءات عثراتهم التي وقوعها نادراً كييعهم لما يلحقهم الندم عليه... واستعار لفظ العثرات لما يقع منهم خطأً ومن غير تثبت»^(٤).

فقد اعتمدها ابن المقفع - لما رغب أيضاً في إقالة هؤلاء عثراتهم - اعتماداً كلياً وبالتحديد الفقرة الأولى منها، فقال: «واعلم أنك واجدٌ رغبتك من الإخاء عند أقوامٍ قد حالت بينك وبينهم بعضُ الأبهة التي قد تعتري بعض أهلِ المروءاتِ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٢-١١٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ١١٩.

(٣) نهج البلاغة ٥٥٣.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن ميشم ٥ / ٣٩٦-٣٩٧.

فتحجز عنهم كثيراً ممن يرغب في أمثالهم. فإذا رأيت أحداً من أولئك قد عثر به الدهر فأقله»^(١).

فهو إذا ضمن كلمات الحكمة الأربع الأول، ووزعها في قوله المذكور جاعلاً منها ركائز لقوله، مع التقديم لها، والتوسع عليها، والتحوير فيها تحويراً أقل من القليل، إذ أبدل «أقبلوا» بـ «فأقله»

و«ذوي المروءات» بـ «أهل المروءات»

و«عثراتهم» بـ «عثر به الدهر»

وبطريقة مماثلة تعامل مع حكمة لأمير المؤمنين (عليه السلام)، قال فيها:

«أحيوا المعروف بإماتته، فإن المنة تهدم الصنعة»^(٢).

والمعنى إذ أردت لمعروفك أن يحيا ويدوم فعليك بإماتته، وهذه كناية عن عدم ذكره؛ لأن ذكره أشبه ما يكون بالمنة، وهذه المنة تهدم ما بُني من معروف.

ضمن ابن المقفع هذه الكلمات بتمامها وكما لها جاعلاً منها عماداً لمقال طويل ألفه في هذا المعنى، فقال: «إذا كانت لك عند أحد صنعة، أو كان لك عليه طول فالتمس إحياء ذلك بإماتته، وتعظيمه بالتصغير له. ولا تقتصرن في قلة المن به على أن تقول: لا أذكره ولا أصغي بسمعي إلى من يذكره، فإن هذا قد يستحي منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كرم. ولكن احذر أن يكون في مجالستك إيّاه، وما تكلمه به، أو تستعينه عليه، أو تجاريه فيه، شيء من الاستطالة، فإن

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ١٥٤.

الاستطالة تهدم الصنيعة وتكدر المعروف^(١).

ولعل هذه المرة الأولى التي لم يفتح فيها ابن المقفع حديثه المتأثر بكلام أمير المؤمنين عليه السلام بفعل أو لام الأمر، ولكنه سرعان ما عاد إلى ذلك بعد أن شرع في تضمين الحكمة، ومن جانب البسط فقبل أن يضمناها أيضاً قدّم حديثاً عاماً عن موضوعها، ثم شرع في تضمينها، ولكن لم يجعلها في مكانٍ واحد بل افتتح ببعضها، ثم عاد ليختتم ببعضها الآخر. وما ذلك إلا لتكون عنده حرية واسعة للحديث عن هذا الموضوع من خلال الربط بين كلمات الحكمة والتعليق على مقاطعها، وحتى تكون هذه الكلمات بمثابة ركائز يرتكز عليها وعظه، مجرياً عليها بعض التحويلات الشكلية تماماً. فأول الحكمة: «أحيو المعروف بإماتته» وجدناها في أول كلام ابن المقفع: «إحياء ذلك بإماتته». و«ذلك» اسم إشارة أشار به ابن المقفع إلى «الصنيعة» و«الطول» اللذين ذكرهما في مقدمة كلامه، وعليه يكون كلامه إحياء الطول بإماتته وبالتالي لا يوجد اختلاف يذكر

عن كلام الإمام عليه السلام. ولفظة «المعروف» التي أبدلها ابن المقفع بما ذكر عاد وذكرها في آخر كلامه المذكور مثلما وجدها عند الإمام عليه السلام. أمّا باقي الحكمة: «فإنّ المنّة تهدم الصنيعة». فقد ألفيناها آخرّاً عند ابن المقفع: «فإنّ الاستطالة تهدم الصنيعة». وهو ما بين هذين المقطعين تحدّث بما شاء عن إسداء المعروف وفضل تناسيه.

وعلى هذا الأساس بُنيت كثيرٌ من موضوعات الأدب الكبير، إذ كان ابن المقفع يعمد إلى حكمة أمير المؤمنين عليه السلام الموجزة فيبسط القول فيها،

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٨ - ١٠٩.

ويفرّج منها فروعاً، ويوظفها في المكان الذي يراه مناسباً، فمرة مع السلطان، وأخرى مع الوالي، وثالثة مع الصديق وهكذا. وفي هذه المرة نجد ابن المقفع يأتي على حكمة أمير المؤمنين (عليه السلام) التي تقول:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَاتٍ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»^(١).

الفتلة: الأمر الذي يقع من غير تروٍّ، وصفحة الوجه: بشرته أي أنّ المرء لم يتمكن من حفظ ما أضمره كلياً، لأنّ مراعاة الحفظ يكون للعقل، فإذا انشغل العقل في مهم آخر يغفل عما أضمره، فينفلت ذلك في فلتات القول^(٢).

استعار ابن المقفع هذه الحكمة ليضمّن فيها باب تحذيره من احتقان القلب على الوالي، فقال: «إياك أن يقع في قلبك تعتّب على الوالي أو استزراءً له. فإنه إن وقع في قلبك بدا في وجهك، إن كنت حليماً، وبدا على لسانك، إن كنت سفيهاً. فإن لم يزد ذلك على أن يظهر في وجهك لآمن الناس عندك فلا تأمن أن يظهر ذلك للوالي. فإن الناس إلى السلطان بعورات الإخوان سراعاً»^(٣).

فهو ينهي من وقوع التعتب والاستزراء على الوالي - ملجئاً ظهره تماماً إلى الحكمة العلوية - لأنّ ذلك التعتب وإن خفي لا بدّ من ظهوره، إمّا على صفحات الوجه من خلال تلونها، وإمّا على اللسان من خلال فلتاته. إلّا إنّ ابن المقفع لم يذكر لفظة الإضرار صراحة بل ذكر آلة الإضرار أو مكمنها وهو القلب لما قال: «إياك أن يقع في قلبك تعتّب على الوالي أو استزراءً له».

(١) نهج البلاغة ٥٥٤.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٣٩٨.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٨٤.

٣٢٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

وَكُلُّ هذا بسط لأول الحكمة: «ما أضمر أحد».

وبعد هذا لا فرق مطلقاً بين قول الإمام عليه السلام: «ظهر في لسانه» وبين قول ابن المقفع: «بدا على لسانك»

فقد كان الأخير هنا دقيقاً في تحويراته حيث جعل:

الفعل مقابل الفعل: ظهر — بدا

والحرف مقابل الحرف: في - على

والاسم مقابل الاسم: لسان - لسان

والضمير مقابل الضمير: الهاء - الكاف

ومثلها العبارة التي قبلها «بدا في وجهك»، إلا أنه زاد على الأولى «إن كنت حليماً»، وعلى الثانية «إن كنت سفيهاً». واستمر ابن المقفع بالتفصيل عن هذا الموضوع محذراً من إن هذه الفلته حتى وإن لم يكتشفها إنسان تأمنه، ولم تظهر هي أمامه، فلا تأمن ظهورها أمام الوالي.

وتجدر الإشارة إلى إن هذه الحكمة وجلّ حكم أمير المؤمنين عليه السلام لم يوجّهها إلى فئة أو طائفة بعينها، بل يجعلها مفتوحة بحيث كل من يقرأها يجدها تنطبق عليه سواء كان مولى أو عبداً، وهذا مما زاد في تأثيرها وفعاليتها «ما أضمر أحد» أيّاً كان هذا الأحد، بينما ابن المقفع يضيق كثيراً من دلالة هذه الحكم لما يجعلها مختصة بجهة ما، ومثل ذلك ما فعله في قوله المذكور لما نهى عن هذا الأمر أمام الوالي «إياك أن يقع في قلبك تعتب على الوالي».

ومثلما سلف فإن ابن المقفع كان قد اتخذ كلام أمير المؤمنين عليه السلام شعاراً يعظ به كلّ الجهات التي كان يخاطبها دون استثناء، فإن كان وظّف الحكمة السابقة مع

الوالي وطريقة معاملته القلبية، فقد وظّف في باب منع التطاول على الأصحاب حكمة علوية أيضاً، جاء فيها:

«ليس يضرُّكَ أن ترى صديقك عندَ عدوّك، فإنّه إن لم ينفعك لم يضرَّكَ»^(١).

فإنّ الصديق قد يتكدر إذا رأى صديقه عند عدوّه إشفاقاً من العدو على الصديق، أو تهيباً من قطع حبل الوصل بسبب وشاية من ذلك العدو، ولكن أمير المؤمنين (عليه السلام) نهى عن ذلك وعدّه هذه المقاربة أمراً إيجابياً.

اعتمد ابن المقفع هذه الحكمة كسابقاتها من التغير الطفيف على بعضها، ثم البسط عليها، والتفريع منها، فقال: «إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبَنَّ ذلك، فإنّها هو أحدُ رجلين: إن كان رجلاً من أخوانِ الثقة فأنفعُ مواطنه لك أقربها من عدوك لشرِّ يكفُّه عنك، أو لعورةٍ يسترها منك، أو غائبةٍ يطلعُ عليها لك، فأما صديقك فما أغناكَ أن يحضرهُ ذو ثقتك. وإن كان رجلاً من غيرِ خاصةٍ إخوانك فبأي حقٍ تقطعه عن الناس وتكلفه ألا يتصاحبَ ولا يُجالسَ إلا من تهوى»^(٢).

فهو نهى عما نهى عنه أمير المؤمنين (عليه السلام) وبرّر بما برّر به (عليه السلام)، فأول كلامه: «إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك» من أوّل الحكمة «ليس يضرُّكَ أن ترى صديقك عندَ عدوّك» بلا زيادة ولا نقصان عدا تحويرات شكلية للغاية فقد أبدل «صديقك» بـ «صاحبك»، و«يضرُّكَ» بـ «يغضبك»، «وعندَ عدوك» بـ «مع عدوك».

ولمّا عدَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) تلك المقاربة أمراً إيجابياً برّرها بأنّها لا تخلو من

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ٥ / ٢٧٢.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٠ - ١٠١.

٣٢٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

أمرين: إمّا أن تعود تلك المقاربة بنفع على ذلك الصديق الغاضب ولكنه عليه السلام لم يحدد ما هو النفع وأين يكمن حتى لا تكون دلالة هذه الكلمة «النفع» محدودة بجانب ما وهذه سمة واضحة في حكمه عليه السلام. أمّا ابن المقفع فقد أخذ هذه التفريع من الحكمة وبسطه بأن يبين بعض مواطن النفع تلك وذلك لما قال: «فإنما هو أحد رجلين: إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك إلى قوله يطلع عليها لك».

وإمّا أن لا تعود تلك المقاربة بنفع ولكنها خالية من الضرر، لأن الصديق الصدوق وإن جالس العدو لم يفرط بصديقه. ولكن هذا أجرى عليه ابن المقفع تغييراً بيّناً في فقرته الأخيرة. وأرى في ذلك تحايلاً عميقاً للخروج عمّا تبقى من تسلسل حكمة أمير المؤمنين عليه السلام وهذه المحاولة التمويهية مهدّ لها لما قسم الأصدقاء على «إخوان الثقة» و«رجالاً من غير خاصة إخوانك» وهذا لربما لا يتفق مع مقدمة كلامه التي تحدّث فيها عن الصاحب، ومطالبته بعدم الاكتراث منه إذا جالس العدو، أما إذا كان ذلك الصاحب بعيد الصلة بصاحبه، وهو ليس من الخاصة فلا يهم إذاً إن اقترب أو ابتعد عن العدو، ولا يوجد داعي من أن ينهى ابن المقفع عن الغضب من هذا الفعل.

أمّا موعظته عليه السلام لمعسكره وقد سمع بعضهم يسبون أهل الشام أيام حرب صفين، والتي قال فيها:

«إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَاهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُدْرِ»^(١).

أمر أتباعه باجتنب السب، لأنه لغة المفلسين من الدليل، لكنّه وجّههم

إلى وصف أعمال الشاميين وما هم عليه من ضلال؛ ففي ذلك الحجة البالغة، والقول الصائب.

فأخذ ابن المقفع هذا لما تحدّث عن كيفية معاملة العدو، فقال: «لا تدع، مع السكوت عن شتم عدوك، إحصاء مثالبه ومعاييه وإتباع عوراته، حتى لا يشذ عنك من ذلك صغير ولا كبير، من غير أن تشيع ذلك عليه فيتقياك به، ويستعدّ له، أو تذكره في غير موضعه فتكون كمستعرض الهواء بنبله قبل إمكان الرمي. ولا تتخذن اللعن والشتم على عدوك سلاحاً، فإنه لا يجرّح في نفس ولا منزلة ولا مال ولا دين»^(١).

فكل هذا يدور في فلك المعنى العلوي بدقة. فقول الإمام عليه السلام:

«أكره لكم أن تكونوا سبابين».

كرّره ابن المقفع مرتين وذلك لما أفتتح حديثه به «السكوت عن شتم عدوك»، ولما ختمه به أيضاً «لا تتخذن اللعن والشتم على عدوك سلاحاً» مبدلاً السب بالشتم.

أما قوله: «لا تدع... إحصاء مثالبه ومعاييه وإتباع عوراته» فهو من قول الإمام عليه السلام:

«لكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم».

أي قولوا: «إنهم فساق، وإنهم أهل ضلال وباطل»^(٢) وبشرح ابن أبي الحديد هذا يتضح إن ابن المقفع يتحول في أحيان كثيرة إلى شارح لكلام أمير

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/١٨.

المؤمنين عليه السلام.

ومن طرفٍ خفي يلحظ إنَّ ابن المقفع حاول التمويه على كلام الإمام عليه السلام لما جعل الشقَّةَ تبعد بين الفعل «تدع» وبين المفعول به «إحصاء».

وللنساء نصيبٌ من الحديث في الأدب الكبير، فقد ذكرهنَّ فيه مرَّتين وفي مقطعين متتالين، وفي المقطعين كليهما أثر واضح لكلام أمير المؤمنين عليه السلام. فقد روي عنه أنَّه حدَّرَ جنوده من الغرام بالنساء - لما شيعهم في إحدى الغزوات - قائلاً: «أعذبوا عن النساء ما استطعتم»^(١).

شرح الشريف الرضي هذه الكلمات بقوله: «ومعناه أصدفوا عن ذكر النساء، وشغل القلوب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن، لأنَّ ذلك يفت في عضد الحمية، ويقدح في معاهد العزيمة، ويكسر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو، فكل من امتنع من شيء فقد أعزب عنه، والعازب والعزوب الممتنع من الأكل والشرب»^(٢).

ففي نهيه عن الغرام بالنساء ونتائج هذا الغرام، نظر ابن المقفع باسطة - حتى كأنَّه سبق الرضي إلى شرح هذا المعنى - فقال: «اعلم أن من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأقتلها للعقل وأزراها للمروءة وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء»^(٣).

وفي حديث ذي صلة قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالوسيلة: «إذا رأى أحدكم امرأة تُعجبه فليلقِ أهلَه فإنَّ عندها مثل الذي رأى، ولا

(١) نهج البلاغة ٥٩٨.

(٢) م. ن ٥٩٨.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٧.

يَجْعَلُ لِلشَّيْطَانِ عَلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا، وَلِيَصْرِفَ بَصَرَهُ عَنْهَا»^(١).

وورد عنه عليه السلام باختلاف يسير، وذلك قوله لما كان جالساً ومعه أصحابه فمرت بهم امرأة جميلة، فرمقها القوم بأبصارهم:

«إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الْفُحُولِ طَوَامِحٌ؛ ... فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيَلَامِسْ أَهْلَهُ، فَإِنَّهَا هِيَ امْرَأَةٌ كَأَمْرَأَتِهِ»^(٢).

أكد أمير المؤمنين عليه السلام على أن النساء أشباه النساء، ومادام الأمر هكذا فعلى الرجل إذا رأى امرأة تعجبه فليلاق أهله حتى لا يجعل للشيطان على نفسه سبيلاً. جعل ابن المقفع هذا المعنى في إثر كلامه السابق، ولكن ببسط كبير جداً فقال: «ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن. إنما النساء أشباه، وما يتزين في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطلٌ وخدعةٌ، بل كثيرٌ مما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه منهن، وإنما المرتغب عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس: بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء»^(٣). ولو أطال ما أطال فإن الجذوة التي كان منطلقاً منها هي ذلك السطر من الخطبة أو الحكمة العلوية. فقلوه: «ومن البلاء إلى قوله عنده منهن» بسط لكلام الإمام عليه السلام: «إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه». وبعد ذلك عدَّ أمير المؤمنين عليه السلام

(١) تحف العقول ١٤٨.

(٢) نهج البلاغة ٦٢٩.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٧.

٣٢٨..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

النساء «مثل» النساء، وهذه «المثل» حولها ابن المقفع إلى شبه لما قال: «إنما النساء أشباه»، وكلامه هذا لا يختلف مطلقاً عن شرح ابن ميثم للنص العلوي الثاني، «فإنها أهل الرجل امرأة تشبه المرأة المرئية»^(١).

ثم زاد كلامه بسطاً لما أدخل طَرَفاً آخر في تقريب صورة التشبيه هذه وهو الطعام، وذلك في قوله: «النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام» وكأنه يقول: «والنساء يشبهن النساء أكثر مما يشبه الطعام بالطعام»^(٢).

وقد عُدَّ هذا التركيب والتشبيه من طرائف ابن المقفع اللطيفة^(٣)، والأهم فيه - التشبيه - إنه من توسعات ابن المقفع الكثيرة على كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

لقد لاحظنا - في النص الأخير - إن ابن المقفع تأثر بخطبة علوية وليس بحكمة ولا رسالة وهذه حالة نادرة جداً عنده - أي تأثره بالخطب العلوية - فهو لم يتأثر إلا بخطبتين فقط. الأولى مرّت سلفاً. وتأثر بخطبة ثانية صنّف فيها أمير المؤمنين عليه السلام الناس إلى أربعة أصناف قال في الرابع منها:

«وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤُولُهُ نَفْسِهِ، وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ، فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدَى»^(٤).

الضؤولة: من ضأل الشيء إذا صغر وضعف^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٥٠٠.

(٢) بنية الجملة ودلالاتها البلاغية في الأدب الكبير دراسة تركيبية تطبيقية ٢٦.

(٣) م ٠ ن ٢٦.

(٤) نهج البلاغة ٦٤.

(٥) ينظر: لسان العرب ١١ / ٣٨٨ مادة (ضأل).

ومعناه: «إنَّ الإنسان قد تنقطع أمامه سبُل الوصول إلى الملك والثروة فيخلد إلى القناعة، ويتحلَّى بحلية الزهاد في اللذات الدنيوية... وليس بزاهدٍ في الحقيقة»^(١).

أخذ ابن المقفع هذا المعنى وتوسع عليه، فقال: «إنَّ رأيتَ نفسك تصاغرت إليها الدنيا، أودعتك إلى الزهادة فيها على حالٍ تعذر من الدنيا عليك فلا يغرنك ذلك من نفسك على تلك الحال، فإنها ليست بزهادة، ولكنها ضجرٌ واستخذاءٌ وتغيّر نفسٍ عندما أعجزك من الدنيا وغضبٌ منك عليها مما التوى عليك منها. ولو تمت على رفضها وأمسكت عن طلبها أو شكت أن ترى من نفسك من الضجر والجزع أشد من ضجرك الأول بأضعاف. ولكن إذا دعتك نفسك إلى رفض الدنيا وهي مقبلةٌ عليك، فأسرع إلى إجابتها»^(٢).

والمعنى واحد بين النصين فابن المقفع يقول: إذا أدبرت عنك الدنيا وأنت أقبلت على الزهادة فيها، فهذه ليست بزهادة حقيقية، وعند أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس من ذلك في مراحٍ ولا مغدٍ» و«ذلك» أسم إشارة إلى ما سبق من كلامه: «تحلَّى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة»، والمعنى: ليس من القناعة والزهادة في شيء وعليه تبين القرب القريب بين الجملتين، ولكنها - هذه الزهادة - جاءت نتيجة «تعذر من الدنيا عليك» ونتيجة «ضجر واستخذاء وتغيّر نفس عندما أعجزك من الدنيا وغضبٌ منك عليها مما التوى عليك منها» ولا شك إن هذا بسط لقول الإمام عليه السلام: «أبعده عن طلب لملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه». ثم توسع ابن المقفع أكثر في آخر كلامه لما بين

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٣٨١.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٣٠.

٣٣٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

إنّ الزاهد الحقيقي هو من يرغب عن الدنيا في وقت الدنيا راغبة فيه، وهذا لم يذكره أمير المؤمنين عليه السلام لأنه كان في وصف صنف معيّن من الناس صفاتهم التي ذكرها لا معالجة هذه الحالة بدقائقها.

وفي ختام البسط في الأدب الكبير نعود إلى ما قدمناه من حديث ابن المقفع عن البسط لما قال: إنه كان يعتمد إلى حكم «الأولين» ويشتق منها ما شاء، إذاً فالبسط الذي اسماء ابن المقفع بالاشتقاق لا ينفصل عنده عن حكم الأولين، لأنّه معتمد عليها كلياً، ولما عرفنا إنّ هذه الحكم التي بُسّطت تصدرها حكم أمير المؤمنين عليه السلام سنعرف - بهذه الطريقة - إنّ أمير المؤمنين عليه السلام - على الأقل - يتصدر هؤلاء الذين اسماءهم ابن المقفع بـ «الأولين».

رابعاً: الإيجاز:

لما عرفنا أنّ الإيجاز هو اداء المقصود من المعاني بأقل كلمات، كان من الأهمية الإشارة إلى أنّ هذا المظهر شكل أرضية خصبة لآلية التكثيف الذي يعني: «إيجاز النص وتكثيف بنيته»^(١). فإنّ آلية التناص هذه تقترب بشدّة من دائرة الاختزال.

ولما عرفنا فيما سبق الإيجاز هو نقض البسط، فكذلك ورد عند ابن المقفع في الأدب الكبير بالنسبة لكلام الإمام عليه السلام نقيض البسط أيضاً، إذ لم يرد إلّا في مواطن قليلة جداً ومن ذلك قوله: «فإنّ المعاتبه مقطعة للود»^(٢). فهو ينهى عن عتاب الصديق لأنّه يرى العتاب قاطعاً للمودة، وهذا يشبه بشدّة بعض ما جاء في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام: «ولا تكثر العتاب فإنّه يورث الضغينة

(١) التناص في الشعر الأندلسي ٥٦.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٣.

ويجُرُّ إلى البغضة»^(١). فأبدل «العتاب» بـ «المعاتب» وأوجز «يورث الضغينة ويجر البغضة» بـ «مقطعة للودّ».

وبحسب ظن الباحث إنّ ابن المقفع جانب الصواب لما نهى عن كلّ العتاب وجعله صارماً لحبل المودّة، لأنّ في العتاب حلاوة لا توجد إلّا فيه، وهو محبذ وله وقع خاص في النفوس الطيبة، ولكن الصواب ما نهى عنه المصيب أمير المؤمنين (عليه السلام) لما عدّ المذموم من العتاب كثرة «لا تكثر العتاب».

ومما ورد في الوصية أيضاً قول الإمام (عليه السلام):

«قَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ»^(٢).

و«هذا حقّ، لأنّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك»^(٣). وبعبارة أخرى كما أن صلة العاقل غنيمة فإنّ قطيعة الجاهل غنيمة أيضاً.

ورد هذا المعنى في الأدب الكبير بطريقة مكثفة وذلك في حديث ابن المقفع الذي وجّه فيه إلى ملاقة المعتذر بوجه مشرق ولسان طلق، مستثنياً: «إلا أن يكون ممّن قطيعته غنيمة»^(٤). فقول ابن المقفع «قطيعته» إختزال لقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «قطيعة الجاهل»، فذكر لفظة «قطيعة» بنصّها وأبدل الاسم الظاهر «الجاهل» بالضمير «الهاء». وأما قوله «غنيمة» إختزال لـ «صلة العاقل» التي هي بلا شكّ غنيمة.

(١) تحف العقول ١٠٧.

(٢) نهج البلاغة ٤٧١.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٢٨٤.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٧.

ولكنّ اختزال ابن المقفع هذا ضيّع جلّ محاسن هذه الفقرة من الوصية التي تمثلت بالتشبيه والمقابلة والسجع، ثم كيف جاءت كلمة «تعدل» في هذا المكان بالذات بطريقة ملفّقة حينما عادت المعنى بين قطيعة الجاهل وصلة العاقل. وحينما عادت أيضاً تماماً بين مقطعي الحكمة: «قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل». ولو كانت بدلها كلمة أخرى مثل تشبه أو حرف كال كاف لذهب كثير من وقعها.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لملك الأشتر:

«ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ، وَالْمُحْتَاجِينَ، وَأَهْلِ الْبُؤْسَى، وَالزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً... وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ... فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلُّ قَدْ اسْتُرِعِيتَ حَقَّهُ، وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافَةِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهْمِّ»^(١).

أمر أمير المؤمنين عليه السلام هذا يدور حول معنيين:

الأول:

والذي أفتتحه بتكرار لفظ الجلالة رغبةً منه في التوكيد اللفظي المشدد على إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم وهم: المساكين...، وأهل البؤسى وهم الذين مسّهم الفقر بشدّة، والزّمنى أي المصابون بالعاهة، والقانع وهو السائل، وأخيراً المعترّ وهو المتعرض للعطاء بلا سؤال^(٢).

(١) نهج البلاغة ٥١٣ - ٥١٤.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٣/ ٤٧٠.

الثاني:

أمرَ واليه بإحكام الأمور وأن لا يهتم بالجليل المهم دون الحقير التافه، لأنّه وإن احكم المهم لا يعذر بتضييع التافه.

وليس من الصدفة مطلقاً أن يجتمع هذان المعنيان أو قريب منهما عند ابن المقفع وفي نصّ واحد، لكنّه قدّم وأخّر فيهما، فقال: «لا تترك مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيراً، ولا تُلزمن نفسك مباشرة الصغير، فيصير الكبير ضائعاً. وأعلم أنّ مالك لا يغني الناس كلهم فاخصص به أهل الحق»^(١).

والفرق إنّ ابن المقفع أوصى السلطان مباشرة الجسيم مزيئاً بصغائر الأمور مُكرّراً هذا المعنى بجملتين وهذا التكرار لا طائل منه لأنّه أوضحه في الجملة الأولى. بينما أمير المؤمنين (عليه السلام) لا يعذر واليه إذا أضاع التافه حتى بإتقانه المهم. وأمّا «أهل الحق» الذين طلب ابن المقفع إعطاءهم حقوقهم، فهو اختزال لما عدّده الإمام (عليه السلام) من البؤسى، والزّمنى والمحتاجين، ولكن على ابن المقفع هنا أن يذكرهم - وإن كان أهل الحق معروفين - لأنّ ذكرهم وتذكير الناس بهم يعد حسنة بحد ذاته.

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧١.

المبحث الثاني

أثر كلام الإمام علي عليه السلام

في رسالة الأدب الصغير

الأدب الصغير عبارة عن رسالة تتضمن طائفةً من الحكم والوصايا في أغراض شتى منها: الدينية، والسياسية، والعسكرية وغيرها حرص ابن المقفع فيها على إرشاد الناس إلى معاشهم ومعادهم وما بين ذلك من أعمال. وتعد هذه الرسالة «من بدائع ابن المقفع أملاها عقله الفيّاض على قلمه السيّال فجاءت كالماء الزلال بل كالسحر الحلال»^(١). والحقيقة لولا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لم تكن هذه الرسالة بهذه المنزلة الأدبية.

لا تختلف هذه الرسالة عن رسالة الأدب الكبير في الهدف والمضمون والمنهج، بل ما هي إلا صورة مصغرة لها. ومن أهم ما في الأدب الصغير تلك المقدمة

(١) الأدب الصغير ٢٣.

التي جاءت كمقدمة الأدب الكبير من الاعتراف بأن جانباً كبيراً من الرسالة نُقل عن أولئك الأشخاص الذين اكتفى ابن المقفع بوصفهم وذكر بعض محامدهم. وفي هذه المرة لم يصفهم بالقدماء بمعنى أن الحجة الدّاحضة - مثلما عرف في الأدب الكبير- التي أعتمد عليها من اعتمد في أن ابن المقفع كان يقصدُ القدماء الفرس لم تكن موجودة هنا.

قال ابن المقفع في الأدب الصغير مؤكداً على تأثيره بالصالحين، وتضمين كلامهم: «وقد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عونٌ على عمارة القلوب وصقلها وتجليّة أبصارها، وإحياءٌ للتفكير وإقامةٌ للتدبير، ودليلٌ على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله»^(١). وكان لا يرى في الأخذ من هؤلاء والسير على هديهم ضيراً، لأنّهم مصيبون وصالحون وكلامهم حسن مثلهم، بل ذهب إلى ابعـد من هذا لما عدّ الأخذ عنهم وحفظ كلامهم يحتاج إلى توفيق وعون وهداية، وبهذا الأخذ يبلغ الأديب الغاية، فقال في ذلك: «ومن أخذ كلاماً حسناً من غيره فتكلّم به في موضعه وعلى وجهه، فلا تَرَيْنَّ عليه في ذلك ضؤولةً. فإنّ من أُعِين على حفظ كلام المصيبين، وهُدِيَ للإقتداء بالصّالحين، وَوُفِّقَ للأخذِ عن الحكماء، ولا عليه أن لا يزداد، فقد بلغ الغاية»^(٢).

فابن المقفع يصرح بأنّه أخذ عن أولئك الحكماء. ويؤكد على أن هذا الأخذ تضمينٌ حرفي «من أخذ كلاماً.. فتكلّم به.. على وجهه» أي دون تغيير، مشجّعاً على أخذ المزيد من هذا الكلام، لأنّ فيه بلوغ الغاية «ولا عليه أن لا يزداد،

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٥.

(٢) م ١٣٠ ن ١٣.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير..... ٣٣٧

فقد بلغ الغاية». وعنده أيضاً ومهما بلغ الأديب من الفضل والمنزلة فلا يزال مديناً لهم، ملتجئاً إلى كلامهم؛ لأنهم مبدعون مخترعون، ومن جاء بعدهم واصفون ناظمون كمن يجد فصوصاً من الجواهر معدة فينظمها ويضع كل فص موضعه^(١).

ومثلما هو موجود لم يصرح ابن المقفع بذكر اسم الشخص أو الأشخاص الذين تأثر بهم، بل اكتفى بتعداد بعض صفاتهم ومنها: - كلامهم حسن. - صالحون. - مصييون. - حكماء. - مخترعون. - مبدعون. - في كلامهم عمارة القلوب وصقلها وتجليه أبصارها. - فيه إحياء للتفكير. - فيه إقامة التدبير. - فيه محامد الأمور. - فيه مكارم الأخلاق.

وهذه الصفات هي صفات إسلامية كانت متوفرة عند الصفوة من الإسلاميين وأمير المؤمنين عليه السلام من أهم مصاديقها.

هذه هي فحوى مقدمة الأدب الصغير. ولكن الغريب عنها ما صرح به الدكتور محمد مهدي البصير بعد أن عرّفها لنا، إذ قال: «مجموعة عظات ونصائح نقلها المترجم عن الفارسية كما ينص على ذلك هو في مقدمتها»^(٢).

ويرى الباحث أنّ في هذا الكلام تقوُّلاً واضحاً على ابن المقفع، إذ إنه لم ينص مطلقاً على أنه نقل عن الفارسية ولم يلمح إلى ذلك أيضاً لا من قريب ولا من بعيد، بل كل الذي قاله الرجل ما ذكرناه عنه. ولا أدري من أين جاء المرحوم الدكتور بهذا التصريح.

وعلى أية حال وبعد عرض ما جاء في رسالة الأدب الصغير على مجموعة

(١) ينظر: الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢ - ١٣.

(٢) في الأدب العباسي ١٦.

٣٣٨..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

واسعة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وجد الباحث نصيباً كبيراً من تلك الحروف التي تحدث عنها ابن المقفع للإمام علي عليه السلام، الذي توّكأ ابن المقفع كثيراً على كلامه. وبدون مغالاة فإني لم أجد ولا صفحة واحدة من صفحات الأدب الصغير تخلو من اثر لكلام أمير المؤمنين عليه السلام ولكن سأقتصر على بعضها وبالمظاهر الآتية:

أولاً: التضمين:

ضمن ابن المقفع حكماً كثيرة جداً لأمر المؤمنين عليه السلام ولكن هذه الحكم العلوية لم يوردها ابن المقفع بمفردها دون أخت لها، أو دون توسع عليها. إلا من الندرة النادرة. ومن هذه الندرة في الأدب الصغير قول ابن المقفع في باب توصية الملك بالحزم: «الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي بتحسين الأسرار»^(١).

وهذا بنصّه من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«الظفرُ بالحزم، والحزمُ بإجالة الرأي، والرأيُ بتحسين الأسرار»^(٢).

إجالة الرأي إعماله^(٣)، والباءات للإلصاق والاستعانة^(٤). وفي الحكمة «يشير الإمام عليه السلام بهذا إلى أن التخطيط شرط أساسي للظفر والنجاح، وإنَّ أيَّ عمل من غير تصميم وتخطيط يذهب سدى، و ربّما كان ضرراً محضاً. وهذه الحقيقة سمة العصر الحديث...

(١) -الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٣.

(٢) نهج البلاغة ٥٦١. وينظر: أدب ابن المقفع دراسة اسلوبية ٥٠.

(٣) ينظر: شرح ابن ميثم ٤٠٨ / ٥.

(٤) ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٨٧ / ٢١.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٣٩

إنهم يخططون لكل شيء... حتى الكذب... له عندهم تخطيط ودراسة. والشرط الأساسي في التخطيط الحزم، وفسره الإمام بإجالة الرأي أي بالدراسة العلمية على أن تبقى هذه الدراسة طي الكتمان^(١).

وبفعل تلك الموسوعية الهائلة التي يحملها أمير المؤمنين (عليه السلام) فهو لم يغفل شيئاً لم يوص به، حتى المسافة التي ينبغي الالتزام بها والوقوف عندها بين الجيشين. فمن حكمة له يأمر فيها صاحب الجند بعدم الابتعاد المفرط، كما أمره بعدم الإقتراب المفرط من معسكر العدو، فقال: «قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك ولا تفرط في مقاربته فتذل نفسك وناصرك وتأمل حال الخشبة المنصوبة في الشمس التي إن أملتھا زاد ظلھا وإن أفرطت في الإمالة نقص الظل»^(٢).

استعمل أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا التشبيه الضمني الرائع في توضيح ما أراد، فقد شبه المعسكر بالخشبة الشاخصة إن أملتھا قليلاً زاد ظلھا؛ لأنّ الشمس تضرب بأشعتها على جانب هذه الخشبة فيصبح ظلّها مديداً. ووجه الشبه من هذا هو إذا التزم الجند بالبعد المطلوب من المسافة عن العدو كان لهم ظلاً أكثر ويترتب على هذا هيبة ووقع أكثر للجيش بسبب عدم معرفة العدو بالعدة والعدد الفعلي لذلك الجيش.

أما لو أفرطت في إمالتها فإنّ طولها سيتلاشى على الأرض، لأنّ الشمس تكون عمودية عليها، وبالتالي فإنّ ظلّها سيكون تحتها لا يستين منه إلّا القليل، ولربما يختفي تماماً وستكون الخشبة على حقيقتها فلا تزداد

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤ / ٢٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠ / ٤٨٧.

٣٤٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

من الظلّ أي طول وهذا هو وجه الشبه إذ إنّ الجند لو اقتربوا أكثر من معسكر عدوّهم ستعرف مقدرتهم الحقيقية، ولربّما تزول هيبتهم في نفوس عدوّهم بفعل هذه المعرفة.

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة في الأدب الصغير مبيّناً أنّها ليست له، فقال: «وكان يقال: قارب عدوك بعض المقاربة، تمل حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة، فيجترئ عليك عدوك وتذل نفسك ويرغب عنك ناصرك. ومثل ذلك مثل العود المنصوب في الشمس، إن أملتة قليلاً زاد ظله، وإن جاوزته الحد في إمالتة، نقص الظل»^(١).

ومن قبيل هذا الإعراف قال ابن المقفع أيضاً: «وكان يقال: عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف. وتركه العمل بما يعلم أنه صواب تهاون، والتهاون آفة الدين. وإقدامه على ما لا يدري أصواب هو أم خطأ جماح، والجماح آفة العقل»^(٢).

وهذا الذي قال هو أمير المؤمنين عليه السلام:

«عَمَلُ الرَّجُلِ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ خَطَأٌ هَوًى، وَالهَوَى آفَةُ الْعَفَافِ، وَتَرْكُ الْعَمَلِ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ صَوَابٌ تَهَاوُنٌ، وَالتَّهَאוُنُ آفَةُ الدِّينِ، وَإِقْدَامُهُ عَلَى مَا لَا يَدْرِي أَصَوَابٌ هُوَ أَمْ خَطَأٌ لِحَاجٍّ، وَاللَّجَاجُ آفَةُ الْعَقْلِ»^(٣).

وقال ابن المقفع في أدبه الصغير: «قال رجلٌ لحكيم: ما خيرٌ ما يؤتى المرء؟ قال: غريزة عقل. قال: فإن لم يكن؟ قال: فتعلم علم. قال: فإن حرمه؟ قال:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٢.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٣.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠ / ٤٥١ - ٤٥٢.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٤١

صدقُ اللسانِ قال: فإن حرمهُ؟ قال: سكوتٌ طويلٌ. قال: فإن حرمه؟ قال: ميتةٌ عاجلةٌ»^(١).

وهذا الحكيم هو حكيم الإسلام أمير المؤمنين (عليه السلام) وذلك هو جوابه، فقد سُئل: «ما أفضل ما أعطي الإنسان؟ قال غريزةٌ في عقلٍ، قيل: فإن لم يكن؟ قال: فأخٌ مستشيرٌ، قيل: فإن لم يكن؟ قال: فصمتٌ في المجالسِ، قيل: فإن لم يكن؟ قال: فموتٌ عاجلٌ»^(٢).

ومثلما هو واضح، فإن ابن المقفع ضمّن هنا النص العلوي بطريقة التحوير، فقد أبدل قول الإمام (عليه السلام):

«ما أفضل ما أعطي الإنسان».

بـ «ما خيرٌ ما يؤتى المرء».

وأبدل «ميتة عاجلة».

بـ «موت عاجل».

وأبدل «فصمت في المجالس».

بـ «سكوت طويل».

وبطريقته التي يأبى مفارقتها إلا نادراً مع النص العلوي، تلك الطريقة القائمة على الزيادة، فهو ما قد زاد على الحكمة «فتعلم علم» و «صدق لسان».

ومن التضمين الذي ورد في الأدب الصغير: «أصل العقل التثبت وثمرته

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٩.

(٢) جامع الأحاديث ١٩٤.

فهذا تضمين لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«أصلُ العقلِ الفكرُ وَثَمَرَتُهُ السَّلامَةُ»^(٢).

فلم يبدل ابن المقفع سوى «الفكر» بـ «التثبت» والأولى خاصة بالعقل وأكثر موافقة له من الثانية، وعليه فإن إبدال ابن المقفع هذا لم يكن في محله.

ثانياً: التلفيق:

كان ابن المقفع كاتباً حكيماً تغلب عليه الحكمة في كل شيء^(٣)، وبما إن أمير المؤمنين عليه السلام مثلما قال البروفسور فيليب يقوم في التراث الإسلامي مقام سليمان الحكيم... وله من الحكم والمواعظ عددٌ لا يحصى^(٤)، فقد وجد ابن المقفع ضالته في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام الحكيمة تلك، فلفق كثيراً منها. وقد ورد التلفيق في الأدب الصغير مكون من:

١- حكمتين علويتين:

ومن هذا قول ابن المقفع في الأدب الصغير: «أحقُّ النَّاسِ.. بالفضل أَعَوَّدَهُمْ عَلَى النَّاسِ بِفَضْلِهِ.. وَأَحَقُّهُمْ بِالنَّعَمِ أَشْكُرَهُمْ لَمَّا أَوْتِيَ مِنْهَا»^(٥).

فأول كلامه الذي أكد فيه على أن المتفضل على الناس هو أجدرهم بأن يدوم

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ١٩٨.

(٣) ينظر: ابن المقفع ٦٢.

(٤) ينظر: وعظ السلاطين ١٨٣.

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير ٣٣-٣٤.

له ذلك الفضل. وعلة دوام ذلك الفضل هو التفضل على الناس من السعي في قضاء حوائجهم، والاهتمام بأمورهم له شبه بليغ بجانب من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام بين فيها لجابر بن عبد الله الأنصاري أن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ نعمه على خلقه، فمن أراد لهذه النعم الدوام والبقاء عليه أن يقوم بها بما يرضي الله، ويقضي حوائج الناس، ومن لم يفعل هذا عرض نعمته للزوال فقال:

«يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ اللَّهُ فِيهَا عَرَّضَ نِعْمَةَ اللَّهِ لِذَوَامِهَا، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا يَجِبُ اللَّهُ فِيهَا عَرَّضَ نِعْمَتَهُ لِرِزْوَالِهَا اللَّهُ فِيهَا بِمَا يَجِبُ فِيهَا عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ»^(١).

أمّا قول ابن المقفع الأخير: «وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها» فيكاد يكون بنصه عن حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«وَأَحَقُّ النَّاسِ بِزِيَادَةِ النِّعْمَةِ أَشْكُرُهُمْ لِمَا أُعْطِيَ مِنْهَا»^(٢).

فقوله «وأحقهم» أي «أحقُّ النَّاسِ» مثلما ذكر هو في بداية حديثه، وهذا بنصه من أول الحكمة «وأحق الناس»، والباقي بنصه سوى أن ابن المقفع حذف لفظة «بزيادة»، وأبدل الفعل الماضي المبني للمجهول «أُعْطِيَ» بآخر مثله معنى وصياغة «أُوتِيَ».

وبطريقة مماثلة تعامل ابن المقفع مع حكمتين لأمر المؤمنين عليه السلام فرّق بهما بين مودة الأخيار وبين مودة الأشرار من حيث الديمومة والرسوخ. فالأولى ثابت أصلها وارف فرعها، والثانية سريع إنقطاعها، فقال في ذلك:

(١) نهج البلاغة ٦٢٠.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٣٥٩.

«مودّة ذوي الدين بطيئة الإنقطاع دائمة الثبات والبقاء»^(١).

«مودّة الحمقى تزول كما يزول السراب وتتشعّ كما يشعّ السحاب»^(٢).

لفق ابن المقفع بين الحكمتين، فقال: «المودة بين الأخيار سريع اتصاها بطئ الانكسار هين الإصلاح. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطئ اتصاها، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ثم لا وصل له أبداً»^(٣).

فأبدل ابن المقفع «مودّة ذوي الدين» بـ «المودة بين الأخيار».

وأبدل «مودّة الحمقى» بـ «المودة بين الأشرار».

وقوله عليه السلام: «بطيئة الإنقطاع» فمثله التام في قول ابن المقفع: «بطيء إنقطاعها»

أمّا تشبيه أمير المؤمنين عليه السلام لمودة الحمقى وزوالها بالسراب وتشعّ السحاب فقد أراد من ذلك وجه الشبه المتمثل بسرعة زوال هذه المودة وتصرّمها، وابن المقفع اقتنص وجه الشبه هذا لما قال: «سريع إنقطاعها». وبطريقته التي لا يكاد يفارقها مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهي التوسع بطرق شتى وهو هنا ضرب مثلاً بعد كلّ من الحكمتين اللتين لفقهما.

ومن نحو هذا أيضاً قول ابن المقفع: «... ومن لا إخوان له فلا أهل له...، ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة»^(٤).

(١) عيون الحكم والمواعظ ٤٨٩.

(٢) م. ن ٤٨٧.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٤.

(٤) م. ن ٥٥.

فمقطعه الأول الذي بيّن فيه منزلة الأخوان بنصّه من قول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ لَا إِخْوَانَ لَهُ لَا أَهْلَ لَهُ»^(١).

وأما الثاني فلا يعدو تقديماً وتأخيراً بين كلمات حكمة الإمام علي عليه السلام التي تقول: «مَنْ لَمْ يُوَثِّرِ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا فَلَا عَقْلَ لَهُ»^(٢).

وبمثل هذه الطريقة تعامل ابن المقفع مع حكمتين آخريتين لأُمير المؤمنين عليه السلام قال في الأولى مشفقاً على ولده محمد بن الحنفية من الفقر:

«يَا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ»^(٣).

قال ابن ميثم: «أما كونه منقصةً للدين فللاشتغال بهمه وتحصيل قوام البدن عن العبادة، وكونه مدهشةً للعقل: أي محل دهشة العقل وحيرته وضيق الصدر به ظاهر، وكذلك كونه داعية مقت للخلق لصاحبه»^(٤).

وقال عليه السلام في الثانية:

«...وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطَاؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَاؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ...»^(٥).

لَفَّقَ ابن المقفع الحكمتين وذلك في حديثه عن الفقر، فقال: «والفقر داعيةٌ إلى صاحبه مقت الناس، وهو مسلبةٌ للعقل والمروءة، مذهبٌ للعلم والأدب،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ٦٣٦.

(٢) م. ن ٦٥١.

(٣) نهج البلاغة ٦١٠.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥٠ / ٤٧٧٠.

(٥) نهج البلاغة ٦١٤.

٣٤٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ومعدنٌ للتهمة، ومجمعةٌ للبلايا. ومن نزل به الفقرُ والفاقة لم يجد بُدًّا من تركِ الحياءِ، ومَن ذَهَبَ حياؤه ذَهَبَ سروره، ومن ذَهَبَ سروره مقتٌ، ومن مقتٌ أو ذي، ومن أُوذي حزنٌ، ومن حزنٌ فقد ذَهَبَ عقله^(١).

فالحكمة التي أمر فيها أمير المؤمنين عليه السلام ولده بالاستعاذة من الفقرِ بالله العزيز نجد منها عبارات واضحة في كلام ابن المقفع مع تقديم وتأخير، فقول الإمام عليه السلام: «فإنَّ الفقرَ.. داعيةٌ للمقت» جعله ابن المقفع في مقدِّمة كلامه: «والفقر داعيةٌ إلى صاحبه مقتٌ النَّاس».

وقوله عليه السلام: «مدهشةٌ للعقل» قال عنه ابن المقفع «مسلبةٌ للعقل»

ولفظه «مدهشة» أدقُّ في وصف عقل الفقير من «مسلبة»، فالذي يصيبه الفقر يُدهش فكره، ويصاب بِحَيْرَةٍ من أمره لا يُسلب عقله.

ومثلما عرفنا سلفاً - وكما نعرف لاحقاً - لا تكاد تمرُّ حكمة واحدة من حكم أمير المؤمنين عليه السلام عند ابن المقفع - إلا نادراً جداً - دون أن يتوسع عليها، أو يقدم لها، أو يفرِّع منها، أو يضرب مثلاً عليها. وهو هنا بعد أن ذكر ما قاله الإمام توسع عليه بقوله: «مذهبةٌ للعلم ومعدنٌ للتهمة، ومجمعةٌ للبلايا».

أمّا حكمة الإمام الثانية لا يقل أثرها عن الأولى من حيث المفردات، والمعاني، والتركيب، فقولُه عليه السلام:

«... وَمَنْ قَلَّ حياؤه قَلَّ ورعه».

لها صدى بيّن في قول ابن المقفع: «وَمَنْ ذَهَبَ حياؤه ذَهَبَ سروره» وهو في استعماله الفعل «ذهب» بدلاً من الفعل «قَلَّ» عادَ إلى المبالغة غير المحمودة

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٤٧

لأنَّ مَنْ يفتقر لا يعني أنَّ حيائه قد ذهب، ومثلما أكدَّ على ذلك هو «لم يجد بداً من ترك الحياء»، بل الحياء لربَّما يقلُّ إذا افتقر حامله، وعليه لو استعمل الفعل «قلَّ» مثلما وجده عند أمير البيان (عليه السلام) لكانَ أصوب.

أما صياغة الجملة وتركيبها القائم على افتتاحها بـ «مَنْ» واتباعها بفعلٍ ماضٍ ثمَّ اختتامها بنتيجةٍ معيّنة كقوله (عليه السلام):

«...وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ».

فالجملة مكوّنة من:

من الشرطية + فعل الشرط الماضي مع فاعله + جواب الشرط وفاعله وهو ماضٍ أيضاً.

فكل هذا نجده تماماً في قول ابن المقفع «وَمَنْ ذَهَبَ حَيَاؤُهُ ذَهَبَ سُرُورُهُ». إلاَّ أنَّه وفي بعض الجمل تخلَّص من الفاعلين لأنَّه جاء بالفعل الماضي مبنياً للمجهول كقوله: «وَمَنْ مَقَّتْ فَقَدْ أَذِي».

وتجدر الإشارة إلى أنَّ التشابه بين كلام ابن المقفع «وَمَنْ نَزَلَ بِهِ الْفَقْرُ إِلَى قَوْلِهِ ذَهَبَ عَقْلُهُ» وبين حكمة الإمام الثانية أشار إليه -أيضاً- الدكتور محمد مهدي البصير في قوله: «يُخِيلُ إِلَيَّ أَنَّ ابْنَ الْمَقْفَعِ يُجَارِي بِكَلَامِهِ هَذَا كَلَاماً بَلِيغاً لِلإمام علي - ثم ذكر الدكتور الحكمة - ولكن كم بين كلام الإمام علي وهذر ابن المقفع من فرق»^(١).

وفي حكم عدة كان أمير المؤمنين (عليه السلام) ينهى عن الإستهانة بالخير واستقلال الصغير والقليل منه، ومن ذلك قوله:

(١) في الأدب العباسي ٢٠ (الهامش).

«افْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلُهُ كَثِيرٌ»^(١).

وفي حكمة أخرى نهى عن تحقير الخير والشر معاً؛ لأن الخير وإن كان صغيراً فصغيره يسر، والشر وإن كان ضوئاً ولا فضالته تضر، فقال في ذلك:

«لَا تُحَقِّرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ وَإِنْ صَغُرَ، فَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ سَرَكَ مَكَانَهُ، وَلَا تُحَقِّرَنَّ شَيْئًا مِنَ الشَّرِّ وَإِنْ صَغُرَ، فَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ سَاءَكَ مَكَانَهُ»^(٢).

نجد مضمون الحكمتين معاً وبعضاً من تراكيبهما في قول ابن المقفع «وعلى العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي، والزلل في العلم، والإغفال في الأمور، فإنه من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً، فإن الصغير كبيرٌ.. ولم نر شيئاً قط إلا قد أتى من قبل الصغير المتهاون به، قد رأينا الملك يؤتى من العدو المحتقر به، ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يحفل به ، ورأينا الأنهار تنبثق من الجدول الذي يستخف به»^(٣).

فنهى الإمام علي عليه السلام عن تحقير الشر: «و لَا تُحَقِّرَنَّ شَيْئًا مِنَ الشَّرِّ». لا يختلف عنه رفض ابن المقفع لاستصغار الخطأ والزلل: «لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا مِنَ الْخَطَا». .

أمّا قول الإمام علي عليه السلام: «فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ».

ضمّنه ابن المقفع بتحويل طفيف لما قال: «فَإِنَّ الصَّغِيرَ كَبِيرٌ».

(١) نهج البلاغة ٦٢٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠ / ٤٢٠.

(٣) الأدب الكبير والأدب الصغير ٢٣.

وكعادته التي يأبى ابن المقفع مفارقتها مع كلام الإمام علي عليه السلام إلا نادراً. فهو لم يكتفِ بالتضمنين، ولا التلفيق وحدهما، بل عمدَ إلى التوسع أيضاً على الحكمة العلوية. ومن طرقة بالتوسع ضرب الأمثال وهي هنا ثلاثة، لكنّها بمعنى واحد تماماً، ومنها قوله: «ورأينا الأنهار تنبثق من الجدول الذي يستخفُّ به». ومعنى المثل: لا تحقروا ولا تستصغروا الصغير النافع لأنّ فيه نتيجة تسرُّ. وبالتالي فإن ابن المقفع قد استوحى هذا المثل تماماً ممّا جاء في الحكمة الثانية: «لَا تُحَقِّرَنَّ شَيْئًا مِّنَ الْخَيْرِ وَإِنْ صَغُرَ، فَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ سَرَّكَ مَكَانُهُ».

٢- وصية وحكمة:

فمّمّا جاء في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام:

«يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِّغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَارْكُرْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ هُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ، وَإِنْ قُلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ»^(١).

فهو يريد من ولده الحسن عليه السلام أن يكون عادلاً بينه وبين غيره كما الميزان عادل لا يفضل إحدى كفتيه على الكفة الأخرى إلاّ بوزنٍ حقٍّ. وقال عليه السلام في هذا المعنى:

«أَعْدِلْ السَّيْرَةَ أَنْ تُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ»^(٢)

(١) نهج البلاغة ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٠٣.

٣٥٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

لا يخرجُ قول ابن المقفع: «أَعْدَلُ السَّيْرِ أَنْ تَقْيَسَ النَّاسَ بِنَفْسِكَ، فَلَا تَأْتِ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَا تَرْضَى أَنْ يُوْتَى إِلَيْكَ»^(١) عن دائرة النصيين العلويين، فأول قوله: «أَعْدَلُ السَّيْرِ أَنْ تَقْيَسَ النَّاسَ» عن كلام الإمام عليه السلام: «أَعْدَلُ السَّيْرِ أَنْ تُعَامِلَ النَّاسَ».

فقد أبدل ابن المقفع «تعامل» بـ «تقيس». إلا أنَّ التحوير الذي أجراه ابن المقفع على مفردة «السيرة» وحوّلها إلى «السير» لم يكن محموداً بنظر الباحث، كون هناك فرق شاسعٌ بين السيرة التي هي السُّنَّة والطريقة^(٢)، وبين السير الذي هو الذهاب^(٣). وبالتالي فإنَّ المعنى عند الطرفين لا تستقيم معه مفردة «السير» بقدر مفردة «السيرة».

وباقى كلامه أخذه من الوصية إلاَّ أنَّه حذف منها «الميزان» الذي أعطى لوصية الإمام بعداً تصويرياً جميلاً إلاَّ بوزنٍ حقٍّ. وكذلك لم نجد في كلام ابن المقفع طرق ومقاييس العدل تلك التي وجدناها في كلام الإمام علي عليه السلام:

- أَنْ تُحِبَّ لغيرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ

- أَنْ لَا تُظْلِمَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ لَا تُظْلَمَ

- أَنْ تَسْتَقْبَحَ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبَحُهُ مِنْ غَيْرِكَ

وتنبغي الإشارة بعد هذا إلى أن ما جاء في نهاية المقطع المذكور من الوصية: «وَلَا تَقْلُ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ». لم يذكره ابن المقفع مع كلامه السابق، بل

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٠.

(٢) ينظر: تاج العروس ٦ / ٥٥٩ مادة (سير).

(٣) ينظر: لسان العرب ١ / ٣٩٣ مادة (سير).

آخره قليلاً، فقال: «ومن ورع الرجل أن لا يقول ما لا يعلم»^(١).

٣- حكمتين ورسالة:

قال أمير المؤمنين في إحدى حكمه:

«وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدْ انْتَضَمَ الرَّاحَةِ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ.
وَالرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ»^(٢).

وقال في أخرى: «مَنْ سَأَلَ فَوْقَ قَدْرِهِ اسْتَحَقَّ الْحُرْمَانَ»^(٣).

وقال في رسالة كتبها على عبد الله بن عباس:

«الْدُّنْيَا دَارُ دُولٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ
تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ»^(٤).

أتى ابن المقفع على هذه النصوص الثلاثة بتامها ونظمها في عقد واحد، فقال: «اقتصار السعي إبقاءً للجسام، وفي بعد الهمة يكون النصب، ومن سأل فوق قدرته استحق الحرمان، وسوء حمل الغنى أن يكون عند الفرح مرحاً، وسوء حمل الفاقة أن يكون عند الطلب شراً، وعار الفقر أهون من عار الغنى، والحاجة مع المحبة خير من الغنى مع البغضة. الدنيا دول، فما كان لك منها أتاكَ على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك»^(٥).

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٣.

(٢) نهج البلاغة ٦١٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ٦٢٤.

(٤) نهج البلاغة ٥٤٢.

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٦.

فالحكمة الأولى ضمنها ابن المقفع وجعلها في أوّل كلامه مع تحويرات طفيفة فقد أبدل «من اقتصر» بـ «اقتصار السعي»، وأبدل «أنّظم الراحة» بـ «إبقاء الجهام» والمعنى واحد تماماً في النصين بخاصّة إذا عرفنا الجهام بمعنى الراحة^(١)، إلا أنّ ابن المقفع لم يبيّن إلى أيّ حدّ ينبغي معه الاقتصار في السعي، لأنّ الاقتصار قد يصل إلى التقصير، وهذه الدرجة سلبية وليست إيجابية، وابن المقفع بهذا يكون حذف محوراً من حكمة الإمام لا غنى عنه لمن أراد الإجادة في هذا المعنى، وهو قوله «الكفاف». وعلى أية حال فالذي اقتصر واكتفى بما يكفيه من كدّ يده ولم يجعل نفسه وجسده يلهثان خلف الدنيا أورث «الراحة» بحسب تعبير الإمام، أو «الجهام» بحسب تحوير ابن المقفع.

وفي حال لم يقتصر الساعي على ما يكفيه وانقاد إلى «الرغبة» بحسب تعبير الإمام عليه السلام والتي حولها ابن المقفع إلى «بعد الهمة»، فحينئذ تكون النتيجة بإتفاق الطرفين هي «النصب» أي التعب الشديد.

وبطبيعة الإمام لم يترك معناه بدون فنّ بلاغيّ جميل وهو هنا «استعار للرغبة في الدنيا لفظ المفتاح باعتبار فتحه لباب التعب على الرّاغب، وكذلك لفظ المطية باعتبار استلزامها كالمطية المتعب ركوبها»^(٢).

أما حكمة الإمام الثانية «مَنْ سَأَلَ فَوْقَ قُدْرِهِ اسْتَحَقَّ الْحَرَمَانَ»، فقد ضمّنها ابن المقفع لما قال: «من سأل فوق قدرته استحقّ الحرمان»، وليته لم ينله النصب لما أبدل «قدره» بـ «قدرته». وبالنسبة للنص الثالث فقد ضمنه ابن المقفع بنصّه في آخر كلامه المذكور.

(١) ينظر: لسان العرب ١٢ / ١٠٥ مادة (لجم).

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٩٠.

٤- نصوص عدة متفرقة من العهد:

خَصَّ ابن المقفع السلطان بنصيبٍ كبير من المواعظ في الأدب الصغير، وكان يرى إنَّ هناك خصال أربع ينبغي على السلطان إحرازها والتوثق منها كيما تدول دولته، وتنفذ كلمته، فقال: «ولايةُ الناسِ بلاءٌ عظيمٌ، وعلى الوالي أربعُ خصالٍ هي أعمدةُ السلطانِ، وأركانُهُ التي بها يقومُ وعليها يثبُتُ: الاجتهادُ في التخيير، والمبالغةُ في التقدم، والتعهد الشديد، والجزاء العتيد»^(١).

وبعد أن عدد هذه الأركان الأربعة بدأ بتفصيل كُلِّ منها. وهذه عن بكرة أبيها من عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) لملك الأشتر (رضوان الله عليه) بالنص أو بالمعنى.

فقال ابن المقفع عن التخيير: «فأما التخييرُ للعمالِ والوزراءِ فإنه نظامُ الأمرِ ووضعُ مؤونةِ البعيدِ المنتشر... ولعلَّ عُمَالَ العاملِ وعُمَالَ عُمَّالِهِ يبلغونَ عدداً كثيراً، فمن تبيَّن التَّخَيَّرَ فقد أخذ بسببٍ وثيقٍ، ومن أسَّس أمره على غير ذلك لم يجد لبنائه قواماً»^(٢).

فالعمال كثيرون، ولا يمكن استعماهم بأجمعهم ولكن السبب الوثيق هو تخييرهم، وهذا كقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في عهده للأشتر:

«ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمْ [اخْتِياراً] اخْتِياراً، وَلَا تُؤَلِّمْهُمْ مُحَابَاةً وَآثَرَةً»^(٣).

وهذا التَّخَيَّرُ يحتاج إلى تأكيد حتى يتم بنجاح، قال ابن المقفع: «وأما التقديم

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٥.

(٢) م. ن ٢٥.

(٣) نهج البلاغة ٥٠٩.

٣٥٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

والتوكيد، فإنه ليس كُلُّ ذي لُبٍّ أو ذي أمانةٍ يعرفُ وجوهَ الأمورِ والأعمالِ»^(١).

فهو يرى هنا أنَّ العقل والأمانة غير كافيتين للتعرف على وجوه الأمور الصحيحة وتأدية الأعمال بشكلها الحسن. وكأنه هنا أراد أن يقول ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن أمر بتخيير العمال أيضاً:

«وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجَرُّبَةِ، وَالْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبَيِّنَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا، وَأَقْلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقًا، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا»^(٢).

وبعد التوكيد قال ابن المقفع عن التعهّد: «وأما التعهّد، فإن الوالي إذا فعل ذلك كان سميعاً بصيراً، وإن العامل إذا فعل ذلك به كان متحصناً حريزاً»^(٣). وبعد أسطرٍ معدودات كرّر القول مجدداً في التعهّد قائلاً: «ثم على الملوك،.. تعاھدُ عماھم وتفقدُ أمورھم»^(٤).

وهذا الكلام نظيره قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«ثُمَّ تَفْقَدُ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَدُ الْوَلَدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا... وَلَا تَحْقِرَنَّ لَطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ»^(٥).

فالمعنى واحد بين الكلاميين وهو التأكيد على تعهّد وتفقد الولاية لما في التعهّد

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٥.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٩.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٥.

(٤) م. ن ٢٦.

(٥) نهج البلاغة ٥٠٦-٥٠٧.

والمحاسبة من مردود إيجابي على إدارة الدولة ونجاح أعمالها. وليس المعنى هو نقطة الاشتراك الوحيد بين النصوص، بل ثمة هناك جمل علوية نجدها في حديث ابن المقفع، كقول الإمام: «تَفَقَّدَ مِنْ أُمُورِهِمْ» وعند ابن المقفع: «وتفقد أمورهم» والفرق أنَّ التفقد جاء في كلام الإمام (عليه السلام) فعلٌ أمرٌ لزيادة التأكيد عليه، بينما جاء عند ابن المقفع اسم وهو مبتدأ مؤخر وخبره شبه الجملة «على الملوك». ولعله فعل هذا التقديم والتأخير طمعاً في التأكيد أيضاً.

وكقوله (عليه السلام): «تعاهدتهم» فالضمير «الهاء» هنا عائِدٌ على العُمال أو الأصحاب والميم علامة الجمع، أي تعاهدت عمالك أو اصحابك، وبالتالي لا فرق فيه عن قول ابن المقفع: «تعاهدُ عُمَالَهُمْ». فتراه عمد إلى الضمير الذي ورد في كلام الإمام وأرجعه إلى الإسم الصريح، وما أكثر تعامل ابن المقفع بهذه الطريقة مع كلام أمير المؤمنين (عليه السلام).

أمّا رابع الأركان السلطانية فهو الجزاء وإعطاء كل ذي حقّ حقه، فجاء في الأدب الصغير: «وأمّا الجزاء فإنه تثبّت المحسن والراحة من المسيء»^(١). ثم بعد أسطر قليلة عاد ابن المقفع وكرّر هذا المعنى بتفصيل أكثر، قائلاً: «ثم عليهم، بعد ذلك، أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء، ولا يقرؤا مسيئاً، ولا عاجزاً على الإساءة والعجز، فإنهم إن تركوا ذلك، تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل»^(٢).

ومن دون أدنى شكّ فإن هذا الكلام علوي المنبع والأصل، إذ وردنا عن الدوحة العلوية بطريقتين:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٥.

(٢) م. ن ٢٦.

الأول:

ما رواه أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥) في كتابه الصناعتين وبسند متصل إلى أمير المؤمنين عليه السلام - سبق أن تحدّث عنه الباحث - فقال: «ومن حسن الإتيان أيضاً قول إبراهيم بن العباس حيث كتب: إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسيئ من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن في الإحسان رغبة، وانقاد المسيء للحق رهبة. أخذه من قول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أخبرنا به أبو أحمد، قال أخبرنا أبو بكر الجوهري، قال: أخبرنا أبو يعلى المنقري، قال: أخبرنا العلاء بن الفضل بن جرير قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يجب على الوالي أن يتعهد أموره، ويتفقد أعوانه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء. ثم لا يترك واحداً منهما بغير جزاء، فإن ترك ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل»^(١).

وعليه فإن ما جاء في قول ابن المقفع الأخير معتمداً اعتماداً كلياً على قول الإمام المذكور.

الثاني:

ما رواه الرضي (رضي الله عنه) في نهج البلاغة. فقد ورد في العهد:

«وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيذاً لِلْأَهْلِ
الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِلْأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْأَسَاءَةِ، وَالزِّمُّ كُلُّا مِنْهُمْ مَا
الزَّمْ نَفْسَهُ»^(٢).

(١) الصناعتين ٢٢٠.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٤.

نهى ﷺ واليه أن يكون المحسن والمسيء بمنزلة سواء، وسر ذلك إن أكثر فعل الإحسان إنما يكون طلباً للمجازاة خصوصاً من الولاة. فإن رأى المحسن مساواة منزلته بمنزلة المسيء انصرف عن الإحسان والجد والاجتهاد إلى الراحة، وكذلك أكثر التاركين للإساءة إنما يتركونها خوفاً من الولاة^(١). لا بدافع ذاتي وإيمان باطني بالفضيلة. وابن المقفع حينما إجتراح أن لا يترك المحسن ولا المسيء من دون جزاء يستحقه سار تماماً على نصيحة أمير المؤمنين ﷺ في ذلك.

ثالثاً: البسط:

لقد كان ابن المقفع مولعاً ببسط كلام أمير المؤمنين ﷺ حتى يمكن عدّ هذا المظهر من أبين مظاهر تأثر ابن المقفع بكلام الإمام ﷺ، حيث كان يأتي على الحكمة العلوية فيجعلها في مقدمة كلامه، ثم يتوسّع فيها كثيراً وكأنه يشرحها، أو يجعلها منطلقاً لتفرعات عدّة، أو يضرب عليها أمثلة توضيحية. وشاهد هذا كثيرة جداً منها قوله:

«أفضل ما يُورث الآباءُ الأبناء، الثناءُ الحسنُ والأدبُ النافعُ والإخوانُ الصالحون»^(٢).

فصدر كلامه تضمين لحكمة أمير المؤمنين ﷺ:

«خَيْرُ مَا وَرَثَ الآبَاءُ الأَبْنَاءُ الأَدَبُ»^(٣).

وأول ما فعله ابن المقفع أبدل اسم التفضيل «خير» في حكمة الإمام بإسم

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٣٣٩/٥.

(٢) الأدب الصغير والدب الكبير ٣٤.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ٣٥٩.

٣٥٨..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

تفضيل أيضاً «أفضل»، وهذا الذي هو أفضل إرث يقدمه الأب لابنه، وهو «الأدب» بحسب تعبير الإمام توسّع عليه ابن المقفع لما قال: «الثناء الحسن والأدب النافع والإخوان الصالحون».

وبطريقة مماثلة تعامل ابن المقفع مع حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام نهى فيها عن عيب معيب متمثل بخفاء عيوب المرء على نفسه، فقال:

«مَنْ أَشَدَّ عُيُوبِ الْمَرْءِ أَنْ تَخْفَى عَلَيْهِ عُيُوبُهُ»^(١).

ضمن ابن المقفع هذه الحكمة، ثمّ توسّع عليها، فقال: «من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه. فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفي عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصر أبداً»^(٢).

فعمى أن لا يكون ابن المقفع قد تكلف في تغييراته التي أجراها على جانب من الحكمة وبخاصة لما أبدل «المرء» بـ «الإنسان»، ولما أبدل المصدر المؤول في كلام الإمام «أن تخفى» والذي هو في محل تقدير خفاء بـ «خفاء». ثمّ ما أجراه من تقديم وتأخير على ذيل الحكمة «عليه عيوبه» ليجعله «عيوبه عليه» أمّا قوله عليه السلام: «من أشد عيوب» فقد أبقاها ابن المقفع على حاله «من أشد عيوب»، ثمّ بعد ذلك انطلق ابن المقفع من الحكمة المذكورة ليبيّن إنّ مَنْ لا يستطيع تحديد عيبه لا يتمكن من معرفة محاسن غيره، ومَنْ كان هكذا لا إصلاح ذاتي ولا تأثير خارجي، فسيكون بؤرة للعيوب.

ومن شدة تأثيره بكلام أمير المؤمنين عليه السلام فعل كما فعل في الأدب الكبير، إذ

(١) م. ن ٦٧٣.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٠.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٥٩

جعل ابن المقفع مسك ختام الأدب الصغير حكمةً علوية جاء فيها: «لا يَزَالُ
الْمَرْءُ مُسْتَمِرًّا مَا لَمْ يَعْثُرْ فَإِذَا عَثَرَ مَرَّةً لَجَّ بِهِ الْعِثَارُ وَلَوْ كَانَ فِي جَدَدٍ»^(١). الجدد يعني
الأرض المستوية^(٢).

فإن كان ابن المقفع قد ضمّن الحكمتين السالفتين دون الإشارة إلى أنّها ليست
له، فهو هنا ضمن الحكمة المذكورة، ثم توسّع عليها، مشيراً إلى أنّها ليست له
فقال: «لا يزال الرجل مستمراً ما لم يعثر، فإذا عثر مرة واحدة في أرض الخبار
لج به العثار، وإن مشى في جدد لأن هذا الإنسان موكل به البلاء، فلا يزال في
تصرف وفي تقلب لا يدوم له شيء ولا يثبت معه، كما لا يدوم لطالع النجوم
طلوعه ولا لآفلها أوفله. ولكنها في تقلب وتعاقب: فلا يزال الطالع يكون آفلاً
طالعا»^(٣).

وبعد أن ضمن الحكمة علل ابن المقفع ما ورد فيها، وذلك لما أكّد على أنّ
الإنسان غرض للبلاء، ومن البلاء أنّه لا يقرّ على حالة واحدة، بل هو في انقضاء
وتقلب من حال إلى آخر مثل النجوم: فلا طالعها يبقى طالعا ولا آفلها يبقى
آفلاً. وبهذا التعليل - الذي يفوق الحكمة حجماً - يكمن البسط الذي أجراه ابن
المقفع على حكمة أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن تلك المواضع العلوية التي تردد صداها عند ابن المقفع وبطريقة
البسط أيضاً ما جاء في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام بعثه إلى عبد الله بن عباس،
قال فيه:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠ / ٤٤٦.

(٢) ينظر: لسان العرب ٣ / ١٠٧ مادة (جدد).

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٠.

٣٦٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسْرُهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا؛ وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيهَا بَعْدَ الْمَوْتِ»^(١).

وكان ابن عباس يقول عن هذه الحكمة: «ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله ﷺ كانتفاعي بهذا الكلام»^(٢).

وحاصل كلامه عليه السلام النهي عن شدة الفرح بما يحصل من المطالب الدنيوية وأشار إلى هذا بقوله: «إِنَّ الْمَرْءَ إِلَى قَوْلِهِ لِيُدْرِكَهُ» وهو خبر في معنى النهي، كما نهى أيضاً عن شدة الأسف على ما يفوت من تلك المطالب، ولفظ «ما» في الموضعين يراد به المطالب الدنيوية^(٣).

اعتمد ابن المقفع على هذا المعنى وبعض ألفاظه، فقال: «وعلى العاقل أن لا يحزن على شيء فاتته من الدنيا أو تولى، وأن ينزل ما أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب، ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها، ولا يبلغن ذلك سكرًا ولا طغيانًا، فإن مع السكر النسيان، ومع الطغيان التهاون، ومن نسي وتهاون خسر»^(٤).

أجرى ابن المقفع عدة تحويرات على رسالة أمير المؤمنين عليه السلام المذكورة، وأولها التقديم والتأخير. فما ختم به الإمام رسالته:

(١) نهج البلاغة ٤٤١.

(٢) نهج البلاغة ٤٤١.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٤ / ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢١.

«وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا».

جعله ابن المقفع أولاً: «أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى».

ولم يكتفِ ابن المقفع بأن قدم وأخر بل عمد - في الفقرة المذكورة - إلى المقطع نفسه وقدم وأخر فيه أيضاً، فقول الإمام: «وما فاتك منها» أي الدنيا أخره ابن المقفع، فقال: «فاتته من الدنيا». وأما قوله (عليه السلام): «فلا تأس» قدمه ابن المقفع وأبدله بـ «لا تحزن».

ثم زاد على المقطع العلوي لفظة واحدة وهي «تولى» ولعلها تشير إلى ما كان بحيازة الفرد ثم فقد، أما «فات» فمعناه ما يمر على الإنسان من خيرات الدنيا دونها يدرك منه الإنسان شيئاً.

وقبل هذا المقطع وجدنا الإمام قد قال: «وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا» ومعناه واضح: لا تكثروا السرور بما أقبل عليكم من دنياكم. وهذا لم يقدمه ابن المقفع بل بسطه بسطاً واضحاً لما قال: «ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها، ولا يبلغن ذلك سُكْرًا ولا طغياناً، فإنَّ مع السكر النسيان، ومع الطغيان التهاون، ومن نسي وتهاون خسر». فقبل أن يتوسع على المقطع العلوي المذكور ضمّن ابن المقفع كلماته - أي المقطع - كلمة كلمة ولكن بتغيير ترتيبها وثوبها فقط، إذ حافظ على أصل المعنى تماماً كمحافظته على الصياغة أيضاً وذلك لما أبدل:

الاسم «الفرح» بـ الاسم «سرور».

وما الموصولة والفعل «ما نلت» بما الموصولة والفعل «ما أقبل».

وشبه الجملة «من دنياك» بشبه الجملة «منها».

٣٦٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

وهنا انكشف تلاعب ابن المقفع أكثر فقبل قليل - في هذه الحكمة - لما وجد الإمام عليه السلام قال: «منها» قال هو: «من الدنيا»، وهنا قال الإمام عليه السلام: «من دنياك» قال هو: «منها».

والحرف ولا الناهية والفعل المضارع «فلا تكثر» بالحرف ولا الناهية والفعل المضارع «ولا يبلغن».

و «به» ب «ذلك» وهما معاً إشارة إلى ما أقبل من خيرات الدنيا.

وبعد هذه التغيرات الشكلية توسع ابن المقفع بما هو مذكور، وذلك لما نهى عن وصول الفرح إلى درجة شديدة أسماها بالسكر والطغيان، عاداً الأول يجرُّ إلى النسيان والثاني يجرُّ إلى الطغيان، وهما معاً يورثان الخسران.

ويبدو أن ابن المقفع قد أطال النظر في رسالة أمير المؤمنين عليه السلام هذه، إذ لم يهمل منها جانباً، وفي الوقت نفسه لم يترك ما أخذه من دون تغيير شكلي بحت، ففضلاً عما ذكر بقيت تراكيب وألفاظ في الرسالة لم يفرط ابن المقفع بها، بل غير ثوبها، فقد أبدل «ليدركه» وهو بمعنى يصيبه ب «أصابه»، وأبدل «ليفوته» ب «إنقطع عنه». ومثلما وجد أمير المؤمنين عليه السلام قد استعمل التركيب «ما لم + فعل مضارع» مرتين استعمله هو مرتين أيضاً وذلك لما قال: «ما لم يصب» و «ما لم يطلب».

وما أن انتهى ابن المقفع من الرسالة العلوية السالفة، اتجه بعدها إلى جانب من وصية أمير المؤمنين عليه السلام - رواها الطوسي (ت ٤٥٠هـ) بسند تام - لولده الحسن عليه السلام، منها:

«يا بني لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٦٣

فِيهَا نَفْسُهُ، وَسَاعَةٌ يُخْلُو فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَلَذَّتْهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ، وَلَيْسَ
لِلْمُؤْمَنِ يَدٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَاخِصًا فِي ثَلَاثٍ: مَرْمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ أَوْ
لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»^(١).

وهذا التقسيم الجامع بين الدين والدنيا، والمانع من تشتيت الوقت الذي
يَمَكِّنُ عَدَّهُ أَفْضَلَ مِنْهَاجٍ عَمَلٍ لِلْمَرْءِ الْعَاقِلِ، ضَمَّنَهُ ابْنُ الْمَقْفَعِ بِطَرِيقَتِهِ الْمَفْضَلَةِ
الْقَائِمَةِ عَلَى التَّوَسُّعِ، فَقَالَ: «عَلَى الْعَاقِلِ، مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى نَفْسِهِ، أَنْ لَا يَشْغُلَهُ
شُغْلٌ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ: سَاعَةٍ يَرْفَعُ فِيهَا حَاجَتَهُ إِلَى رَبِّهِ، وَسَاعَةٍ يَحَاسِبُ فِيهَا
نَفْسَهُ، وَسَاعَةٍ يَفْضِي فِيهَا إِلَى إِخْوَانِهِ وَثِقَاتِهِ الَّذِينَ يَصْدُقُونَهُ عَنْ غِيوبِهِ وَيَصُونُونَهُ
فِي أَمْرِهِ، وَسَاعَةٍ يُحْلِي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ، فَإِنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ
عَوْنٌ عَلَى السَّاعَاتِ الْأُخْرَى، وَإِنَّ اسْتِجْهَامَ الْقُلُوبِ وَتَوْدِيعَهَا زِيَادَةُ قُوَّةٍ لَهَا وَفَضْلٌ
بَلِغَةٌ. وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ رَاغِبًا إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلَاثٍ: تَزْوِجٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرْمَةٍ
لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»^(٢).

فأول الزيادات إن ابن المقفع جعل الساعات أربعا بدلاً من ثلاث مع تغيير
على الأولى فقط.

أما الساعة الأولى التي وجه الإمام علي عليه السلام إلى أن تكون لمناجاة الله -
سبحانه وتعالى - حوَّراً فيها ابن المقفع تحويراً لم يكن ممدوحاً وذلك لما عدها لرفع
الحاجة؛ فكأنه إذا لم تكن حاجة إلى الله - تعالى - فإنَّ ساعة الإتصال به ستنتفي
أي بانتفاء سببها، وهذا النوع من العبادة أسماها أمير المؤمنين عليه السلام بعبادة التَّجَارِ،
لما قال:

(١) أمالي الطوسي ١٤٧.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٢.

«إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّهَ رَغْبَةً فَتَلَكَ عِبَادَةُ التَّجَارِ..»^(١).

أما الساعة الثانية عند ابن المقفع فهي ساعة الإمام علي عليه السلام الثانية بنصّها، وهنا ابن المقفع وجد مجالاً ليزيد الساعة التي دعا فيها إلى الإفضاء إلى الإخوان والأصدقاء. وبالنسبة للساعة الرابعة فهي تضمين لساعة أمير المؤمنين عليه السلام الثالثة، وفيها أيضاً يكمن التوسع الآخر الذي قام به ابن المقفع وذلك لما عدّ هذه الساعة مميّزة، فهي عنده عون على الساعات الآخر لما فيها من راحة للقلوب واطمئنان لها.

وبهذه الطريقة المميزة والغريبة - القائمة على تجزئة الحكمة والتوسع عليها - تعامل ابن المقفع مع الحكمة العلوية التي تقول:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ؛ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ»^(٢).

فقد أوردها بتمامها في الأدب الصغير، فقال: «ومن نصب نفسه للناس إماماً في الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة، والطعمة، والرأي، واللفظ، والأخلاق، فيكن تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمة يوقن الأسعاع، فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم»^(٣).

(١) نهج البلاغة ٥٩٢.

(٢) نهج البلاغة ٥٦٢.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٤.

ومثلما بأن فإن ابن المقفع قد جعل الحكمة ثلاثة مقاطع يفصل المقطع عن أخيه بزيادة معينة.

فأول كلامه: «من نصب نفسه للناس إماماً في الدين»

بنصه عن الحكمة: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا»

غير إن ابن المقفع زاد على مقطع الحكمة شبه الجملة «في الدين»، وهذه الزيادة لم تكن موفقة؛ لأنها ضيّقت دلالة هذا المعنى الجميل وحصرته بأئمة الدين فقط. فإمام الدين في نظر ابن المقفع هو وحده من يبدأ بتعليم نفسه ثم يعلم الآخرين، بينما أمير المؤمنين (عليه السلام) ذكر كلمة «إماماً» دون أن يقرنها بعمل معين، أو بتخصيص ما، بل جعلها مفتوحة الدلالة؛ لأنه أراد لكل إمام - في أي مكان حل وأي عمل عمل في الدين أو غيره - أن يكون قدوة يُقتدى به من خلال تعليم نفسه أولاً، ثم تعليم غيره تعليمًا صائبًا ثانيًا. ومن البسط أيضاً على هذه الفقرة من الحكمة أن يبين ابن المقفع بعض الطرق التي يمكن للإمام أن يكون قدوة فيها كتقويم النفس «في السيرة، والطعمة، والرأي، واللفظ، والأخذان».

وبعد هذا البسط عاد للحكمة ثانية ليضمن منها قول الإمام (عليه السلام):

«وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ».

وبتحوير أقل من القليل: «فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه».

ثم بسط هذا أيضاً، وذلك لما ضرب مثلاً توضيحياً على أن التعليم بالفعل أبلغ أثراً من التعليم بالقول: «فإنه كما أن كلام الحكمة مفاده إذا كان قول الحكمة يعجب الأسماع؛ فإن فعلها يستهوي القلوب».

ثم عاد ثالثة إلى الحكمة ليضمن ما تبقى منها حرفياً، ويختتم به كلامه.

٣٦٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

وهكذا كان ابن المقفع يتخيّر ما شاء من حكم أمير البيان عليه السلام، ويتوسّع عليها بما شاء. وهذه المرة أتى على جانب من حكمة للإمام علي عليه السلام - أوصى بها كميل بن زياد - جاء فيه:

«يَا كَمِيلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. يَا كَمِيلَ بْنَ زِيَادٍ مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُخْدُوثةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مُحْكُومٌ عَلَيْهِ»^(١).

فَصَلَّ الإمام علي عليه السلام العلم على المال، وقد برّر ذلك بتبريرات عدة: فالعلم يحرس حامله في حياته ويطيّب ذكره بعد وفاته، بينما المال عاجز عن حراسة نفسه فيحتاج إلى مَنْ يحرسه، والعلم يزداد نماءً وسعة إذا أُنفق، بينما المال ينقص بقدر الإنفاق منه.

فهذه المعاني وبعض ألفاظها وإن كان ابن المقفع قد قدّم وأخر وحوّر فيها إلا أنّها تبقى روح قوله: «القسم الذي يقسم للناس ويمتعون به نحوان: فمنه حارس ومنه محروس، فالحارس العقل، والمحروس المال، والعقل، بإذن الله، هو الذي يحرز الحظ، ويؤنس الغربة، وينفي الفاقة، ويعرف النكرة، ويثمر المسبكة، ويطيّب الثمرة، ويوجه السوق عند السلطان، ويستنزّل للسلطان نصيحة السوق، ويكسب الصديق، ويكفي العدو»^(٢).

فالقسم مصدر قَسَمَ الشيءَ يقسمه قسمًا، وقسمه جزأه، والقسم النصيب

(١) نهج البلاغة ٥٧٩.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٨.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأذب الصغير ٣٦٧

والحظ^(١)، وهو مثلما رآه ابن المقفع قسماً: منه «حارس» يحرس غيره وهو العقل «فالْحَارِسُ الْعَقْلُ». وهذا عن كلام أمير المؤمنين (عليه السلام):

«العلم يحرسك».

ومنه «محروس» وهو المال «والمحروس المال» بمعنى المال يحتاج إلى من يحرسه وهذا عن كلام أمير المؤمنين (عليه السلام):

«وأنت تحرس المال».

غير أن ابن المقفع عمل تغيراً طفيفاً حين أبدل الأفعال التي جاءت في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمفاعيل:

يحرس - حارس «اسم فاعل».

تحرس - محروس «اسم مفعول».

ولما أبدل أيضاً «العلم» بـ «العقل» باعتبار العقل وعاء العلم، ثم أخذ يعدد محامد العقل، وقد جعل لها نصيباً يمثل أكثر من نصف كلامه: «والعقل بإذن الله، هو الذي يحرز الحظ ويؤنس الغربة، ويفني الفاقة ويثمر المكسبة.. إلى آخر قوله». وهذا هو مكنن التوسع الذي أجراه ابن المقفع على ما ذكره الإمام علي (عليه السلام) من محامد العلم:

«مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُخْدُوثةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ».

وأما ما جاء في آخر حكمة الإمام (عليه السلام):

(١) ينظر: لسان العرب ١٢ / ٤٧٨ مادة (قَسَمَ).

«وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مُحْكُومٌ عَلَيْهِ».

فقد قدمه ابن المقفع إلى صدر حديثه لما قال: «فمنه حارس، ومنه محروس».

٤ الإيجاز:

لقد وردت بعض الحكم العلوية بشكل موجز في الأدب الصغير كورودها في الأدب الكبير، أي قليلة جداً، ومنها قوله عليه السلام:

«إِعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رِوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ»^(١).

فهو ينهى عن كثرة رواية الكلام بدون هضمه، ويأمر بعقل الخبر عقل معرفة، مؤكداً على أن من يُراعي العلم ويتدبره قليل^(٢).

نظر ابن المقفع إلى الفقرة الثانية من الحكمة وأوجزها بصدر قوله: «الواصفون أكثر من العارفين، والعارفون أكثر من الفاعلين»^(٣).

فقول ابن المقفع: «الواصفون» وهم مكثروا الكلام^(٤) إيجاز لكلام الإمام عليه السلام: «رواة العلم». وهؤلاء استعمل لهم الإمام صيغة المبالغة «كثير» للدلالة على كثرتهم، وهكذا ابن المقفع فقد استعمل لهم اسم التفضيل «أكثر» للدلالة على كثرتهم أيضاً. أمّا «العارفون» وهم الذين عرفوا وهضموا ما يتكلمون، ففيه إيجاز لكلام الإمام عليه السلام: «رعاة

(١) نهج البلاغة ٥٦٧.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٦.

(٤) ينظر: الأدب الصغير والأدب الكبير ١٦ (الهامش).

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٦٩

العلم» وهم الذين حملوا العلم حمل معرفة وتفكر وهؤلاء «قليل» بحسب وصف الإمام عليه السلام لهم، وبحسب وصف ابن المقفع هم أقل على اعتبار إن الواصفين أكثر منهم، فهم إذاً أقل من الواصفين.

وقال الإمام علي في وصيته لولده الحسن عليه السلام:

«اعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ»^(١).

فنهى الإمام علي عليه السلام هذا عن الإعجاب والذي يعني استحسان الفرد لعمله مطلقاً، وهو من أعظم الأخلاق مصيبة ومن اشد الآفات ضرراً على معتقده^(٢) ضمّنه ابن المقفع بشكل موجز، فقال: «العجب آفة العقل»^(٣).

فابن المقفع هنا - كعادته مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام - غير شكلياً لما أبدل «الإعجاب» بـ «العجب» ولمّا حوّل «الألباب» إلى مرادفها «العقل». وعلى الرغم من إن المعنى واحد والكلمات هي هي إلا أنّ ابن المقفع بإيجازه هذا ضيّع ذلك التناغم الصوتي والوقع المحبّب المتأتّي من سجع الألفاظ في الحكمة العلوية «الإعجاب - الصواب - الألباب».

وللمودّة نصيبٌ في وصايا الوصي عليه السلام، فقد عدّها أي المودّة غنيّة عن القرابة والقرابة فقيرة إليها. وأكد هذا في غير ما حكّمه

(١) نهج البلاغة ٤٦٣.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٣ / ٤٢٧.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٣٤.

من حكمه، ومنها قوله:

«...وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَحْوَجُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ»^(١)

أوجز ابن المقفع هذه الحكمة بوضوح فقال: «والقربة تبع للمودة»^(٢) ولكن لا أرى في حكمة ابن المقفع تلك الدقة العلوية. نعم فالقربة تحتاج إلى المودة - مثلما قال أمير المؤمنين عليه السلام - كي تثمر وتترسخ، ولكن ليست القربة تبع للمودة مثلما قال ابن المقفع، فالمودة لا تؤثر بالقربة، لأن القربة تبع للنسب، بل تأثيرها ينحصر على العلاقة ودوامها.

هذا ما عثرنا عليه من إيجاز لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في الأدب الصغير، وهو بهذا قد ورد تماماً كوروده في الأدب الكبير أي قليل جداً، بينما البسط على العكس من ذلك إذ ورد في الأدبين بكثرة حتى إن ابن المقفع بنفسه قد أشار إلى ذلك. ونرى إن السبب الذي يقف وراء هذه الظاهرة عائدٌ لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، فهو كلام مكتنز على صعيد المعنى، ومنظوم نظماً خاصاً، وعليه فإن إيجازه غير ممكن لأن الأخير - الإيجاز - يستوجب الحذف، ولا يوجد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما يمكن حذفه دون أن يحدث خللاً ما في النص. ولكن غزارة المعنى ودقة الصياغة هذه في كلامه عليه السلام استوجبت - من أجل أن يفهم النص العلوي أكثر - الزيادة، وهذا ما أدركه ابن المقفع، فتوسع في كلام الإمام علي عليه السلام كثيراً. ولهذا السبب أيضاً كثر شرح كلام الإمام علي عليه السلام، لا سيما ما جُمع منه في كتاب (نهج البلاغة).

(١) نهج البلاغة ٦٠٨.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٥.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٧١

وبعد هذه نعود للأدب الصغير لنبيين - تبياناً هاماً - إنَّ من هذه الحروف أو كلام الصالحين الذي تحدّث عنه ابن المقفع وأقرّ بتأثره به عائد للرسول الأكرم ﷺ. فمن وصية له أوصى بها الإمام علي عليه السلام منها:

«يا عليُّ إنّه.. لا عقلَ كالْتَدْبِيرِ، وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ..»^(١).

ضمّن ابن المقفع هذه المقطع من الوصية قائلاً: «وسمعت العلماء قالوا: لا عقل كالْتَدْبِيرِ، ولا ورع كالْكَفِّ، ولا حسب كحسن الخلق»^(٢).

ومن هذه الحروف عائد للإمام السجاد، فوصيته التي أوصى بها هشام بن الحكم:

«يا هشامُ إنَّ العاقلَ لا يُحدِّثُ مَنْ يَخافُ تكذيبه، ولا يسألُ مَنْ يَخافُ منعه، ولا يعدُّ ما لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ولا يرجو ما يُعْنَفُ برجائه، ولا يَقْدُمُ على ما يَخافُ فوته بالعجز عنه»^(٣).

نجد لها حيزاً في الأدب الصغير: «لا تجدُ العاقلَ يُحدِّثُ مَنْ يَخافُ تكذيبه، ولا يسألُ مَنْ يَخافُ منعه، ولا يعدُّ بما لا يجدُ إنجازَه، ولا يرجو ما يعنفُ برجائه، ولا يَقْدُمُ على مَنْ يَخافُ العجز عنه...»^(٤).

ومنها عائد للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فحكّمته:

«العاقل لا يستخف بأحد. وأحق من لا يستخف به ثلاثة: العلماء، والسلطان

(١) تحف العقول ٢٧. وينظر: البصائر والذخائر ١٣.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٧.

(٣) الكافي ١ / ٢١. وينظر: بحار الأنوار ٧٥ / ٣٠٤. وهذا الحديث يرويه ابن أبي الحديد عن

الصادق عليه السلام، ينظر: شرح نهج البلاغة ١٨ / ٣١٠.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٧.

٣٧٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

والإخوان، لأنه من استخف بالعلماء أفسد دينه، ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه، ومن استخف بالإخوان أفسد مروته»^(١)

نجدها في الأدب الصغير بتحوير طفيف: «لا يستخف ذو العقل بأحد. وأحق من لم يستخف به ثلاثة: الأتقياء والولاء والإخوان، فإنه من استخف بالأتقياء أهلك دينه، ومن استخف بالولاء أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أفسد مروته»^(٢)

وفي حكمة أخرى قال الصادق عليه السلام:

«إِذَا هَمَمْتَ بِخَيْرٍ فَبَادِرْ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي»^(٣).

فهذا الكلام الذي عدّ جامعاً لوجوه المبادرة إلى فعل الخير قبل أن يحول حائل دون ذلك كالهرم المستلزم لضعف العقل والنية، والمرض، وفجأة الموت، ووسوسة الشيطان وغيرها^(٤)، ضمّنه ابن المقفع بنصّه، ثمّ توسّع عليه، فقال: «إِذَا هَمَمْتَ بِخَيْرٍ فَبَادِرْ هَوَاكَ، لَا يَغْلِبُكَ، وَإِذَا هَمَمْتَ بِشَرٍّ فَسُوفْ هَوَاكَ لَعَلَّكَ تَظْفَرُ. فَإِنْ مَا مَضَى مِنَ الْأَيَّامِ وَالسَّاعَاتِ عَلَى ذَلِكَ هُوَ الْغَنَمُ»^(٥)

ومن شدة تأثر ابن المقفع بهذا الكلام عاد وكرّره بمعناه، فقال: «اغتنم من الخير ما تعجلت، ومن الأهواء ما سوفت»^(٦).

(١) تحف العقول ٣٥٢.

(٢) الأدب الصغير والدب الكبير ٤٦.

(٣) الكافي ٢ / ١٤٢.

(٤) ينظر: شرح أصول الكافي ٨ / ٤١٦.

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير ٣٥.

(٦) م ٤٦ ن ٥٠.

وما دام ورد ذكر إمامنا الصادق (عليه السلام) فلا بُدَّ من معرفة إنَّ ابن المقفع كان يجلُّه ويقدره (عليه السلام) ففي خبر طويل - وبسند متصل - ذكره الشيخان الكليني، والصدوق منه: «إنَّ ابن المقفع رأى الصادق (عليه السلام) في الكعبة وهي مزدحمة بالحجاج فقال: ترون هذا الخلق - وأوماً بيده إلى موضع الطواف - ما منهم أحد أوجب له إسم الإنسانية إلَّا ذلك الشيخ الجالس - يعني أبا عبد الله جعفر بن محمد (عليه السلام) - فأما الباقر فرعاع وبهائم»^(١).

وعلى آية حال، فإنَّ الذي يهمننا هنا أكثر من غيره هو أنَّ في هذه التأثيرات بأئمة الهدى وبجدهم المصطفى، دليل تأكيد آخر على إسلامية الأشخاص الذين تأثر بهم ابن المقفع وأطرى عليهم في مقدمتي الأدبين الكبير والصغير لا على أنَّهم فرس أو يونانيون.

(١) الكافي ١ / ٧٥. وينظر التوحيد ١٢٦.

المبحث الثالث

أثر كلام الإمام علي عليه السلام

في رسالتي الصحابة، والدرّة اليتيمة

ورسائل أخرى

أولاً: أثره في رسالة الصحابة:

رسالة الصّحابة، وسمّيت بالهاشمية في بعض المصادر نسبةً لبني هاشم أجداد بني العباس^(١)، رسالة ألفها ابن المقفع وأرسلها إلى المنصور الدوانيقي. وتعدّ هذه الرّسالة - مثلما يراها الفاخوري - «من أروع ما كتبه ابن المقفع في الحقلين الفكري والاجتماعي، وأنها من أجمل الدساتير المكتوبة باللّغة العربيّة»^(٢) وكان موقف الكاتب فيها «موقف المصلح الذي لا تفوته شاردة ولا

(١) ينظر ابن المقفع بين ناقيديه قديماً وحديثاً ٥٣.

(٢) ابن المقفع ٢٦.

٣٧٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

واردة، المصلح الذي يعلل أسباب الداء ويُقدّم الدواء، وذلك كله في تقيّة
ولين وتحفظ»^(١).

ولعلّ كلمات ابن المقفع التي سطرها في هذه الرسالة مع ما تحمله من
إصلاحات جذريّة، أسهمت في توسيع هوة الخلاف بينه وبين السلطة العباسية،
وأنتجت التفكير في تصفيته جسديّاً، وإلى هذا ذهب طه حسين بقوله: «لإبن
المقفع رسالة أخشى أن تكون هي التي قتلتها لأنها توشك أن تكون برنامج ثورة،
وهي موجّهة إلى المنصور»^(٢).

تعرّض ابن المقفع في رسالته هذه إلى موضوعات عدة منها دينية إذ كان ينهى
عن استعمال القياس والرأي في الدين، مشدّداً في ذلك ومؤكّداً
على أتباع الإمام الذي كان يراه منصّباً إلهيّاً، ومنها اقتصادية كالإهتمام
بالخراج ومنع الخراج الذي هو الأرض، ومنها عسكرية كالإهتمام بأمر الجند
وتوفير ما يستحقونه، وغيرها من الأفكار العميقة والآراء الجريئة
التي كان يمني نفسه بأن يأخذ الخليفة بها، لكن الخليفة فضل
التخلّص من منشئها دون الأخذ بإصلاحاته الجذرية.

وابن المقفع - مثلما يرى الباحث - سار في مواطن كثيرة جداً من هذه الرسالة
مقتفياً أثر العهد الخالد الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر، وغير العهد،
وأمامنا في هذا دليان:

الأول: التشابهات الكبيرة والكثيرة في الأفكار العميقة وغير المتبدلة.

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي ١ / ٥٣٥.

(٢) من حديث الشعر والنثر ٤٦ - ٤٧.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة و..... ٣٧٧

الثاني: اعتراف ابن المقفع بأنه لم يبقَ أمامه وأمام غيره من الكتاب «في جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم مقال». وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم^(١). وكان على رأس هؤلاء الأولين أمير المؤمنين (عليه السلام) مثلما عرفنا ذلك في الأديين الكبير والصغير وما سنعرفه لاحقاً في اليتيمة وغيرها. ومن تأثر بهذه الرتبة ويعترف بتلك الإعترافات طبعي أن لا يكون تأثره في نتاج دون آخر، أوفي رسالة دون أخرى.

ورسالة الصحابة إحدى رسائله التي برزت بينها وبين كلام الإمام علي (عليه السلام) تشابهات جمة. فمن حكمة له (عليه السلام) بينَ فيها مَنْ هلك فيه من الناس، فقال:

«يَهْلِكُ فِي رَجُلَانِ: مُحِبُّ مُفْرِطٍ، وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ»^(٢).

فقد شكّا (عليه السلام) من الذين أفرطوا في حبه حتى ألّهوه، ثم الذين بهتوه أي قالوا عليه ما لم يفعل^(٣) وكلاهما هالكان.

قال الرضي: «وهذا مثل قوله (عليه السلام):

هَلَكَ فِي رَجُلَانِ: مُحِبُّ غَالٍ، وَمُبْغِضُ قَالٍ»^(٤).

أخذ ابن المقفع هذا، فقال: «فإن في ذلك اليوم أخلاطاً: من

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٥.

(٢) نهج البلاغة ٦٣٦.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٤ / ٥٩٧.

(٤) نهج البلاغة ٦٣٦.

رأسٍ مفرطٍ غالٍ، وتابعٍ متحيرٍ شاكٍّ^(١).

فما ابتدأ به ابن المقفع «..مفرطٍ غالٍ» تضمين من بداية حكمتي الإمام عليه السلام «محبٌّ مفرطٌ» «محبٌّ غالٍ»، لكن ابن المقفع أهمل لفظة (محب) وهي ضرورية هنا، لأنها توضح طبيعة هذه المغالاة والإفراط هل هي باتجاه الحب أم البغض؟

ثم بعد ذلك أبدل قول الإمام عليه السلام: «مبغضٍ قال» بـ «متحيرٍ شاكٍّ» ولكن حتى وإن غير في الشق الثاني من كلامه إلا أن صياغة الحكمة العلوية مسيطرة تماماً على كلام ابن المقفع المذكور وذلك لما شكّله من ستة أسماء منونة لا غير، وعند الإمام أربعة أسماء منونة لا غير وطبيعي هذا من دون المقدمة التي قدم بها كل منهما لكلامه.

وتبقى أغلب التأثيرات في رسالة الصحابة هي بعهد الإمام عليه السلام لمالك الأشر، فمما جاء فيه:

«فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَا قِيَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخُرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ»^(٢).

فقد نبّه عليه السلام إلى أهمية الجنود، وأهميتهم تكمن في ما عدد لهم

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٣.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٥.

من أعمال فهم «حصون الرعية» مستعيراً لهم لفظ الحصون باعتبار حياطتهم وحفظهم للرعية بمثابة الحصن^(١)، وهم «عزُّ الدين» إذ لولاهم لم يكن للدين عزٌّ ولا منعة، وهؤلاء الجنود هم الآخرون يحتاجون إلى قوام حتى يؤدّوا واجباتهم بصورة ناصعة، وقوامهم هذا يأتي من الخراج، والخراج لا يكون وفيراً - مثلما قال الإمام (عليه السلام) في مواطن أخرى من العهد ستتضح لا حقاً - إذا لم يكن للأرض إصلاحٌ وعمارةٌ.

وردَ في رسالة الصحابة ما يشبه هذا كثيراً، إذ قال ابن المقفع: «وأنَّ لكلِّ شيءٍ دَرَّةً وغازاةً، وإنَّما دُرُّورُ خراجِ العراقِ بارتفاعِ الأسعار، وإنَّما يحتاجُ الجندُ اليومَ إلى ما يحتاجونَ إليه من كثرةِ الرِّزْقِ، لغلاءِ السعرِ، فمن حُسنِ التقديرِ إن شاء الله أن لا يدخلَ على الأرضِ ضررٌ.. إلَّا دخلَ ذلكَ عليهم في أرزاقهم»^(٢).

فابن المقفع لا يختلف عموماً مع ركائز نص الإمام (عليه السلام)، إذ رأى فيما رآه أنَّ للجنود نصيباً مفروضاً من المال، فإذا دخل (على الأرض ضرر) سيصيب بيت المال النقصان، ومن ثمَّ سيدخل ذلك النقص على مستحقات الجند. وهذا ما عبّر عنه الإمام علي (عليه السلام) بقوله:

«ثمَّ لا قوام للجنود إلَّا بما يُخرِجُ الله لهم من الخَراجِ».

ومن وصاياه البالغة التي وردت في العهد قوله (عليه السلام) الذي شدّد فيه على تخيّر الوزراء:

(١) ينظر شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٣٤٤.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٣٧.

«ثُمَّ لَا يَكُنْ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ، وَاسْتِنَامَتِكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ [يَتَعَرَّضُونَ] يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصْنُوعِهِمْ وَحُسْنِ [حَدِيثِهِمْ] خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ اخْتَبَرَهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا، وَأَعْرِفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا»^(١).

فأمير المؤمنين عليه السلام ينهى عن الاختيار القائم على التفرد وحسن الظن والثقة، مبرراً هذا بأن الرجال يخدعون فراسة الوالي بتصنعهم الذي يجيدونه وحسن خدمتهم له، بينما هم في الحقيقة لا في مراح ولا مغدى من تلك النصيحة التي أبدوها، والمعارف التي أظهروها. ثم يأتي بعد هذا النهي والتحذير الاختيار الحقيقي القائم على ما عدده الإمام عليه السلام من توليتهم من قبل الصالحين، وهذا غير كاف أيضاً، بل ينبغي توظيف أحسنهم أثراً في العامة، وأعرفهم وجهاً بالأمانة. ولا يخفى استعمال الإمام عليه السلام لإسمي التفضيل (أحسن، أعرف) من أنه يريد تسنيم المناصب للأحسن لا المحسن، والأعرف لا العارف.

أخذ ابن المقفع هذا المعنى بشقيه، مقدماً الأخير على الأول، فقال: «وإن كان صاحب السلطان ممن لم يعرف الناس قبل ان يليهم، ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم، ولم يستثب في استقضائهم، زالت الأمور عن مراكزها، وتركت الرجال عن منازلها، لأن الناس لا يلقونه إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام، غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً..»^(٢).

وحاصل كلامه إن على صاحب السلطان أن لا يولي من الناس قبل معرفتهم

(١) نهج البلاغة ٥١٢.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٣٩.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة و..... ٣٨١

والسؤال عنهم. متخوفاً من التصنع المقدور عليه من الناس. ومن ثم وقوع الوالي في حباله هذا التصنع. وهذا بدقائقه موجود في نص أمير المؤمنين عليه السلام المذكور.

ومن توجيهات الإمام علي عليه السلام التي وردت في العهد قوله:

«فَافْسَحْ فِي أَمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعَدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَعْمَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ اِعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضْمَنْ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ..»^(١).

فمن باب العدل أن يُلصق بكل أمرىء ما أبلاه من عمل، حسنٍ أو قبيح، لأن ذلك من شأنه ترغيب المحسن وتشجيعه في أن يزداد ويدع في عمله من جهة. وتحريض المتأخر وحثه على التقدم من جهة أخرى.

لم يغفل ابن المقفع هذا المعنى وبعض ألفاظه، إذ كان بيناً في قوله: «فإن في إذن الخليفة والمدخل عليه والمجلس عنده، وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة، وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكماً عظيماً على الناس في أنسابهم وأخطارهم وبلاء أهل البلاء منهم وليس ذلك كخواص المعروف ولطيف المنازل.. ولكنه بابٌ من القضاء جسيم عامٌ يُقضى فيه للماضين من أهل السوابق والمآثر من أهل الباقيين، وأهل البلاء والغناء بالعدل..»^(٢).

فابن المقفع يرى ما رآه الإمام عليه السلام قبله، من تفضيل بعض الصحابة أو الجنود على أساس مآثرهم، وسبقهم للفضيلة، وما عمله أهل البلاء

(١) نهج البلاغة ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٤.

٣٨٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

منهم. وليس المعنى هو سيد الموقف بين النصّين، بل نجد إن ابن المقفع ضمّن قول الإمام علي عليه السلام:

«وَتَعْدِيدِ مَا أَتَى ذُووُ الْبَلَاءِ مِنْهُمْ» مع تحوير طفيف لما قال: «وبلاء أهل البلاء منهم».

ويبدو أن ابن المقفع متأثراً بهذه المعاني كثيراً ولذا كرّرها في موطن آخر من رسالة الصحابة موصياً من سماه الإمام بأن «يأخذ أهل القوّة والغناء.. ولا يفضل أحداً منهم على أحد، إلا على خاصّة معلومة..»^(١).

وهو بهذا يدعوا أميره أن لا يفضل أحداً من الجنود على غيره «إلا على خاصّة معلومة» أي ما علّم عنه وما عُرف به من بلاء أبلاه. وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام السابق:

«ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَتَى، وَلَا تَضُمَّنْ بِلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ».

وبعد أن تعرّض الإمام علي عليه السلام لأمر الخراج وعده قوام الجند الذين هم قوام الدولة، عاد ليؤسس نظرية مثلى شأنها صلاح الخراج ووفرته، فقال:

«وَتَفَقَّدَ أَمْرَ الْخُرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخُرَاجِ وَأَهْلِهِ، وَلَيْكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَتْلَعُ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخُرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخُرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ،

وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ»^(١).

ففي زمنٍ لم يكن فيه للصناعة مقدرة اقتصادية تُذكر أكد عليه السلام على أمر الخراج، وعده المحرك الاقتصادي الأكبر في البلاد، إذ بدونه تهلك العباد وتخرب البلاد. وكلما أراد الوالي وفرة الخراج فلا عليه إلا بزيادة إعمار الأرض، لأنها سبيله الوحيد. وعرفت هذه القاعدة في عصرنا الحديث بقاعدة «ليس للخراج أن يعرقل الإنتاج»^(٢). ومعناها: لا يجدر بالحكومة وضع العراقيل كالضرائب المجحفة أمام الفلاح لِتَحُولَ دون السعي والإنتاج وتنقص ثمرات المساعي الشعبية بتخريب وإهمال الأراضي الزراعية^(٣).

وقول الإمام عليه السلام في هذا الصدد لم يغفله ابن المقفع، بل نجد شبيهاً له في قوله: «وَمَا يُذَكِّرْ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمْرُ الْأَرْضِ وَالْخَرَجِ فَإِنَّ أَجْسَمَ ذَلِكَ وَأَعْظَمَهُ خَطَرًا، وَأَشَدَّهُ مَوْنَةً وَأَقْرَبَهُ مِنَ الضِّيَاعِ، مَا بَيْنَ سَهْلِهِ وَجَبَلِهِ.. فليس للعمال أمرٌ ينتهون إليه، ولا يحاسبون عليه، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأثقون لها في العمارة، ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم.. حتى لا يؤخذ رجلٌ إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها، لرجونا أن يكون في ذلك صلاحٌ للرعية، وعمارةٌ للأرض..»^(٤).

وخلاصة كلامه إنَّ للأرض والخراج أمراً جسيماً، لأن الأخير ينتج فيما ينتج «صلاح الرعية» وهذا ما عبّر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله:

(١) نهج البلاغة ٥١٠.

(٢) الراعي والرعية ٢٩٦.

(٣) ينظر: م. ٢٩٦.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٥ - ٤٦.

«فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ - أي الخراج - وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ» >

وسواهم هنا تعود على الخراج وأهله. أي صلاحاً لعامة الرعية.

ولا يكونُ خراجٌ، ولا صلاح رعيّة إلاّ بـ «عمارة الأرض»، وهذا ما نجده في

قول الإمام عليه السلام السالف:

«وَلْيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ».

وبعد تشديده على الخراج، عاد ابن المقفع إلى تحيّر العمال وتفقدهم، وهي

وصية طالما كرّرها في الأدب الصغير، وأكّدها في رسالة الصحابة في غير ما

موطن، منها قوله: «وليس بعد هذا في أمر الخراج إلاّ رأيي قد رأينا أمير

المؤمنين أخذ به، ولم نره من أحدٍ قبله، من تحيّر العَمَالِ وتفقدِهم والاستعتابِ

لهم، والاستبدالِ بهم»^(٥).

والجدير بالذكر هنا قول ابن المقفع عن تحيّر العمال وتفقدهم إنّهُ لم يرَ من

فعل ذلك قبل أميره: «لم نره من أحدٍ قبله». فهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّهُ يدلُّ على

أنّ باقي ركائز رسالة الصحابة كان قد رآها ابن المقفع عند حكام سبقوا أميره

فتأثّر بها ونقلها، وإلاّ لماذا هذه الفقرة بالذات قال عنها إنّهُ لم يرها من قبل، ولم

يقل هذا الكلام في مكان آخر من رسالة الصحابة الطويلة والغنيّة بالموضوعات

والأفكار، ولا في غيرها من رسائله المتعددة؟ علماً إنّ وصيته في تحيّر العمال

وتفقدهم ذكرها بالتفصيل في رسالة الأدب الصغير.

ومهما يكن من شيءٍ فإنّ تحيّر العمال من أهم وأشد ما كان يأمر به الإمام

علي عليه السلام ويفعله أيضاً، ومن ذلك قوله:

«ثُمَّ أَنْظِرْ فِي أُمُورِ عَمَّا لَكَ فَاسْتَعْمِلْهُمْ [إِخْتِيَارًا] إِخْتِيَارًا، وَلَا تُؤَلِّمْ مُحَابَاةً
وَأَثَرَةً»^(١).

وكذلك التفقّد إذ قال فيه:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدَيْهِمَا»^(٢).

أما استبدال العمال والوزراء فهو الآخر من أوليات أمير المؤمنين عليه السلام فعلاً
وقولاً. ومنه ما ورد في العهد:

«إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا.. وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ
الْخُلَفَاءِ...»^(٣).

ولم يكتف الإمام علي عليه السلام بحسن الاختيار وإن شرطها الخطوة الأولى في
تقريب العامل من العمل لدى الدولة، إذ بعد الاختيار القائم على الاختبار
أوصى عليه السلام خيراً بمن يجتازون هذه العقبة، فقال:

«ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ
أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا
أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَاهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ
وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدُودٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ،
وَالرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ»^(٤).

(١) نهج البلاغة ٥٠٩.

(٢) م. ن ٥٠٦ - ٥٠٧.

(٣) م. ن ٥٠٣.

(٤) نهج البلاغة ٥٠٩ - ٥١٠.

وهذه القوانين من أجل الدساتير وأروعها لو طُبِّقَتْ بالشكل الذي أراده الإمام عليه السلام، فهو يطلب توسيع الأرزاق على موظفي الدولة، لأنَّ في تلك التوسعة الماديَّة عوناً للموظف أو العامل على استصلاح نفسه أولاً، وغنىً له عن التناول على الذي أُتِّمِنَ عليه من أموال وغيرها ثانياً، ثمَّ إنَّ الوالي إذا فعل هذا يكون في حلٍّ إذا أقام الحدَّ على مَنْ يثلم الأمانة ثالثاً.

وبعد هذه نلمس في كلامه عليه السلام فكرة متقدمة أخرى وذلك لما أمر بأن يكون للمراقب السري الصادق الوفي «وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء» دورٌ فاعل لأنَّ العامل «حين يعلم أنَّ ثمةَ عيناً ترقبُ أفعاله يحذر من الخروج عن الجادة، ويحرص على اتِّباع ما يصلح بلاده، وهذا التدبير الذي نهجه الإمام هو نظام التفتيش المعمول به الآن في الدُّول المعاصرة»^(١).

وليس من الصدفة، أو من باب توارد الخواطر أن تجتمع تلك المعاني العميقة وبعض ألفاظها في قول ابن المقفع: «وفي كلِّ قومٍ خواصٌّ رجالٌ عندهم.. معونةٌ، إذا صنَّعوا لذلك، وتُلطَّفَ لهم، وأُعينوا على رأيهم، وقُووا على معاشهم ببعض ما يُفَرِّغُهُم لذلك ويبسطُهُم له، وخطرُ هذا جسيمٌ في أمرين: أحدهما رجوع أهل الفساد إلى الصلاح، وأهل الفرقة إلى الألفة. والأمر الآخر أن لا يتحرَّك متحرِّك في أمرٍ من أمورِ العامَّة إلاَّ وعينٌ ناصحةٌ ترمُّقه.. وإذا كان ذلك لم يقدر أهل الفساد على تربيض الأمور وتلقيحها، وإذا لم تُلَقَّح كان نتاجُها بإذن الله مأمونا»^(٢).

فابن المقفع هنا يطلب برفد بعض العمَّال بأمور منها: تقويتهم على

(١) دراسات في نهج البلاغة ٩٧.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٦ - ٤٧.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة و..... ٣٨٧

معاشهم «وَقُتُّوا عَلَىٰ مَعَاشِهِمْ». وهذا ما نجده في قول الإمام علي عليه السلام «وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ». وخطر هذا مثلما رآه ابن المقفع جسيم في أمرين:

الأول: «رجوع أهل الفساد إلى الصلاح» وهذا من قول الإمام علي عليه السلام «فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَىٰ اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ».

الثاني: «لا يتحرّك متحرّك.. إلّا وعين ترمقه» ولا اختلاف في هذا عن قول الإمام علي عليه السلام:

«وَابْعَثِ الْعَيُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ».

فأمير المؤمنين عليه السلام وبعمق نظر وحساسية هذا المنصب شرط في العيون «الصدق والوفاء»، وابن المقفع لم يذهب بعيداً عن هذا عندما اشترط فيهم النصيحة، ولا فرق إذ لا نصيحة بدون صدق ووفاء.

هذه بعض آثار العهد التي تلمستها الدراسة في رسالة الصحابة.

لم يكن العهد وحده من أثر في هذه الرسالة، بل هناك خطبة للإمام علي عليه السلام ذكر فيها فضله، وفضل عترة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مشدداً على التمسك بهم والسير على هديهم. ثم بعد أن بيّن بعض هذه الفضائل نهى عليه السلام عن استعمال الرأي، لأن كثيراً من الأمور وبخاصة الجسيمة منها لا يصلحها المرء برأيه مهما أوتي من بصيرة نافذة، فقال في ذلك:

«..فَإِنَّ يَتَاهُ بِكُمْ؟! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَيَبِينُكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ؟! وَهُمْ أَرْزَمَةُ الْحَقِّ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ، وَالسِّنَةُ الصِّدْقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُّوهُمْ وَرُودَ أَهْلِ الْعِطَاشِ. أَيُّهَا النَّاسُ... فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَأَعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَنَا، أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ!

وَأَتْرُكُ فِيكُمْ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْبَسْتُكُمْ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدِيٍّ، وَفَرَشْتُكُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي، فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلَا تَتَغَلَّعُلْ إِلَيْهِ الْفِكْرُ»^(١).

في الخطبة معانٍ غزيرة، وفنون بلاغية ممتعة منها: قوله عليه السلام «وهم أزمة الحق». فقد جعل للحق زمام، وعروة هذا الزمام بيد العترة الطاهرة. وقال ابن أبي الحديد: «وقد نبّه الرسول الأكرم ﷺ على صدق هذه القضية بقوله: وأدِرَ الحقَّ معه حيث دار»^(٢).

أمّا قوله: «فأنزّلوهم منازل القرآن» فـ «تحتة سرّ عظيم و ذلك أنّه أمرَ المُكَلَّفِينَ بأن يُجِروا العترة في إجلالها وإعظامها والانقياد لها والطاعة لأوامرها مجرى القرآن»^(٣).

ثمّ أمر الناس أن تُسرّع إلى بحار علومهم كما تُسرّع الهيم العطاش إلى الماء^(٤) وعلى كلّ الأحوال فإننا نجد هاتين الركيزتين من التمسك والإقتداء بالأئمة، والإبتعاد عن استعمال الرأي قبال أمرهم في قول ابن المقفع: «وقد علمنا علماً لا يخالطه شكّ أنّ عامّة قط لم تصلح من قبّل أنفسها، وأنّها لم ولم يأتها الصّلاح إلّا من قبل خاصّتها، وأنّ خاصّة قط لم تصلح من قبّل أنفسها، وأنّها لم يأتها الصّلاح إلّا من قبل إمامها، وذلك لأنّ عدد النّاس في ضِعْفَتِهِم

(١) نهج البلاغة ١٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ / ٤٣٠.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ / ٤٣٠-٤٣١.

(٤) م. ن ١ / ١٣٧.

وَجُهَاَلْتَهُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَعْنُونَ بِرَأْيِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ فِي الْأُمُورِ، فَإِذَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِمْ خَوَاصَّ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالْعُقُولِ.. جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ صِلَاحًا لْجَمَاعَتِهِمْ.. وَحَاجَةً الْخَاصَّةِ إِلَى الْإِمَامِ الَّذِي يُصْلِحُهُمُ اللَّهُ بِهِ كَحَاجَةِ الْعَامَّةِ إِلَى خَوَاصِهِمْ وَأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ، فَبِالْإِمَامِ يَجْمَعُ اللَّهُ أَمْرَهُمْ، وَيَكْبِتُ أَهْلَ الطَّعْنِ عَلَيْهِمْ، وَيَجْمَعُ رَأْيَهُمْ وَكَلِمَتَهُمْ»^(١).

فكلام ابن المقفع يدور حول أمرين غاية في الأهمية، روحهما كلام الإمام علي عليه السلام:

الأول:

في حديثه عن الإمام اتضح بأنّه يؤيد فكرة الإمامة، فإذا أُريد صلاح المجتمع فينبغي إصلاح العامة وال «عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها» بل صلاحها يأتي من «صلاح خاصّتها»، والخاصة هذه لم تستطع أيضًا إصلاح نفسها ولا غيرها إلّا إذا كان هنالك إمامٌ يسيّرُها بالسيرة الصحيحة «إلا من قبل إمامها». إذا فالإمام ينبغي أن يكون على قمة الهرم، ولا غنى للخاصّة، والعامة عنه مطلقاً لأنهما - أي الخاصة والعامة - «لا يحملون العلم ولا يتقدمون في الأمور» وهذا يعني - بوضوح - إنّ هاتين الصفتين يحملهما الإمام لذا رأى ابن المقفع الرجوع إليه، والإمام وسيلة ربّانيّة بينه تعالى وبين خلقه، إذ به «يجمع الله أمرهم»، وبه يكون اجتماع «رأيهم» وبه يكون توحيد «كلمتهم». وهذا كلّهُ كقول الإمام علي عليه السلام في بداية خطبته حينما أمرَ بالإقتداء بالأئمة الأطهار عليه السلام:

«فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ؟! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ، وَيَبْنِيكُمْ عِثْرَةُ نَبِيِّكُمْ، وَهُمْ أَرْمَةٌ

الْحَقُّ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ، وَالسِّنَّةُ الصَّادِقَةُ».

الثاني:

ما دام الإمام موجوداً فقد نهى ابن المقفع عامة الناس عن الاستغناء برأيهم «لا يستغنونَ برأي أنفسهم». وهذا يشبه بشدة بالغة ما أمر به الإمام علي عليه السلام فبعد أن بيّن منزلته العظمى ومقامه السامي، نهى عامة الناس عن استعمال الرأي «فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدركُ قعره البصرُ، ولا تتغلغلُ إليه الفكرُ»، لأنّ ما يدركه الإمام عليه السلام ببصيرته الثاقبة لا يدركه الناس بآرائهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ للفاخوري تعليقاً على نصّ ابن المقفع المذكور يتلاءم مع ما يثبته الباحث، قال فيه: «وأخيراً يصلُّ ابن المقفع إلى موضوعٍ يستقيه من فكرةٍ شيعيّة، ويقدمه في لباقةٍ عجيبة. فالناس في حاجةٍ إلى من يهديهم سويّ السبيل، إلى إمامٍ يُنير،..»^(١). أمّا يوسف أبو حلقة فيرى في حديث ابن المقفع عن الإمام حديثاً غامضاً، كونه يعتمد إلى اللفّ والدوران خوفاً من الحاكم المتسلّح بالحكم المطلق^(٢).

ولم يكن حديث ابن المقفع هذا الوحيد عن الإمام ووجوب طاعته، بل أكد على ذلك مراراً وتكراراً، ففي نصّ آخر يذهب إلى أنّ ما يتمتع به الأئمة من نفاذ الأمر والرأي هو منصب أو جعل إلهي وليس لأحدٍ غيرهم أن يأمر ويُطاع، فقال في ذلك: «فأمّا إثباتنا

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي ١ / ٥٣٥.

(٢) ينظر: عبد الله ابن المقفع دراسة وتحليل ٢٠.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة و..... ٣٩١

للإمام الطاعة فيما لا يُطاع فيه غيره، فإنّ ذلك في الرأي والتدبير والأمر الذي جعل الله أزمته وعُراه بأيدي الأئمة، وليس لأحد فيه أمرٌ ولا طاعة»^(١).

وبرأي ابن المقفع هذا الذي أكّد فيه إنّ للأئمة مقاماً سامياً «ليس لأحدٍ فيه أمرٌ ولا طاعة» غيرهم، وبرأيه إنّ هذا الأمر والصلاحيات التي من خلالها يدبّرون أمور الرعية ليست هي منّة من أحد، بل هي جعلٌ إلهي بصريح عبارته: «جعل الله أزمته وعُراه بأيدي الأئمة». فبآرائه هذه قد دخل في صميم معتقدات طائفة الشيعة الإمامية، وحجتهم في ذلك القرآن الكريم، إذ لم ترد لفظة «الإمام» ومشتقاتها، إلّا ومعها كلمة «جعل» ومشتقاتها، ومنه قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(٢).

إذاً فهذا «الجعل ليس بأمرٍ من البشر، بل بأمر الله (بأمرنا)»^(٣). وقال الدكتور الوائلي: «تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على أنّ الإمامة بجعل من الله»^(٤).

وهكذا تطفوا أفكار ابن المقفع الحقيقية شيئاً فشيئاً، بتصريحات تدل على أنّ عقيدته بالإمامة عقيدة متكاملة ابتداءً من أدوارهم (عليه السلام) في عصره وإنتهاءً

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٣٤ - ٣٥.

(٢) الأنبياء ٧٣.

(٣) بنور فاطمة اهتديت ١٢٣.

(٤) هوية التشيع ١١٠.

٣٩٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

بخاتمهم، فابن المقفع - فضلاً عما سبق - لم يتغافل حتمية خاتم الأئمة عليهم السلام، ففي موطن آخر من مواطن حديثه عن الإمام وبعد أن حث من أسماه أمير المؤمنين على النظر في ما وقع من اختلاف السنن في زمانه، واختلاف الأحكام، فمنهم من يحكم بالخطأ، ومنهم بالصواب، وتوحيد أهلها على الصواب، قال:

«ثُمَّ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ إِمَامٍ آخَرَ آخَرَ الدَّهْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(١).

وهذا تصريح واضح بإيمان ابن المقفع بدولة العدل الإلهي التي تكون في آخر الزمان بقيادة الإمام الثاني عشر الحجة بن الحسن عليه السلام. وهذا الإمام برأي ابن المقفع يوحد السنن، ويجمع الأمر، ويبدل الحكم المتخبط والمتذبذب بين الصواب والخطأ بحكم واحد مصيب. ونرى أيضاً إن رأيه هذا مشتق من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله في الإمام المهدي عليه السلام:

«لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظِلْمًا»^(٢).

ومن أفكار ابن المقفع هذه نستنتج أمرين:

الأول:

إن أفكاره هذه تؤيد بشدة تأثره السابق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام وتأثره بكلام أمير المؤمنين يشهد ويؤكد على إيمان ابن المقفع بدور الإمام ونهجه في معالجة الأمور كافة. وبعبارة أخرى إن العلاقة بين أفكار ابن المقفع هذه وبين تأثره

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٠.

(٢) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢ / ١٧٣، وينظر: مسند أحمد ١٨ / ٦٢، وينظر: المستدرک علی

الصحيحين ٤ / ٤٨٨.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة و..... ٣٩٣
بكلام أمير المؤمنين وباقي الأئمة عليهم السلام علاقة تلازم، وعلاقة تأكيد، وعلاقة شاهد ومشهود.

الثاني:

إنّ ابن المقفع بفكره هذا ركب مركبا صعبا، وذلك لما دعا إلى تفعيل فكرة الإمامة، على الرغم من أنّه يعيش بين أروقة الخلافة المناهضة لهذه الفكرة. وهذا المركب هو الذي كلّف ابن المقفع حياته، بخاصة إذا علمنا أنّ هذه الرسالة (رسالة الصحابة) موجّهة للمنصور العباسي، وهذا الأخير كان قد أدرك جسامته هذه الأفكار التي وجهت له - تقريبا - من عقر داره، ولذا رأى أنّ الأمان يكمن بالتخلص من حاملي هذه الأفكار، ومنهم ابن المقفع، وبعده إمامه الصادق عليه السلام.

ثانياً: أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الرسالة اليتيمة:

تُعَدُّ اليتيمة من أهم رسائل ابن المقفع، وتتكون هذه الرسالة من مقدمة، ومجموعة من الأسئلة. ولكن مما يؤسف له إنّ هذه الرسالة لم تصلنا كاملة، بل الذي وصلنا منها الجزء الأقل والمتمثل بمقدمتها، وجواب ابن المقفع عن سؤال الناس عن الزّمان، أي الإجابة عن سؤالٍ واحدٍ فقط.

أما منزلتها الأدبية، فإنّ الذي قيل في هذه الرسالة لم يقل في جميع ما كتبه ابن المقفع غيرها، ومن ذلك قول ابن طيفور (ت ٢٨٠ هـ) - وهو ناقلها الوحيد -: «ومن الرسائل المفردات اللّوآتي لا نظير لها ولا أشباه، وهي أركان البلاغة، ومنها استقى البلغاء، لأنّها نهاية في المختار من كلام، وحسن التّأليف والنّظام،.. فإنّ النّاس جميعاً مجمعون أنّهم لم يعبر أحدٌ عن مثلها، ولا تقدّمها من الكلام شيءٌ قبلها، ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرّواة لها فمن

والباحث يرى في كلام ابن طيفور شيئاً من المبالغة غير الممدوحة لوجوه منها: إذا كانت الرسالة بهذه المنزلة الأدبية التي لا تُداني، لماذا اقتطع منها جزءاً قليلاً ودونه دون باقي أجزائها؟ بل كان عليه أن ينقلها كاملة لما ذكر لها من قيمة في الأوساط الأدبية.

أما حجته بأنه لم يكتبها «على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرواة» فهذا مردود لأن الرسالة لا توجد في كتاب قديم غير كتابه «المنثور والمنظوم»^(٢) إذاً أين كثرة رواياتها؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قوام الرسالة - بمقدمتها وجواب ابن المقفع فيها للسائل - حكم وفقرات من خطب للإمام علي عليه السلام بالنص، أو بتحويل طفيف، إذاً كيف «الناس جميعاً مجمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها، ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها»؟.

فمن حكم أمير المؤمنين عليه السلام التي ضمنت بالكامل في هذه الرسالة قوله:

«الْأَقَابِيلُ مَحْفُوظَةٌ، وَالسَّرَائِرُ مَبْلُوءَةٌ... وَالنَّاسُ مَنَقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ؛ سَأَلْتُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَجَحَّيْتُهِمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْيًا يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَى وَالسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُودًا تَنْكُؤُهُ اللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ»^(٣).

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٨.

(٢) كتاب يقع في أربعة عشر مجلداً لم يبق منه إلا جزآن هما الحادي عشر وقد طبعت قطعة منه باسم (بلاغات النساء)، والآخر الثاني عشر، مخطوط ينظر: الأعلام ١ / ١٤١، والدرّة اليتيمة منقولة عن المخطوط.

(٣) نهج البلاغة ٦١٣.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة و..... ٣٩٥

السرائر: ما أُسِرَّ في القلوب مما يخفى من أعمال الجوارح، وبلاؤها تعرّفها^(١).

المدخول: من أصيب بالدخل وهو مرض العقل والقلب^(٢).

و«أصلبهم عوداً» كناية عن تمسكه بدينه وعلى الرغم من هذا «تنكؤه اللحظة» يقال نكأ القرحة وينكؤها إذا قسّرها قبل أن تبرأ^(٣)، أراد الإمام إن النظرة تكشف مكنون ذلك الرجل.

و«تستحيله الكلمة» تحوُّله عما هو عليه^(٤) من عودٍ صلب.

ضَمَّنَ ابن المقفع هذه الحكمة برمتها بين النص والتحوير والتوسيع والتقديم والتأخير، ثم عزّزها بفقرات من خطب وحكم علوية أخرى وجعل ذلك مقدّمة لرسالته التي لم يتقدمها «من الكلام شيء»!، فقال: «وقد أصبح الناس - إلا مَنْ عصمَ الله - مدخولين منقوصين، فقائلهم باغ، وسامعهم عيَّاب سائلهم متعنّت، ومجيبهم متكلف، وواعظهم غيرُ محقّق لقوله بالفعل.. يتقارضون الثناء، ويتربعون الدّول، ويعيون بالهمز، يكادُ أحزَمُهم رأياً يلفِتُهُ عن رأيه أدنى الرّضا وأدنى السُّخط، ويكادُ أمتنهم عوداً أن تسحره الكلمة، وتُسكّرهُ اللَّحظة، وقد ابتليتُ أن أكون قائلاً، وابتليتُ أن تكونوا سامعين، ولا خير في القول إلا ما أنتفع به..»^(٥).

فقوله: «سائلهم متعنّت، ومجيبهم متكلف» هو قول الإمام (عليه السلام):

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / ١٥٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٢ / ٣٣٤.

(٣) ينظر: لسان العرب ١ / ١٧٤ مادة (نكأ).

(٤) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٤ / ٥٧٣.

(٥) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٨ - ٤٩.

«سَأَلَهُمْ مُتَعَتِّ، وَحَجَّيْهُمْ مُتَكَلَّفٌ» بنصه >

أما قوله عليه السلام:

«وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ».

قدم وأخر فيه ابن المقفع لما قال: «وقد أصبح الناس - إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ - مدخولين منقوصين».

وهكذا بقية الحكمة تجدها منتشرة في كلام ابن المقفع مع تحوير طفيف مشوبٌ بحذرٍ شديد إذ نجده يحوِّرُ بعض الألفاظ دون أن يمس ميزان اللفظة، ولا معناها.

فأنظر إلى هذه المقارنة:

أمير المؤمنين عليه السلام: «يكاد أفضلهم رأياً».

ابن المقفع: «يكاد أحزمهم رأياً».

فالجملتان تتكونان من فعل مضارع ناقص + اسم الفعل بصيغة اسم تفضيل + خبر الفعل وهكذا قولاهما:

أمير المؤمنين عليه السلام: «ويكاد أصلبهم عوداً».

ابن المقفع: «ويكاد أمتنهم عوداً».

أمير المؤمنين عليه السلام: «يرده عن رأيه».

ابن المقفع: «يلفته عن رأيه».

وهذه سمة تسجّلها الدراسة على ابن المقفع، إذ ورد من قبيل هذا التحوير كثيرٌ جداً أمّا لو عدنا إلى تأثر ابن المقفع في غير الحكمة المذكورة

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة و..... ٣٩٧

فسنجد قوله: «يَتَقَارِضُونَ الشَّاءَ، وَيَتَرَقَّبُونَ الدَّوْلَ». من خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام يصف فيها المنافقين منها:

«يَتَقَارِضُونَ الشَّاءَ، وَيَتَرَقَّبُونَ الْجَزَاءَ»^(١).

ومعناه: كُلُّ مِنْهُمْ يَتَنَبَّهُ عَلَى صَاحِبِهِ لِيَتَنَبَّهَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقْرَضُ صَاحِبَهُ دِينَ يَنْتَظِرُ إِرجاعه إليه، والجزاء عليه^(٢).

وبالنسبة لقوله: «وَوَاعِظُهُمْ غَيْرُ مُحَقِّقٍ لِقَوْلِهِ بِالْفِعْلِ» فهو يشبه كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ، وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ»^(٣).

وهكذا قوله: «وَلَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ إِلَّا مَا أَنْتَفِعَ بِهِ» فإنه لا يختلف عما جاء في وصية الإمام لولده الحسن عليه السلام:

«وَتَفْهَمُ وَصِيَّتِي.. فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعُ»^(٤).

هذا بالنسبة لمقدمة الرسالة اليتيمة. أما ما جاء بعدها من جواب ابن المقفع عن سؤال وجه له: «أَمَّا سؤَالُكُمْ عَنِ الزَّمَانِ، فَإِنَّ الزَّمَانَ النَّاسُ، وَالنَّاسُ رَجُلَانِ: وَآلٌ وَمَوْلَى عَلَيْهِ، وَالْأَزْمَنَةُ أَرْبَعَةٌ عَلَى اخْتِلَافِ حَالَاتِ النَّاسِ..»^(٥). فإنه من دون أدنى شك إعادة صياغة لخطبة علوية قسّم فيها الإمام علي عليه السلام الراعي والرعية

(١) نهج البلاغة ٣٥٦.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٢ / ٣٣٤.

(٣) نهج البلاغة ٥٨١.

(٤) م ٥٨٠ ن ٤٥٨.

(٥) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٠.

من حيث الصلاح والفساد على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

وفيه يصلح الراعي والرعية معا. قال عليه السلام:

«ثُمَّ جَعَلَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، .. وَأَعْظَمَ مَا افْتَرَضَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلُفَّتِهِمْ وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ؛ فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ،.. فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَوَيْسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ»^(١).

فأمير المؤمنين عليه السلام يرى أن أيد الدولة وهيبتها تكمن في صلاح الراعي والرعية معاً، وأن يؤدي كل منهما ما عليه من حقوق تجاه الآخر.

نظر ابن المقفع إلى هذا وجعله الزمان الأول قائلاً: «فخيار الأزمنة: ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية، فكان الإمام مؤدياً إلى الرعية حقهم في الرد عنهم، والغیظ على عدوهم.. وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه في المودة والمناصرة.. وترك المنازعة في أمره، والصبر عند مكروه طاعته.. فإذا اجتمع ذلك في الإمام والرعية، تم صلاح الزمان»^(٢).

(١) نهج البلاغة ٣٨٦.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٩ - ٥٠.

فابن المقفع سارَ خطوة بخطوة في كلامه مقتفياً أثر كلام أمير المؤمنين عليه السلام حتى ختمَ حديثه بنتيجة علوية أيضاً، إذ أنه عدَّ صلاح الرَّاعي والرَّعية ينتجان «صلاح الزَّمان» وهذا من قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«فصلح بذلك الزَّمان».

ونسبَةُ الصَّلاح إلى الزَّمان عن طريق المجاز، لأنَّ الصَّلاح في الحقيقة يعود إلى حال أهل الزَّمان، وإنَّما يوصف بالصَّلاح والفساد باعتبار وقوعهما فيه^(١).

القسم الثاني:

فساد الرعية أو عصيانهم. قال عليه السلام:

«وإذا غلبَتِ الرَّعيةُ واليها..»^(٢).

أشارَ هنا إلى عصيان الرعية للإمام^(٣).

وهذا القسم جعله ابن المقفع الزَّمان الثاني فقال: «ثمَّ إنَّ الزَّمان الذي يليه: أن يَصْلَحَ الإمام ويَفْسُدَ النَّاسُ..»^(٤).

القسم الثالث:

فساد الوالي. قال عليه السلام:

«أو أجحفَ الوالي برعيته..»^(٥) أي ظلمهم^(٦).

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٤ / ٣٠.

(٢) نهج البلاغة ٣٨٦.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٤ / ٣٠.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٠.

(٥) نهج البلاغة ٣٨٦.

(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢ / ٦٥.

٤٠٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

أخذ ابن المقفع هذا جاعلاً منه الزمان الثالث. فقال: «والزمان الثالث صلاح الناس وفساد الوالي...»^(١).

أما الزمان الرابع عند ابن المقفع والذي قال عنه: «وشر الأزمان: ما اجتمع فيه فساد الوالي والرعية، وتلك كارثة لم يتقدم عهد كونها، ولم تعف عنكم آثارها»^(٢). فهذا لم يوجد صراحة في خطبة الإمام عليه السلام، لكن ثمرة هذا الزمان من كونه كارثة تحل بالامة نجد نظيرها عند الإمام بعد أن ذكر إجحاف الوالي، أو غلبة الرعية، فقال:

«اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتَرَكْتَ مَحَاجِّ السُّنَنِ فَعُمِلَ بِالْهُوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ...»^(٣)

ولعل هذا الزمان الرابع عند ابن المقفع يدخل ضمن طريقته التي يتعامل بها مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام - ولا يفارقها إلا نادراً - وهي تلك الطريقة القائمة على التوسع والزيادة.

ثالثاً: أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسائل أدبية أخرى لابن المقفع:

وردت لابن المقفع رسائل أدبية متعددة، كان يرسل بها بعض أصدقائه وإخوانه، مُعزِّياً ذي المُصيبة ومهنِّئاً ذي النعمة، وكان الطابع الغالب على هذه الرسائل - كسابقتها - طابع الوعظ والإرشاد. أما حجمها فقد تميزت بالقصر. أما تأثرها بكلام أمير المؤمنين فقد كان جلياً. فمن حكمة له عليه السلام حث فيها على تعلُّم العلم مَنْ هم أعلى مرتبة، ثم تعليم مَنْ هم أدنى مرتبة، فقال:

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٠.

(٢) م. ن ٣ / ٥٠.

(٣) نهج البلاغة ٣٨٦.

«تَعْلَمُ عِلْمَ مَنْ يَعْلَمُ، وَعَلَّمَ عِلْمَكَ مَنْ يُجْهَلُ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ مَا جَهِلْتَ وَانْتَفَعْتَ بِمَا عَلِمْتَ»^(١).

كتبَ ابن المقفع هذا، وأرسله إلى بعض إخوانه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَتَعْلَمُ الْعِلْمَ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكَ، وَعَلَّمَهُ مَنْ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ مَا جَهِلْتَ، وَحَفِظْتَ مَا عَمِلْتَ»^(٢).

ومن كلامٍ للإمام (عليه السلام) عزى فيه الأشعث بن قيس بعد أن رُزئ بأحد أولاده، قال فيه:

«يَا أَشْعَثُ، إِنْ تَحْزَنُ عَلَى إِبْنِكَ فَقَدْ اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحْمُ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَفِي اللَّهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلْفٌ. يَا أَشْعَثُ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزَعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ»^(٣).

يقول (عليه السلام) تدعوك صلة الرحم إلى الحزن على ولدك، ولكن عليك بالصبر حتى تنال الأجر، ولا تجزع فيصيبك الوزر، فإنَّ القدر جارٍ في الحالتين كليهما أصبرت أم جزعت. فكان هذا المعنى مهيمناً تماماً على رسالة كتبها ابن المقفع يعزي فيها عن ولد: «إنما يستوجب على الله وعده، مَنْ صَبَرَ اللَّهُ بِحَقِّهِ، فَلَا تَجْمَعَنَّ إِلَى مَا فُجِعْتَ بِهِ مِنْ وَلَدِكَ، الْفَجِيعَةُ بِالْأَجْرِ عَلَيْهِ وَالْعَوَضُ مِنْهُ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمَصِيبَتَيْنِ عَلَيْكَ، وَأَنْكِي الْمُرْزُتَيْنِ لَكَ»^(٤).

وهكذا كان ابن المقفع يأتي على المعنى العلوي ويكتبه إلى من يشاء من إخوانه.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٤.

(٣) نهج البلاغة ٦٠٦.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٦.

٤٠٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ففي حكمةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام نهى فيها عن الزهد بالمعروف لقلّة شاكره، إذ لا بُدَّ لمن يفعل المعروف من تحصيله على شكرٍ وفير، ولو من طرفٍ غير مستفيد من ذلك المعروف، فقال:

«لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ»^(١).

كتب ابن المقفع بهذا المعنى كتاباً إلى بعض إخوانه جاء فيه: «أما بعد، فإنَّ مَنْ قضى الحوائج لإخوانه، واستوجبَ بذلك الشكرَ عليهم فلنفسه عَمِلَ لا لهم، والمعروف إذا وُضِعَ عِنْدَ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ فهو زَرْعٌ لَا بُدَّ لزارعه من حصاده، أو لِعَقْبِهِ من بعده»^(٢).

وما دمنا في رسائل ابن المقفع فينبغي ذكر رسالة له متوسطة من حيث الطول صاغها على شكل مجموعة من الحكم والمواعظ القصار. كان لأثر كلام الإمام عليه السلام نصيبٌ موفورٌ فيها سواءً على صعيد التضمين الحرفي، أو المحور، أو المعنى.

فمثلاً حكمته عليه السلام:

«مَنْ عَذَّبَ لِسَانَهُ كَثُرَ إِخْوَانُهُ»^(٣).

أوردها ابن المقفع بنصّها في رسالته، فقال: «مَنْ عَذَّبَ لِسَانَهُ كَثُرَ إِخْوَانُهُ»^(٤).

(١) نهج البلاغة ٥٨٧.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٨.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ٥٧٨.

(٤) آثار ابن المقفع ٣٤١.

أما حكمته عليه السلام:

«أَحْسَنُ الْعَفْوِ مَا كَانَ عَنْ مَقْدَرَةٍ»^(١).

فلم يغير ابن المقفع إلا في ذيلها: «أَحْسَنُ الْعَفْوِ مَا كَانَ عَنْ عَظِيمِ الْجُرْمِ»^(٢).

بينما الشق الثاني من حكمة الإمام عليه السلام:

«ثَمَرَةُ الْقَنَاعَةِ الرَّاحَةُ، وَثَمَرَةُ التَّوَاضُّعِ الْمَحَبَّةُ»^(٣).

فلا يختلف عنه ما ورد في رسالة ابن المقفع تلك: «التَّوَاضُّعُ يورث الْمَحَبَّةَ»^(٤) سوى أن الإمام عليه السلام جعل التواضع يثمر محبة، وعند ابن المقفع يورث محبة !.

وبالنسبة لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ»^(٥).

فقد ذكرناها عندما ضمّناها ابن المقفع حرفياً في الأدب الصغير. أما في هذه الرسالة فقد أعاد ترتيب ما أخذه منها لا غير: «بالحزم يتم الظفر، بإجاله الرأي تظفر بالحزم»^(٦).

أما حكمته عليه السلام التي قال فيها:

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٠٤.

(٢) آثار ابن المقفع ٣٤١.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠ / ٤٥٢.

(٤) آثار ابن المقفع ٣٤١.

(٥) نهج البلاغة ٥٦١.

(٦) آثار ابن المقفع ٣٤٢.

٤٠٤ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

«أَحِبُّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغُضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»^(١).

فنجد جانباً من معناها القائم على احتمال تحوّل الحبيب بغيضاً، والبغيض حبيباً في قول ابن المقفع: «ربما تحولت البغضاء مودة، والمودة بغضاء»^(٢).

وقال عليه السلام:

«مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعًا: مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإِجَابَةُ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولُ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْإِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةُ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةُ»^(٣).

أخذ ابن المقفع هذا بتمامه، فقال: «من رزق أربعاً لم يحرم أربعاً: من رزق الشكر لم يحرم الزيادة، من رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة، ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة، ومن رزق التوبة لو يحرم القبول»^(٤).

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشائع والمتداول إنّ ابن المقفع ورث هذه الطريقة من التقسيم في الكلام - كقوله المذكور، وقوله: إنما أنت أحد رجلين، وقوله: العلم علمان - ورثها من اليونان^(٥)، ولكن الدراسة بينت إنّ ابن المقفع اعتمدها - التقسيمات - بنصها عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) جمهرة الأمثال ١ / ١٨٣، وينظر: نهج البلاغة ٦٠٢.

(٢) آثار ابن المقفع ٣٤٢.

(٣) نهج البلاغة ٥٧٧.

(٤) بلاغة الكتاب في العصر العباسي ٢١٩.

(٥) ينظر: دراسات في الأدب العباسي ٥٤.

ونختِمُ هذا الأثر العلوي العميق في ابن المقفع بنصين كليهما من وصية أمير المؤمنين لولده الإمام الحسن (عليه السلام)، فكان ممّا جاء فيها قوله:

«أَيُّ بَنِي، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرُ مَنْ كَانَ قَيْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ.. فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ..»^(١).

قدّم الإمام (عليه السلام) مجموعة صفاتٍ أمتاز بها حتى يؤكد لولده إنك لا تسمع ولم يأتك، إلّا المنتخل من الآراء، والنخل هو التصفية، ويقال نخلت له النصيحة بمعنى أخلصتها^(٢). وقد وردَ مثل هذا في قول ابن المقفع: «أخذتُ من كل شيء أحسنَ ما فيه حتى من الخنزير والكلب والفهد»^(٣).

وفي نهاية الوصية المذكورة قال (عليه السلام):

«وإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمُهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَأَكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلَا تُمْلِكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ، وَلَا تَعُدُّ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرَّيْبِ»^(٤).

(١) نهج البلاغة ٤٥٩.

(٢) لسان العرب ١١ / ٦٥١ مادة (نخل).

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٥٩ / ٢.

(٤) نهج البلاغة ٤٧١ - ٤٧٢.

اقتطع ابن المقفع هذا المقطع من الوصية، فقال: «إياك ومشاورَةَ النساءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزْمُهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَأُكْفِفُ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْإِرْتِيَابِ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ دُخُولِ مَنْ لَا تَثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلَا تَمْلِكَنَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَمْرِ مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْعَمُ لِحَالِهَا، وَأَرْخَى لِبَالِهَا، وَأَدْوَمُ لِحِمَالِهَا؛ وَإِنَّمَا الْمَرْأَةُ رِيحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ، وَلَا تَعُدُّ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تَعْطِهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لغيرها، وَلَا تَطْلُ الْخُلُوةَ مَعَ النِّسَاءِ فَيَمْلِكَنَّكَ وَتَمْلُكُنَّ، وَاسْتَبِقِ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً، فَإِنَّ إِمْسَاكَ عَنْهُنَّ وَهْنٌ يَرُدُّكَ بِاقتدار خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَهْجُمَنَّ عَلَيْكَ عَلَى انْكَسَارٍ. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايِرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ مِنْهُنَّ إِلَى السَّقَمِ»^(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى إن قول ابن المقفع: «لا تطل الخلوة إلى قوله على انكسار» لم يرد في الوصية التي أثبتها الشريف الرضي في نهج البلاغة، لكنه ورد في كتبٍ أخرى روت الوصية هذه، وكانت سابقة للنهج زماناً^(٢).

(١) أمراء البيان ١ / ١٣٨.

(٢) ينظر: تحف العقول ١١٠.

المبحث الرابع

تكرار ابن المقفع لكلام الإمام علي عليه السلام

التكرار هو الإعادة، والتكرار مظهر مهم جداً من مظاهر التأثير لأنه «يكشف تسليط الضوء على نقطة حساسة... ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه»^(١). وإذا كان تكرار لفظة واحدة أو اثنتين يكشف عن عناية المنشئ بأمر ما ومن أجل تلك العناية لجأ إلى تكرار هذه أو تلك^(٢)؛ فإن من يعمد إلى تكرار العشرات من اللفظة واللفظتين، بل مقاطع بأكملها لا بد وأنه تأثر بها غاية التأثير، وهذا بعينه ما صنعه ابن المقفع مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فبدون مغالاة إن أغلب كلام ابن المقفع السابق - إن لم نقل جميعه، بل وأكثر من السابق لأن منه متأثر ولم ندونه - الذي أخذه عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قام بتكراره، وكان قد اتبع طرقاً

(١) قضايا الشعر المعاصر ٢٤٢.

(٢) ينظر: قضايا الشعر المعاصر ٢٤٢.

عدة لهذا التكرار، فمرة يكرر النص العلوي في الرسالة نفسها، وثانية بين رسالة وأخرى^(١)، وهو في هذا يكرر الحكمة حرفياً مرّة، وأخرى بالمعنى، وثالثة يكرر الحكمة نفسها حرفياً مرّة، ومرّة المعنى، وغير ذلك من الطرق المتنوعة.

قد عرفنا فيما سبق إنّ ابن المقفع اعتمد اعتماداً واضحاً على عهد أمير المؤمنين عليه السلام لملك الأشتر. والأهم من هذا إنّ النصوص التي اعتمدها من العهد قام بتكرارها عن بكرة أبيها، سواء في الرسالة الواحدة، أو بين رسالة وأخرى. فمما قاله الإمام عليه السلام في العهد:

«ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها»^(٢).

ذكر ابن المقفع هذا في ثلاثة مواطن، إذ ضمّنه في أدبه الكبير، فقال: «حق الوالي أن يتفقد لطيف أمور رعيته، فضلاً عن جسيمها»^(٣).

وفي موطن آخر ذكر ذلك بمعناه وبعض ألفاظه مقدماً الشق الثاني على الأول، فقال: «لا عيب على الملك... إذا تعهد الجسيم من أمره بنفسه، وأحكم المهم، وفوض ما دون ذلك إلى الكفاة»^(٤).

وهكذا تماماً فعل في موطن ثالث، فقال: «لا تترك مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيراً، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير، فيصير الكبير ضائعاً»^(٥)

(١) وهذا السبب - أي تكرار ابن المقفع النص العلوي في رسائل عدّة - جعلنا نؤخر هذا المظهر من التأثير في آخر هذه الرسائل.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٧.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٧.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٦.

(٥) م. ن ٧١.

فالتغير يكمن في قولي ابن المقفع الأخيرين، إذ ما جاء في آخر قول الإمام عليه السلام لما نهى عن الإتكال على جسام الأمور «اتكلاً على جسيمها» جعله ابن المقفع أولاً لما قال: «تعهد الجسيم من أمره» و«لا تترك مباشرة جسيم أمرك».

أمّا قوله عليه السلام:

«لا تدع تفقد لطيف أمورهم».

أخذه ابن المقفع بمعناه وجعله آخراً لما قال: «وفوض ما دون ذلك إلى الكفاة» وأشار ب«ذلك» إلى الجسيم و«دون» الجسام من الأمور هي صغائرها ولطائفها، ثم ذكر هذا المعنى بلفظ آخر لما قال: «ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير» أي لا تهتم بصغائر الأمور فقط.

وفي العهد أيضاً شدد أمير المؤمنين عليه السلام على تخير الوزراء، فقال:

«لَا يَكُنْ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرَّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ [يَتَعَرَّفُونَ] لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصْنُوعِهِمْ، وَحُسْنِ حَدِيثِهِمْ خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ اخْتَبَرَهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ...»^(١).

فنهى أمير المؤمنين عليه السلام عن اعتماد التفرس في اختيار الوزراء، وتحذيره من التصنع الذي يخدع الفراسة، ثم وضعه شروط القياس والحكم الصائب لهذا المنصب، فكل هذا ذكره ابن المقفع في الأدب الكبير، فقال: «إن استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفك بصالح مروءتك... فإن الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد

٤١٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

علم قبل ولايته. أما إذا ولي فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع وكلهم يحتال لان يثني عليه عنده بما ليس فيه. غير أن الأندال والأرذال هم أشد ذلك تصنعاً»^(١).

ثم كرّر ذلك في رسالة الصحابة، فقال: «وإن كان السلطان ممن لم يعرف الناس قبل أن يلهم، ثم لم يزل يسأل عنهم مَنْ يعرفهم ولم يستثبت في استقضائهم، زالت الأمور عن مراكزها، ونزلت الرجال عن منازلها، لأن الناس لا يلقونه إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام، غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً»^(٢).

فقول الإمام عليه السلام:

«فإن الرجال يتعرفون لإفراسات الولاة بتصنعهم، وحسن خدمتهم».

ذكره ابن المقفع في الأدب الكبير بين اللفظ والمعنى لما قال: «فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع». وكرر هذه في رسالة الصحابة لما قال: «الناس لا يلقونه إلا متصنعين».

وبطريقته، لا بد من أن يزيد على كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وزيادته في أدبه الكبير هي قوله: «غير أن الأندال هم أشد ذلك تصنعاً». وفي رسالة الصحابة كرّر هذه الزيادة لما قال: «غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً».

ومن إرشادات أمير المؤمنين عليه السلام التي وردت في عهده للأشتر تلك المفاضلة التي أجراها بين خواص السلطان، وبين العامة من الشعب. مرجحاً كفة العامة لأسباب بينها في قوله:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٨١.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٣٩.

«فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُنْجِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَوْوَنَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقْلَ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْثَرَهُ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْخَافِ، وَأَقْلَ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا عِنْدَ الْمُنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلْهِمَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ، وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةِ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِنْوُكَ لَهُمْ، وَمِثْلُكَ مَعَهُمْ»^(١).

بين الإمام عليه السلام لواليه: «إِنَّ قَانُونَ الْإِمَارَةِ الْاجْتِهَادُ فِي رِضَى الْعَامَةِ فَإِنَّهُ لَا مَبَالَاةَ بِسُخْطِ خَاصَةِ الْأَمِيرِ مَعَ رِضَى الْعَامَةِ فَإِذَا سُخْطَتِ الْعَامَةُ لَمْ يَنْفَعِهِ رِضَى الْخَاصَةِ... لِأَنَّهُمْ يَثْقُلُونَ عَلَيْهِ بِالْحَاجَاتِ وَالْمَسَائِلِ وَالشَّفَاعَاتِ فَإِذَا عُزِلَ هَجَرُوهُ وَرَفَضُوهُ حَتَّى لَوْ لَقُوهُ فِي الطَّرِيقِ لَمْ يَسْلَمُوا عَلَيْهِ»^(٢). أما العامة فهم العدة للأعداء، وهم السواد الأعظم. وهم عمود الدين، واستعارة لفظ العمود لهم لأن قيام الدين بهم كقيام البيت بالعمود^(٣)، ولذا فضّلهم، وأمر أن يكون صغو الوالي لهم. والصّغو بالكسر والفتح: الميل^(٤).

قال ابن المقفع في الأدب الكبير ما يشبه هذا بشدة: «البس للناس لباسين ليس للعاقل بدُّ منهما، ولا عيش ولا مروءة إلا بهما: لباس انقباض واحتجاز من الناس، تلبسه للعامة فلا يلقونك إلا متحفظاً متشدداً متحرزاً مستعداً، ولباس انبساط واستئناس، تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك فتلقاهم

(١) نهج البلاغة ٥٠٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ / ٢٦.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٣٣٧.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ / ٢٦.

٤١٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

بذاتِ صدركَ وتفضي إليهم بمصونِ حديثكَ وتضعُ عنك مؤونةَ الحذرِ
والتحفظِ في ما بينك وبينهم»^(١)

وكان ابن المقفع قد أورد هذا في أدبه الصغير، فقال: «وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين، ويلبس لهم لباسين مختلفين، فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وإنحجاز وتحفظ في كل كلمة وخطوة، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس ويلبس التشدد لباس الأنسة والطف والبذلة والمفاوضة»^(٢).

وعلى آية حال فإن التقسيم بين كلام الإمام عليه السلام وكلام ابن المقفع هو التقسيم نفسه، والمعنى نفسه أيضاً، فضلاً عن تكرار بعض الألفاظ في النصوص الثلاثة. إلا أن ابن المقفع أوصى بالعامة ما أوصاه أمير المؤمنين عليه السلام بالخاصة، وأوصى بالخاصة ما أراده أمير المؤمنين عليه السلام للعامة. ولعل السبب في ذلك عائد إلى توظيف ابن المقفع هذه الفقرة المذكورة من العهد مع الصديق، والصدقة تبتغي تقريب الخواص، والتحرز من العوام.

أما تكراره لحكم أمير المؤمنين عليه السلام فكان قد شكّل علامة بارزة جداً في رسائله. ومن هذا إن لأمر المؤمنين عليه السلام حكمةً بيّن فيها حسن الفعل إذا رجع على القول، وقبح القول إذا قصر عن الفعل، فقال:

«إِنَّ فَضْلَ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ لَهُجْنَةٌ، وَإِنَّ فَضْلَ الْفِعْلِ عَلَى الْقَوْلِ لَجَمَالٌ وَزِينَةٌ»^(٣).

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) م. ن ٢٢ - ٢٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١٣٧. وينظر: ميزان الحكمة ٣/ ٤٦٣.

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة في أدبه الكبير، فقال: «إن فضل القول على الفعل عارٌّ وهُجْنَةٌ، وفضل الفعل على القول زينة»^(١).

والملفت هنا إنّ ابن المقفع قد زاد لفظة «عار» على حكمة الحكيم أمير المؤمنين عليه السلام، لكنّه لما كررها حذف هذه اللفظة، مع قلبه للحكمة، فقال: «واعلم أن فضل الفعل على القول زينة، وفضل القول على الفعل هُجْنَةٌ»^(٢).

وقال أمير المؤمنين في وصيته لولده الحسن عليه السلام:

قطيعة الجاهل تعدلُ صلة العاقل»^(٣).

فكما أنّ من يواصل العاقل يغتنم من عقله فكذا من يقاطع الجاهل يغتنم السلامة من جهله.

فككّ ابن المقفع هذا المعنى وأورده في موضعين، مرّةً في الأدب الكبير، فقال موصياً بقبول عذر المعتذر، ومستثنياً: «إلّا أن يكون قطيعته غنيمة»^(٤). وهذه هي «قطيعة الجاهل» في حكمة الإمام عليه السلام.

والأخرى في الأدب الصغير حيث قال: «ولقاء الأخوان، وإن كان يسيراً، غنم حسن»^(٥). وهذه هي «صلة العاقل» في حكمة الإمام عليه السلام.

وقال عليه السلام مشبّهاً صاحب السلطان براكب الأسد، لما في هذا المنصب من خوف واضطراب:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٣.

(٢) م. ن ١٢٠.

(٣) نهج البلاغة ٤٧١.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٧.

(٥) م. ن ٢٩.

٤١٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

«صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاحِبِ الْأَسَدِ: يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ»^(١).

كرّر ابن المقفع هذه الحكمة ثلاث مرات، فقال في الأدب الكبير مخاطباً السلطان الذي لم يضبط أمور جنوده: «فإنما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه، وهو لمركبه أهيب»^(٢).

ثم كرّر هذا في الأدب الكبير أيضاً، ولكن بالمعنى، فقال: «اعلم أن أكثر الناس عدواً جاهداً حاضراً جريئاً واشياً وزير السلطان ذو المكانة عنده. لأنه منفوس عليه مكانه بما ينفس على صاحب السلطان، ومحسود كما يحسد. غير أنه يُجترأ عليه، ولا يجترأ على السلطان»^(٣).

ثم عاد ثالثة، ولكن عدل عن المعنى ليعود إلى التضمين، فقال في رسالة الصحابة: «... فهو كراكب الأسد الذي يُوجل من رآه، والراكب أشدُّ وجلاً»^(٤).

وفي حكمة له عليه السلام نهى فيها عن المن بعد إسداء معروف لأحد، فقال:

«أَحْيُوا الْمَعْرُوفَ بِإِمَاتِيهِ، فَإِنَّ الْمَنَّةَ تَهْدِمُ الصَّنِيعَةَ»^(٥).

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة بتمامها في أدبه الكبير لكنّه نشرها بمقطع نثري

(١) نهج البلاغة ٦٠١.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٠١.

(٣) م. ن ٨٥.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٣٣.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم ١٥٤.

طويل، منه موطن الشاهد: «إذا كانت لك عند أحد صنيعة... فالتمس إحياء ذلك بإماتته...، فإن الاستطالة تهدم الصنيعة»^(١).

وفي أدبه الصغير ذكر هذا ولكن بإيجاز، فقال: «لا يرى العاقل معروفاً صنعه، وإن كان كثيراً»^(٢).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام):

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»^(٣).

أخذ ابن المقفع هذا المعنى وبعض ألفاظه، فقال في أدبه الكبير: «إياك أن يقع في قلبك تعبُّ على الوالي أو استزراءً له. فإنه إن وقع في قلبك بدا في وجهك، إن كنت حليماً، وبدا على لسانك، إن كنت سفيهاً»^(٤).

ثم كرّر هذا في أدبه الكبير أيضاً، فقال: «واعلم أنه قلما بُدِه أحد بشيء يعرفه من نفسه، وقد كان يطمع في إخفائه عن الناس، فيعيّره به معيّر عند السلطان أو غيره، إلا كاد يشهد به عليه وجهه وعيناه ولسانه، للذي يبدو منه عند ذلك»^(٥).

فالمعنى بين حكمتي ابن المقفع وأمهما حكمة أمير المؤمنين (عليه السلام) واحد تماماً، وهو لا يستطيع أحد أن يبقّي ما أضمره مضمراً، لأن ما يضمّره القلب يتبيّن على

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٩.

(٣) نهج البلاغة ٥٥٤.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ٨٤.

(٥) م. ن ١١٦.

٤١٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

صفحات الوجه بتلوّنها، وعلى اللسان بفلتاته، فضلاً عن تكراره ألفاظ علوية بنصها من نحو: «وجهك، ولسانك» في حكمته الأولى. و «أحد، وجهه، لسانه» في حكمته الثانية. وألفاظ أخرى حوّر في ثوبها دون معناها، فقد أبدل «ظهر» بـ «بدا» في حكمته الأولى، وبـ «يبدو منه» في حكمته الثانية. وأبدل «أضمر» بـ «وقع في قلبك» في الأولى وبـ «إخفائه» في الثانية.

ومن طرق ابن المقفع الملتوية بالتكرار هي أنّه كان يأتي على الحكمة العلوية فيضمّنها، ثمّ يذكرها ثانية بالمعنى، وثالثة يقرّ بأنها ليست له فيقول: كان يُقال. وما أظنّ ذلك إلاّ ليضيع مصدرها الأصل الذي لم يكن محبباً لدى أسياذ ابن المقفع.

فمن الحكم العلوية التي فعل ابن المقفع هذا معها قوله عليه السلام:

«وَكَانَ إِذَا بَدَهُهُ أَمْرَانِ يَنْظُرُ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهُوَى فَيَخَالِفُهُ»^(١).

ضمّن ابن المقفع هذا في أدبه الكبير، فقال: «إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه»^(٢).

ثم كرّر هذه في أدبه الصغير، فقال: «العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده، فيحذره»^(٣).

وثالثة ذكر هذا لكن بمعناه، فقال: «وكان يقال: إذا تخالجتك الأمور فاشتغل بأعظمها خطراً»^(٤).

(١) نهج البلاغة ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٦.

(٣) م. ٢٤ ن.

(٤) م. ٤٢ ن.

وبطريقة مماثلة تعامل ابن المقفع مع حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:
«من الحِكمة طاعتك مَنْ فوقك، وإجلالك مَنْ في طبقتك، وإنصافك
لِمَنْ دونك»^(١).

فضمّنها في أدبه الصغير مع تحوير جزئي وشكلي، فضلاً عن التأخير والتقديم
بين فقرتيها الأخيرتين، فقال: «وكان يقال: وقّر من فوقك، ولن لمن دونك،
وأحسن مؤاتاة أكفائك»^(٢).

أمّا في الأدب الكبير فقد أخذ المعنى المذكور، فقال: «لتكن حاجتك في
الولاية إلى ثلاثة خصال: رضي ربك ورضى سلطان، إن كان فوقك، ورضى
صالح من تلي عليه»^(٣).

ومن طرقه الأخرى بالتكرار هي تقديمه وتأخيره في ألفاظ الحكمة العلوية،
فمن حكمة لأمر المؤمنين عليه السلام، قال فيها:

«الظفرُ بالحزم، والحزمُ بإجالة الرأي، والرأيُ بتحصين الأسرار»^(٤).

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة في أدبه الصغير بنصّها، فقال: «الظفر بالحزم،
والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار»^(٥).

ثمّ عاد في رسالة أخرى وكأنه بعثر كلمات الحكمة لما قال: «بالحزم يتمّ الظفر،

(١) عيون الحكم والمواعظ ٤٧٣.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٣.

(٣) م. ن ٦٩.

(٤) نهج البلاغة ٥٦١.

(٥) الأدب الصغير والدب الكبير ٥٣.

بإجالة الرأي تظفر بالحزم»^(١)

وكان ابن المقفع في بعض الأحيان يعمد إلى نصيين علويين أو أكثر فيلحقهما ويوردهما في رسالة، ثم يكرر هذا التلفيق في رسالة أخرى. فمن ذلك إنه أتى على حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«الْأَقَاوِيلُ مُحْفُوظَةٌ، وَالسَّرَائِرُ مَبْلُوءَةٌ ﴿وَكُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ، سَائِلُهُمْ مُتَعَنَّتْ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلَّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْيًا يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرَّضَى وَالسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُدَا تَنْكُوهُ اللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ»^(٢).

وعلى خطبة طويلة لأمر المؤمنين عليه السلام وصف فيها المنافقين منها:

«وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ... يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ»^(٣).

فلحقها في الأدب الصغير قائلاً: «الناس، إلا قليلاً ممن عصم الله، مدخولون في أمورهم: فقائلهم باغ، وسامعهم عياب، وسائلهم متعنت، ومجيبهم متكلف، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل، ... والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر يتناقضون الأبناء، ويتراقبون الدول»^(٤).

أدخّر ابن المقفع تليفيه هذا وجعله مقدّمة لرسائله الدرّة اليتيمة فقال: «وقد أصبح الناس - إلا قليلاً ممن عصم الله - مدخولين منقوصين، فقائلهم باغ،

(١) آثار ابن المقفع ٣٤٢.

(٢) نهج البلاغة ٦١٣.

(٣) م. ن ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٩ - ٣٠.

وسامعهم عيَّاب؛ سائلهم متعنّت ومُجيبهم متكلف، وواعظهم غير محققٍ لقوله بالفعل،... يتقارضون الثناء، ويترقبون الدُّول، ويعيون بالهمز، يكاد أحزمهم رأياً يلفته عن رأيه أدنى الرضا وأدنى السُّخْط»^(١).

ونلاحظ هنا - كما لاحظنا سابقاً - إنّ ابن المقفع قد ضمّن النص العلوي بنصه، وأجرى تعديلاً شكلياً على بعضه الآخر، ثم يأتي على نصه الذي حوّر فيه ويحوّر فيه ثانية، فمثلاً قول الإمام (عليه السلام): «يكاد أفضلهم رأياً يرده عن رأيه الرضى والسخط». حوّر فيه ابن المقفع طفيفاً لما قال في الدرة اليتيمة: «يكاد أحزمهم رأياً يلفته عن رأيه أدنى الرضى وأدنى السخط». ولكن في الأدب الكبير ذكر الفكرة بمعناها لما قال: «والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر».

هذا هو فيض من غيض من تكرارات ابن المقفع لكلام الإمام علي (عليه السلام)، لأنّ القائمة تطول جداً بهذه التكرارات، ولولاها لذهب جانب كبير من كمية نتاجات ابن المقفع.

ولهذا دلالات على الرغم من إنّها كاشفة عن نفسها إلا أنّ منها:

١- إنّ هذا التكرار دليل لا يضلُّ على الكشف بوضوح إنّ ابن المقفع كان على مداومة وإتصال متواصل بكلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وإستحضاره لهذا الكلام في جميع رسائله المشهورة بلا استثناء

٢- إنّ هذا التكرار يكشف إنّ ابن المقفع كان يرى في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) زينةً يزدان بها الكلام، وركيزة يرتكز عليها القول - بفنونه وأغراضه المتعددة - ولذا رغب في أن يزين كلامه بهذه الزينة إذا أنّ «من عادة النفس سرعة الالتفات

إلى ما أنسته وعرفته»^(١).

٣- يستجلي هذا التكرار عمق إيمان ابن المقفع بأنّ في كلام أمير المؤمنين وأفكاره عليه السلام الطريقة المثلى في تحديد المشكلات، وتقديم الحلول الناجحة لها.

٤ - إنّ تكرار ابن المقفع لهذه الحكم العلوية دليل آخر على أنّ هذه الحكم هي ليست لابن المقفع، وإلاّ لو كانت له لما حوّر فيها هنا، وأعادها بنصّها هناك، ثمّ نسبها للحكيم في مكانٍ ثالث.



الخاتمة والنتائج

كانت هذه رحلة شاقة وشيقة استجلينا من خلالها الأثر المهيّب الذي تركه كلام أمير الكلام عليه السلام على كلّ من الحسن البصري وابن المقفع، ومن خلال هذه الرحلة توصلنا إلى حقائق عدّة غُطّيت - طوعاً أو كرها - مئات السنين، منها:

١- تبين بوضوح أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان مدوّناً ومحفوظاً ومشهوراً منذ القرن الأوّل الهجري، ولهذا سلكت الدراسة طريقين يدعم بعضهما بعضاً:

الأول:

الاعترافات الصريحة بذلك من نحو شهادة الجاحظ وغيره، وكذلك أسماء الكتب التي ذكرها ابن نديم والطوسي وغيرهم، والتي اختصت بجمع كلامه عليه السلام.

الثاني:

التأثير المهيّب الذي تركه كلامه عليه السلام على النثر العربي في ذلك القرن والقرن

٤٢٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

الذي بعده بطريقة تدلّ على أنّ الكتاب كانوا يقرؤون كلامه عليه السلام وينتقون منه ما يشاءون من جملة، أو مقطع، ولربما رسالة أو خطبة كاملة .

٢- تبين إبطال الشك في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لملك الأشتر، ذلك الشك القائم على الطول، وعلى أنّ العهد لم يكن موجوداً في زمن الطبري، ولو كان موجوداً في زمنه لدونه في تأريخه، في حين إنّ الدراسة أثبتت أنّ ابن المقفع معتمدٌ اعتماداً مباشراً على وصايا العهد، فقد أخذ منه عشرات النصوص بين التضمين الحرفي، والمحور، والأخذ بالمعنى وغير ذلك، وعلى هذا فإنّ العهد كان موجوداً ومقروءاً ومؤثراً قبل الطبري بأكثر من مائتي عام .

٣- من آثار كلام أمير المؤمنين عليه السلام على الأديبين المذكورين، هو ذلك التفاوت في حجم النص النثري، من الطول المهيّب، بحيث وصل إلى درجة - التشكيك - إلى الطول، إلى التوسط، إلى الإيجاز الشديد بحيث لا تتجاوز الرسالة السطر الواحد أو بعضه، وهذه هي طريقة علوية بامتياز سار عليها الأديبان سيراً واضحاً لا لبس فيه، فقد وجدنا عند البصري رسالة تربو على المائة سطر، وأخرى لا تتجاوز سطرًا واحدًا، وكذلك الأمر عند ابن المقفع .

وهذه الطريقة ثبت أيضاً أنّ الطول كان موجوداً في نصوصه عليه السلام إلى درجة كان مؤثراً ومرغوباً في تقليده .

٤- بطلان الشكوك التي أثرت حول علم الكلام أو علم التوحيد، ذلك العلم الذي برع به أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك لما رأينا أنّ هذا الفن من الكلام كان هناك من أخذه عنه عليه السلام وتأثر به في القرن الأول الهجري كالإمام زين العابدين عليه السلام .

٥- وجدنا أنّ أصحاب المعجمات اللغوية قد وثقوا الخطبة الشقشقية، وذلك

لما استشهدوا بألفاظٍ ومقاطع كثيرة منها، وصرّحوا بمبدعها، وهذا الاستشهاد دليلٌ جازم على صدورهما من المنبع العربي الأصيل والمؤسس للكلام العربي .

٦- من التهم التي وجهت لكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) وجود التقسيمات العددية فيه، وهذا تبين بطلانه من خلال أثر هذا الإسلوب الحرفي على الحسن البصري وابن المقفع وغيرهما .

والغريب إنّ هذا الأمر تعامل معه بعض الأدباء بمعايير فيها ازدواجية، وبطريقة فيها تحبط، فهم لما رأوه عند أمير المؤمنين (عليه السلام) عدوه أمراً مكذوباً عليه، بينما عند البصري - وبحكمهم - ميزة من ميزات ثره، ولا ننسى أنّ الجميع - إلى درجة لا يختلف فيها اثنان - متفق على كون البصري ذي ثقافة إسلامية عربية محضة، ولما وصلوا إلى ابن المقفع رأوا بأنّ هذا الأخير أتى بهذا الفن الثري من اليونان .

هذا كلّ أمر بجانب للصواب جملةً وتفصيلاً، لأنّ هذه التقسيمات أخذها الأديبان بالنص أو المعنى عن أمير المؤمنين، وسنذكر ببعضها هنا .

من نحو قول: البصري «... وإنّا إذا فكرت فيها الدنيا ثلاثة أيام...» الذي أخذه من الحكمة العلوية: «وإلا إنّ الأيام ثلاثة...» .

ومن نحو قول ابن المقفع «.. إنّنا أنت في ذلك أحد رجلين»، فقد أخذه من عهد الإمام ممالك: «.. إنّنا أنت أحد رجلين» .

ومن نحو قول ابن المقفع أيضاً: «من ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره مقت، ومن مقت أودي...»، فكان قد استوحى هذا مما ورد في حكمة أمير المؤمنين «.. ومن كثر كلامه فقد كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه، ومن

قَلَّ حياؤه قَلَّ ورعه...».

أمّا قوله عليه السلام: «الصبر صبران: صبرٌ على ما تكره، وصبر على ما تُحب»، فقد أخذَه الأديبان كلاهما، حيث قال البصري: «الصبر صبران: صبر عند المصيبة، وصبر عن المعصية»، وقال ابن المقفع: «واعلم أنَّ الصبر صبران: صبر المرء على ما يكره، وصبره عما يجب».

وغير هذا كثير أشرنا له في طيّات الرسالة .

٧- لم تخل أي رسالة أو خطبة عند البصري من أثر علوي بالغ، وكذلك رسائل ابن المقفع الأربع المشهورة (الأدب الكبير، الأدب الصغير، رسالة الصحابة، الدرة اليتيمة) وأكثر من هذا إذ لم أجد ولا صفحة واحدة من صفحات الأدب الصغير تخلوا من أثر لكلام الإمام عليه السلام .

٨- إنَّ هذا الأثر الذي تركه كلامه عليه السلام يوضح دون ريب واقعية المقولة التي دونها الشيخ المفيد (لولا كلام علي بن أبي طالب وخطبه وبلاغته في منطقته ما أحسن أحد أن يكتب إلى أمير جند ولا إلى رعية) . فهذه الشهادة وما شابهها من شهادة كثيرة جداً من قِبَل النقاد والأدباء تبين الآن وبالدليل أنها لم تكن من باب المبالغة، بل هي حقيقة ملموسة كان قد تُنبّه إليها قديماً، فجاءت هذه الدراسة تؤيد تلك الشهادات، والشهادات تشهد من جانبها على صحة هكذا دراسات .

ولا مغالاة فلولا كلامه عليه السلام لم يصلنا نتاج البصري وابن المقفع - لا كمّاً ولا نوعاً - كما وصلنا في هذه الحلة .

٩- ثبت أنَّ جميع كلام البصري أو جلّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بالحرف أو

المعنى أو بينهما، وعليه لم يثبت من الآراء القديمة حول مرجعية ثقافة البصري الأدبية إلا رأي الشريف المرتضى، الذي عدَّ كلَّ كلام البصري أو غالبية من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام .

١٠- كان البصري عندما يتحدث يُسأل عن بعض الأحاديث لمن هي، فينهر السائل ولم يجبه، فأثبتت الدراسة أنَّ تلك الأحاديث تعود لأمير المؤمنين عليه السلام .

١١ - من المؤسف أسفًا شديدًا إنَّ البصري وعلى الرغم من تأثره الكامل بأمير المؤمنين عليه السلام لم يذكر اسمه ولا مرّة واحدة، في حين يذكر أسماء الآخرين الذين يستشهد بكلامهم، إبتداءً من لقمان الحكيم، وانتهاءً بالخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل .

١٢- لم يكن للحسن البصري أي أسلوب مميز مقارنة بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، إذ كان الأسلوب العلوي مهيمناً هيمنة تامة على نشر البصري، سواء من ناحية الشكل أم المضمون .

١٣- وجدنا إنَّ من النصوص العلوية هي نصوص قرآنية، أجرى عليها أمير المؤمنين عليه السلام بعض التغيرات، فكان البصري قد تأثر ببعض هذه دون أن يتأثر بالنص الأصل .

١٤- إنَّ الأديبين وعلى الرغم من كونها يكتبون مدّة حياتهم لسلطات تخالف مشروع أمير المؤمنين عليه السلام الفكري إلا أنَّهم بقوا مأسورين لكلامه عليه السلام .

١٥- إنَّ الأديبين عاشوا في العصر الذهبي للنثر العربي، وكانوا يتطلعون إلى جلب أسماع متلقيهم، فعمدوا إلى التفتيش عن لباب الحكم وأبكار المعاني، فوجدوها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

١٦- إنَّ اغلب - ولربما جميع - تأثر الأديبين الذي شخصته الدراسة هو تأثر إتباعي وليس إبداعياً، بمعنى إثمهما لم يبدلا استبدالات جريئة في النص العلوي - وإن أقدموا على هذه الخطوة فأثمهم يقصرون - وهذا عائدٌ إلى إيمانهم بأنَّ النص العلوي نصٌّ متكامل لا يمكن التجديد فيه تجديداً حسناً .

١٧- من الطرق التي اشترك فيها الأديبان هي التقديم والتأخير بين مكونات النص العلوي الذي يوردانه .

١٨- كان البصري يجمع نصوصاً علوية عدّة ويسكبها في نصٍّ واحد، ولكن هذا النص الواحد - لأنّه ملفّق من نصوص عدة - بأنّ عليه عدم الانسجام، وفي محاولةٍ من البصري لتدليل عدم الانسجام هذا جعل يربط بين المقطع والآخر بعبارة يخترعها هو من نحو تكرر (يا ابن آدم)، أو تكرر (احذرهما) مخاطباً الدنيا، أو تكرر اسم صريح بعينه وغير ذلك، ولكن هذا الرابط لم يشفع للبصري فقد بقيت نصوصه الطوال ينتابها عدم الانسجام، والسبب هو ما بيّناه لا غير .

١٩- كثيراً ما كان الأديبان يكرران بعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وليس مرّة واحدة فحسب، بل لربما يكرران المقطع العلوي الواحد أكثر من خمس مرات، وهذا التكرار أو حضور النص العلوي الواحد في نصوص عدة - وبفنون مختلفة - للأديبين عائد بالدرجة الأساس إلى كثرة قراءة ذلك النص وترديده وحضوره في ذهن الأديب أولاً، وثانياً إيمان الأديب الذي قام بهذه العملية بأنّ هذا الكلام - المكرّر - هو زينة يزدان بها النص الإبداعي، وذي قابلية على التأثير على المتلقي ولذا قاما بتكراره، أي طمعاً بنفعه الذي سيعود به على النص المتأثر .

٢٠- اتبعا الأديبان - وهما يكرران كلام أمير المؤمنين عليه السلام - طرقاً عدّة فمرة يضمّنان النص العلوي حرفياً ويكرّرانه حرفياً أيضاً، أو يكرّرانه بتحوير طفيف،

أو يكرّره بالمعنى، وفي مرّات عدّة كان قد اتّبعها هذا كله، مع النص العلوي الواحد، بمعنى إنّهما يضمّنان بنصه، ثم يكرّره بنصّه أيضًا، ثم بتحوير طفيف، ثم بالمعنى ... وهكذا .

٢١- من طرق الحسن البصري في تكراره كلام الإمام (عليه السلام) هي أخذه للعبارة العلوية وتكرارها في مكانٍ واحدٍ، وفي أحيانٍ كثيرة بدون أي فاصل يذكر بين النص الأصل وتكراره، وهكذا تكرار يذمّه النقاد لخلوّه من الجدّة.

٢٢- من طرق ابن المقفع التي كان يكرر بها كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) هي ذكره لذلك الكلام منسوبًا لمن أسماه بالحكيم، ويكرّره ثانية - مع تغيير جزئي وطفيف - ولكن دون أن ينسبه لذلك الحكيم .

٢٣- صرح ابن المقفع مرارًا وتكرارًا بتأثره الكبير، فقال: إنّ جميع كلامه - إلّا اشتقاقًا صغار - مأخوذ من أناسٍ لم يذكر أسماءهم الصريحة، بل أسهب في ذكر صفاتهم الخلقية والخلقية، والآن بيّنت الدّراسة بالدليل تصدر أمير المؤمنين (عليه السلام) هؤلاء الموصوفين .

٢٤- وجدت الدراسة أيضًا إنّ ابن المقفع كان قد تأثر تأثرًا نصّيًا بالرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وبعض أئمة أهل بيت النبوة كالإمام زين العابدين، والإمام الصادق (عليه السلام) .

ومن هذه النتائج انكشف بطلان النظريات التي اهتمت ابن المقفع - بسبب مدحه للقدماء وتأثره بهم - وعدّته لا أخلاقيًا، ويريد الجمود، ويحلّ الفرس ويعليّ من شأنهم، وينكلّ بالعرب، فبعد أمد طويل تبين إنّ ابن المقفع لم يكن يقصد إلّا أناسًا عربيًا أقحاحًا، بل من سادات العرب وأشرفهم في الجاهلية والإسلام .

٤٣٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

٢٥- كان ابن المقفع يورد الحكمة وينسبها للحكيم، هذا الحكيم فُسر - من غير دليل - بالفارسي، والآن بينت الدراسة إن الحكيم هو أمير المؤمنين عليه السلام .

٢٦- كان ابن المقفع يورد الحكمة ويقدم لها بقوله «كان يقال»، أو «سمعت العلماء قالوا»، فوجدت الدراسة إن غالبية هذه الحكم للإمام علي عليه السلام .

٢٧- صرح ابن المقفع باشتقاقه أفكاراً من كلام الذين أسماهم بـ«الأولين»، وهذا الاشتقاق - أو ما أسميناه بالبسط - هو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان ابن المقفع يأتي على الحكمة العلوية الموجزة فيتوسع عليها توسعاً كبيراً حتى وجدنا بعض الزيادات التي يجريها ابن المقفع على النص العلوي مطابقة تماماً لشرح ذلك النص من قبل شراح (نهج البلاغة).

ولما عرفنا بأن ذلك الكلام المشتق منه هو لأمر المؤمنين عليه السلام، كان من العدل والرشاد أن نقول: إن علي بن أبي طالب يقف على رأس هؤلاء «الأولين» لا على أنهم من الفرس أو اليونان .

٢٨- قلل ابن المقفع من إيراد الحكمة العلوية بطريقة الإيجاز إلى درجة لا تكاد تكون هنالك نسبة عددية بين الحكم التي أوجزها والآخر التي بسطها، وما ذلك إلا لأنه كان على يقين بأن كلام أمير المؤمنين عليه السلام مسبوك سبكاً خاصاً على صعيدي الشكل والمضمون، وعليه فإن أي شيء يُحذف منه سيهدّ جزءاً لا يُستغنى عنه، بمعنى أن تأثيراً سلبياً - حتمياً أو شبه حتمياً - سيكون من جرّاء عملية الإيجاز لو حصلت، لذا ابتعد ابن المقفع عنها .

٢٩- كثيراً ما كان ابن المقفع يقدم للمقطع العلوي الذي يضمّنه بفعل الأمر أو لام الأمر، وما ذلك إلا رغبة منه للتأكيد أو للفت الانتباه إلى ما سيورده .

٣٠- كثيرًا ما كان ابن المقفع يحوّر شكليًا في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، ومن ذلك استعماله الضمير بدلاً من الاسم الصريح، أو بالعكس .

٣١- إنّ من بواعث التأثير العلوي على ابن المقفع هو تلك الموسوعية الهائلة التي اتصف بها أمير المؤمنين (عليه السلام) قولاً وفعلاً، فهو المحارب العظيم، وهو المنظم العسكري، وهو الفيلسوف، وهو العابد الزاهد، وهو الاقتصادي، وهو السياسي.... فهذه الموسوعية وظّف ابن المقفع جانباً كبيراً منها فوجدناه - بشهادة كلامه - واعظاً، وسياسياً، وعسكرياً، واقتصادياً، وداعياً إلى الزهد، فكان في هذا كله منظمًا دقيقًا يذكر المشكلة ويعطي دواءها، ونحن والكلّ يعرف إنّ ابن المقفع لم يمارس هذه الأمور والمهّمات الجسام حتى تكون له تلك المقدرة والموسوعية الواسعة على تشخيص الداء ووصف ما يناسبه من دواء، ولكن العلة الكامنة وراء ذلك هي جمعه لكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ونظرياته الخالدة في هذه الموضوعات المتعددة .

٣٢- كان ابن المقفع يشدد على النهي عن استعمال الرأي إذا كان الإمام موجودًا، لأن الإمام - بنظر ابن المقفع - له المقدرة العلمية التي تعينه على استنباط الحل الأمثل لكل معضلة، في حين لم يصل إلى هذه الدرجة عامة الناس بآرائهم، ولذا نصّحهم ابن المقفع بالتخلي عن آرائهم والامتنال لأوامر الإمام .



المصادر

و

المراجع

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الإبداع في الفن، أ. د. قاسم حسين صالح، دار دجلة، المملكة الأردنية، ط ١، ٢٠٠٧ م.
- ٣- ابن المقفع، حنا الفاخوري، دار المعارف، مصر، د.ت.
- ٤- الاتجاه الأسلوبى فى النقد الأدبى، د. شفيق السيد، دار الفكر العربى، الكويت، ١٩٨٦ م.
- ٥- الإتجاهات الفكرية عند الإمام علي (عليه السلام)، د. رحيم محمد سالم، مركز الشهيدى الصدرى للدراسات والبحوث، ط ١، ٢٠٠٧ م.
- ٦- الإتقان فى علوم القرآن، جلال الدين السيوطى (ت ٩١١ هـ)، تحقيق سعيد المنذوب، دار الفكر، لبنان، ط ١، ١٩٩٦ م.
- ٧- الأثر العربى فى أدب سعدى (دراسة أدبية نقدية مقارنة)، د. أمل إبراهيم دار

٤٣٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

الفكر العربي، ٢٠٠٣.

٨ - أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، أحمد حسين الباقوري، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٨٧ م.

٩- أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة اليرموك، بغداد، ط١، ١٩٧٤ م.

١٠- الأثر القرآني في نهج البلاغة (دراسة في الشكل والمضمون)، د. عباس علي حسين الفحام، من إصدارات العتبة العلوية المقدسة، ٢٠١١ م.

١١- الاحتجاج، العالم الفقيه أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تعليق محمد باقر الموسوي الخرساني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٤ م.

١٢- الإختصاص، الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن النعمان العكبري المشهور بالمفيد (ت ٤١٣ هـ)، تحقيق علي أكبر الغفاري، السيد محمود الزرتدي، دار المفيد، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٩٣ م.

١٣- الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين، د. نايف معروف، معروف، دار النفائس، بيروت - لبنان، ط٣، ٢٠٠٥ م.

١٤- الأدب الصغير، ابن المقفع، شرح وتحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٤ م.

١٥- الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥ م.

١٦- أدب العرب، مارون عبود، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠ م.

المصادر والمراجع..... ٤٣٧

١٧- الأدب المقارن، مجدي وهبة، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونغمان)، ١٩٩١م.

١٨- الأدب المقارن د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت - لبنان، ط ٥، د.ت.

١٩- الأدب المقارن فان تيجم، دار الفكر العربي، د. ت.

٢٠- الأدب وفنونه دراسة ونقد، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط ٢، ١٩٥٨م.

٢١- الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم من عصر علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عصر ابن خلدون، د. كمال اليازجي، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٦م.

٢٣- الأسس الجمالية في النقد الأدبي، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٨م.

٢٤- إشكاليات القراءة والتأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط ٤، ١٩٩٦م.

٢٥- الإعجاز العلمي عند الإمام علي عليه السلام، د. لبيب بيضون، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٥م.

٢٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط ٥، ١٩٨٠م.

٢٧- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ) تحقيق وتخرّيج حسن الأمين، دار التعارف، بيروت - لبنان، د.ت.

- ٤٣٨..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي
- ٢٨- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٧هـ)، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ٢، د. ت.
- ٢٩- الإغتراب وأنواعه، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٥ م.
- ٣٠- الإقتباس والتضمين في نهج البلاغة (دراسة أسلوبية)، د. كاظم عبد فريح المولى الموسوي، ٢٠٠٦ م.
- ٣١- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، علي بن الحسين الملقب بالشریف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذوي القربى، قم - إيران، ط ٢،
- ٣٢- الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، دار الثقافة، قم، ط ١، ١٤١٤ هـ.
- ٣٣- الأمالي، الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق حسين الإستادولي، علي أكبر غفاري، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٩٣ م.
- ٣٤- الإمام علي أسد الإسلام وقدّيسه، روكس بن زائد العيزي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٧ م.
- ٣٥- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، ذوي القربى، قم، ط ١، ١٣٨١ هـ.
- ٣٦- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا، دار العلوم، ط ١، ٢٠٠٥ م.

المصادر والمراجع..... ٤٣٩

٣٧- آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة، الأدب الصغير، الأدب الكبير، الدرة اليتيمة، رسالة الصحابة، الآثار الأخرى)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٨٩م.

٣٨- آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق سليمان الحرش، دار النور، دمشق - سورية، ط٣، ٢٠٠٧م.

٣٩- أمراء البيان، محمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م.

٤٠- بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط٣، ١٩٨٣م.

٤١- البخلاء، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، علق عليه إحسان الطيبي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط٢، ٢٠٠٨م.

٤٢- البداية والنهاية، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، حققه ودقق أصوله وعلق على حواشيه علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨م.

٤٣- البديع في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة، ط١٩٧٩، ١م.

٤٤- البديع في النقد الشعر، أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ)، تحقيق د. أحمد بدوي، د. حامد عبد المجيد، مراجعة الأستاذ إبراهيم مصطفى، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ١٩٦٠م.

- ٤٤٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي
- ٤٥- البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ)، تحقيق وتعليق أحمد أمين، السيد أحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط ١، ١٩٥٣م.
- ٤٦- البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة، العلامة الدكتور عبد الرسول الغفاري، مؤسسة أنصاريان، قم - إيران، ط ١، ٢٠١٠م.
- ٤٧- البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٩٦م.
- ٤٨- البلاغة الفنية، علي الجندي، مكتبة الإنجلو المصرية، ط ١، ١٩٦٦م.
- ٤٩- بلاغة الكتاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب)، د. محمد نبيه حجاب، مكتبة الطالب الجامعي، ط ١، ١٩٨٦م.
- ٥٠- بنور فاطمة اهتديت، عبد المنعم حسن، دار المعروف، قم، ط ١، ١٩٩٨م.
- ٥١- بنية الجملة ودلالاتها البلاغية في الأدب الصغير دراسة تركيبية تطبيقية، أ.د. محمد كراكي، علم الكتاب الحديث، أربد، الأردن، ٢٠٠٨م.
- ٥٢- بيان إعجاز القرآن. حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط ٢، ١٩٦٨م.
- ٥٣- البيان في تفسير القرآن، آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي الموسوي (ت ١٤١١هـ)، دار الزهراء، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٧٥م.
- ٥٤- البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق د. درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠١٠م.

٥٥- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.

٥٦- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥م.

٥٧- تاريخ الأدب الإسلامي، د. عباس الترحمان، دار التبليغ الإسلامي، ط ١، ٢٠١١م.

٥٨- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ضبطه وخرّج نصوصه وصحّحه يوسف علي بدوي، مكتبة الصفاء، الإمارات العربية، ط ٢، ٢٠٠٨م.

٥٩- تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب الإسلامي، ميدان العلم، قم، ط ٢، ٢٠٠٨م.

٦٠- تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، د. شوقي ضيف، ذوي القربى، قم، ط ٢، ١٤٢٧هـ.

٦١- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، ذوي القربى، قم، ط ٢، ١٤٢٧هـ.

٦٢- تاريخ الأدب العربي (العصر الأموي)، د. قصي الحسيني، دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان ن ٢٠٠٢م.

٦٣- تاريخ بغداد، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٧م.

٦٤- تاريخ التمدّن الإسلامي، جرجي زيدان، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس،

دار الهلال ١٩٥٨ م.

٦٥- تاريخ الطبري (تاريخ الملوك والأمم)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، مراجعة وتصحيح لجنة من العلماء، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، د.ت.

٦٦- تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٨ م.

٦٧- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٨٣ م.

٦٨- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير، د.ت.

٦٩- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف، القاهرة، ١٩٦٣ م.

٧٠- التحرير والتنوير، الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور، دار سخنون للنشر، تونس، ١٩٩٧ م.

٧١- تحف العقول عن آل الرسول الشيخ الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع)، عني بتصحيحه علي أكبر الغفاري، مؤسسة الفكر الإسلامي، لبنان، ط ١، ٢٠٠٤ م.

٧٢- تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق محمد

البجاوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د.ت.

٧٣- التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمودن، تحقيق د.

إحسان عباس، بكر عباس، دار صادرة، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.

٧٤- تذكرة الخواص، العلامة سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ)، منشورات

الشريف الرضي، قم، ١٤١٨ هـ.

٧٥- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم

للملايين، بيروت لبنان، ط ١، ١٩٦٠ م.

٧٦- التعازي والمراثي، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦هـ)، حققه وقدم

له محمد الديباجي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦ م.

٧٧- التعاريف (التوقيف على مهمات التعاريف)، محمد عبد الرؤوف المناوي،

تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٠ هـ.

٧٨- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت ٨٢٦هـ)، حققه وعلق عليه نصر

الدين التونسي، شركة القدس، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧ م.

٧٩- تفسير القرآن العظيم، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ)،

تحقيق سامي بن محمد، دار طيبة، ط ٢، ١٩٩٩ م.

٨٠- التلخيص الخبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي

بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ)، دار الكتب العلمية،

بيروت، ط ١، ١٩٨٩ م.

٨١- التوحيد، محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت ٣٨١هـ)،

تحقيق وتعليق السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين

في حوزة قم، د.ت.

٨٢- الثقات، ابن حبان، (ت ٣٥٤هـ)، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط ١، ١٣٩٣هـ.

٨٣- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، شرح وتعليق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتاب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٧م.

٨٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ط ٢، ١٩٥٤م.

٨٥- الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، منشورات ذوي القربى، ط ٣، ١٤٢٧هـ.

٨٦- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، دار الأصبغي، الرياض، ط ١، ٢٠٠٢م.

٨٧- جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبد المطلب، الشراكة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط ١، ١٩٩٥م.

٨٨- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٨م.

٨٩- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، د.ت.

٩٠- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة أحمد زكي صفوت، المكتبة

العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٣٧ م.

٩١- حقائق التأويل في متشابه التنزيل، الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي، شرح العلامة الأستاذ محمد رضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر، بيروت - لبنان، د. ت.

٩٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٤٠٥ هـ.

٩٣- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحسين التجارية، ط ١، ١٩٤٩ م.

٩٤- الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٨٠ م.

٩٥- حياة الحسن البصري ومسيرته العلمية، د. روضة جمال الحصري، دار الكلم الطيب، دمشق، ط ١، ٢٠٠٢ م.

٩٦- خزانة الأدب، أبو بكر بن علي بن عبد الله (ت ٨٣٧ هـ)، تحقيق محمد نبيل، أصيل بديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.

٩٧- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي (ت ٤٠٦ هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٦ م.

٩٨- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، تحقيق أ. د. حمزة النشري وآخرون، ط ٢، د. ت.

٩٩- خصام ونقد، د. طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٦٣ م.

- ٤٤٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي
- ١٠٠- الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ١٠١- ذخائر العقبي، أحمد عبد الله الطبري (ت ٦٩٤هـ)، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٦هـ.
- ١٠٢- دراسات في الأدب العربي، أنعام الجندي، دار الأندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٦٧م.
- ١٠٣- دراسات في الأدب المقارن التطبيقي، د. داوود سلوم، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤م.
- ١٠٤- دراسات في النحو، صلاح الدين الزعبلوي، المعارف، القاهرة، د.ت.
- ١٠٥- دراسات في نهج البلاغة، آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وثق أصوله وحققه وعلّق عليه الأستاذ سامي الغريزي، مطبعة ستار، قم، ط ١، ٢٠٠٧م.
- ١٠٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د.ت.
- ١٠٧- دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، الإمام القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة (ت ٤٥٤هـ)، شرح محمد سعيد الرافع، مكتبة المفيد، قم، د.ت.
- ١٠٨- دفاتر عباسية في الشعر والنثر والحضارة والأعلام، د. يوسف عيد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس - لبنان، ٢٠٠٨م.
- ١٠٩- دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق د. عبد الحميد هندواوي، دار الكتاب العلمية، بيروت

- لبنان، ط ١، ٢٠٠١ م.

١١٠- ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، د. ت.

١١١- ديوان البحري، شرح وتعليق د. يحيى شامي، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥ م.

١١٢- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وقدم له الأستاذ علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ م.

١١٣- ديوان صفي الدين الحلي، شرحه وضبط نصوصه د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٧ م.

١١٤- ديوان معروف الرصافي، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٢ م.

١١٥- الراعي والرعية، توفيق العكيكي، صححه وضبط متونه سيد آباد الحسيني، مطبعة الغدير، ط ١، ١٤٢٩ هـ.

١١٦- ربيع الأبرار وفصوص الأخيار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، تحقيق طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت -

لبنان، ط ١، ٢٠٠٦ م.

١١٧- رسائل البلغاء، محمد كرد علي، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، ١٩١٢ م.

١١٨- الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، غانم جواد رضا، دار التربية، بغداد، ١٩٧٦ م.

- ٤٤٨..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي
- ١١٩- رسائل المرتضى، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ)،
تقديم السيد أحمد الحسيني، إعداد السيد مهدي الرجائي، مطبعة سيد
الشهداء، قم، ١٤٠٥هـ.
- ١٢٠- روائع البيان في خطاب الإمام، د. رمضان عبد الهادي، دار إحياء التراث
العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٢م.
- ١٢١- روائع نهج البلاغة، جورج جرداق، مركز الغدير، مطبعة باقري، ط ٢،
١٩٩٧م.
- ١٢٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب
الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، ضبطه وصححه علي عبد الباري
عطية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ٢٠٠١م.
- ١٢٣- الروض المعطار في خبر الأقطار محمد بن عبد المنعم الحميري (عاش في
النصف الثاني من القرن السابع الهجري)، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة
ناصر للثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م.
- ١٢٤- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري
(ت ٤٥٣هـ)، ضبط وشرح د. زكي مبارك، دار الجليل، بيروت - لبنان،
ط ٤، ١٩٧٢م.
- ١٢٥- سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي
الشامي (ت ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي
محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٣م.
- ١٢٦- السرقات الأدبية دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتطبيقها، د. بدوي

طبانة، مكتبة الإنجلوا مصرية، ط٤، د.ت.

١٢٧- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق

عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٨٣م.

١٢٨- السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق د. عبد

الغفار سليمان، سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١،

١٩٩١م.

١٢٩- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

(ت٧٤٨هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، حسين الأسد، مؤسسة الرسالة،

بيروت - لبنان، ط٩، ١٩٩٣م.

١٣٠- السيرة الحلبية، علي بن ابراهيم بن احمد الحلبي (ت١٠٤٤هـ)، دار المعرفة،

بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٣١- سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء، أ.د. سليمان الحضري، دار المسيرة

للنشر والتوزيع، جامعة عين شمس - القاهرة، ط٨، ٢٠٠٨م.

١٣٢- الشافي في الإمامة، علي بن الحسين الموسوي الملقب بالشريف المرتضى

(ت٤٣٦هـ)، تحقيق عبد الزهرة الخطيب، راجعه السيد فاضل الميلاني،

مؤسسة الصادق، طهران، ط٢، ١٩٨٦م.

١٣٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الفقيه الأديب أبو فلاح عبد الحي

الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د.ت.

١٣٤- شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت١٠٨١هـ)، ضبط

وتصحیح السيد علي عاشور، تعليق الميرزا أبو الحسن الشعراني ن دار

٤٥٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ٢٠٠٠، م ١.

١٣٥- شرح حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الشيخ عباس القمي، العتبة العلوية المقدسة، ٢٠١٢ م.

١٣٦- شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م.

١٣٧- شرح المائة كلمة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح العالم الرباني ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٧٩ هـ)، تقديم جلال الدين الحسيني الأرموي، مؤسسة العروة الوثقى، ط ١، ٢٠١٠ م.

١٣٨- شرح نهج البلاغة، الشيخ محمد عبده، خرّج مصادره فاتن محمد خليل اللبون، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠١ م.

١٣٩- شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ)، قدّم له وعلّق عليه الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط ٢٠٠٩، م ٣.

١٤٠- شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٩ م.

١٤١- شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٧٩ هـ)، مؤسسة الآداب الشرقية، النجف الأشرف - العراق، ط ١، ٢٠٠٩ م.

١٤٢- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ)، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، ١٩٨٨ م.

١٤٣- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، تحقيق د. علي يوسف الطويل، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٨٧م.

١٤٤- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، دار الجيل، بيروت، د. د. ت.

١٤٥- الصحيفة السجّادية الكاملة، الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) (ت ٩٥هـ)، تقديم السيد محمد باقر الصدر، دار العلوم، لبنان، ط ١، ٢٠٠٨م.

١٤٦- الصناعتين (الكتابة والشعر) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط ٢، د. ت.

١٤٧- ضحى الإسلام، أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، د. ت.

١٤٨- طبقات الفقهاء، محمد بن جلال الدين المكرم (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٧٠م.

١٤٩- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الزهري (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٦٨م.

١٥٠- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤م.

١٥١- طرائق المقال في معرفة طبقات الرجال، العلامة السيد علي أصغر بن السيد محمد البروجردي، تحقيق السيد مهدي الرجائي، تقديم آية الله العظمى المرعشي النجفي، مكتبة المرعشي، قم، ط ١، ١٤١٠هـ.

٤٥٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

١٥٢- عبد الله بن المقفع (الأدب الكبير، الأدب الصغير، رسالة الصحابة)، دراسة وتحليل، تقديم يوسف أبو حلقة، مكتبة دار البيان، بيروت - لبنان، د.ت.

١٥٣- عبد الله بن المقفع، جورج غريب، دار الثقافة، بيروت - لبنان، د.ت.

١٥٤- عبقرية الشريف الرضي، زكي مبارك، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت.

١٥٥- العبقریات الإسلامية، عباس محمود العقاد، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

١٥٦- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠٠٩م.

١٥٧- علماء في رضوان الله، محمد أمين نجف، منشورات الإمام الحسين عليه السلام، بهمن، ط٢، ٢٠٠٩م.

١٥٨- علم الأدب، الأب لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٢٦م.

١٥٩- علوم نهج البلاغة، د.محسن باقر القزويني، دار العلوم، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

١٦٠- علي إمام البررة، آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي، قدّم له آية الله العظمى علي الحسيني البهشتي، شرح السيد محمد مهدي الخرسان، دار الهادي للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٣م.

١٦١- علي سلطة الحق، عزيز السيد جاسم، تحقيق وتعليق صادق جعفر

الروازق، الغدير، قم، ط ١، ٢٠٠٠م.

١٦٢- علي كما وصف نفسه، السيد طاهر عيسى درويش، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.

١٦٣- علي من المهد إلى اللحد، العلامة السيد كاظم القزويني، مؤسسة النشر الإسلامي، بيروت.

١٦٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٧٢م.

١٦٥- عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق د. طه الحاجري، محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٩٦م.

١٦٦- عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، شرحه وضبطه ورتب فهارسه د. يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ت.

١٦٧- عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تحقيق الشيخ حسين الحسيني، دار الحديث، ط ١، ١٣٧٦هـ.

١٦٨- الغارات، إبراهيم بن محمد الكوفي (ت ٢٨٣هـ)، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، بهمن، د.ت.

١٦٩- غريب الحديث، أبو عبد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ط ١، ١٩٦٥م.

- ٤٥٤..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي
- ١٧٠- غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الأمدي التميمي (ت ٥٥٠هـ)،
تحقيق السيد مهدي الرجائي، مؤسسة الكتاب الإسلامي، مطبعة ستار،
ط ٣، ٢٠٠٨م.
- ١٧١- الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ)، دار صادر، بيروت
- لبنان، د.ت.
- ١٧٢- الفتنة الكبرى، د. طه حسين، دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٥٩م.
- ١٧٣- فجر الإسلام، احمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١،
١٩٦٩م.
- ١٧٤- فحولة الشعراء، أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦هـ)،
تحقيق ستارلس توري، دار الكتاب الجديد، ١٩٧١م.
- ١٧٥- فضائل الإمام علي عليه السلام، محمد جواد مغنية، منشورات دار ومكتبة الحياة،
بيروت، ١٩٦٢م.
- ١٧٦- فن الأدب، توفيق الحكيم، مكتبة الدب ومطبعتها، المطبعة النموذجية،
سكة الشابوري، د.ت.
- ١٧٧- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، كورنيش
النيل، القاهرة، ط ١، ١٩٧١م.
- ١٧٨- فنون الأدب، تشارلتن، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، ١٩٤٥م.
- ١٧٩- الفهرست، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق
الشيخ جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، ١٤١٧هـ.

١٨٠- الفهرست، أبو الفرج محمد إسحاق النديم (ت ٤٣٨هـ)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٩٧٨ م.

١٨١- فوات الوفيات محمد بن شاکر الکتبی (ت ٧٦٤هـ)، تحقیق علی محمد بن یعوض، عادل احمد عبد الموجود، دار الکتب العلمیة، بیروت، ط ١، ٢٠٠ م.

١٨٢- فی الأدب العباسی، د. محمد مهدي البصير، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط ٣، ١٩٧٠ م.

١٨٣- فی الأدب المقارن مقدمات للتطبيق، د. نجم عبد الله كاظم، عالم الكتاب الحديث، إربد - الأردن، ط ١، ٢٠٠٨ م.

١٨٤- فی رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، العتبة العلوية المقدسة، ٢٠١١ م.

١٨٥- فی النقد الأدبی، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢ م.

١٨٦- القاموس المحيط، القاضي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، دار العلم، بيروت - لبنان، د.ت.

١٨٧- قضايا بالحدثاء، عبد القاهر الجرجاني، د. محمد عبد المطلب، مطابع المكتب المصري، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥ م.

١٨٨- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة النهضة، بغداد، ط ٢، ١٩٦٥ م.

١٨٩- الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الکتب الإسلامیة، طهران، ط ٣، ١٣٦٧ هـ.

- ٤٥٦..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي
- ١٩٠- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، إيران، ١٤٠٩هـ.
- ١٩١- الكنى والألقاب، المحقق الشيخ عباس القمي، تقديم محمد هادي الأميني، مكتبة الصدر، طهران، د.ت.
- ١٩٢- كنز الفؤاد، أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩هـ)، الغدير، قم، ط ٢، ١٣٦٩هـ.ش.
- ١٩٣- لباب النقول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ١٩٤- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ.
- ١٩٥- لغة الشعر بين جليين، د. إبراهيم السامرائي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، ١٩٨٠م.
- ١٩٦- ما هو نهج البلاغة، العلامة السيد هبة الدين الشهرستاني، مطبعة النعمان، النجف الشرف، ط ٣، ١٤٠٠هـ.
- ١٩٧- المجازات النبوية، الشريف الرضي محمد بن الحسين (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق وشرح د. طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ١٩٨- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تحقيق لجنة من العلماء، قدّم له السيد محسن الأميني العاملي، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٥م.

١٩٩- المجموعة الكاملة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، عبد الفتاح، عبد المقصود، مؤسسة المختار، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦ م.

٢٠٠- محاضرات الأدباء ومحاورات والبلغاء، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ)، منشورات مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، د.ت.

٢٠١- المحرقة الكبرى لكتب البشرية، الفكر الإسلامي د. نجاح الطائي، دار الهدى لإحياء التراث، ط ١، ٢٠٠٩ م.

٢٠٢- مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود السيتاني، مشهد، إيران، ١٣٨١ هـ. ش.

٢٠٣- مروج الذهب ومعان الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، تقديم يوسف أسعد داغر، قم - إيران، ط ٢، ١٩٨٤ م.

٢٠٤- المسبار النقدي (دراسة في نقد النقد للأدب القديم والتناص)، أ.د. حسين جمعة، اتحاد الكتاب، دمشق، ٢٠٠٣ م.

٢٠٥- المستدرك على الصحيحين ن محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٠ م.

٢٠٦- المستطرف في كل فنٍ مستظرف، شهاب الدين محمد الأبهسي (ت ٨٥٠ هـ)، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، شركة الأرقم، د.ت.

٢٠٧- المستويات الجمالية في نهج البلاغة (دراسة في شعرية النثر)، د. نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٨ م.

٢٠٨- مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط

- وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١٩٩٩، ٢م.
- ٢٠٩- مشاكلة الناس لزمانهم، أحمد ن إسحاق اليعقوبي (ت٢٩٢هـ)، تحقيق
وليم ملورد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٦٢م.
- ٢١٠- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبو علي الفضل بن حسن الطبرسي، تحقيق
مهدي خوشمند، دار الحديث، ط١، د.ت.
- ٢١١- المشككون بنهج البلاغة والرد عليهم، علي الفتال، دار المحجة البيضاء،
بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- ٢١٢- مصادر نهج البلاغة وأسانيده، عبد الزهراء الحسيني الخطيب، مطبعة
القضاء، النجف الأشرف، ط١، ١٩٦٦م.
- ٢١٣- المصنف، عبد الرزاق الصنعاني (ت٢١١هـ)، تحقيق وتخرير حبيب الرحمن
الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، د.ت.
- ٢١٤- المصنف، عبد الله بن محمد أبي شيبة (ت٢٣٥هـ)، ضبطه وعلق عليه
الأستاذ سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
- ٢١٥- مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، محمد بن أحمد الشافعي
(ت٦٥٢هـ)، طبع بإشراف السيد عبد العزيز الطباطبائي، مؤسسة البلاغ،
لبنان، ط١، ١٩٩٩م.
- ٢١٦- المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، تحقيق د.
ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ٢١٧- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق محمد بن علي (ت٣٨١هـ)، تحقيق وتعليق
علي أكبر الغفاري، مؤسسة النثر الإسلامي، قم، ١٣٣٨هـ.ش.

المصادر والمراجع ٤٥٩.

٢١٨- معايير الحكم الجمالي في النقد الأدبي، د. منصور عبد الرحمن، المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٨١ م.

٢١٩- معجم آيات الاقتباس، حكمت فرج البدري، الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠ م.

٢٢٠- معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار المشرق، بيروت - لبنان، د.ت.

٢٢١- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٢٢٢- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٩٩٧ م.

٢٢٣- معجم رجال الحديث، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي الموسوي، طبعة منقحة ومزودة، ط ٥، ١٩٩٢ م.

٢٢٤- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم، ط ٢، ١٩٨٣ م.

٢٢٥- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

٢٢٦- معجم المؤلفين، رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د.ت.

٢٢٧- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون، مكتب الثقافة الإسلامي،

٤٦٠..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

ط ٤، ١٤١٢ هـ.

٢٢٨- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، تقديم د. إبراهيم مدكور، المكتبة العلمية، طهران، د.ت.

٢٢٩- مع المشككين في نهج البلاغة، (مناقشة الشبهات والمؤاخذات)، عادل الأسدي، مكتبة العزيزي، أميران، ٢٠٠٧ م.

٢٣٠- مع نهج البلاغة دراسة ومعجم، د. إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ١٩٨٧ م.

٢٣١- المفردات في غريب القرآن، أبو الحسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ)، دار نشر الكتاب، ط ١٤٠٤ هـ.

٢٣٢- مقامات الحريري، أبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت ٥١٠ هـ)، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، لبنان، ط ٢٠٠٥، ٤ م.

٢٣٣- من أروع ما قاله الإمام علي عليه السلام، محسن عقيل، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان، ط ٢٠٠١، ١ م.

٢٣٤- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الحافظ محمد بن سليمان الكوفي (من أعلام القرن الثالث)، تحقيق العلامة محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط ١، ١٤١٢ هـ.

٢٣٥- مناقب الخوارزمي، الموفق بن أحمد الخوارزمي (ت ٥٦٨ هـ)، تحقيق الشيخ مالك المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط ٢، د.ت.

٢٣٦- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، (ت ٥٩٧ هـ)، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر

المصادر والمراجع ٤٦١

عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ن ط ١،
١٩٩٢ م.

٢٣٧- من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، دار المعارف، مصر، ط ١،
١٩٦١ م.

٢٣٨- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، المحقق حبيب الله الهاشمي الخوئي،
تصنيف المحقق محمد باقر، تصحيح وتهذيب السيد إبراهيم الميانجي،
المطبعة الإسلامية، إيران، ط ٤، د. ت.

٢٣٩- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، قطب الدين سعيد بن هبة الله
الراوندي (ت ٥٧٤ هـ)، تحقيق السيد عبد اللطيف الكوهكمري، نشر
مكتبة آية الله المرعشي، قم، ١٤٠٦ هـ.

٢٤٠- موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ،
محمد الريشهري، بمساعدة السيدين محمد كاظم الطباطبائي، ومحمود
الطباطبائي، تحقيق مركز بحوث دار الحديث، دار الحديث للطباعة
والنشر، قم، ط ٢، ١٤٢٥ هـ.

٢٤١- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)،
تحقيق محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د. ت.

٢٤٢- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، دار الحديث، قم، ط ١، ١٤١٦ هـ.

٢٤٣- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة
الأعلمي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٧ م.

٢٤٤- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، د. زكي مبارك، المكتبة العصرية

٤٦٢..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي

للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ٢٠٠٦م.

٢٤٥- نشأة التشيع والشيعة، الأستاذ السيد طالب الخرسان، منشورات الشريف الرضي، ط١، ١٩٩١م.

٢٤٦- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف كلية الآداب جامعة الأسكندرية، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٤٧- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، أحمد سيد محمد عمار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.

٢٤٨- النظرية النقدية عند العرب، د. هند حسين طه، دار الرشيد، الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.

٢٤٩- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ)، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة، كوستاستوماس، القاهرة، د.ت.

٢٥٠- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد (ت٦٠٦هـ)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٥١- نهج البلاغة، جمعة الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي (ت٤٠٦هـ)، مؤسسة أنصاريان، إيران، ط٤، ٢٠٠٦م.

٢٥٢- نهج البلاغة لمن، الشيخ محمد حسن آل ياسين، المكتبة العالمية، بيروت، ط٤، ١٩٧٨م.

٢٥٣- نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، محمد باقر المحمودي، مطبعة

النعمان، النجف الأشرف، ط ١، ١٩٦٥ م.

٢٥٤- نوادر وقصص من شرح نهج البلاغة، عبد الرسول زين العابدين، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٨ م.

٢٥٥- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد بن عفيفي الخضري، تحقيق هيثم هلال، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٤ م.

٢٥٦- هوية التشيع، الشيخ د. أحمد الوائلي، دار الصفوة، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٩٩٤ م.

٢٥٧- الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن أبيك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار التراث، بيروت، ٢٠٠٠ م.

٢٥٨- الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦ م.

٢٥٩- وعاظ السلاطين، د. علي الوردي، دار دجلة والفرات، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٩ م.

٢٦٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١ م.

٢٦١- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، شرح وتحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العالمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٣ م.

الأطاريح والرسائل

- ١- ابن المقفع (حياته آثاره)، دلا را سينغ سندها، رسالة لنيل شهادة أستاذ في العلوم، كلية العلوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٥٦ م.
- ٢- أبو العلاء المعري والشعر العربي في الأندلس (دراسة تحليلية في التأثير والتأثر) علي كاظم محمد علي المصلاوي، اطروحة دكتوراه، كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد، ٢٠٠٦ م.
- ٣- أدب ابن المقفع بين ناقيده قديماً وحديثاً (تحليل وموازنة) أكرم علي عنبر، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة المستنصرية، ٢٠٠٤ م.
- ٤- أدب عبد الله بن المقفع دراسة أسلوية، عبد الحسين عبد الرضا العمري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، ٢٠٠٤ م.
- ٥- أثر الأدب النبوي في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، فؤاد جميل وهيب المجمععي، اطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٧ م.
- ٦- الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة، هادي شندوخ حميد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٨ م.
- ٧- التأثير والتأثر في النص النقدي العربي إلى آخر القرن السابع الهجري، أنوار سعيد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٦ م.
- ٨- التناص في شعر أحمد مطر، عبد المنعم جبار عبيد، أطروحة دكتوراه، كلية التربية - ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠٩ م.

- ٩- التناص في الشعر الأندلسي في عهد دولة بني الأحمر (٦٥٠ - ٨٩٨هـ)، أسراء عبد الرضا، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٦م.
- ١٠- حكم الإمام علي عليه السلام ومواعظه، تحقيق من شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري، قاسم خلف مشاري السكيني، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، ٢٠٠٨م.
- ١١- الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته (دراسة تحليلية)، عبد الحسين عبد الرضا العمري، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٨م.
- ١٢- الإغتراب عند الإمام علي عليه السلام من خلال نهج البلاغة، محمد مشعالة داخلي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحج خضر، باتنة، ٢٠٠٩م.
- ١٣- الخطاب في نهج البلاغة دراسات موضوعية فنية، إيمان عبد الحسين علي، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٨م.
- ١٤- مصطلحات السرقة الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن السابع الهجري، سندس محسن العبودي، رسالة ماجستير، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ١٩٩٦م.
- ١٥- النثر عند الحسن البصري، سلافة صائب خضير العزاوي، رسالة ماجستير، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ١٩٩٤م.
- ١٦- نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي، نعمة دهش فرحان الطائي، أطروحة دكتوراه، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ٢٠١١م.

المجلات

- ١- سجع أم فواصل، د. أحمد الحوفي، مجلة اللغة العربية بالقاهرة، ع٢٧، س١٩٧١م.
- ٢- ما قيل في نهج البلاغة، عبد العزيز الطباطبائي، مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ع١٤١٤، ١هـ.



المحتويات

المحتويات

٧ المقدمة
١٥ التمهيد: مفهوم الأثر و.....
الفصل الأول	
كلام الإمام علي عليه السلام من حيث التوثيق والتأثير	
٢٩ المبحث الأول: نظرة توثيقية.....
٢٩ أولاً: جمعه المبكر و.....
٤٠ ثانياً: التشكيكات فيه.....
٤٤ الوقفة الأولى: مع المشككين.....
٥٣ الوقفة الثانية: مع شبهة الطول.....

٦١ الوقفة الثالثة: شبهة الصيغ الفلسفية
٦٩ الوقفة الرابعة: شبهة السجع
٧٥ المبحث الثاني: إضاءة تمهيدية
٧٧ أولاً: الجانب الوراثي
٧٩ ثانياً: الأثر النبوي
٨٢ ثالثاً: الأثر القرآني
٨٧ رابعاً: الشمولية في كلامه
٩٠ خامساً: الإلهام الغيبي و
٩٥ سادساً: هضمه لتراث العرب
٩٨ سابعاً: سداد الرأي و
١٠٤ ثامناً: المحن التي

الفصل الثاني

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نثر الحسن البصري

١١٩ توطئة
١٢٧ المبحث الأول: في خطب الحسن
١٥٥ المبحث الثاني: في رسائل الحسن
١٨٩ المبحث الثالث: أثر خطبة المتقين

٢١٥	المبحث الرابع: في مواعظ و
٢١٦	أولاً: التضمين
٢٢١	ثانياً: البسط والزيادة
٢٣٤	ثالثاً: الإيجاز
٢٤١	رابعاً: العكس

الفصل الثالث

أثر كلام الإمام علي (عليه السلام) في نشر ابن المقفع

٢٥١	توطئة
٢٦٥	المبحث الأول: في رسالة الأدب الكبير
٢٦٦	أولاً: التضمين
٢٨٧	ثانياً: التلفيق
٣٠٤	ثالثاً: البسط
٣٣٠	رابعاً: الإيجاز
٢٣٥	المبحث الثاني: في رسالة الأدب الصغير
٢٣٨	أولاً: التضمين
٢٤٢	ثانياً: التلفيق
٢٥٧	ثالثاً: البسط

٣٦٨ رابعًا: الإيجاز
٣٧٥ المبحث الثالث: في رسالتي الصحابة
٢٧٥ أولاً: أثره في رسالة الصحابة
٣٩٣ ثانياً: أثره في رسالة الدرة اليتيمة
٤٠٠ ثالثاً: في رسائل أدبية أخرى
٤٠٧ المبحث الرابع: تكرار ابن المقفع
٤٢٣ الخاتمة النتائج
٤٣٥ المصادر والمراجع
٤٦٩ المحتويات